رحلة

د. مصطفى محمود

من الدهرية إلى الجهمية والزندقة !

أبو الفداء ابن مسعود



رحلة

الدكتور مصطفى محمود

من الدهرية

إلى الجهمية والزندقة!

أبو الفداء ابن مسعود

إقناع

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله،

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)) [آل عمران : ١٠٢]

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء : ١]

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)) [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أما بعد، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يبتلي أتباع كل نبي في كل أمة من الأمم بفئة يقع في قلوبها من الهوى ما يجعلها تعظم من يعاصرونهم من الفلاسفة المتبوعين غاية التعظيم، وتتناول كلامهم (حقه وباطله على السواء) وكأنما هو كلام الأنبياء بل الوحي المنزل من السماء! فإذا اتفق الفلاسفة والنظار على نظرية ما، وصارت هي "العلم" المبثوث في محافلهم وأكاديمياتهم، وصار تلقيها عنهم في مدارسهم ومعاهدهم وأكاديمياتهم

معيارا للحكم على الناس بالكمال والنقص، بحيث لا يكمل العقل والعلم إلا فيمن تتلمذ عليهم فيها، إذا وقع ذلك لنظرية من النظريات، صارت تلك النظرية عند تلك الفئة المفتونة الممروضة حقا قطعيا لا محالة، بصرف النظر عن موضوعها! وصار اعتناقها واجبا على كل مكلف عندهم، بل من مقتضيات العقل نفسه، والرد عليها أو المنازعة فيها من علامات الجهل والتخلف وما شئت من مستحقرات الخصال! فإذا ما سمع الواحد من أولئك المفتونين من مشكاة النبوة ما يصادم تلك النظرية أو يخالفها، بل إذا جاءه من كلام أولئك الفلاسفة ما يوحي ولو من بعيد ببطلان شيء مما تلقاه أتباع المرسلين عن رسولهم، أبت عليه نفسه المريضة إلا أن يحاكم الميراث النبوي لتلك النظرية المعظمة لديه أو لكلام أولئك الفلاسفة المعظمين، لا أن يعرض تلك النظرية على الكتاب والسنة بفهم أصحاب النبي عليه السلام، فإن وافقت قبلها وإلا جعلها تحت قدميه ولا كرامة، كما هو شأن كل مؤمن عاقل يعي أن إيمانه برسالة الرسول إنما يقتضي رفع كلامه فوق كل كلام، وتقديم خبره فوق كل خبر، لأنه ليس في الخلق من هو أعلم من خالقهم جل وعلا ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير))!

هذا المرض القلبي، أو تلك الفتنة الغائرة بكلام الفلاسفة والنظار المقدمين المعظمين في كل عصر، هي أصل ومنبت علم الكلام في كل أمة من الأمم. فلما افتتن أهل الكتاب من قبلنا ببضاعة فلاسفة اليونان، ظهر عندهم علم اللاهوت وما تفرع عليه، وكذلك وقع عندنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فاللاهوتي أو المتكلم توهمه نفسه المريضة بأنه يريد الانتصار للحق الذي معه وإفحام الفيلسوف الجاحد المسفسط، ولكنه في واقع الأمر إنما يريد أن يبرز عليه ويظهر عليه في المناظرة بنفس بضاعته، حتى يحمل الناس على رفعه إلى منزلته في تلك البضاعة نفسها التي كانت سببا في تعظيم العامة له وتقديمهم إياه في العقل والعلم! فهو يحب أن يصير إماما متبوعا في أهل دينه، ويحب كذلك أن يصير رأسا محترما معظما عند أولئك الفلاسفة المعظمين أنفسهم وعند أتباعهم، فكيف يحصل له ذلك إن لم يتخذ من بضاعة الفلاسفة التي عظمها هو وأمثاله من أهل ذاك الهوى، طريقا لمناظرة الفلاسفة وإثبات صحة دين التوحيد نفسه كما يطلبون وكما يشترطون؟

فإن اشتد ذلك المرض القلبي لديه حتى أفقده الحرص على البقاء على دينه، وحتى أصبح تعظيم أولئك الفلاسفة عنده هو غاية المرام ومنتهى المراد، فلا يبالي بما يظنه به أهل الملة ولا بما يصير إليه حالهم معه، وإنما يعنيه ما يحرزه من منزلة بين أولئك الفلاسفة وأتباعهم وحسب، إذا نزل إلى ذاك الدرك وبلغ ذاك المبلغ، فإنك تراه ينسلخ من دينه انسلاخا، متخذا من بضاعة أولئك الفلاسفة ذريعة وغطاء، كما اتخذها أرباب الإلحاد والدهرية من أولئك الفلاسفة من قبل سواء بسواء! وإذا به يتقيأ ما شربه من قيحهم وصديدهم في كل مناسبة، يزعم به أنه قد وقف على أسباب "عقلية" و"منطقية" للتشكيك في صحة دين الإسلام، بل في وجود البارى نفسه جل في علاه! وإذا به يصارع نفسه التي بين جوانحه لا بحثا عن الحق كما يدعي، لأن الحق

واضح جلي فطري صارخ في نفس كل عاقل، وإنما يصارع نفسه لتجاذب الميول والأهواء فيها أشد التجاذب! فهو من هواه يحب تعظيم الفلاسفة وأتباعهم له ورفعهم إياه فيما بينهم، ويطمع في ذلك أشد الطمع! ولكنه إذا ما نظر إلى حال نفسه، فلعله يجدها أحقر وأضعف من أن تأتي ببضاعة ترقى لمنافسة أولئك المعظمين في المعاهد والأكاديميات والعلو عليهم كما يشتهي! بل ولعلها أن تكون أحقر من أن يلتفتوا إليها أصلا! ومع ذلك، فإنه يجد نفسه – وقد أعلن إلحاده وردته – محاربا منبوذا مكروها بين أقرب الناس إليه، فمن كانوا بالأمس إخوة وأصدقاء وأولياء، يصبح عندهم اليوم عدوا من الأعداء!

هذه الفتنة، فتنة ما تجده النفس من كراهة تغير أحوال الناس معها (لا سيما أهل القربى منهم) تبعا لتغير ما يظهر لهم من حالها وعملها، هي خصلة نفسية طبعية قد ابتلى الله بها كافة البشر بلا استثناء! فعند المؤمن، يكون الابتلاء بها في الرياء والسمعة! فإذا كره أحدهم أن يترك صلاة الجماعة أو أن يتخلف عنها لكراهته أن يظن الناس به سوءا، فقد دخل إلى قلبه الرياء، وقد سماه النبي عليه السلام بالشرك الخفي لأنه لا ينتبه إليه إلا مراقب محسن متفحص في حال نفسه، نسأل الله أن نكون من المحسنين! ولا شك أن تغير حال الإنسان في مثل هذا الذي ذكرنا، لا يجلب عليه من تغير مواقف الناس (لا سيما المقربين منهم إليه) ما يجلبه تغيره فيما هو أعظم، كتحوله من مذهب إلى مذهب، أو من فرقة إلى فرقة! فكيف إذا أعلن انتقاله عن الملة بالكلية؟ هذا

ولا شك يجلب عليه من تغير أحوال الناس ما لا نظير له من أسباب التغير فيما يعرفه البشر، لا سيما إن كان يعيش بين أناس يعظم عندهم أمر الدين كما لا يعظم عند غيرهم!

فإذا غلب نوع الهوى المذكور آنفا (محبة العلو بين الفلاسفة المعظمين وأتباعهم) على قلب ذاك المريض إلى حدّ أصبح لا يرجو معه إلا التقرب لهؤلاء والتزلف إليهم ومنافستهم في بضاعتهم، فإن نفسه إذن تنازعه على إحدى خصلتين: إما أن يخفي كفره وإلحاده ويظل متظاهرا بالدين حتى لا يرجع عليه من أثر تغير أحوال الناس من حوله ما يشتد على نفسه ولا يطيقه، وإما أن يجاهر بردته وإلحاده ويفصح عنهما علنا، فلا يبالي بما يظنه به أهل الملة ولا يعبأ بما يكون من أحوالهم بإزائه! فهذه منازعة بين محبوب ومحبوب، ومكروه ومكروه، وليست منازلة بين أدلة وبراهين كما يزعمون! فإن كانت الأولى، أي إن عظم لديه الخوف من أثر المجاهرة بالردة والدهرية بين الناس، كان سعيه في دينه بالتحريف والتبديل حتى يحظى بتعظيم أولئك الفلاسفة مع بقائه – في نفس الوقت - منسوبا إلى الملة غير مبعَد أو مصدود عن أهلها! وإن كانت الثانية، أي إن تضاءل لديه ذلك الخوف وغلب الطمع فيما عند الفلاسفة عليه، أعلن ردته وإلحاده وأظهر انخلاعه من الدين ولم يبال! ولكنه – ومع ذلك – يكون على جزع لا ينقطع، لا من خوفه من أثر مفارقة المقربين إليه وانقلابهم عليه وحسب، ولكن مما هو أعظم وأشد، وهو مغروس في فطرته مهما تكلفت نفسه السبل لدفنه وإخفائه وإنكاره، ألا وهو الخوف من العاقبة

الأخروية: مما يلقاه بعد الموت! فالصراع إذن يكون صراعا بين خوف شديد بل رعب بالغ (ظاهر وباطن) وطمع عظيم في أغوار تلك النفس المريضة، لا صراع شبهة ودليل في ذهن باحث أو ناظر يتقلب بين حجج تقنعه وحجج لا يقتنع بها، كما يتوهمه كثير ممن يتصدرون لمعالجة المبتلين بذاك المرض العضال! أتحسب أيها القارئ الكريم أن الملاحدة الدهرية لا يعلمون سفاهة وسخافة ما هم عليه؟ لا وربي بل يعلمون! ولقد قال جل وعلا فيمن كان شركهم وكفرهم أهون وأخف من كفر الدهرية: ((وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)) [النمل : ١٤] فآل فرعون كانوا يعلمون أن فرعون ليس هو ربهم وخالقهم، وهو علم فطري بدهي لا يحتاج إلى تعليم ولا يرد عليه الخفاء! فإن زعموا أنهم يحتاجون إلى ما يثبت لهم أن فرعون ليس هو خالق السماوات والأرض فقد كذبوا على أنفسهم وعلى غيرهم من الناس! وإنما أرسل الله تعالى إليهم بالآيات والبينات لتقوم عليهم الحجة الرسالية، وليؤمن منهم من كانت نفسه قابلة للإيمان، ويكفر من كان مكتوبا من قبل في علم الرب جل وعلا من أهل النار، ((لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)) الآية [النساء : ١٦٥]! فما الذي منعهم أن يؤمنوا وقد علموا أنهم على باطل واضح جلي؟ الظلم والعلو والكبر، نسأل الله السلامة! فهم من كبرهم أبت عليهم نفوسهم أن ينزلوا عما هم عليه من سيادة بين الناس ليصبحوا تبعا لرجل يدعوهم إلى عبودية يكرهونها وينفرون منها ولا يتصورون أنفسهم خضوعا لها! فلما كرهوا الحال التي علموا

أنهم ينتقلون إليها إن قبلوا الحق وتركوا الباطل، كرهوا الحق وأهله وأصروا على الباطل محبة لأهله وتعلقا بما يحبون في ذلك، فأخذوا في مدافعة الحق بكل طريق! فإن كانوا يحبون السيادة بين الفلاسفة وأضرابهم، ويكرهون التخلف عن ذلك والزوال عنه، أصبح لزاما عليهم أن يقبلوا ما علموا في باطن نفوسهم أنه باطل محض، وأنه شقشقة واهية وتنطع ساقط بأقيسة لا وجه لها أصلا، لنفي أمور هي في أذهان العقلاء من جملة البدهيات الجلية التي يشهد بها الصبية الصغار قبل الكبار! وإذا بهم يعملون على إيهام أنفسهم قبل غيرهم بأنهم في ذلك على شيء ذي بال!

فإنما تصبح الشبهات الفلسفية والتلبيسات اللفظية من جملة الحيل والذرائع التي يتفاوت حظ هؤلاء المرضى منها ما بين مستقل ومستكثر، كطريق لتحصيل ما يطمعون فيه من استرضاء الفلاسفة وأئمة الضلالة أولا، ومن اتقاء بطش أهل الملة التي فارقوها ثانيا! إذ كلما اتهموا على العقل والنفس معا، قابلوا التهمة بادعاء الشبهة وادعاء الخفاء، والزعم بأن الأمر يحتاج إلى بحث طويل ونظر ثقيل وفيه من البراهين والبراهين المقابلة ما تفنى الأعمار في دراسته وبحثه دون أن تصل إلى شيء! وإذن فلا يحق لأحد أن يتهمهم فضلا عن أن يحكم عليهم بالحد الشرعي الذي استحقوه في دين الله تعالى، لأنهم – كما يزعمون – "بحاثون عن الحقيقة"، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

هذه النفس المريضة، تظل في تلك الحالة المزرية، في صراع الميول والأهواء، حتى يقضي الله فيها أمرا، فإما أن تنتقل إلى بلاد لا تجد فيها من الدهرية والإلحاد إلا كل ما تحب وتشتهي، وإذن فأغلب الظن أنها لا تهلك إلا على الدهرية، مغرقة فيها غاية الإغراق، مع تضاؤل الأصوات الباطنة الداعية فيها إلى الرجوع للحق وإلى موافقة الفطرة والبداهة الظاهرة من غلبة المحبوبات والمشهيات عليها، وإما أن تبقى في بلد يشتد فيها تضييق أهل الملة ويشتد فيها داعي الرجوع إلى الفطرة، فلا تمر ليلة إلا وهو يسمع ذلك الداعي من باطن نفسه، مع ما يجد من ألم الإغراق في الشهوات والمبالغة في مفارقة سبيل المؤمنين، وما يجد مع ذلك من ازدراء المقربين إليه ممن كانوا من قبل يحبونه ويوادونه، مع شعوره بعدم اكتراث الفلاسفة به وعدم التفاتهم إليه كما كان يطمع، وعجزه عن منافستهم في بضاعتهم والعلو عليهم فيها كما كان يشتهي، فإذا به يقرر إعلان الرجوع إلى الملة! ولكنه لا يرجع إليها رجوعا خالصا صافيا، فيكون فيها على سبيل المؤمنين! وإنما يرجع إليها على شرط نفسه المريضة، فيصطنع لنفسه مذهبا في تأويل النصوص وفهم الدين يناسب ما طفح به قلبه من تلكم الأهواء، فإن لم يحظ بما كان يطمع فيه من تعظيم فلاسفة الدهرية الغربيين والطبيعيين المعظمين في معاهد الغرب وأكاديمياتهم الكبرى، فلعله ينال تعظيم أذنابهم من العقلانيين والمتفلسفة من بني الجلدة، الذين تفننوا من قبل في إعادة تشكيل الدين وخرطه على المزاج والهوى، مصطنعين بذلك مذاهب بدعية تواترتها الفرق

والطوائف عبر القرون! فلا يرجع ذاك الغوي إلى الملة إلا على جهمية أو اعتزال أو ما قاربهما من مذاهب الناس، لا سيما إن كان يجد في نفسه من القدرة على التأليف والتصنيف ما كان يرجو به من قبل أن يكون رأسا مقدما في أكابر فلاسفة الغربيين الذين تعاظموا في نفسه غاية التعاظم!

وهذا ما وقع للدكتور "مصطفى محمود"، صاحب كتاب "رحلتي من الشك إلى اليقين". فقد بلغ المرض في نفسه حدا قذف به في أوحال الإلحاد والدهرية أولا، وكان يرجو فيما يرجو (بطبيعة الحال) أن يصبح بإلحاده رأسا من رؤوس الفلسفة الطبيعية المعاصرة، يوقر ويحترم فيها كتوقير واحترام كبرائها في تلك المعاهد والأكاديميات! فلما وجد الطريق إلى ذلك منقطعا في حقه، وعظم على نفسه ما وجد من أثر بغض الناس من حوله ونفورهم عنه، لم يجد إلا الرجوع إلى الإسلام! ولكن من أي باب رجع إذ رجع؟ من باب الاعتزال والتجهم ولا حول ولا قوة إلا بالله! لماذا؟ لأنها تلك الطريقة الفلسفية المنسوبة إلى الإسلام، التي يجد فيها أمثاله متسعا للظهور على أقرانهم من أهل الملة بما يكتبون وما ينشرون في تلك المجالات النظرية التي ملكت عليهم أركان نفوسهم وتشبعت بها قلوبهم! فإذا كان قد عجز عن تقديم الجديد الذي به يعلو على أهل تلك الصناعات من الملاحدة الطبيعيين ونحوهم، فلعله يأتي فيها بشيء يعلو به على أهل نحلته وبني جلدته ويحظى - في ذات الوقت - ولو بشيء من احترام النظار الكبار في كبرى الأكاديميات العلمية المشتغلة بها في بلاده وغيرها! وهل يطمع المتكلم في أكثر من أن يجتمع له احترام وتعظيم

أهل ملته واحترام الفلاسفة الأكاديميين الكبار في نفس الوقت؟ فلتضرب البراهين والحجج إذن أشكالا وألوانا، ولتنشر الكتب والمحاضرات ولتعقد المحاورات والمناظرات في كل مناسبة!

ففي هذا الكتاب، أتتبع مع القارئ الكريم وصف الدكتور لرحلته مما سماه بالشك إلى ما سماه باليقين تتبع المحلل النفسي، رجاء أن أكشف حقيقة ما يعتمل في نفوس من ابتلوا بذلك المرض القلبي العضال، وحتى يتبين للدعاة إلى الله جل وعلا أن الإلحاد والتجهم قرينان متلازمان، وأنهما يرجعان إلى خلل نفسي وقلبي عظيم (ألا وهو حب الرياسة والتصدر وكراهية الاتباع والانقياد)، يجب عليهم أن يعالجوه بالحكمة والموعظة الحسنة البليغة كما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وكما كان نهج السلف رضوان الله عليهم! وحتى يرى القارئ العامي ضرورة تربية الأولاد على السنة وعلى عقيدة ومنهج أهل السنة من نعومة الأظفار، وضرورة صيانة عموم المسلمين من داء الفتنة بالفلسفة والفلاسفة، التي هي أسرع طريق إلى الدهرية والإلحاد وما دون ذلك من بدع الاعتقاد، إذ والله لا تصح قاعدة "الوقاية خير من العلاج" في شيء كما تصح في هذه القضية، لأن تلك الأهواء وذاك المرض الخبيث إذا ما قبض على قلب الرجل وضرب في عروقه، كان ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، فلا يترك منه مفصلا ولا عرقا إلا دخله، وإذن فلا يموت إلا على ضلالة، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فالآن أوان الشروع بالمقصود، والله الموفق لما يحب ويرضى.

رحلته من الزهو بالعقل إلى زهو آخر بالعقل أيضا!

تحت باب بعنوان "الله"، قال الدكتور:

"كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره .. ربما كنت أدرج من الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة وربما قبل ذلك .. في مطالع المراهقة .. حينما بدأت أتساءل في تمرد:

- تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لابد لكل مخلوق من خالق، ولابد لكل صنعة من صناع ولابد لكل موجود من موجد .. صدقنا وآمنا .. فلتقولوا لي إذن من خلق الله .. أم أنه جاء بذاته .. فإذا كان قد جاء بذاته وصح في تصوركم أنه يتم هذا الأمر .. فلماذا لا يصح في تصوركم أيضا أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهي الإشكال .

كنت أقول هذا فتصفر من حولي الوجوه وتنطلق الألسن تمطرني باللعنات وتنساق إلى اللكمات عن يمين وشمال .. ويستغفر لي أصحاب القلوب التقية ويطلبون لي الهدى .. ويتبرأ مني المتزمتون ويجتمع حولي المتمردون .. فنغرق معا في جدل لا ينتهي إلا ليبدأ ولا يبدأ إلا ليسترسل. وتغيب عني تلك الأيام الحقيقة الأولى وراء ذلك الجدل. إن زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التي

انفردت بها .. كان هو الحافز دائما .. وكان هو المشجع .. وكان هو الدافع .. وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب.

انتهى.

قلت: تأمل كيف يظهر في كلام الدكتور في هذه المقدمة اعتراف وشكوى. فأما الاعتراف فهو يصرح بأن إلحاده كان ثمرة لزهوه بعقله وبقدرته على تشقيق الحجج وزخرفة البراهين وبناء الكلام، وهي آفة كل فيلسوف! ولكن واقع الأمر أن تلك المهارة في مجردها ليست هي سبب الإلحاد، فإن القدرة والملكة العقلية تكون تابعة لهوى صاحبها، فإن كان هواه على الحق، قضى الله بتلك القدرة لصاحبها وللناس خيرا كثيرا، فصيره إمام هداية وسنة، ورأسا في الانتصار لدينه جل وعلا (بالحق وعلى طرائق أهل السنة لا بطرائق الجهمية وأهل الكلام)، وإن كان هواه وميله لخلاف ذلك، كأن يكون قلبه متشبعا بحب الفلاسفة المعظمين في الأكاديميات والمعاهد الكبرى وحب بضاعتهم الباطلة التي علوا بها على الناس من قبل، فلا تكون قدرته إلا وبالا عليه وفتنة للناس من حوله، لأن أقل ما يكون من شره أن يصير بوقا من أبواقهم، يزين لهم تلك الزبالة التي ضلوا بها وأضلوا كثيرا من الناس، وكلما ازدادت قوة عقله ونبوغه، مع تعاظم الهوى الممرض في نفسه، كان عرضة لأن يجعله الله رأسا من رؤوس الباطل وإمام ضلالة ممن يسرى أثرهم وإفسادهم في الأرض لأجيال متعاقبة، نسأل الله السلامة والعافية! ولهذا كان من فقه

سلفنا رضي اللّٰه عنهم ومن رجاحة عقولهم أن قال قائلهم: لأن أكون ذنبا في الحق خير لي من أن أكون رأسا في الباطل!

ولا شك أن الاغترار بالعقل وقوته ونبوغه يورث الإنسان ذلك الهوى الممرض: حب الظهور به على الأقران والعلو به على الفلاسفة المعظمين في تلك الأضرب التي يثني العامة على أصحابها بقوة العقل وعمق النظر! فكأن الدكتور يشير إلى وقوع ذلك الهوى في نفسه وتمكنه منه، لكنه لم يصرح كما ترى. والمشكلة أنه لم يبرأ من ذلك الهوى تمام البراءة، فلم يرجع إلى الإسلام إلا على ما يوافق كثيرا من قناعاته الفلسفية التي تشرب بها في إلحاده، وقد كانت تلك الموافقة هي طريقه لتحقيق ما سماه "باليقين" كما سيأتي بيان ذلك من كلامه في هذا الكتاب نفسه، واللّٰه المستعان.

فهذا الاعتراف، وأما الشكوى فكأنه يشكو من رد فعل الناس من حوله بإزاء ما سماه هو نفسه "بالتمرد"! كأنما يقول في استغراب: كنت أقول للمسلمين إن ربكم لا وجود له، أو هو "فرضية زائدة" يمكن إسقاطها بلا تناقض، فيأتيني منهم السخط والغضب والاعتراض وكذا وكذا، وياللعجب! آتيهم "ببرهان عقلي" فلا أقابل "بالرد العقلي" ولكن أقابل بما سوى ذلك من التحقير والاستهجان والبطش، فياللحسرة! فهذا – أيها القارئ الكريم – مما يدلك على افتتانه بتلك الطريقة التي تشبع بها في إلحاده حتى بعد خروجه منه، وحرصه على اشتراطها على من "يحاورهم" في كل مناسبة أن يلتزموها في الجواب! فإن جاءهم

ببرهان فلسفي على عدم وجود الله، فعليهم إلى جانب إبطال برهانه، أن يأتوه هم أيضا ببرهان "كلامي" على وجوده، وإلا لم يقبل منهم كلامهم! مع أنه يعترف في نفس الفقرة بأنه من فرط اغتراره بعقله كان يغرق في جدال يصرفه عن الاعتراف بما سماه بالحقيقة الأولى، وإنما يحدوه فيه إعجابه بنفسه وبقدرته على شقشقة الحجج والبراهين السوفسطائية أشكالا وألوانا!

قال الدكتور: "لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت في عبادة نفسي وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي وبداية الصحوة في مهد الطفولة" اهـ.

قلت: ليست هي – إذن – ومضة نور يا دكتور، تلك التي انقدحت في فكرك، وإنما هي جمرة نار من قاع جهنم قذفت في نفسك، نسأل الله السلامة!
ولكن كما ترى، لا يزال منهج التفكير الفلسفي نفسه وطريقة النظر في هذه القضية معدودا عند الدكتور من نور الفكر وانفتاح الوعي وصحوة الذهن .. إلخ، حتى بعد رجوعه من الإلحاد، وإنما يرى أنه أساء استعمالها لا غير! وهذا هو أصل الداء الذي رام المتجهمة أن يجعلوه هو نفسه دواء وشفاء وطريقا لتحقيق اليقين، والله المستعان! كثيرا ما نسمع من يقول: "ليست المشكلة في أن تسأل، ولكن المشكلة أن تسأل فلا تجد من يجيبك"! ونحن نقول إن في هذا إطلاقا غير محمود! بل إن من السؤال أحيانا ما يكون مشكلة وفسادا، بل علامة مرض خطير إذا ترسل معه الإنسان ولم يدفعه عن نفسه! ومن تلك

الأسئلة الفاسدة الممرضة، ذلك السؤال نفسه الذي عزاه الدكتور إلى "ومضة النور" في نفسه، وهو السؤال الذي حذر منه رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وأمر المسلمين بالاستعاذة باللّٰه من الشيطان إن وقع في نفوسهم، ألا وهو السؤال: فمن خلق اللّٰه؟ لم يضع النبي لهم برهانا كلاميا ولا جوابا فلسفيا وإنما دلهم على علاج يذهب ذلك المرض من النفوس لو تدبره المسلم حق تدبره، وعمل به بحقه!

فإنه ليس كل ما يطرأ على ذهن الإنسان من سؤال يكون معقولا أو مقبولا من أصل الطرح نفسه، فضلا عن أن يكون مما يعاب أن يقابل صاحبه بالوعظ أو الزجر أو الدعاء له أو الإشفاق عليه لمجرد أنه طرحه، كما كره ذلك الدكتور ممن قابلوه به! إن الذي تزين له نفسه أن يطرح السؤال "من الذي خلق اللّٰه"، ثم ترسل معه حتى جعله على الصورة: فإذا كان اللّٰه غير مخلوق فلماذا لا يكون العالم نفسه غير مخلوق؟ هذا ليس صاحب ومضة نور، وإنما هو صاحب هوى يوشك أن يفتك بدينه، نسأل اللّٰه السلامة! ذلك أن العقلاء يجدون في فطرهم وبداهة عقولهم أن ربهم الذي خلق كل شيء ليس بمخلوق، وأنما هو أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء، لأن الابتداء والانتهاء من لوازم المخلوقين، فلو لم يكن ثمة خالق غير مخلوق فيما وراء هذا العالم بأسره، مغاير له مباين له مخالف له في حقيقته وكيفيته بالضرورة، لو لم يوجد ذلك الخالق الصمد القيوم القائم بنفسه المقيم لغيره، لما وجد شيء مخلوق أصلا، لا هذا العالم ولا غيره! فلا يحتاج العاقل إلى من يبين له هذا المعنى ويشرحه

له، وإنما يجده في نفسه مركوزا في فطرته، فإذا ما سمع من نصوص الوحي ما يصدقه جزم بأنه الحق لا محالة، وأن الحق لا يكون في غيره، ولم يفتقر في ذلك المعنى إلى برهان سابق عليه حتى يثبته! لذا نقول إن من جاء يسأل عن برهان يثبت به عدم مخلوقية الباري ، أو وجوب وجوده أو حدوث العالم أو هذه الأشياء، مدعيا أنه لا يجد في نفسه علما سابقا بتلك الحقيقة (التي سماها الدكتور نفسه بالحقيقة الأولى) فهذا يحتاج إلى خطاب وعظ وعلاج ومناصحة لا خطاب محاججة وبرهان واستدلال وكلام! هذا يحتاج إلى أن يُعوذ من الشيطان تعويذا، لا إلى أن يزيده الداعية إلى الله غرقا فيما هو مفتون به أصلا من بضاعة أهل السفسطة والتنطع والضلال المبين!

ولهذا فإننا نقول للآباء والأمهات: لو سألكما ولدكما في يوم من الأيام: من الذي خلق الله، فلا تجيباه ببرهان امتناع التسلسل، ولا بشيء من مثل ذلك، وإنما أجيباه بأن هذا سؤال غلط، وأنه غلط بين، كمثل سؤال السائل: لماذا كانت الواحد نصف الاثنين وليس ضعفها؟ وأنما زينه له الشيطان وزين له الترسل معه ليستدرجه به إلى ما هو أفسد منه، فعليه أن يستعيذ بالله منه كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم! ذلك أن الإنسان يعلم أن ربه أزلي أبدي غير مخلوق علما ضروريا بدهيا، كعلمه بأن الواحد نصف الاثنين! وتقدير حدوث الباري في الذهن تذهب معه الأسباب كلها وينهدم به العقل نفسه، تماما كما ينهدم بتقدير استواء الواحد والاثنين في القيمة سواء بسواء! هذه مسائل لا تحتاج إلى برهان، بل هي صحيحة بذاتها، تعرف صحتها بمجرد التأمل

في معناها! والأهم من جواب ذلك السؤال، أن يعرف الوالدان ما الذي قذف به في نفس ولدهما من الأساس! فإن الإنسان يولد على الفطرة السوية، فلا يصرفه عنها أو يثير لديه الشك فيها إلا داخلة دخلت على نفسه من منبع يجب أن يقطع عنها قطعا ويصرف عنها صرفا وأن يتحصن منه ما وسعه، وإلا ترسلت النفس مع ذلك الداعي وتعاظم افتتانها به حتى تكون فيه هلكتها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

فإن وجدا ولدهما وقد تعرض لشيء من بضاعة الفلاسفة ومن سلك سلكهم (وهذا هو الغالب في مثل ذلك، لا سيما في زمان الإنترنت) فحينئذ يقدمان له ما يكشف بطلان تلك البضاعة على قدر ما تعرض له منها، وبما تندفع به الضرورة وحسب، ثم يخاطب بالنصيحة والموعظة ويستنقذ من تلك البيئة التي تعرض فيها لتلك البضاعة بكل طريق وبكل وسيلة، ويدل على صحبة أخرى بخلاف صحبته، وجلساء أخر بخلاف جلسائه ما أمكن، ويدل على صاحب سنة يعلمه دينه على المنهج الرباني القويم، بل ولعلهما يحسنان إليه إن نقلاه إلى مدرسة أخرى بخلاف مدرسته، ولو أمكنهما الانتقال إلى بلد آخر بالكلية لربما وجب عليهما ذلك، والله المستعان، فإنه ليس بعد أمر الدين شيء يخاف عليه، وليس فوق الردة خطر يفر الإنسان منه! ثم إن عليهما أن يتابعا نشاطه على الإنترنت ما أمكن، لأنه منبع كل فتنة في هذا الزمان قبل غيره كما هو معلوم!

ومع بذلهما الوسع في تغليق أبواب تلك الزبالة دون ولدهما، فعليهما كذلك بذل الوسع في إظهار أنها زبالة حقا وأنها لا تورث العقل إلا سفها ولا تكسب القلب إلا مرضا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فإذا ما ظهر له أن مطلق طرح ذلك النوع من الأسئلة السوفسطائية الهاتكة لفطرة البشر وضرورات العقل إنما هو فساد في العقل والقلب جميعا، وأن الفلاسفة إنما حملهم على ذلك التنطع السخيف كبرهم وغرورهم وحرصهم على منافسة الأنبياء والمرسلين في التسود على الخلق بأمر الهداية والإرشاد لما في الغيب، وأن السلف حذروا من الفلسفة وذموا الفلاسفة من أجل ذلك، إذا بُين ذلك للصبي المبتلى ببوادر تلك الفتنة وذلك الهوى، وبالميل للبحث في أمثال تلك الأسئلة، واجتمعت عليه أسباب العلاج السلفي من ذلك الميل، فلعل الله تعالى أن يعافيه من ذلك المرض الخطير من قبل أن يتعاظم في نفسه الإعجاب والافتتان ببضاعة الفلاسفة وأدواتهم وحيلهم وأساليبهم في تناول ما يتناولونه من الأسئلة طرحا وجوابا، ومن قبل أن يغتر بعقله وبقدرته هو نفسه على الإتيان بأمثال تلك الأقيسة والمقدمات والبراهين المنمقة البديعة التي يصطنعها الفلاسفة في مثل ذلك كما وقع لصاحبنا ها هنا، ثم إذا به يهيم على وجهه فلا يدري على أي ملة يهلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

لقد اعترف الدكتور بأنه أصيب بداء الفلاسفة، ألا وهو الاغترار بالعقل إلى حد عبادته من دون الله تعالى! وحقيقة ذلك الاغترار أن يرى الفيلسوف أنه ما

من شيء في هذا العالم أو فيما وراءه إلا وهو قادر على اكتساب المعرفة به باستعمال عقله وحسه استقلالا! ثم إذا به يقيس الأقيسة الواهية ويعمم العمومات المتهافتة حتى يجعل من ذاك القليل الذي تدركه حواسه البشرية أصلا قياسيا لمعرفة جميع ما يكون في الغيب من موجودات واجبة أو ممكنة أو ممتنعة! وإذا به يتكلف التنظير المتنطع فيما لا مدخل للعقل البشري ولا للحس والمشاهدة البشرية إليه أصلا! فإذا زينت له نفسه التشغيب على الأنبياء والمرسلين وما أرسلوا به، وأبت عليه الخضوع لبشر مثله قد اصطفاه رب العالمين برسالته، زعم أنه لا يجد في عقله وقياسه ما يثبت به صانعا في الغيب أصلا، يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، فضلا عن أن يطاع رسوله طاعة محضة كما هي حقيقة الدين، مع أنه يعلم أن البداهة تقضي بضرورة وجود باريه من فوقه ومن فوق هذا العالم، وأنه سبحانه له أن يصطفي من خلقه ما يشاء ليجعله للمكلفين رسولا، أو أن يبلغهم بالتكليف بأي طريق يشاء، ويعلم كذلك أن ما أرسل به رسله من التوحيد الخالص هو الحق الواضح الذي لا مرية فيه، ولا يتصور من رب العالمين أن يقبل من خلقه دينا سواه! ولكنه – أي الفيلسوف – يشتهي أن يكون هو المقدم على الناس بالهداية والإرشاد، وأن يكون هو النبي المتبوع الذي يرجع إليه في أعظم المعارف وأخطرها في حياة الإنسان على الإطلاق، ألا وهي المعرفة بما في الغيب وبما يكون للإنسان بعد الموت!

فذاك الهوى الذي أشرنا في مقدمة هذا الكتاب إلى كونه منبعا للفلسفة في كل أمة من الأمم، هو هذا الداء الذي سميناه بداء الفلاسفة! وهو ذاك المرض الذي جاءت كافة الرسالات الإلهية بأسباب الوقاية منه وصيانة النفس من مقدماته! فإنه يورث في نفس الإنسان كبرا واستعلاء يمتنع معه حصول التوحيد الذي هو حق الله على العبيد والغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب! يقول تبارك وتعالى في بيان حال الفلاسفة ومن ابتلي بدائهم المذكور: ((إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [غافر : ٥٦] لهذا كانت الاستعاذة بالله من أمثال تلك الأسئلة التي يترسل معها هؤلاء المرضى هو سبيل المؤمنين، لأنها إنما تورث الاستعلاء بالعقل البشري القاصر ورفعه فوق منزلته، وهو في حقيقته كبر في الصدور وحسد للأنبياء على كرامة النبوة التي أكرمهم الله بها! وكأن الواحد منهم يقول بلسان الحال: أنا أذكى من ذاك النبي وأقوى في العقل والنظر، وأقدر على استجلاء الغيب منه هو وأتباعه، فكيف يقال لي أنا: كن تابعا لهذا الرجل في كل ما جاء به وقف على ما أوقف الناس عليه، ولا تحد عن سبيله قيد أنملة؟ إنه كبر إبليس اللعين الذي ساءه أن يؤمر بالسجود لآدم وهو يراه أحسن منه خلقه، فكذلك هنا: يقول الفيلسوف في نفسه: أنا أعظم عقلا وأذكى وأنبغ من ذلك النبي الأمي، فكيف يصطفى هو للرسالة والنبوة وأؤمر أنا بطاعته واتباعه اتباعا مطلقا؟ أنا أحق بالنبوة منه!

وينسى ذلك المغرور المريض أن النبوة إنما يصطفي اللّٰه لها من عباده من سلمت نفسه من تلك الآفة الإبليسية القاتلة، لأنه إنما يبعث ليكون وعاء لخبر اللّٰه وتكليفه، يدعو قومه لعبادة ربهم لا لعبادته هو نفسه من دون اللّٰه كما تشتهيه الفلاسفة وتميل إليه قلوبهم! فالذي يصطفيه اللّٰه تعالى للنبوة والرسالة يكون قلبه مهيئا لحمل أمانة التبليغ أتم التهيئة وأكملها، ولا يلزم لذلك الغرض أن يكون النبي هو أذكى قومه وأنبغهم في النظر والقياس ولا أن يكون معروفا بذلك! وإنما يجب أن يكون هو أصدقهم وأوفرهم حظا من الأمانة وحسن الخلق، وأقدرهم على أداء ما تقتضيه النبوة والرسالة من مهام التبليغ والتبيين! فالأنبياء إذن هم – بالضرورة - أسلم البشر قلوبا من داء الفلاسفة وكبرهم وأسلمهم من حظ النفس وطمعها في ترقي منازل التكريم والتشريف بين الناس!

والفيلسوف يحب أن يخضع الناس لعقله ونظره، وأن يقول: هذا ما اكتشفته أنا بقدرتي وقوتي فاتبعوني أهدكم سبيل الرشاد، ولولا هذا ما تفلسف! فإن ادعى أنه يود أن يكون نبيا لرب العالمين فهو كذاب أشر، وإنما يريد من النبوة أن يكون متبوعا، لا أن يكون هو نفسه عبدا لرب العالمين! فإنما يود في الحقيقة لو يكون هو المعبود من دون رب العالمين! ذلك أنه لا يريد للناس أن ينتهوا من طريقه إلى أمر ربه ونهيه وإلى خبره سبحانه عما في الغيب، وإنما يحب لهم أن ينتهوا من طريقه إلى عقله هو وقياسه هو ونظره هو وما جاء به من كيسه، وأن ينفصلوا إلى ما انفصل هو إليه ويقفوا حيث أوقفهم، فيكون

هو مصدر المعرفة الأول ومصدر التكليف الأعلى! يود الفيلسوف على الحقيقة أن يكون هو مصدر الوحي للناس، لا أن يكون وعاء يحمله إليهم! ولهذا حملتهم نفوسهم من قديم على تكلف المراء السمج والسفسطة الباردة في وجود البارى نفسه جل وعلا، لأنه إن استطاع أحدهم أن يسقط من قلوب الناس علمهم بوجود باريهم أو يشككهم فيه، فقد صار الغيب إذن كلأ مستباحا له ولعقله ولنظرياته و"براهينه"، وصار الناس تبعا له هو فيما يتخرص به عليه كما يشتهي، لا للأنبياء والمرسلين! فهو في الحقيقة يطمع في مقام الألوهية لا في مقام النبوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والمصاب ببعض ذلك المرض من أهل القبلة أتباع المرسلين يجد في نفسه من تعظيم الفلاسفة ومن اتباعهم والأخذ عنهم ما لا يصح إلا لأنبياء الله جل وعلا! فإذا كان السلف يقول قائلهم: "إن استعطت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل"، فهؤلاء المتفلسفة يقول قائلهم بلسان الحال: "إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بنظرية فلسفية فافعل"! فالعقل الفلسفي [1] عنده هو مصدر التلقي الأول، والنظرية عنده هي العلم الأعلى وهي الحق وهي النور والهداية، بصرف النظر عن موضوعها، والله المستعان! ولهذا كان اللاهوتيون والمتكلمين من أمم الأنبياء كافة مبتلون بتقديم العقل (أي العقل الفلسفي) على النقل كأصل أصيل في جميع بدعهم! لأنهم من مرض نفوسهم كرهوا أن يكونوا مجرد أتباع وأذناب في ملتهم، من غير أن يكون لهم ما يتابعهم عليه الناس ويقدموهم

---

[1] وهو عندنا معاشر أهل السنة خلاف العقل السوي الصحيح!

فيه بعقولهم ونبوغهم وذكائهم وغير ذلك مما تُعظم الفلاسفة في الأرض من أجله! فلما وقع ذلك المرض من نفوسهم موقعه، واستحوذ على قلوبهم، مع خوفهم – في نفس الوقت - من الانقلاب إلى دهرية الفلاسفة وخروجهم من الملة بالكلية، ومن ثم استحقاق العذاب الأبدي في الآخرة، لم يجدوا إلا أن يتخذوا من تلك البضاعة المحببة إليهم طريقا لإثبات صحة الإسلام، لعلهم يسودوا بين أهل الملة وأهل الفلسفة في نفس الوقت، ويصبح الواحد منهم معظما لكونه قد جاء المسلمين – أخيرا - بفلسفة تثبُت بها صحة دينهم نفسه الذي يدينون به ويعلقون عليه أمر دنياهم وأخراهم! فالذي اخترع برهان الحدوث – مثلا – لم يتكلف اختراعه نصرة للدين حقا كما كان يوهم به نفسه، وإنما تكلفه حتى يظهر بين المسلمين وبين الفلاسفة على السواء بأنه جاء الناس – أخيرا - بالبرهان العقلي الأقوى لإثبات أن الرب موجود، باستعمال ميتافزيقا فلاسفة العصر التي هي عندهم العلم الأعظم والقطع العقلي المنصرم! فإذا كانت مقدمات البرهان مسلمة عند الخصم، كان لزاما عليه أن يقبل نتيجتها (فيما أطلقه المناطقة الأرسطيون إطلاقا لا ينضبط)! وإذا كان اعتقاد وجود البارى جل وعلا هو أصل أصول الملة وركنه الأول، كان هو – أي المتكلم - إذن متبوعا على أصل أصول الدين وأساسه الذي يقوم عليه، الذي لا يأتي إثبات شيء من كلام النبي إلا تبعا لإثباته (على ترتيب الفلاسفة الجدليين Evidentialists في بناء المعرفة)! أليس قد أتحف الناس ببرهان "عقلي" يثبت به وجود باريهم من فوقهم؟ فهل يقوم الدين إلا

على العلم بوجود الباري ابتداء؟ فإذن يكون اتباع الأنبياء تبعا لاتباعه هو على الحقيقة، إذ لولا برهانه المخترع، لما حصلت المعرفة (بحسب نظرية الفلاسفة في المعرفة) بما يوجب قبول رسالة الرسول أصلا! ولهذا قال المتكلمون كافة بجعل النظر في وجود الصانع (بمعنى تكلف إثباته نظريا) أول واجبات المكلفين، مبتدعين بذلك بدعة لا سلف لهم بها إلا اللاهوتيين ومتكلمة الأمم السالفة من أهل الكتاب وغيرهم! فتأمل كيف كانت ثمرة داء الفلاسفة في قلوب هؤلاء، نسأل الله العافية!

ولعله يمكن سبر وترتيب ثمرات ذلك الداء الخطير في قلوب المنتسبين إلى الدين على النحو التالي:

- أن يرى أحدهم أن عقول الصحابة والتابعين ليست أفضل من عقله، وأن له – إذن – أن يخالف إجماعهم إن بدا له ذلك، وأن يفهم النص كما يبدو له، فإذا به يجري على فلسفته هو أو فلسفة غيره في الغيبيات من حيث لا يشعر، يقدمها على السمع والنقل ويجعلها أساسا لفهمه وتأويله، وهو يحسب أنه يجري على مقتضى العقل الصريح!
- أن يرى أن أصل أصول الدين (ألا وهو اعتقاد وجود رب العالمين) لا يثبت في النفوس إلا إن قام على طريقة الفلاسفة وشرطهم في إثباته إجمالا، أو أنه لا يحصل "اليقين" به إلا من ذلك الطريق!

- أن يرى أن نظريات الفلاسفة المعظمين في زمانه حق يجب تصديقه، وأنما هي "العقل" و"العلم"، وأن نصوص الوحيين يجب أن تؤول تأويلا يوافقها وإلا بطلت تلك النصوص ولم تثبت نسبتها إلى الوحي!
- أن يرى أن القول بوجود الباري أو عدمه أمر اجتهادي، وأن المخالف فيه مجتهد مخطئ يجب إعذاره والصبر عليه، بل والثناء على "صدقه" في "طلب الحق"!

ثم إذا جاوز الداء والهوى في نفس الرجل تلك الدرجة الأخيرة، بلغت به زندقته حد التصريح بمفارقة الملة بالكلية، متذرعا متترسا بدعوى أن نظريات الفلاسفة وبراهينهم قد مالت به إلى ذلك، وأن أسئلته الفلسفية واعتراضاته لم يجد لها عند المتفلسفين في الغيبيات والإلهيات من أهل الملة (كالمتكلمين ونحوهم) جوابا، أو أن الأمر في إثبات الباري أو نفيه من طريق تلك البراهين المزعومة لا ترجح فيه كفة على كفة، أي لا يمكن فيه الترجيح أصلا (لا أنه هو من يعجز عنه كما كان يزعم من قبل)، وإذن فلا أساس للدين يقف عليه ولا قاعدة ينبني عليها، لا بيقين ولا حتى بظن راجح!

كل ذلك الضلال البعيد من أي بذرة نبت؟ من بذرة كبر الفلاسفة ومرض نفوسهم الذي بيناه آنفا، الذي سلكهم في سلك التنطع بالنظر والقياس في البدهيات الأولى والغيبيات المحضة، لا لشيء إلا ليجد الواحد من أولئك

المجرمين ما يقول به لغيره من عموم الناس: "ها أنا ذا!! فاتبعوني وعظموني إن كنتم من العقلاء!"، نسأل الله السلامة!

ثم واصل الدكتور قائلا:

> كانت هذه هي الحالة النفسية وراء المشهد الجدلي الذي يتكرر كل يوم. وغابت عني أيضا أصول المنطق وأنا أعالج المنطق ولم أدرك أني أتناقض مع نفسي إذ كيف أعترف بالخالق ثم أقول ومن خلق الخالق فأجعل منه مخلوقا في نفس الوقت الذي أسميه خالقا وهي السفسطة بعينها. ثم إن القول بسبب أول للوجود يقتضي أن يكون هذا السبب واجب الوجود في ذاته وليس معتمدا ولا محتاجا لغيره لكي يوجد، أما أن يكون السبب في حاجة إلى سبب فإن هذا يجعله واحدة من خلقات السببية ولا يجعل منه سببا أول. هذه هي أبعاد القضية الفلسفية التي انتهت بأرسطو إلى القول بالسبب الأول والمحرك الأول للوجود. ولم تكن هذه الأبعاد واضحة في ذهني في ذلك الحين.

قلت: المشكلة يا دكتور، التي كنا نرجو أن يهديك الله لاستجلائها، ليست فيما كان واضحا في ذهنك وما كان غائبا عن ذهنك حال إلحادك، وإنما هي فيما كان راكزا في قلبك متملكا عليك أركان نفسك من الهوى المحض! هذا هو بيت الداء أصلا، وهو داء لا يسلم منه إلا من أراد الله به خيرا! ليست المشكلة في أنك لم تكن قد مر بك برهان امتناع التسلسل المذكور ووجوب الوجود

ومسلك أرسطو وأكويناس والغزالي وغيرهم! وإنما المشكلة الحقيقية والمرض الحقيقي ماثل في أنك كنت ولم تزل إلى آخر يوم من عمرك تتشوف لتلك البضاعة في نفس الأمر، وترى أن المعرفة (بله اليقين والإيمان) بالمطلوب تحصل بها! ليس يحتاج المؤمن العاقل سوي النفس إلى برهان التسلسل حتى يدرك أن السؤال عن خالق لرب العالمين سؤال باطل سوفسطائي ساقط من الابتداء، وحتى يجد في نفسه – وهو الأهم – ما ينفر به من تلك الفكرة غاية النفور ويحجزه عن مجرد التطرق إلى تحويلها لمسألة نظرية تحتاج إلى برهان منطقي أو فلسفي للرد عليها! فمن سلمت نفسه من تلك الآفة، كان إيمانه هو الإيمان الذي يريده الرب من عباده، القائم على الفطرة النقية التي فطر اللّٰه الناس عليها! وإلا، كان إيمانا معلقا على شرط فلسفي فاسد في أصل المعرفة التي يترتب عليها ذلك الإيمان نفسه في قلوب المؤمنين! وما كانت تلك منزلته فليس بإيمان على الحقيقة ولا يحصل به اليقين كما يزعم المتكلمون وأضرابهم! وإنما يبقى صاحبه أسيرا لنظريات الفلاسفة وبراهينهم وردودهم، فإذا اتضح له اليوم من تلك النظريات شيء، غمضت عليه غدا أشياء، وإذا به يشكل عليه اليوم ما كان بالأمس واضحا، وينفتح بين يديه اليوم باب الجدال فيما كان بالأمس يجعله علما ضروريا ظاهرا، وإذا به يجعل دينه رهن الجدل والمناظرة، يبيت كل ليلة على عقيدة غير العقيدة، كما حرره أئمة السلف رضي اللّٰه عنهم في ذم الكلام وأهله!

فمن أين يأتي ذاك المرض العضال، والتخبط البالغ، الذي لا يدري صاحبه إلى أي نهاية ينتهي وعلى أي ملة يموت؟ يأتي من فتنة الفلسفة وداء الفلاسفة! من كبرهم الذي يزين لهم التخوض فيما لا مجال لنظره بالعقل أصلا، ولا داعي له ولا موجب لتكلفه ابتداء عند العقلاء الأسوياء! كيف يكون فلان الفلاني المفكر العظيم والفيلسوف الكبير (كما هو حاله أو كما يحب أن يعرف بين الناس) مؤمنا على الفطرة، من غير أن يكون قد جمع لنفسه من براهين صحة الدين ما يليق بأولئك الذين أحب أن يكون بينهم وأن يعد في زمرتهم من الفلاسفة المعظمين الظاهرين؟ هذا لا يقبل أبدا! بل يجب أن يكون عنده برهان فلسفي عميق ودليل عقلي منمق (سواء قام عنده على ميتافزيقا الفلاسفة أو ميتافزيقيا الطبيعيين أو غير ذلك مما يعظم عند أهل زمانه) يقيم به كل مقدمة من المقدمات التي أوصلته لقبول رسالة الرسول والتسليم بصحتها، وإلا كان أميا من الأميين، بل سفيها من السفهاء، كما قال رب العالمين في شرط هؤلاء: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ)) [البقرة : ١٣]! أنؤمن – ونحن من نحن! – كما آمن الناس؟ أنؤمن كما آمن هؤلاء السهفاء؟ أنجيب داعي الدين هكذا من فورنا دون أن نتحصل على مستند فلسفي نرفع به لأنفسنا منزلا بتلك الإجابة بين سادة المعقول وأكابر المنطق من أهل زماننا؟ حاشا وكلا! بل يجب أن تأتينا أيها الداعي من البراهين والأدلة بما يليق بنا، وإلا فلا حجة لك عندنا، وإذن فأنت ومن اتبعك هم أسفه الناس وأراذلهم!

هذا هو أصل المرض والداء فتأمله مليا أيها القارئ الكريم، يرحمني الله وإياك!

هذا الكبر الإبليسي يبقي أثره في نفوس المفتونين بالفلسفة من الملحدين التائبين من الردة بعد توبتهم، فلا يتوب أحدهم إلا وهو جهمي على ضلالة كبرى ، نسأل الله السلامة! وسيرى القارئ الكريم كيف بقي أثره في نفس الدكتور مصطفى محمود حتى بعد عزمه على الرجوع إلى الإسلام! وما ذاك إلا لأن الواحد من أولئك المتفلسفة يكره أن يسأله أقرانه من النظار: لماذا رجعت إلى الإسلام يا فلان، وقد كنت تحاجج أهله بأعلى البراهين وأرفعها، وتقيم عليهم الحجة الفلسفية تلو الحجة؟ هل فقدت عقلك أم سفهت نفسك؟ قد كنت فينا مرجوا مرفوعا مكرما، فأي شيء أصابك يا مسكين؟ فإذا ما وجد في نفسه كراهة أن يقابَل بمثل ذلك، واشتد الأمر عليه، وحرص من كبره وحبه للعلو بين الناس على أن يحفظ لنفسه قدما بين من كان ولم يزل يعظمهم من الفلاسفة والنظار الماديين في زمانه وأذنابهم المفتونين بهم، فلن ترى منه عند الرجوع إلى الإسلام إلا تكلف البراهين الكلامية والفلسفية أشكالا وألوانا، فإذا هو ينتصر لنفسه في الحقيقة حتى يدفع عنها تهمة السفاهة، لا أنه ينتصر للدين كما تزين له نفسه أن يعتقد! فكما كان يريد بالأمس أن يسوغ لنفسه وللناس خروجه من الإسلام إذ خرج، تسويغا يحصل له به ما يطمع فيه من العلو بين من أحب العلو بينهم، فكذلك اليوم يريد أن يسوغ لنفسه وللناس رجوعه إلى الإسلام إذ رجع، بما يصاب به نفس الهوى

الذي كان من قبل ولم يزل من بعد غافلا عن تمكنه من قلبه، نسأل الله السلامة!

ثم هو مع تكلفه تلك البراهين، ولأنه لا يحب أن يفقد قدمه ومنزلته عند أولئك الفلاسفة، فستجده ساعيا – لا محالة – في تكييف اعتقاده الديني على النحو الذي يلائم تلك النظريات الفلسفية المعظمة عند هؤلاء ما وسعه ذلك، بل وإقامة تلك البراهين على تلكم النظريات نفسها ما أمكنه ذلك! فإذا ما فعل، ووجد من السفهاء المفتونين من أهل القبلة من حوله من يعجبه ذلك الصنيع منه، ويعده به من المستنيرين المجددين في خطاب الدين، المدركين لدواعي تغير العصر والزمان فيما يتعلق بفهم النص والعمل به، كان في ذلك مزيد مطمع لقلبه المريض، يزين له مزيدا من الإغراق في ذلك! فلا شك أنه يحوز بذلك منزلا ومكانا أحب إلى نفسه مما كان ينزل فيه لو أنه أصر على المجاهرة بإلحاده القديم والانتصار لدهريته! وقد وقع ذلك من الدكتور مصطفى محمود في أكثر من مؤلف من مؤلفاته التي حاول فيها التلاعب بتأويلات نصوص الكتاب والسنة على نحو يرجو به العلو بين أقرانه من المفكرين والفلاسفة من جهة، والتفوق على دعاة الملة ومشايخها من الجهة الأخرى، حتى يكون قد اجتمع له – كما هو مطمع سائر الجهمية في كل عصر – أن يصبح إماما متبوعا في كلا المجالين معا! ولست أزعم أن الواحد من هؤلاء يكون على بينة بمحركات نفسه وعقله الباطن في ذلك، بل إنهم من غفلتهم ومن كبرهم تزين لهم نفوسهم وشياطينهم الظن بأنهم على خير عظيم وبأنهم

سالمون من الأهواء وحظوظ النفس، وبأنهم على ثغرة وجهاد عظيم، وأن ما جاؤوا به من بنات الأفكار والنظريات والتأويلات ما كانت لتطيقه عقول السابقين، فلا ينتبه لذلك المرض في نفسه من هؤلاء إلا من رحمه الله تعالى وأراد له خيرا، وقليل ما هم!

ولهذا ورد عن سلفنا رضي الله عنهم أن رؤوس البدعة لا يتوب أحدهم ولا ترجى له توبة. ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته" (صححه الألباني) وفي الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما عن أبي سفيان رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وإنه سيخرج في أمتي أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكَلَب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله" اهـ.

فلماذا لا يتوب رأس البدعة، وأي شيء يمنعه، وما معنى دخول الأهواء في العروق والمفاصل؟ إنه ذلك المرض الخطير الذي تتشبع به نفس أحدهم غاية التشبع من حيث لا يشعر، نسأل الله السلامة، فمن كبره وغروره بنفسه لا يراه إلا إماما عظيم الشأن عالي الكعب فيما جاء به من أمر الدين، بل وأن بدعته تلك هي سبيل النجاة وطريق السلامة لجميع أهل الملة في زمانه، فهكذا تسول له نفسه! وكلما كثر تابعه وزاد تعظيمهم له في الأرض ازداد هو كبرا وغرورا بنفسه وبما هو عليه! ومعلوم ما عند رؤوس البدعة من أهل الفرق

من تعظيم لبدعهم الكلية حتى لا تكاد ترى في دين أحدهم ما يعدلها في المنزلة من أمر الدين، أصوله وفروعه! لماذا؟ لأنهم إنما حازوا تلك المنزلة بين الناس بسبب تلك البدعة التي أحدثوها، فإن هم زالوا عنها فأي شيء يبقى لهم من مقتضى الإمامة والرياسة إذن، وعلى أي شيء يتابعهم الناس كما يطمعون؟ هذا هو حاجز هؤلاء عن التوبة وعن مفارقة البدعة مهما تبين له من بطلان ما هم عليه، وهو نفسه حاجز المعرضين المكذبين من رؤوس الكنائس والمعابد الشركية في كل ملة! أيترك أحدهم ما هو عليه من أمر بذل من أجله ما بذل من سنوات عمره، وجمع به لنفسه ما جمع من الأتباع والأشياع، ليرجع بعد ذلك كله ذنَبا صغيرا بين أهل دينه لا يُعبأ به ولا يلتفت إليه؟ تأمل كيف يظهر الداء نفسه والعلة نفسها والمرض نفسه عند أكابر مترفيهم في كل مناسبة: ما نراك إلا اتبعك الذين هم أراذلنا بادي الرأي! أنؤمن كما آمن السفهاء؟ أندين لأمي من الأميين من غير بني إسرائيل؟ أنؤمن لبشر مثلنا؟ أأسجد لمن خلقت طينا؟ ما علمت لكم من إله غيري، وما يريد هؤلاء إلا أن يذهبوا بطريقتي المثلى! وهذا الخير الذي عندي إنما أوتيته على علم عندي! أتريدون مني أنا، وما أدراكم ما أنا، أن أخضع نفسي وعقلي وقلبي وأسلمه تسليما، وقد كنت من قبل آمرا ناهيا في قومي، ورأسا متبوعا لا يرى الناس لأنفسهم هداية ولا رشادا إلا بما عندي، ولا ينزلون إذا نزلوا إلا على قولي؟ لا والله لا أدخل في ملتكم إن دخلت إلا على شرطي، ولا أرضى بما جئتم به حتى أجد فيه ما أحب وأهوى لنفسي، وحتى يحصل لي به من العلو بين الناس ما هو لائق بمثلي!

هذا المرض الإبليسي، أيها القارئ الكريم، مرض الكبر والتعالي، هو داء كل فيلسوف متبوع على بدعته، أيا ما كانت الملة التي تابعه الناس عليها! وهو ما يورث في الرجل الإعجاب برأيه، والتمسك به والانتصار له مهما خالف الدليل الظاهر الصريح! ولهذا كان ولم يزل الفلاسفة هم ألد أعداء المرسلين وأتباعهم، لأنهم لا يريدون الهداية ولا يريدون الحق وإنما يريدون أن يكونوا رؤوسا تعظمهم الناس وتخضع لهم كما خضعت للأنبياء والمرسلين! بل إنه (أي ذاك المرض) هو سبب إلحاد سائر الملاحدة الدهرية بلا استثناء عند التدبر! فما من ملحد إلا تجد سبب إلحاده راجعا إلى صورة من صور ذلك الكبر والعلو الإبليسي نفسه لا محالة! فالملحد ما ألحد (سواء تكلف التذرع بفلسفات الدهرية أم لم يتكلف ذلك) إلا لأنه يكره أن يكون له من فوقه رب يأمره وينهاه ويحاسبه يوم القيامة! نفسه تأبى عليه أن يكون عبدا من جملة العباد! فإن كبت تلك النزعة لديه وأخفاها في نفسه كعامة المنافقين، رأيته يعبد الله على حرف ((فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)) الآية [الحج : 11]، فما معنى العبادة على حرف؟ هي العبادة على تردد: كأنما يود أن يكون عبدا وألا يكون عبدا في آن! لسان حاله (من كبر نفسها ومرضها) يقول: أعبدك يا رب وأخضع لك، لكن على شرطي وعلى مزاجي! أن تجعلني في الدنيا رأسا معظما مكرما وأن يتبعني الناس كما أحب وكما أطمع! أو ألا يأتيني من قضائك وقدرك إلا

ما أحب وما أشتهي، فلا أهان بقدر الرزق علي وتضييقه كما أهين غيري ! فإن أصبتني بشيء أكرهه فلا عبادة لك عندي ولا شيء!

هذا هو لسان حال هؤلاء أيها القارئ الكريم، ولولا تمكن ذلك المرض الخطير من جوانب نفوسهم ودخوله فيهم دخول الكلب في المفاصل والعروق، ما ألحدوا وما أنكروا، نسأل الله العافية والسلامة!

ولهذا ما دخل فيلسوف مناظرة إلا كان غاية حرصه وهمه ومنتهى مراده الانتصار لنفسه لا للحق، مهما أوهم نفسه بأنه يريد الانتصار للحق! ذلك أنه ما تفلسف وما تكلف شيئا مما تكلفه أصلا إلا ليشبع هوى نفسه في أن يتحصل على ما يتابعه عليه عامة الناس ويرفعونه به فيما بينهم، أو على الأقل أن يكون لديه ما به يظهر للأقران أنه لم يؤمن بهذا الدين أو ذاك إيمان العامة المقلدين، معاذ الله، بل آمن إيمان الفلاسفة والمفكرين العظام! [٢] ولا يكون الفيلسوف رأسا متبوعا في تلك الأضرب كما يشتهي حتى يظهر نفسه على مخالفيه من أقرانه بالمناظرة والخصومة والمبارزة والجدل الطويل، لأن الناس عندما تتخير من الفلاسفة والمتكلمين من تتابعه، فإنما تتخير من هو أجدل وأقوى في الخصومة والمحاجة من مخالفيه، فيما يظهر لهم!

---

٢ وليس إيمان العامة بالحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم تقليدا أو إيمان تقليد، وإنما جعله الفلاسفة الجدليون الدليليون كذلك تنطعا وتكبرا ومحض سفسطة، حتى يلزموا الأنبياء وأتباعهم بما لا يلزمهم أصلا، كشرط لقيام الحجة الرسالية عليهم!

لقد تاب مصطفى محمود من الإلحاد، نعم، ولكن هل سلم قلبه من بقايا ذاك المرض العضال، وهل عالج نفسه منه كما كان يجب عليه؟ الجواب: كلا بكل أسف! بل ظل هوى الظهور بالفكر والعقل والفلسفة آخذا بتلابيب نفسه، محركا له في أكثر ما كتب وما نشر بعد توبته ورجوعه، بما في ذلك كتابه الذي بين أيدينا ها هنا! فهو وإن مالت نفسه إلى مفارقة الإلحاد والرجوع إلى الإسلام، إلا أنها ظلت متشبعة بحب الفلسفة الطبيعية خاصة، والفلسفة بعموم، وحب الظهور بين أصحابها وبأدواتها! من هنا وقع الاعتزال والتجهم العقلاني المعاصر في كثير مما كتب، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والمشكلة – أيها القارئ الكريم – ليست في مجرد تلبسه بتلك البدع الكلية الشنيعة، فكم من إنسان تلبس بالبدع ولكن ستره الله بها، فلم يتعد ضرره إلى غيره! وإنما المشكلة في أنه اغتر ببدعته، وظل معجبا برأيه وعقله، فأطلق يده بالكتابة والنشر في قضايا لا يعلم فيها يمينه من شماله، ولم يسبق له أن درسها على أيدي أهل العلم بدين الله تعالى، متكلفا الكتابة والنشر بدعوى إرشاد المصابين بالشك والإلحاد لسبيل الهداية والرشاد، مكتفيا في مقومات الأهلية لذلك العمل الذي تصدر له بقراءاته الفلسفية وثقافته في الطبيعيات ودراسته في كلية الطب، وذكائه الذي شهد له به أقرانه من الملاحدة من قبل! وقد أصبح كتابه هذا الذي نتناوله بالنقد في هذا الكتاب، من أشهر وأكثر الكتب مبيعا عند تلك الفئة من المفتونين بالفلسفة والفلاسفة والمفكرين والمتكلمين، إذ صدقوا ما زعمه أولئك المستكبرون جميعا – زورا وبهتانا - من

كونهم قد تحصلوا أخيرا على الطريق الذي يحصل به النجاة من الشك والانتقال إلى اليقين! مع أنه لا يتردد طالب علم مبتدئ في عقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة من الحكم بعدم مشروعية قراءة ذلك الكتاب وغيره من كتب الدكتور أو الدلالة عليه لما فيها جميعا من تأسيس لبضاعة جهمية جديدة تناسب أهواء من أرادوا التوبة من الإلحاد والردة في هذا الزمان! وهي بضاعة خلاصتها وحاصلها في المجمل أن: "دعكم أيها المتشككون من إسلام "المتشددين" و"المتزمتين" الذي كرهتموه وألحدتم فرارا منه، أولئك الذين يمنعونكم حتى من مطالعة كتب الفلسفة ويحذرونكم منها تحذيرا!!، فقد وجدت الإسلام الذي نهواه جميعا، وعثرت أخيرا على ذاك الفهم والتأويل الذي كنت أطمع فيه كما تطمعون، فإن أحببتم أن تتابعوني عليه، فدونكم ما كتبته وألفته في بيان ذلك "الإسلام العقلاني" الذي نحب جميعا أن ننتسب إليه، والحمد لله على نعمة الإسلام"!

فهذا أيها القارئ الكريم، منهج الجهمية والمعتزلة في تطويع الدين ونصوصه لتوافق ما يهواه المفكر أو الفيلسوف أو المتكلم من الآراء والنظريات الفلسفية التي يحب أن يصبح بها رأسا متبوعا بين الناس! هذا ما يجعله الواحد من أولئك بمنزلة القطع العقلي أو المعقول أو "العقل" (هكذا بإطلاق) ابتداء، ثم يُخضع له كل نص وكل أثر تطاله يده من الكتاب والسنة، حتى يقنع نفسه وغيره من أهل تلك الأهواء بأنه لم يجد الإسلام إلا موافقا لتلك المبادئ الكلية وتلك النظريات الفلسفية التي هي عندهم جميعا بمنزلة العلم الأعظم

والقطع المنتهي، مع أنها ليست في الحقيقة إلا زبالة أذهان الفلاسفة الدهريين (الغربيين في زماننا) في الميتافزيقا ونظريات الأخلاق والنظريات السياسية والاجتماعية وغير ذلك! فمن أين يأتي تقديم تلك الزبالة على فهم السلف لكتاب ربهم وسنة نبيهم؟ من حرص أولئك على التصدر بها بين أقرانهم من أساتذتها وكبرائها في الأكاديميات والمعاهد المعظمة دوليا، أو على الأقل بين المفتونين بها من أقرانهم هم في نواديهم ومحافلهم! فإن أحدهم مع خوفه من الموت على الردة، فإنه كذلك يكره أشد الكراهة أن تفوت عليه تلك المنزلة التي يطمع فيها بين كبار الفلاسفة والنظار في زمانه! فما المخرج إذن؟ وكيف يحصل الجمع بين المطمعين؟ يحصل بالجمع بين الإسلام نفسه وتلك الفلسفات، أي بأسلمة تلك النظريات نفسها كيفما كانت، وادعاء أن النص جاء بمصداقها، حتى لا يبدو وكأنه قد تناقض إذ آل أمره إلى الانقياد لما يتفاخر أساتذته المعظمون عنده في "العقل" و"العلم" بالثوران عليه من موروثات أهل الملل، مع بقائه – في نفس الوقت - على تعظيمهم وإجلالهم بتلك الثورات نفسها! فمهما تغيرت آحاد النظريات والفلسفات، فالطريقة الجهمية طريقة واحدة، ومرجعها في الأصل إلى نفس الفئة من الأهواء، نسأل الله السلامة!

والسبب في شدة رواج ذلك المنهج الجهمي بين المصابين بأهواء الفلاسفة، أنهم يجدون فيه ما يسوِّغ لهم البقاء على ما يحبون من الآراء والنظريات ويطمعون في العلو به بين المعظمين من فلاسفة الزمان، مع الخروج – في

نفس الوقت - من الردة التي كرههم الناس وكرهوا هم أنفسهم بسببها! فلو أن أحدهم تاب من الردة ثم قرر اعتزال الجدل والسجال الكلامي والفلسفي جملة واحدة، وأمسك عن الأمر كله بعدما كان يجادل فيه ليل نهار، يخوض فيه مع كل خائض بكل جرأة وجسارة وبلا تردد، فسيقال إنه قد انهزم في المناظرة، أو أصيب في عقله أو جبن عن المواجهة أو غير ذلك من نعوت يكرهها لنفسه ولا شك! فقد تشبع قلبه باعتقاد أن تلك الطريقة الجدلية السوفسطائية هي العقل نفسه، وهي سبيل العقلاء لتحصيل المعارف بما به يثبت أصل الدين في النفس إن قدر له أن يثبت! وإلا فكيف يدخل في الإسلام وهو بعد لم يتحصل على "برهان" فلسفي قوي يثبت به وجود الصانع وصحة دين الإسلام، ويخرج به من تلك المناظرات السرمدية وقد أظهر أن معه ما يسوغ به موقفه الذي صار إليه بعد طول جدال؟ ولو أنه آمن من غير أن يكون معه تلك "الأدلة"، من بعد ذاك الجدال الطويل، فكيف يكون إيمانه قائما على معرفة صحيحة، فضلا عن أن يصبح يقينا وقطعا منتهيا كما هي حقيقة الإيمان، وكما هو مكلف به كل مسلم؟

فأصل الشبهة إذن يرجع إلى اعتقاد المسكين من هؤلاء بأنه إن لم يتحصل على "دليل" أو "برهان" من ذاك الصنف الذي تشارط عليه الفلاسفة المعظمون في زمانه في سجالهم السوفسطائي الطويل في نفس الأمر، فلن تحصل له معرفة ولا دليل يسلم به من تهمة الإيمان بلا دليل، أو ما سماه المتكلمون القدماء بإيمان المقلد! وهو يكره أشد الكراهة أن يتهم بذلك،

بعدما أظهر بين الناس من براعة في تشقيق البراهين النظرية والحجج الفلسفية وتلك الأشياء! فكيف يتحول مثله من الإلحاد إلى الإسلام بل واليقين بصحة الإسلام، من غير أن يقدم بين يدي توبته ما كان من قبل يشترط على خصومه من أنواع الدليل الغيبي، جريا على تلك الفلسفات المعظمة في أكاديميات أهل زمانه، التي كان ولا يزال يفاخر بالبراعة فيها وتعظيم أهلها؟ لابد إذن من التفنن في تركيب تلك البراهين المطلوبة أولا، ثم ابتداع التأويلات والتأصيلات الشرعية الملائمة لها ثانيا، واللازمة لتسويغ موقفه الجديد بين أيدي أولئك المعظمين عنده من جانب، وبين المقربين إليه من أهل الملة من جانب آخر!

هذا المرض ليس قاصرا على المتفلسفة والمفكرين وأضرابهم وحدهم، وأعني مرض الحرص على إحداث "منطقة وسطى" بين سبيل المؤمنين وسبيل الفسقة الضالين يُلتمس بها قبول الفريقين جميعا! بل تراه عند كل صاحب هوى يسمي الأشياء بغير أسمائها حتى يحصل له المرور بها بين من يحب المرور بينهم بلا نكير! فمن هذا المرض – على سبيل المثال - أنك ترى الفنانة أو الممثلة أو الراقصة التي تعلن توبتها، لا تلبث إلا قليلا ثم ترجع إلى الظهور على الفضائيات ووسائل الإعلام بحاجبها البدعي لتصبح بين الناس الشيخة فلانة الداعية إلى الله! أو تبتدع لنفسها بدعة تسوغ بها المشاركة فيما يسمى بالمسلسلات الدينية وتلك الأشياء، لماذا؟ لأن نفسها تأبى عليها أن تخضعها للحكم الشرعي القاضي بالخروج من تلك الأضواء التي اعتادت عليها وألفتها

وتعلقت بها أشد التعلق: تلك الأضواء نفسها التي كانت هي مانعها من قبل من التوبة ومفارقة سبيل أهل الفسق والخنا! فإذا ما ازدان لها سبيل لتوبة مخصوصة تبقى معها - في نفس الوقت - على قدر من تلك المحببات التي كان هواها من قبل هو الصارف عن مطلق التوبة، أصبحت تلك التوبة البدعية المخصوصة هي الطريق المطروقة والسبيل المختارة لا محالة!

ولهذا لما خرج على الناس أمثال المدعو عمرو خالد ببدعة "حجاب فاشون" أو الحجاب المودرن الذي روج له أشد الترويج، فشت تلك البدعة في الفتيات المسلمات في بلادنا في طول البلاد وعرضها فشو السرطان في خلايا الجسد وفي وقت قياسي (في سنتين أو ثلاث)! ذلك أنه قد كان سبب كراهة الكافة من المبتليات بالسفور للحجاب الشرعي في زماننا ما يجدنه فيه من حجب تام لسائر صور الزينة التي اعتدن التزين بها وتعلقت قلوبهن بالتفنن فيها أشكالا وألوانا في كل محفل! فكلما خوطبت الواحدة منهن بالدعوة إلى الحجاب الشرعي الصحيح، أبت ونفرت وزينت لها نفسها التفلت منه بكل شبهة وحيلة! ولكن لما ظهرت بدعة "الحجاب فاشون" هذه، أو الحجاب الذي هو زينة في نفسه، وأصبح فيه من الأنواع والأشكال والصور الجديدة ما يشبع للواحدة منهن شهوتها وهواها في أن تتزين في كل ملأ بين أيدي الناس، مع اتصافها في الوقت نفسه بأنها "محجبة"، وأنها قد أدت ما عليها من تكليف الحجاب، أصبحت تلك البدعة مهربا وملاذا أثيرا لهاتيك المفتونات المبتليات، هداهن الله، لا سيما من كانت منهن تعاني من خشونة الشعر وقبحه وشدة ما تجد

من تزيينه كل يوم! ذلك أن بها يجتمع للواحدة منهن أن تريح نفسها من داعي الخوف من العقوبة الأخروية "بدليل" يبدو مقنعا لمثيلاتها، مع إشباع ذلك الهوى الذي تجده في نفسها وتلك الرغبة التي تلح عليها: رغبة التلذذ بإعجاب الناس بها ونظرهم إليها، والفرار مما تكره من استهجانهم لحجابهم!

فكيف بدا ذلك الدليل المزعوم مقنعا، وكيف ظهرت تلك الدعوى البدعية التي جاء بها ذاك الفاسق وأمثاله موافقة للشرع، مع أنك بقليل من التأمل والتدبر في كلمة "حجاب" نفسها تدرك بالبداهة والضرورة أن المقصود منه في التشريع إنما هو صرف أعين الناس بالكلية عن المرأة إذا خرجت من بيتها، وليس اجتذابها بالزينة الظاهرة؟؟ لقد بدت شبهات القوم مقنعة لأنها وقعت في نفوس مبتلاة بالرغبة الجامحة في قبولها وتصديقها والتذرع بها بين الناس! فالمشكلة ليست في ظهور الأدلة أو خفائها، وليست في العلم أو الجهل بالدليل، وإنما في هوى النفس الصارف عن قبول الحق مهما كان ظاهرا! القضية ليست قضية خفاء وظهور في الأذهان، وإنما هي قضية ميل وتعلق في القلوب! هذا هو بيت الداء!

فهذا ونحوه يرجع إلى نفس نوع المرض القلبي، على تفاوت في درجته وشدته: مرض هوى الحصول على شيء لا يحصل إلا بالبقاء على الباطل، أو البقاء على شيء محبب يكره الإنسان أن يفوته إن تحول عن ذلك الباطل، أو الحرص على حال محببة يكره الزوال عنها إن تاب مما هو عليه، أو دخل في دين الحق

بعدما عرفه! فإن انفتح دون الواحد من أولئك المرضى باب للتأويل الجديد والتأصيل الحادث الذي يجتمع به التحلي بحلية الإسلام والتوبة بين الناس، مع البقاء على ذلك الباطل المحبب المرغوب في نفس الوقت، كان هو الملاذ والمفر لأكثر هؤلاء لا محالة، وكان له فيهم من الرواج ما لا يكون لغيره من الدعاوى والأفكار! وأعني بهذا من كان منهم معانيا من شدة ضغط المقربين إليه من المسلمين من حوله، وإلا فقد تتركب الأهواء في نفس أحدهم على نحو يحصل به الإغراق في الضلالة دون أن يجد في نفسه داعيا لتكلف تلك البدع والمحدثات باسم الدين حتى يوهم نفسه وغيره بأنه بها على خير وهداية! وهو ما يكون غالبا لمن يخالط أهل الضلالة والفسق مخالطة تامة، فلا يجد حوله ممن يحرص على طلب رضاهم عنه وصغو قلوبهم إليه، من يكره شيئا من تلك المصائب التي هو مغرق فيها غاية الإغراق! ولذا لا يجد داعيا في نفسه لإقناع أحد من الناس بأنه على خير خلافا لما يزعمون! فلو أن رجلا كان مغرقا آناء الليل وأطراف النهار في شرب الخمر على سبيل المثال، ولم يجد من حوله من الجلساء والخلطاء إلا من يشاركه ذلك الهوى ويرضاه له ويوافقه عليه تمام الموافقة، فلن يجد في نفسه ما يدعوه لتكلف تسمية الخمر بغير اسمها، لأنه لن يجد ما يدعوه لتكلف إقناع نفسه أو غيره بأنه بها ليس على ضلالة أو فسق (وإن كان يعلم ذلك من أمر نفسه في باطن نفسه)! ولكن إن قدر أن كان ذلك الفاسق محاطا بقوم فيهم من يحب ذلك منه ويرضاه له، وفيهم كذلك من يكرهه له ولا يرتضيه منه، مع كونه حريصا على

استرضاء أولئك الكارهين واستمالة قلوبهم إليه، فستجده إذن حريصا على إحدى خصلتين: إما أن يسعى في إخفاء ذلك الداء عنهم حتى لا يبغضوه من أجله (وهذا ما يكون غالبا إن كان يخشى بطش هؤلاء أو أذاهم)، وإما أن يسعى في التسويغ والتسويف والتماس الذرائع والأعذار أشكالا وألوانا حتى يريح نفسه من نصحهم ونكيرهم وإلحاحهم عليه بذلك! فإن وجد طريقا لإظهار نفسه في صورة الرجل الصالح السالم من التلبس بشرب الخمر المحرمة، مع بقائه في نفس الوقت على المجاهرة بتعاطي ذلك المشروب المسكر الذي يحبه، التمس تلك الطريق على سبيل الأولوية ولا شك، وإذا به يسمي مشروبه ذاك بغير اسمه، ويتخذ لتسويغه وأسلمته أو "شرعنته" غاية ما يجد عند أمثاله من الحيل والألاعيب والشبهات!

فهل خرج الدكتور مصطفى محمود من الإلحاد؟ الجواب: نعم! ولكن هل خرج من أصل الهوى والمرض القلبي الذي كان سببا في ردته وإلحاده من قبل من الأساس؟ الجواب: لا! ولو أنه خرج منه حقا وبرئ منه صدقا، لاعتزل الناس من فوره ولترك النشر والكتابة فيما كتب فيه، ولعكف على طلب العلم بدينه لسنوات طويلة على يد عالم من علماء السنة حتى يسلم له دينه من الدرن والدخن، وحتى تحصل له النجاة الأخروية التي يفترض أنه ما تاب إلا لينالها! ولكن ما هكذا صنع الدكتور ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال الدكتور بعدما أورد جواب المتكلمين في مسألة تسلسل الأسباب:

هذه هي أبعاد القضية الفلسفية التي انتهت بأرسطو إلى القول بالسبب الأول والمحرك الأول للوجود. ولم تكن هذه الأبعاد واضحة في ذهني في ذلك الحين. ولم أكن قد عرفت بعد من هو أرسطو ولا ما هي القوانين الأولى للمنطق والجدل. واحتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الغرق في الكتب وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس وإعادة النظر ثم إعادة النظر في إعادة النظر .. ثم تقليب الفكر على كل وجه لأقطع فيه الطريق الشائكة من اللّه والإنسان إلى لغز الحياة إلى لغز الموت إلى ما أكتب من كلمات على درب اليقين. لم يكن الأمر سهلا لأني لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذا سهلا. ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل .. ولقادتني الفطرة إلى اللّه .. ولكنني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء وضعف فيه صوت الفطرة حتى صار همسا وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغرورا واعتدادا .. والعقل معذور في إسرافه إذ يرى نفسه واقفا على هرم هائل من المنجزات، وإذ يرى نفسه مانحا للحضارة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات وإذ يرى نفسه قد اقتحم البر والبحر والجو والماء وما تحت الماء .. فتصور نفسه القادر على كل شيء، وزج بنفسه في كل شيء، وأقام نفسه حاكما على ما يعلم وما لا يعلم.

قلت: يقول الدكتور: احتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الغرق في الفلسفة، قراءة وبحثا وجدلا ومخاصمة! فلماذا احتاج إلى ذلك، مع أنه يعترف ويقر بأنه لو ترك نفسه لتستجيب لنداء الفطرة وداعيها الملح لحصل له من الإيمان ما حصل للصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان! لماذا؟ لأن المعرفة بما نازع عليه أولئك الفجرة المتغطرسون من فلاسفة الدهرية ومن سلك سلكهم من الطبيعيين وغيرهم، معرفة فطرية حاصلة في النفس ابتداء دونما اكتساب، وهي من بدهيات العقل السوي الصحيح، وهذا أمر يعرفه كل ملحد ويجده في نفسه مهما زعم أنه يخفى عليه! ولكن الأمر كما ذكر الدكتور: أنه لم يكن سهلا عليه الاعتراف بالحق الجلي الواضح لأنه هو من اختار ألا يجعله سهلا! لماذا؟ لأنه لو زعمه سهلا، ففي أي شيء كان هؤلاء الفلاسفة الكبار الذين دارت الأكاديميات الكبرى في فلكهم إذن، وكيف يثبت هو أهليته للعلو فيما بينهم كما يحب ويهوى؟ لقد اختار ألا يجعله سهلا لأنه كره أن يقابل بازدراء من كانوا من قبل يغدقون عليه الثناء بعلو العقل ورجاحته وبحداثة الفكر والبراعة في العلم .. إلخ! لأنه اختار منافسة القوم في صنائعهم المتنطعة وسفسطتهم الفاحشة، التي بها رفعهم الناس على الرؤوس والأعناق! هو من حركته نفسه بأهوائها لطلب الوفاق مع كثير من أولئك الفلاسفة المعظمين في زمانه والنظار الموقرين في عصره، الذين قلبوا الواضحات إلى نظريات والغيبيات إلى أوهام، وما تركوا مسلمة من مسلمات الفطرة إلا جعلوها محلا للجدل والخصام! فكيف تريد منه أن يؤمن ويسلم رقبته هكذا بكل سهولة وأريحية كما

سلم عامة المسلمين، ولا يبالي بما قاله هؤلاء "العظماء الكبار" (في عين نفسه المفتونة بهم) من اعتراض على مبدأ الدين نفسه، وعلى الغيب وما فيه؟ لابد إذن أن يمضي السنوات الطوال غارقا في كلامهم وكتبهم، فلا يكاد يخرج من ضرطة أحدهم حتى يبتلع قيء صاحبه أو برازه، أعزك اللّٰه! ثم يعتذر عن ذلك العبث والضياع بعدما أفنى فيه زهرة شبابه بأن ما سماه "بالعقل" إنما أسرف به صاحبه ذلك الإسراف البالغ، لأنه قد اغتر بإنجازات التكنولوجيا الحديثة في عصره من طائرات وصواريخ ... إلخ! فليس هو "العقل" (هكذا) يا دكتور الذي اغتر، وإنما هي قلوب فلاسفة العصر وأذنابهم، الذين جعلوا فلسفاتهم الطبيعية الغيبية بمنزلة العلم القطعي المنتهي، لا لشيء إلا لأن أولئك المنتسبين إلى صنائع البحث الطبيعي والتجريبي (جملة) قد تمكنوا من كشف جملة من سنن الكون التي سخر اللّٰه بها لهم أسبابا لاختراع الطائرة والصاروخ والتليفون المحمول والقمر الصناعي! ولو أن تلك القلوب سلمت من سموم الأهواء القاتلة، لوضعت كل شيء في موضعه الصحيح، ولما اختلط لديها البحث التجريبي النافع بالتنظير الميتافزيقي المتنطع، ولما تأثرت بتهاويل وسخافات أولئك الماديين الذين زعموا أن ترك تلك الزبالة الفلسفية عند الطبيعيين يلزم منه ترك أسباب التكنولوجيا الحديثة والصناعات المتطورة التي علا بها الغربيون في هذا الزمان علينا وتفوقوا! الذي اغتر بتلك الأشياء فتصور نفسه قادرا على كل شيء، ليس هو "العقل" بهذا الإطلاق يا دكتور،

وإنما هو الفيلسوف الطبيعي المغرور المستكبر، الذي استدرجه الله تعالى بكبره ومرض قلبه إلى الظن بأن عقله يغنيه ويكفيه!

وليست هذه سمة هذا الزمان وحده كما تدعي يا دكتور! بل كان ولم يزل في كل عصر فئة من رؤوس الفلاسفة المستكبرين المتعاظمين، الذين تأبى عليهم قلوبهم أن تخضع لما علمت بالفطرة أنه الحق الواضح المبين، فتزين لهم القول بأنهم قد صاروا في زمان قد أنجز "العقل" فيه من المنجزات الكبرى ما لم يعد من اللائق بهم معه أن يقبلوا مواريث الدين ودعاوى المرسلين هكذا "بسهولة" كما قبلها عامة الناس! أنؤمن كما آمن السفهاء؟ أندخل في الدين دخول العامة والدهماء؟ حاشا وكلا! من هنا ازدان لأولئك الفلاسفة أن يجعلوا من أقيستهم ونظرياتهم ومنجزاتهم الفلسفية تلك التي تصدروا بها بين الناس وفي أكاديميات العلوم: مفاتيح كل معرفة ووسائل كل هداية وطريق كل رشاد ومنبت كل خير ونفع، فلا تعد الدعاوى – أيا ما كان موضوعها - من جملة المعارف والعلوم حتى تعرض على نظرياتهم الكلية أولا، بل ولا يعد الإنسان عاقلا – من الأصل – حتى يعدوه هم من جملة العقلاء على شرطهم ومعيارهم الفلسفي المعرفي الذي تواضعوا عليه في زمانهم! هكذا حال الفلاسفة في كل عصر وفي كل زمان، بصرف النظر عن طبيعة تلك "المنجزات العقلية الكبرى " التي اجتمعت لهم، التي اختلفت أعيانها وآحادها بطبيعة الحال في زمان أرشميدس وأرسطو عما هي عليه اليوم في عصر أينشتاين وبلانك!

اختلفت النظريات والفلسفات والعلة واحدة، والمرض واحد، وغرور الفلاسفة وكبر قلوبهم هو هو، لا جديد فيه!

فلا تحدثنا بأن العقل معذور (هكذا)! فليس العيب على العقل من حيث كونه آلة مخلوقة للقياس والبحث والنظر، وإنما العيب كل العيب والمرض كل المرض في القلب المستكبر الذي يخضع العقل لصاحبه كما تخضع جميع آلات الجسد وأعضاؤه! وهو مرض لو أعذرنا به المصابين به للزمنا أن نعذر إبليس نفسه، الذي اغتر بما كان له بين الملائكة في السماء من حظوة ومنزلة وسلطان، فلما جاءه التكليف بالسجود لمخلوق بدا أهون منه في الخلقة والمنزلة أبى واستكبر وكان من الكافرين! فإن كنت أنت قد اغتررت بالطائرة والصاروخ يا دكتور، وتلتمس العذر لمن اغتر بتلك الأشياء من قبلك، فكيف لو ابتليت بما ابتلى الله به إبليس اللعين في السماوات العلا وفي جنة الخلد قبل أن يطرد منها؟

فالذي يسميه الدكتور "بالعقل" ها هنا، إنما هو تلك النفس الإبليسية المستكبرة المستنكفة عن الخضوع لربها وباريها، المعرضة عن قبول الحق الواضح الجلي الذي تجده مواطئا للفطرة والبداهة المغروسة فيها غرسا! تلك النفس المريضة التي كرهت الحق فأبت إلا التشقيق والتشغيب عليه بكل حيلة وبكل وسيلة!

لم يضعف صوت الفطرة في هذا الزمان حتى صار همسا كما تدعي يا دكتور، وإنما ضعف ذلك الصوت في أذني من أخذت تلك الفتنة وذلك الهوى الكاسح بتلابيب قلبه حتى ما ترك منه عرقا ولا مفصلا إلا دخله، نسأل الله السلامة! وهؤلاء كانت الأرض ولم تزل مبتلاة بحملهم وابتلاعهم من قديم، كلما هلك منهم جيل نبت من خلفه غيره حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فلا تقوم الساعة إلا عليهم! فلا هو داء خاص بهذا الزمان وحده، ولا هو عام في كل "عقل"، والله المستعان!

قال الدكتور:

وغرقت في مكتبة البلدية بطنطا وأنا صبي أقرأ لشبلي شميل وسلامة موسى وأتعرف على فرويد وداروين. وشغفت بالكيمياء والطبيعة والبيولوجيا .. وكان لي معمل صغير في غرفتي أحضر فيه غاز ثاني أكسيد الكبرون وثاني أكسيد الكبريت وأقتل الصراصير بالكلور وأشرح فيه الضفادع. وكانت الصيحة التي غمرت العالم هي العلم .. العلم .. العلم .. ولا شيء غير العلم. النظرة الموضوعية هي الطريق. لنرفض الغيبيات ولنكف عن إطلاق البخور وترديد الخرافات. من يعطينا دبابات وطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات؟؟ وكان ما يصلنا من أنباء العالم الغربي باهرا يخطف أبصارنا وكنا نأخذ عن الغرب كل شيء .. الكتب والدواء والملابس والمنسوجات والقطارات والسيارات وحتى الأطعمة

المعلبة حتى قلم الرصاص والدبوس والإبرة حتى نظم التعليم وقوالب التأليف الأدبي من قصة ومسرحية ورواية حتى ورق الصحف. وحول أبطال الغرب وعبقرياته كنا ننسج أحلامنا ومثلنا العليا .. حول باستير وماركوني ورونتجن وأديسون .. وحول نابليون وأبراهام لنكولن وكرستوفر كولمبس وماجلان. كان الغرب هو التقدم وكان الشرق العربي هو التخلف والضعف والتخاذل والانهيار تحت أقدام الاستعمار، وكان طبيعيا أن نتصور أن كل ما يأتينا من الغرب هو النور والحق، وهو السبيل إلى القوة والخلاص.

قلت: وهنا يظهر أصل الداء ومنبت البلاء، فالأمر كما قيل: فساد الانتهاء من فساد الابتداء!

إن في هذا الكلام لدرسا وعبرة لكل أب وكل أم وكل مرب، أن ينظر في المادة التي يعرض ولده لقراءتها والاطلاع عليها، لا سيما في فترة المراهقة وريعان الصبى ونعومة الأظفار، حيث يتشقق ذهن الصبي ويتطلع قلبه لبناء الشخصية واكتساب الميول وتقرير الوجهة والغاية والقيمة العليا! ومعلوم أن من شب على شيء شاب عليه، ومن تشرب قلبه بشيء في الصبا، صار من الصعوبة عليه بمكان أن ينقي منه قلبه في لاحق العمر إن أراد تخليته وتطهيره والبراءة منه! فهذا الصبي وجد نفسه من غير موجه ولا مرشد ولا مرب، ومن غير دليل يدله على ما يقرأ ولمن يقرأ وبأي شيء يبدأ وعلى أي منهج يتأسس،

ولماذا يقصد الكتاب – أي كتاب – ليطالعه ويقرأه من الأساس، إن كان فاعلا! بل لعله فرح به أبواه لما رأياه يتخذ لنفسه معملا للكيمياء في غرفة نومه، يأتي إلى البيت بكتب سارتر وروسو ونيتشه، ويقرأ لداروين وفرويد وكارل ماركس! اعلم – يرحمك اللّٰه - أن الوالد الذي يسمح لصبيه الصغير بأن يطلق يده في المكتبات هكذا جزافا بلا ضابط ولا منهج ولا ترتيب علمي صحيح، هذا مضيع لرعيته التي هو مسؤول عنها بين يدي اللّٰه تعالى! الذي يشجع ولده على القراءة الحرة غير المنضبطة، هذا كالذي يقول لولده: "مهما جاءك رجل لا تعرفه يدعوك ليعطيك قطعة حلوى فاذهب إليه ودعه يأخذك من يدك إلى حيث يريد، فلابد أن تجد في ذلك خبرة ودرسا تتعلمه لا محالة، وإلا فحسبك بالنزهة معه في الطريق!" فهل هذا كلام والد عاقل؟ هل يأمن الأب على ولده في ذلك من مجرم يخطفه أو يؤذيه أو يصنع به ما لا يعلمه إلا اللّٰه؟ أبدا!

فما باله يأمن عليه مما هو أعظم وأشد فتكا بالإنسان: كتب فيها فساد العقل والقلب والدين جميعا، وضياع الآخرة ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العلي العظيم؟ ما باله يأمن عليه من شبهة خبيثة من هنا أو هناك، تعلق بنفسه الغضة الضعيفة، وتزدان في عينيه بشيء من زينة الفلاسفة وحيلهم، فتقلب عليه قلبه وعقله، وتدفع به إلى حال لو مات عليها لحشر مع فرعون وهامان وأبي ابن خلف، نسأل اللّٰه السلامة؟ تجد الوالد من أولئك يتابع ابنه فيما يلبس وما يأكل وما يشرب وكذا، ثم لا يكلف نفسه يوما من الدهر أن يسأله ماذا قرأ اليوم، ولمن قرأ، ومن الذي دله على ذاك الذي قرأه، ومن الذي زكاه له في

هذا العلم أو ذاك؟ ولماذا يقرأ ما يقرأ أصلا وما نيته في طلب هذه المعرفة أو تلك، وما العمل الذي يرجو أن يترتب عليها لديه وما نيته فيه؟ ولماذا اتخذ في مكتبته من الكتب ما اتخذ؟؟ أليس هذا من مسؤولية الوالد عن ولده؟ بلى وربي، ولكن ما أكثر ما نفرط في ذلك!

هذا الصبي، مصطفى محمود، لماذا اتخذ في بيته معملا للكيمياء؟ لست أدعي أن ذلك أمر مكروه أو ممنوع أو مذموم في نفسه، أبدا! وإنما أسأل الوالد المربي الذي يقع في بيته مثل ذلك: هل سألت ولدك لماذا اتخذ ذلك المعمل الصغير في البيت، ولماذا صار يأتي بالضفادع ليشرحها في غرفة نومه؟ يجب أن تسأله، ويجب أن تسمع منه، ويجب أن تفتش في نيته وفي مقصوده ومحركه وفي أسباب تعظيمه ما يعظم وتحقيره ما يحقر، وأن تضبط وجهته في ذلك ما استطعت، على كتاب اللّٰه وسنة رسوله وهدي السلف رضي اللّٰه عنهم! فإن اللّٰه تعالى يقول: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)) [التحريم : ٦]! فكيف تقي ولدك النار وأنت لا تعلم عنه شيئا، ولا تدرى في أي شيء هو وإلى أي وجهة يميل؟

هذا صبي فتن بالعلم التجريبي والطبيعي فتنة بالغة من سنوات الصبا الأولى كما ترى ، فلم ير شيئا يستحق اسم "العلم" سواه، بل لم ير شيئا يستحق أن يعظم وأن يبذل الناس أنفسهم في طلبه والتماسه مثله! فهل هذا قلب سوي

صحيح؟ من أين تشرب بهذا الميل الجارف ومن الذي بثه في نفسه حتى تشبع به قلبه ذاك التشبع، إلى حد أن أصبح يلهو في البيت بتشريح الضفادع وتحضير أكاسيد الكبريت؟ كثير من الآباء في هذا الزمان يفرح بذلك ويجد فيه علامة خير، ودليلا على أن الولد مقبل على طريق يصبح بها "أحمد زويل" الجديد! لسنا نستنكر أن يجد الصبي في نفسه ميلا للبحث التجريبي وعلوم الطبيعيات! وإنما نستنكر أن تملأ تلك العلوم عليه قلبه حتى تصبح هي العلم لا علم سواها، ولا شيء يعلو عليها في أنواع المعارف وفنونها! إن أصل كل ضلالة وانحراف في بني آدم ما يكون في قلوبهم من الميول والأهواء! والقلب كالإناء، ينضح بما يملؤه! فمن تربى من الصغر على وضع العلوم والمعارف في منازلها الصحيحة، فلن يكون لديه علم أعظم من علم التوحيد والسنة، لأنه العلم الذي فيه نجاة الإنسان في الآخرة، دار الخلد والبقاء، وليست علوم السلامة الدنيوية والرفاهة العاجلة بأولى عند عاقل ولا أهم ولا أعظم من علوم السلامة الأخروية والنجاة بعد الموت! ولكن من أين يأتي التعظيم والإجلال لما حقه أن يعظم، وتقديم ما حقه أن يقدم، إن لم يعمل الوالدان على إشراب قلب الولد بتلك المعاني من أول يوم؟! هذا صبي لم يسمع من والديه كلمة علم إلا مقرونة بالطبيعيات ونحوها على ما يبدو، إن سمعها منهما أصلا! لم يدخل إلى وعيه من الصغر أن الدين علم بل علوم، وأنها هي العلوم الأعلى والأنفع والأعظم عند كل مسلم بالضرورة، وأن عليه أن يتدرج فيها حتى يستوفي القدر الواجب عليه وجوبا عينيا، الذي يصح به اعتقاده

وتصح به عباداته! من الواضح أنه لم يجد من يخاطبه بمثل ذلك تربويا، وإلا ما انجرف إلى حيث انجرف، وما انتهى إلى حيث انتهى! وإنما وجد من يشجعه على إطلاق اليد في المكتبات ليقرأ كيفما يحلو له، يعلمه أن القراءة فضيلة في نفسها وغاية في نفسها، وأنه كلما حشى صدره بالمزيد من القراءات وأطال فترة المكث في المكتبات كان ذلك خيرا له وأحسن! أما أن يسأله ذاك المربي لماذا قرأ لشبلي شميل (الفيلسوف اليسارى) أو لسلامة موسى (المفكر الاشتراكي النصراني) أو غيرهما ممن ضرب يده في كتبهم ضرب عشواء، فضلا عن أن يربيه من الأساس على ما يميل به عن مطالعة كتب أولئك المجرمين وعن الرغبة إليها، فلم يجد ذلك في بيته ولا حول ولا قوة إلا بالله!

هذا هو منبت الآفة والمرض في ذلك القلب الصغير أيها القارئ الكريم فانتبه، فإنك مسؤول عن ولدك كما كان أبوه مسؤولا عنه، مسؤولية الراعي عن رعيته!

ولا شك أن من ابتلاء الله تعالى لعباده أن ينشئهم في بيوت على غير السنة وعلى غير منهج السلف الصالح رضي الله عنهم! يولد الولد على الفطرة، ثم أبواه يسرتراه أو يماركساه أو يداروينا‌ه، ليغرق معهما فيما لا يعلمه إلا الله من أوحال الأهواء، وإلى الله المشتكى! ولكن إذا بلغ الصبي أن يميز ويدرك الحق من الباطل، فإن قلم التكليف ينزل عليه، ويصبح مخاطبا بالهداية التي بعث الله بها رسوله، ومطالبا بأن يكتسبها وأن يسعى في التماسها من مظانها وفي

طلب العلم بها، وأن يجاهد نفسه وأهواء قلبه طلبا لتمييز الحق من الباطل بالدليل الصحيح من الكتاب والسنة قدرما استطاع، لا أن يكون غاية حظه من الدين ما وجد عليه أبويه! فهذا علم لا يماري في وجوب طلبه على كل مسلم إلا مكابر مماحك! كيف يستقيم للمسلم أن يكون عبدا لله كما يحب ربنا ويرضى، إن لم يتعلم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الاعتقاد والعبادة، فيتعلم كيف يتطهر وكيف يصلي وكيف يصوم، من بعد أن يتعلم كيف يظن بربه ظن الحق الذي ينجو به المسلم من مهالك البدع وسبل أهل النار، ويتعلم كيف يدعوه دعاء صحيحا إذا دعا، وكيف يسلم من دعاء غيره معه، ومما هو أخفى من ذلك من أنواع شرك العبادة؟ الذي يفرط في تعلم دينه، ويكتفي بتقليد والديه فيما رآه منهما من صلاة أو صيام أو غير ذلك، هذا يعلم في الحقيقة أنه مقصر مفرط، وأن الدين إنما يؤخذ باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم لا باتباع الآباء، ولكن توهمه نفسه بأن العذر يتسع له يوم القيامة في ذلك التفريط، بسبب المشاغل أو بسبب الظروف أو بسبب كذا أو كذا، أو بمثل ما اعتذر به الدكتور مصطفى محمود فيما مر من كلامه!

يجب أن يدرك الآباء أن قلوب أبنائهم تأتي إلى هذا العالم وهي كالصحائف البيضاء، فإن أنت علقته بشيء وحببته إليه أحبه، وإن نفرته من شيء وبغضته إليه أبغضه! والمربي البارع هو من يدري كيف يصل لتحبيب ولده من سنوات عمره الأولى فيما حقه أن يكون أحب الأشياء إليه، وتبغيضه فيما حقه أن يكون أبغض الأشياء إليه! ولا شك أنه يحتاج إلى إعلامه بسبب وجوب محبة ما يريد

أن يحببه فيه، وضرورة بغض ما يريد أن يبغضه فيه، ولكن ينبغي أن تكون الثمرة المرجوة من التعليم في مراحل العمر الأولى هي غرس هوى الحق في تلك النفس الغضة الطرية، وإمالتها إليه وإلى مظانه وأسبابه وأهله وحملته، وإمالتها عن الباطل ومظانه وأسبابه وأهله وحملته، لا أن يكون تعليما لمجرد التعليم إبراء للذمة!

فتأمل كيف أنه هو نفسه يفاخر بتلك القراءات الغشماء العمياء التي أغرق نفسه فيها، أو يحدث بها معتذرا عن نفسه، كأنما يقول: لا تلوموني، فقد التمست سبيلا من الصبا في القراءة وبناء المعرفة والاعتقاد في نفسي، لا تملكون – أيها القراء – أن تلوموني عليه أو تستنكروه مني! ولا ينتبه المسكين إلى أن هذا هو أصل مرضه الذي أرداه في الإلحاد، ثم أركسه من بعد توبته في الجهمية والاعتزال، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هؤلاء الذين تربى الرجل على قراءة زبالتهم والغوص فيها، هم من أوردوه المهالك، إذ غرسوا في قلبه تلك البذرة التي عبر عنها الدكتور ببيان ما حصل له من تعظيم بالغ مفرط للغرب وما عندهم، وتحقير بالغ "للعرب" (كما سماهم) وما عندهم، حتى أصبح وارد الغرب كأنه وحي السماء الذي فيه صلاح العالمين! ولهذا، فحتى بعدما تاب الرجل من الإلحاد، وأراد التأليف في الدين، كان مما ألف كتاب سماه "القرآن: محاولة لفهم عصري"! فما معنى "فهم عصري"، ومن أين جاء الداعي لتحرير فهم يوصف بأنه "عصري"؟ ومن الذي أوهمك يا مسكين بأن المسلمين يحتاجون إلى من "يحاول" أن يأتيهم بذلك "الفهم العصري"، فضلا عن أن تأتي تلك

المحاولة من أمثالك ممن هم أجانب على علوم القرآن وعلوم الشريعة؟ وما مشكلتك يا دكتور في فهم القرآن كما فهمه السلف الأول رضي الله عنهم، ولماذا لا يكفيك كما كفى أئمة السنة وعلماءها ومن تابعهم من أهل السنة في كل عصر من عصور المسلمين إلى يوم الناس هذا؟ لا يكفيه لأنه لا يجد فيه ما يتبرر به أمام من أفنى شبابه في التشبع بفلسفاتهم وأهوائهم! لا يكفيه ولا يناسبه لأنه يكره أن "يتهم" بإيمان العوام وبأنه يأخذ التراث تحملا لا "فكر" فيه، وبأنه لم يدخل إلى الدين من مدخل يليق بتلك الفلسفات التي كان من قبل بارعا متفوقا فيها! لا يكفيه لأنه يهوى أن يظل محتفظا بمكانه بين أولئك المجرمين المتغطرسين بعد التوبة من الردة كما كان قبلها!

من هنا تنبت آفة الجهمية في كل عصر: تطويع الدين ونصوص الوحي لفلسفات العصر! ينشأ الناشئ منهم وهو غارق إلى أذنيه في فلسفات الدهرية وأضرابهم ممن سادوا فوق أكاديميات العلوم الدنيوية في زمانه، فيشب وهو لا يرى العلم إلا ما عند أولئك، ولا يرى العقل إلا فيما يحاججون به ويناظرون ويخاصمون، فإذا ما تشبع بذلك الهوى غاية التشبع، وجاءه أحدهم بدعوى أنه لا يرى دليلا على وجود البارى أو على صحة الإسلام، سارع المفتون إلى استعمال النظريات الميتافزيقية السائدة المعظمة عند أولئك الجحدة المستكبرين في عصره كمقدمات "ليثبت" لهم أنهم مخلوقون وأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد جاءهم بالحق من عند باريهم! لماذا؟ لأنه تربى على أنها هي العلم وهي القطع العقلي وهي المدخل إلى كل معرفة!

فهو وإن زينت له نفسه اعتقاد أنه ينتصر للدين والحق، فإنما ينتصر في الحقيقة لنفسه ولمكانه الذي يحب أن يحرزه بين "علماء العصر"، فما يريد على الحقيقة إلا أن يدفع عن نفسه "تهمة" التقليد في الإيمان وتهمة تجاوز تلك النظريات المعظمة كلها لقبول دعوى الرسول هكذا بلا "تحقيق" ولا "تدقيق" (أي من طريق تلك النظريات نفسها، لأن ما وافقها وناسبها عندهم فهو العلم، وإلا كان جهلا وخرافة)!

قال الدكتور في مقدمة الكتاب المذكور: "ما زال القرآن كتاب المسلمين المعجزة يتحدى العقول بعد ألف وأربعمائة عام من نزوله وكأنه نزل اليوم ليتحدث عن علوم اليوم وشواغل اليوم وأسرار اليوم وحروب اليوم .. وبين دفتيه سوف يفاجأ كل شغوف بعلوم الفلك والطبيعة والجيولوجيا والطب والتشريح والحياة بلمحات من هذه العلوم وبالجديد في علوم الباطن والنفس والروح وما وراء الطبيعة وبالجديد في عوالم الغيب وخفايا الزمن والمكان والمادة وبالجديد والمبهر في الأخلاق والدستور والشرائع والأديان." اهـ.

قلت: تأمل كيف يصرح الدكتور في صدر الكتاب بأنه إنما يريد أن يزين لكل شغوف مثله بتلك العلوم المذكورة أن يقبل الكتاب، لا لأنه كتاب هداية خالصة هي الحق المحض الذي توارثه المسلمون قرنا من بعد قرن، ولكن لأن كل شغوف من أولئك "سيفاجأ" فيه "بلمحات" مما هو شغوف به أيا ما كان! هذه، أيها القارئ الكريم، هي طريقة الجهمية في الدعوة إلى الله تعالى! لسان

الحال يقول: "تعال أيها المشرك المكابر وأيها الملحد الجاحد إلى الدين وإلى الكتاب والسنة، تجد فيهما ما يسرك ويشبع هواك! إن أردت نظرية الجوهر والعرض أو نظرية الهيولى والصورة، أخرجنا لك من النصوص ما يلائمها، وتكلفنا لك من براهين إثبات الصانع ما يقوم عليها أساسا! وإن أردت نظرية الانفجار الكبير أو نظرية النشوء والارتقاء، أخرجنا لك من الكتاب ما يوافقها! بل ولعلنا نبالغ في التفنن في التأويل والتحريف حتى نخرج لك ما يدل على أن الرب خاطب رسوله بتلك النظريات من قبل أن "يتوصل" إليها أصحابها بمئات السنين! المهم ألا تتهمنا بأننا قدمنا شيئا على تلك العلوم المعظمة في أكاديمياتكم ومعاهدكم الكبرى، أو بأننا آمنا بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن كتابا لرب العالمين من غير أن نعرض ذلك الإيمان على تلك العلوم أولا، معاذ الله!"

فالجهمي في الحقيقة إنما يدعو لنفسه لا للحق الذي جاء به الرسول، مهما زينت له نفسه الظن بأنه داع إلى الله ورسوله! فهو يعظم على نفسه ويثقل عليها - من كبره الخفي وغروره بعقله وبتلك الفلسفات التي تشبع بها – أن يقال له: "لقد آمنتَ كما آمن السفهاء والدهماء!"، تماما كما يكرهه الفيلسوف الدهري ولنفس المرض! لا يكون الإيمان سهلا ولا يكون الطريق إليه فطريا بدهيا، لأنه لو جعله كذلك لاتهم بسخافة العقل وخفته، وهو لا يكره شيئا في الأرض كما يكره أن تلحقه تلك التهمة! فلا يليق أن تكون الطريق التي أوصلت الدكتور مصطفى محمود إلى الإيمان بالله وإلى قبول الإسلام والقرآن، هي

نفس الطريق التي آمن بها الحاج أحمد البواب مثلا! ذاك العامي الجاهل الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعرض لعلوم الفلاسفة ونظريات الأكابر! بل يجب أن تكون الطريق أعقد وأدق، وفيها من الفلسفة والاستدلال النظري و"الفكر العميق" ما يناسب محل ذاك الشاب المرجو له (حالئذ) بين الفلاسفة ومنزلته المأمولة بين المفكرين، وإلا كان مقلدا في أصل الإيمان (فيما زعموا)، وإيمان من لم يتكلف النظر في وجود باريه (الذي سموه مقلدا!) مذموم عند الجهمية لأنه مذموم عند الفلاسفة! هذا هو بيت الداء أيها القارئ الكريم، فتأمله مليا وأنعم النظر فيه! فلولا الفرار من اتهام الفلاسفة والخوف من انتقاصهم له، والطمع في العلو عليهم بنفس بضاعتهم، ما تجهم الجهمي أصلا، وما تكلف شيئا من ذلك!

يا أخي أنت نجاك الله من الإلحاد، الذي هو أقبح وأشنع صور الكفر وأشدها عدوانا على رب العالمين على الإطلاق، وأشدها مرضا وإغراقا – بفلسفاتها الإجرامية الإبليسية – في محاربة الفطرة والبداهة وأفسدها للعقل والقلب معا، فأنقذك من الردة ومن الخلود في جهنم وبئس المصير بفضله ومنته وحده، فاتق الله في نفسك وفي قلبك وفي عقلك وفي عقول وقلوب المسلمين من حولك، أقعد في بيتك وابك على خطيئتك، واشتغل بنفسك المريضة وبدينك الكسيح، بعيدا عن الأضواء والضوضاء والجدل وذاك العبث الذي كنت فيه! ما حاجتنا إلى كتاب تحكي فيه طريقك من "الشك" إلى "الإيمان"؟ والله ما عرفت الإيمان الحق يوما وما هديت إلى طريق اليقين، ولو

هديت إليه لما كتبت ما كتبت، ولما كانت تلك حالك! أسس عقيدتك وعلمك بالله تعالى على أساس صحيح، من بعد تخلية قلبك من تلك الزبالة التي تشبع بها في الإلهيات والغيبيات، وفي طريق حصول المعرفة بهما لدى الإنسان (من حيث المبدأ)، التي أهلكت فيها ما أهلكت من عمرك! توجه إلى علماء السنة تعلم منهم واحن الركبتين عندهم، وارض بأن تكون تلميذا لهم من صغار طلبتهم المبتدئين كما هي منزلتك في علوم الدين، واصبر على طلب ذلك العلم الشريف ما بقي لك من العمر، لعل الله يصلح قلبك حتى يرجع إلى ما عليه قلوب العجائز من عامة المسلمين، ثم يختم لك بخاتمة السلامة! لا يعيبك والله أن تكون ذنبا في الحق الذي فيه نجاتك، فإن النجاة فضل من الله يؤتيه من يشاء، وأسباب حصولها ترجع إلى علوم مباركة يفني العالم في أحدها عمره فلا يرزق منها إلا بما تفضل عليه به ربه، فلماذا وبأي شيء تريد أنت – يا مسكين - أن تكتب وتؤلف في الدين والقرآن والإيمان، ولماذا تريد الخوض بالكتابة والنشر في السنة والتأويل، وأنت بعد ما زلت تحبو زاحفا من حمأة الكفر والردة ومن كبر الفلاسفة الذي ترجو الفرار منه، تدفع بقدم وتسحب الأخرى من خلفها سحبا؟ لو صدقت في تعظيم رب العالمين بما هو أهله لعظمت كتابه وسنته ولعرفت للعلم بهما قدره ومنزلته، ولنزهته عن أن يخوض في الكلام فيه من كانت حاله كحالك، يا من كنت بالأمس القريب لا تجد شيئا أحب إلى نفسك من سب رب العالمين والحط عليه في كل مناسبة، سبحانه وتعالى وتقدس! فما بالك يا هذا وما شأنك، ألا تستحي؟؟ هل تبت من الردة

لأنك تخشى الله حقا وتريد السلامة في الآخرة، أم لأنك رأيت في التوبة طريقا للتصدر والتقدم بين الناس بالعقليات والنظريات ونحوها لم تجد نظيره في الإلحاد؟ هذا سؤال أتوجه به لكل تائب من الردة تحدثه نفسه بالكتابة والدعوة والخوض في القرآن والسنة وأصول الدين لا لشيء إلا لأنه قرأ في الفلسفة ما قرأ وخاض مع الفلاسفة ما خاض، فأدعوه لأن يخلو بنفسه وأن يطرحه عليها وأن يتجرد من الهوى عند التأمل فيه لأن الخطب عظيم، ولأنه ليس بعد الدين شيء يُخاف عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

إنني أكتب هذا الكلام وأنا أعلم أن من أنصاف المتعلمين ومن الحزبيين وأضرابهم من سيثور منه ويغضب ويقول: أنت تريد أن تحرم الناس خيرا قد جعله الله سببا في هداية كثير من الحيارى وشفاء كثير من المرضى! فما أقول إلا: إنا لله وإنا إليه راجعون! الذي ظن أن شفاء الدهري الملحد والمتشكك ونحوهما هو في بضاعة الجهمي المتكلم، هذا - والله - من يحتاج إلى العلاج والشفاء حقا، وهو من لمثله كتبت هذا الكتاب! نعم إن بعض الناس قد تعلق في أذهانهم شبهات من تعرضهم لزبالة الفلاسفة، فلا تندفع إلا بالرد المفصل، فهو إذن واجب على من يحسنه! ولكن كيف يكون ذلك الرد؟ على منهج السلف وأئمة السنة أم على منهج الجهمية المتكلمين؟ هذا هو السؤال! فمن عمد إلى نظريات فلاسفة العصر ليتخذها مقدمة للإثبات أو النفي في الغيبيات، أو مستندا لفهم نصوص الوحيين، معتقدا أن ذلك ما تندفع به الشبهة ويحصل به اليقين، فهذا على طريقة الجهمية المتكلمين! ولا يسلك

أحد من الدعاة ذلك المسلك الخبيث إلا من افتتانه هو نفسه بتلك النظريات ابتداءً، ومن حرصه على إظهار العلم بها والتمكن منها بين أصحابها، لعله يحظى بشهادة من القوم بأنه ليس مؤمنا بدينه على الرغم من علمه بها وتمكنه منها، من غير التفات لما قد وقع عند بعض الفلاسفة من اعتضاد بها في دهريتهم، بل إنه مؤمن بدينه بسببها وبالتأسيس عليها، وبنفس أنواع البراهين التي استعملها الدهريون في نفس الأمر! فلو صدق هؤلاء لجعلوا تلك الطريقة سببا في إكساب اليقين بنظريات الفلاسفة وعدوانهم العريض على غيب السماء والأرض، وبصحة منطقهم في الاستدلال في تلك الأبواب، لا بصحة الدين التي أسسوها على تلك النظريات ببراهين فيها من النطاعة ما فيها! ولو صدق هؤلاء لأدركوا أن ما أسسوه من الدين على تلك النظريات فإنما هو مرهون بها، يقوم بقيامها ويسقط بسقوطها! فكأن لسان حالهم يقول لمن يخاطبونه بتلك البضاعة: إن كان إيمانكم قد أصيب بسبب يقينكم في تلك النظريات، فسنثبت لكم أنه لا تعارض بينهما، بل وسنبرهن لكم على صحة الدين من طريقها هي نفسها! وإذن فالدين كله من أوله لآخره يصبح تبعا لتلك النظريات! فإذا تغيرت أو انصرف الفلاسفة عنها إلى غيرها في عصر من العصور، تحول الجهمية إلى ما اتفقوا عليه في محلها، ليجعلوه هو الأساس الميتافزيقي للدين والاعتقاد، وليكون هو طريق نقل الملحدين من الشك إلى اليقين (زعموا)، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولا يقولن قائل: "الدكتور كتب الكتاب من أجل أن يعترف بتلك المسألة، وكلامه المنقول ظاهر في ذلك، فما بالك تؤاخذه على ذلك؟" فصحيح إنه أدرك سبب الآفة، إلا أنه رحمه الله وغفر له لم يتعاف من المرض ولم يخرج منه كما توهم، وكما يتوهمه من يقرأ الكتاب، بل يظن أن ما انقلب إليه هو علاج الإلحاد الذي كان قد وقع فيه وهو المخرج منه، وهذا ما يوجب علينا البيان حتى لا يغتر به الشباب في عصر الإنترنت، الذي لا يدري أحدهم فيه لمن يقرأ وعمن يأخذ، ولا يرفع فيه كتاب على كتاب ولا كاتب على كاتب إلا بالشهرة الإعلامية، وإلى الله المشتكى!

قال الدكتور مواصلا حكاية قصة إلحاده (ص. ١٠-١١):

> وتعلمت ما تعلمت في كتب الطب .. النظرة العلمية وأنه لا يصح إقامة حكم بدون حيثيات من الواقع وشواهد من الحس. وأن العلم يبدأ من المحسوس والمنظور والملموس وأن العلم ذاته هو عملية جمع شواهد واستخراج قوانين. وما لا يقع تحت الحس فهو في النظرة العلمية غير موجود، وأن الغيب لا حساب له في الحكم العلمي. بهذا العقل العلمي المادي البحت بدأت رحلتي في عالم العقيدة. وبالرغم من هذه الأرضية المادية والانطلاق من المحسوسات الذي ينكر كل ما هو غيب، فإني لم أستطع أن أنفي أو أستبعد القوة الإلهية. كان العلم يقدم صورة عن الكون بالغة الإحكام والانضباط.. كل شيء من

ورقة الشجر إلى جناح الفراشة إلى ذرة الرمل فيها تناسق ونظام وجمال. الكون كله مبني وفق هندسة وقوانين دقيقة. وكل شيء يتحرك بحساب من الذرة المتناهية في الصغر إلى الفلك العظيم إلى الشمس وكواكبها إلى المجرة الهائلة التي يقول لنا الفلك إن فيها أكثر من ألف مليون (مجرة) [3]. كل هذا الوجود اللامتناهي من أصغر إلكترون إلى أعظم جرم سماوي كنت أراه أشبه بمعزوفة متناسقة الأنغام مضبوطة التوزيع كل حركة فيها بمقدار.. أشبه بالبدن المتكامل الذي فيه روح. كان العلم يمدني بوسيلة أتصور بها اللّٰه بطريقة مادية. وفي هذه المرحلة تصورت أن اللّٰه هو الطاقة الباطنة في الكون التي تنظمه في منظومات جميلة من أحياء وجمادات وأراض وسماوات. هو الحركة التي كشفها العلم في الذرة وفي البروتوبلازم وفي الأفلاك. هو الحيوية الخالقة الباطنة في كل شيء .. أو بعبارة القديس توماس: الفعل الخالص الذي ظل يتحول في الميكروب حتى أصبح إنسانا ومازال يتحول، وسيظل يتحول إلى ما لا نهاية! والوجود كان في تصوري لا محدودا ولا نهائيا. إذ لا يمكن أن يحد الوجود العدم .. والعدم معدوم.. ومن هنا يلزم منطقيا أن يكون الوجود غير محدود ولا نهائي. ولا يصح أن نسأل من الذي خلق الكون، إذ إن السؤال يستتبع أن الكون كان معدوما في البداية ثم وجد، وكيف يكون لمعدوم كيان؟ إن العدم

---

[3] لعله يقصد: نجم.

معدوم في الزمان والمكان وساقط في حساب الكلام ولا يصح القول بأنه كان. وبهذا جعلت من الوجود حدثا قديما أبديا أزليا ممتدا في الزمان لا حدود له ولا نهاية. وأصبح اللّٰه في هذه النظرة هو الكل ونحن تجلياته. اللّٰه هو الوجود، والعدم قبله معدوم. هو الوجود المادي الممتد أزلا وأبدا بلا بدء وبلا نهاية.

قلت: تأمل كيف يصل الإغراق في المنهج التجريبي وفي مصادره الفلسفية عند الطبيعيين، بالإنسان إلى الدهرية المحضة، واعتقاد أنه لا موجود إلا ما يطاله الحس بالفعل أو بالقوة، وأنه لا معرفة ولا علم أصلا إلا ما يحصل في النفس من طريق الحس، أو القياس على المحسوس بصورة ما أو بأخرى، وكيف يصبح العلم (بهذا الإطلاق) إنما هو طرائق التجريبيين (لا سيما الطبيعيين) في وضع النظريات واستقراء القوانين والسنن السببية! من ترك أولاده ليتربوا على مثل ما تربى عليه هذا الرجل، فلا يتوقعن فيهم إلا مثل ما أصابه، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه! ولا شك أن في هذا الكلام ما يكشف خطورة ترك المسلمين ليغرقوا في كتب فلاسفة الطبيعيات ونظارهم المعاصرين، وفي كتب ما يسمى بالطريقة العلمية Scientific Method وفلسفة العلوم دون أن يكون قد تحصل لديهم من قبل الأساس الاعتقادي والشرعي والأصولي اللازم لصيانتهم مما هو فاش في تلك المصادر من فلسفات دهرية طبيعية محضة، سواء في العقائد الغيبية وما وراء العالم أو في طرق الإثبات والنفي في تلك البابة (مصادر حصول المعرفة بها)! وها أنت ترى

مصداق ذلك في قول الدكتور: "بهذا العقل العلمي المادي البحث بدأت رحلتي في عالم العقيدة."، ثم تفصيله لما أجمل تسميته "بالعقل العلمي المادي" في قوله: "كان العلم يقدم صورة عن الكون بالغة الإحكام والانضباط.. كل شيء من ورقة الشجر إلى جناح الفراشة إلى ذرة الرمل فيها تناسق ونظام وجمال. الكون كله مبني وفق هندسة وقوانين دقيقة. وكل شيء يتحرك بحساب من الذرة المتناهية في الصغر إلى الفلك العظيم إلى الشمس وكواكبها إلى المجرة الهائلة التي يقول لنا الفلك إن فيها أكثر من ألف مليون (مجرة). كل هذا الوجود اللامتناهي من أصغر إلكترون إلى أعظم جرم سماوي كنت أراه أشبه بمعزوفة متناسقة الأنغام مضبوطة التوزيع كل حركة فيها بمقدار.. أشبه بالبدن المتكامل الذي فيه روح" اهـ.

فلعل من القراء من يتساءل: وما علاقة الطريقة التجريبية والعلوم الطبيعية بالاعتقاد والغيبيات أصلا؟ والجواب: العلاقة تكمن في الأساس الفلسفي الميتافزيقي لتلك الطريقة عند فلاسفتها ونظارها الدهريين، وفي المنهجية المعرفية المعتمدة في بناء ذلك الأساس نفسه لدى الطبيعيين! هذا الأساس من تشبع به وبالقراءة فيه، كما وقع للدكتور مصطفى محمود، إنتهى إلى تلك النهاية أو قريب منها، نسأل الله السلامة! فهو في هذا الكلام إنما يتكلم عن الغيب وما في الغيب وما يتعلق به من معرفة واعتقاد، مستندا إلى نظريات الطبيعيين في نفس الأمر، مبينا أنه كان يعتقد أنها هي العلم ولا علم غيرها! فعند الطبيعيين أنه ليس فيما يغيب عن محسوسنا إلا ما هو نظير ما يطاله

الحس لا محالة (وهو ما عليه جوزوا قياس الغائب على الشاهد بلا قيد ولا شرط ولا حدا)، وعندهم أن ما نراه حاضرا في تجربتنا البشرية من سنن الأسباب وقوانينها، فلابد أن يكون مطردا في جميع أنحاء السماوات والأرض مهما امتدت، وأنه كذلك ضارب في الماضي والمستقبل بلا حدّ ولا نهاية، إلا ما قد ينتج من ذلك القياس نفسه (كقولهم ببداية العالم كما نعرفه، أو الكون على هيئته الحالية، في نقطة في الماضي السحيق، تأسيسا على دعوى التوسع المطرد في كلتا جهتي الزمان!)! وما ذاك إلا لأن فلسفة الطبيعيين الغربيين قامت على ميتافزيقا فلاسفة اليونان القدماء، التي يستجيز بها الفيلسوف أن يضع لنفسه "نظرية" شاملة تصف بناء العالم بأسره من أوله إلى آخره، بناء على القياس على بعض أجزائه المنظورة! فإذا جاز في ذهنه أن يجرد بعض المحسوسات إلى نوعين تتركب منهما تلك المحسوسات، فلابد وأن يجوز ذلك في جميع أنحاء العالم، وإذن يحصل الانتقال من الجواز إلى الوقوع بلا مرجح إلا هوى الواحد منهم في أن يتحصل لديه "علم" بماهية الكون وحقيقة ما في الغيب، حتى ينافس به الأنبياء فيما سودهم الله به على عموم البشر من علم بما في الغيب! فأنت حينما تتأمل في نظرية الجوهر والعرض الأرسطية مثلا، أو في نظرية الجوهر الفرد عند ديموقريتوس أو غيرها، فلا تملك إلا أن تتساءل: من أين جاء التعميم في أي منهما؟ كيف يصل الفيلسوف إلى ترجيح القول بأن العالم كله، المحسوس منه والغائب على السواء = يتركب من تلك العناصر التي افترضها، إن سلمنا تنزلا بوجودها

في الأعيان أصلا؟ لا شيء إلا شهوة التنطع على الغيب بنظريات تكون هي أساس الاعتقاد الغيبي عند الدهرية في محل اعتقادات أهل الأديان! فصحيح إننا نجزم بأن كل شيء في العالم، "من ورقة الشجر إلى جناح الفراشة إلى ذرة الرمل فيها تناسق ونظام وجمال"، إلا أننا لم نصل – معاشر العقلاء من المسلمين السالمين من ميتافزيقا الطبيعيين – إلى هذا الجزم بناء على تلك النظريات المتنطعة عند الطبيعيين، وإنما قلنا به وشهدنا به بموجب البداهة الأولى والقطع النقلي معا!

هذا الفارق في مصدر التلقي المعرفي، أيها القارئ الكريم، فارق مهم ومؤثر للغاية، وإن اتحد ظاهر النتيجة المنتهى إليها في ذلك الكلام المجمل الذي قرره الدكتور! فهو الفارق بين من أسس إيمانه بالغيب وما فيه على الفطرة النقية أولا، ثم على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وما أثر عن أصحابه ثانيا، وبين من سلك مسلك الدكتور الذي عبر عنه بقوله: " بهذا العقل العلمي المادي البحت بدأت رحلتي في عالم العقيدة"! فليس هو "عقلا علميا" في الحقيقة وإنما هو عقل دهري ضال، قد تشبع أولا باعتقادات ميتافزيقية دهرية، وبنظرية المعرفة الدهرية (إبستمولوجيا الطبيعيين) ثانيا، ثم أخذ في عرض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من دعاوى بشأن الغيب المحض وما فيه (من غيب الزمان والمكان) على تلك الأسس والأهواء لديه، يسميها باسم العلم والعقل العلمي زورا وبهتانا، فإن وجد في نفسه من الهوى ما يحمله على إعلان إيمانه بالباري جل في علاه والتصريح به، تكلف من

تحويل وتبديل العقائد الدينية ما يلزم حتى تظهر على وفاق لما انعقدت عليه نفسه من قبل من اعتقادات وأهواء بشأن الغيب وما فيه! وإن لم يجد ما يدعوه لإعلان التمسك بهذا الدين أصلا، بل وجد ما يدعوه لضد ذلك، فستراه يعلن البراءة منه، وقد يبلغ أن يعلن الحرب عليه مستندا إلى نفس النظريات في نفس الأمر، يقرر أنه لا يجد معها متسعا لتلك العقائد أصلا!

والظاهر أن الذي وقع من الدكتور مصطفى محمود في هذا الشأن أنه وجد نفسه في أول الأمر عاجزا عن التصريح بانتفاء وجود الباري جملة واحدة، متهيبا من أثر ذلك على علاقته بالمسلمين من حوله، فتأول حقيقته سبحانه وتعالى بأنه هو "الكل" وهو القوة الكامنة في الكون المتجلية في كل حركة وكل تغير ... إلخ، كما هي عقيدة الوثنيين الهنود ونحوهم! ولو أنه ترجح لديه (من أهواء عقله الباطن) تمام السلامة مما يكره والغنيمة بما يحب إن هو صرح بأنه لا يرى الباري إلا محض خرافة ووهم، لأعلن الحرب الصريحة على مفهوم الإله وعلى مبدأ الدين نفسه رأسا، بل ولربما بلغ في تلك الحرب ما بلغه كثير من دعاة الإلحاد الجديد المعاصرين في أوروبا (أمثال الهالك كريستوفر هيتشينز وريتشارد دوكينز وسام هاريس وغيرهم)، من تسفيه شنيع واتهام صريح للدين وأهله. ولكن من الواضح أنه لم يرجُ لنفسه مغنما في تلك المفاصلة الهجومية كما رأوا هم لأنفسهم (وإن كانت مما يستطيبه ويستحسنه منه عتاة الفلاسفة في زمانه ولا شك)، فالتمس لنفسه قرمطة باطنية وتأصيلا وثنيا مما يجد معه متسعا لأن يقول إن سئل عن دينه: "أنا أؤمن باللّٰه ولست

أجدده"، مع أنه كان حينئذ في واقع الأمر ملحدا ماديا مكذبا، متشبعا بفلسفات معاصريه من الدهرية الطبيعيين والماركسيين حتى الثمالة! فإن أصر سائله على استفصاله عن عقيدته في الله تعالى، قرر فيها ما قرره آنفا من اعتباره هو الطاقة الكامنة أو القوة المحركة أو العقل الفعال أو لقال كما قال أينشتاين (الذي كان يعتقد أن الله هو القوة المحركة للطبيعة، مع كونه لا يوصف بصفات الذوات من الفعل والإرادة والحياة ونحوها مما يستوجب الإيمان بما أرسله من الرسل وما أنزله من الكتب سبحانه وتعالى علوا كبيرا)! فالملحد على أي حال لا يلتمس اعتقادا من عقائد الملاحدة (دهريين كانوا أو وثنيين أو ما شابه) إلا ليتحرر بالأساس مما كره واستثقل من تكليف الدين، سواء كان ذلك الاستثقال نابعا من حرصه على التزلف للفلاسفة المعظمين في زمانه والتبرؤ مما يسفهون أهله والداعين إليه، أو كان نابعا من حرصه على التلذذ بشهوات جسده بلا حدّ ولا ضابط ولا مانع ولا رقيب ولا حسيب! ولهذا تجد التحرر من كافة تكاليف الدين هو الوصف المشترك والحد الجامع لكافة طوائف الملاحدة في كل زمان ومكان! وغالبا ما يجد صاحب الدافع الأخير لنفسه جُنة وملاذا في كتابات أصحاب الدافع الأول، يتطفل عليهم في شبهاتهم وفلسفاتهم ونظرياتهم ودعاواهم السوفسطائية التي يتفننون بها لإيهام أنفسهم وغيرهم ممن حولهم بأنهم أصحاب ذريعة معتبرة في مفارقة الدين والتشكيك في صحته! فإن زين له هواه المصادمة الصريحة مع أهل الدين، قال إنني ملحد Atheist أقطع بأن الغيب ليس فيه رب خالق ولا شيء مما

تزعمون! وإن جبن عن ذلك أو رأى أن في نزوله عن الجزم بذلك الاعتقاد ما يخفف عليه من المكاره التي يجدها ممن حوله من المقربين ومن سواهم في مجتمعه المباشر، أو يمكنه من بعض المحبوبات التي يشتهي إصابتها في ذلك المجتمع، لم يجد مانعا من أن ينتقل إلى القول بأنه "متشكك" أو "لاأدري" (على الصبغة القوية أو الضعيفة من اللاأدرية) أو "متوقف" أو "لاديني" ... إلخ، وأنه لا يزال مشتغلا بالبحث عن "أدلة" صحة الدين! المهم أن يظل في جميع أحواله متترسا بذريعة فلسفية تدفع عنه ما يكره وتجلب له ما يحب!

تأمل قول الدكتور: "ثم بدأت أفيق على حالة من عدم الرضا وعدم الاقتناع، واعترفت بيني وبين نفسي بأن هذه الفكرة عن الله فيها الكثير من الخلط. ومرة أخرى كان العلم هو دليلي ومنقذي ومرشدي. عكوفي على العلم وعلى الشريحة الحية تحت الميكروسكوب قال لي شيئا آخر." اهـ.

قلت: فبعدما قرر أن الفكرة الأولى عن الله تعالى، التي حاول بها أن يتخذ لنفسه موقعا بين فلاسفة المادية التي تشبع بها من نعومة الأظفار، لم تكن تحقق له ما يطمع فيه ولم توصله إلى ما يريد، انتقل إلى صياغة فكرة أخرى بناء على نفس الفلسفات ونفس المسلمات والمنطلقات المادية الطبيعية! لماذا؟ لأن الانطلاق منها والانتهاء إليها والدوران في فلكها هو غاية المرام عنده أصلا! لأن شهوة أن يصبح في يوم من الأيام كأمثال أينشتاين أو نيوتن أو ماركوني أو ماكسويل أو غيرهم ممن صاروا بين الفلاسفة الأكاديميين

المعاصرين أئمة ورؤوسا لا تدانيها رؤوس، كانت هي المحرك الأول لديه لأن يتلبس بكل قول وكل ظن وكل اعتقاد يحببه إلى هؤلاء وأتباعهم ما أمكنه ذلك! فإذا كان من فلسفة هؤلاء أن يجعلوا الاعتقاد الديني بشأن الغيب وما فيه تابعا لنظرياتهم الجارية بين أيديهم في معاهدهم وأكاديمياتهم كيفما كانت، فلابد وأن يكون هو كذلك على مثل ذلك! هذه مسألة تتحرك بها النفس في باطن العقل من غيرما انتباه أصلا، أي أني لا أزعم أن الدكتور مصطفى محمود كان يجد في نفسه صوتا يحدثه بأنك يجب أن تكون على نفس عقيدتهم في الغيب إن أردت أن يرضوا عنك! أبدا! وإنما هي سنة كونية في نفوس أهل الزيغ تتحرك بها ميولهم وأهواؤهم من حيث لا يشعرون، كما في قوله تعالى: ((وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)) الآية [البقرة: ١٢٠]، فهل صرحوا يوما بذلك؟ أبدا! بل هل حدثتهم نفوسهم بذلك المعنى فيما يجدونه في وعيهم وما يتحرك في أذهانهم من الأفكار؟ لا أظن ذلك! ومع هذا، فهو المحرك الخفي الذي به يتحرك ميل القلب عندهم: أن يكون دين أحدهم تابعا لرضا من يرجو رضاهم من مجتمع الناس من حوله، وألا يحب – إذن – ولا يرضى عن إنسان حتى يكون على ملته التي ارتضاها الناس له هو نفسه من قبل! لهذا لزمه أن يقول: "مرة أخرى كان العلم هو دليلي ومنقذي ومرشدي"! فهو يعلم أن أولئك الذين التمس رضاهم عنه لن يرضوا حتى يكون ما يسمونه هم "بالعلم" هو دليله ومنقذه ومرشده، كما هو أصلهم في نظرية المعرفة وفي طريق تحصيل العلم بما في الغيب إثباتا

ونفيا! ما معيار القول الفصل من القول الخلط في ذلك الغيب العظيم عندك أصلا يا دكتور، إن كان ما تسميه بالعلم هو هاديك فيه ودليلك ومنقذك ومرشدك؟ المعيار ما ارتضاه الفلاسفة الكبار من مقياس ومنظار، وإلا فلا عقل ولا علم ولا شيء مما نشتهي الانتساب إليه والتعلق منه بطرف! ما كان الدكتور في تلك الفترة ليجد في نفسه ما يحمله على النظر في كتب السنة أو في تراث علماء السنة وأئمة السلف رضي الله عنهم ولا شيء من ذلك، لماذا؟ لأن ذلك كله عنده لم يكن "علما" أصلا، وإنما العلم ما يكون في المعامل والمراصد في المعادلات الرياضية والنظريات التجريبية! أما ذلك الموروث فهو "الدين" أو "الإيمان"، تلقاه الناس بالوراثة جيلا بعد جيل، فمن أراد أن يحظى بكرامة الفلاسفة فلا يقبل منه شيئا حتى يعرضه على "العلم" أولا! من هنا نشأت ثنائية ما سماه "بالعلم" وما سماه "بالإيمان" عنده، كما نشأت عند كثير ممن تشبع بالقراءة لهم، وهي تلك الثنائية التي ظلت مسيطرة على فكره إلى آخر عمره! وبالتأمل تجد أنها هي نفس الثنائية التي نبع منها كلام الجهمية الأوائل وتنظيرهم وتأويلهم ما أولوا، إذ كانت المشكلة الأساسية عندهم جميعا تتمثل في العثور على طريق لتسويغ الإيمان الديني، بحيث يكون ذلك الطريق مقبولا بين أوساط الفلاسفة الأكاديميين المعظمين في عصرهم، أو من سماهم أصحاب تلك الأكاديميات بأهل "العلم" و"العلماء"! فإن قام الإيمان على برهان "علمي" بحسب مقياس هؤلاء وميزانهم

ومفهومهم للعلم والمعرفة، كان جديرا بأن يبقى عليه صاحبه، وإلا كان مما يشان به ولا كرامة!

ومن هنا يظهر للقارئ الكريم شدة الارتباط بين العلة القلبية من تحت الإلحاد والدهرية، والعلة القلبية من تحت الكلام والجهمية، وأنهما يرجعان جميعا لنفس المرض ولنفس الميول القلبية إجمالا! فمن بدأ "رحلته" بالإلحاد والدهرية، فأغلب الظن أنه لن يتوب عنهما إن تاب إلا إلى الكلام والجهمية! اللهم إلا أن يرحمه ربه رحمة واسعة، فينزع عن الفلسفة وعن النظر فيها جملة واحدة، ويباعد بينه وبينها وبين مظانها غاية المباعدة، ويخضع رقبته – مع ذلك - لعلماء السنة في زمانه، يهاجر إليهم هجرة الملهوف الفارّ بدينه، يبدأ طلب العلم على أيديهم كأي عامي مبتدئ، ولا أحسب أن أحدا ممن ابتلي بالردة والإلحاد في شبابه وطال خوضه في الدهرية وفي فلسفاتها لسنوات طويلة، انتهى في آخر عمره إلى السلامة من تلك الأهواء كلها والموت على السنة، والله المستعان! بل يظل حريصا على منافسة الفلاسفة في بضاعتهم وعلى الظهور بين الناس بعقله، مغرورا برأيه حريصا على عرض النصوص عليه، فإن وافقته قال بها، وإلا ردها أو تأولها! ولهذا عظم تحذير السلف رضي الله عنهم من الفلسفة وبضاعة الفلاسفة وبالغوا في ذلك أشد المبالغة، لأن الضرر والخطر ليس في عمل الذهن في سفسطة القوم وحسب، وإنما الضرر كل الضرر في ميل القلب إليها وتعلقه بها بعدما كان منها في سلامة وعافية! الضرر ماثل في افتتان المسلم بطريقة هؤلاء الأبالسة المستكبرين في تكلف

أنواع الاستدلال المنمق والبرهان المدقَّق بالغ التنطع للإثبات والنفي في البدهيات الأولى، وللإثبات والنفي في المغيبات المحضة! الضرر في أن يصغو قلب المسلم للسفسطة والتنطع المحض، حتى يصبح عقله نفسه (فضلا عن دينه واعتقاده) رهينا لأهواء المجرمين من أصحاب تلك البضاعة الفاتنة الجذابة! إن أرادوا أن يشككوه في مسلمة من مسلمات البداهة أو ضرورة من ضروريات الملة قذفوا عليه شيئا من أوساخهم بالغة الزخرفة ساحرة البيان، فعلق في قلبه ذلك السفه المزخرف فأهلكه، وهو – مع ذلك – يرى نفسه عبقريا فذا إذ استطاع أن يتكلف نظيره (في النظم وفي طريقة الاستدلال والقياس) عند المخاصمة، حتى يثبت لهم بالبرهان النظري الذي طلبوه أن ما كان يراه من قبل مسلمة من مسلمات البداهة هو حق يجب قبوله! فإذا ما استدرجوه إلى ذلك العبث، وأغرقوه معهم في أوحالهم، صارت المسلمات عنده أقيسة ومبرهنات والغيبيات آراء ونظريات، وساخت الأرض من تحت قدميه وتقلب المسكين بين المناهج والملل والنحل كما يبدل الرجل نعليه، وهو - مع ذلك - يحسب من غروره بعقله وإعاجبه برأيه وفتنته بتلك الشقاشق، أنه صاحب نظر ثاقب وحجة بالغة وبرهان رائق، بل ويزعم إذ اخترع لنفسه نظرية كلامية يرجو أن تلحقه بالأكابر المعظمين عنده، أنه قد اهتدى أخيرا إلى طريق اليقين وسبيل الهداية والرشاد، وأن العامة من المسلمين من أهل عصره مفتقرون جميعا إلى ما لديه من بضاعة في ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولهذا لا تجد لمثله شفاء من ذاك الغرور ولا زوالا عنه في العادة، لأنه على ما قد يعترف به من ضياع وضلال سابق حال إلحاده ودهريته، لا يرى نفسه إلا بطلا من أبطال العقليات، قد خاض تلكم المضايق الحرجة فخرج منها بتلك "الزبدة" و"الخلاصة" التي قرر أن يعلمها للناس! أليس قد انتهى أخيرا، وبعد طول بحث وتنقيب وجدل ومخاصمة وصراع طويل، إلى الإقرار بأن العالم مخلوق وبأن له ربا في السماء؟؟ أليس قد انتهى أخيرا إلى ما منه يبدأ العقلاء الأسوياء في تعلم دينهم وعليه يتأسس ما يتلقونه عن الرسل والأنبياء؟ فلابد – إذن – أن تكون معركته البائسة تلك جديرة بأن يقرأها الناس، وأن يتعلموا منها كيف يخرجوا من ذلك المعترك إن دخلوه! ولا يدري المسكين من أولئك أنه لا يخرج – إن خرج – إلا بعقل كسيح وقلب مريض وعقائد غيبية واهية في صفة الله تعالى وفي العلاقة بينه وبين العالم المخلوق، إنما أسسها لنفسه خروجا من إلزامات الخصوم، على جهل بمقتضياتها وما يلزم منها وما يترتب عليها! فلا يقوم الدين عنده على الفطرة والبداهة السوية التي يتأسس عليها عند كل مسلم سالم من تلك الأمور التي أغرق هو فيها غاية الإغراق، وإنما يقوم على نظريات ومبرهنات وجدليات، آخذ بعضها برقاب بعض! فإذا تعلم شيئا من الكتاب أو من السنة في خضم ذلك، تعلمه بحثا وتنقيبا عما ينصر به تلك النظريات والمبرهنات والجدليات ابتداء، ثم لم يقبل من الدين بعد ذلك إلا ما كان منتظما في سلكها بصريح النص، أو بما يحمله هو عليه من التأويل المحدث المتنطع! ذلك أن الاعتقاد الغيبي كان عنده سابقا على تلقي الدين

وعلى تعلم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وليس ناتجا عن ذلك التلقي كما يكون عند أهل السنة والأثر، لذا صار فهم النصوص تابعا لذلك الاعتقاد عنده وليس العكس! ولهذا قال سلفنا رضي الله عنهم إن تلك الأهواء إن أمسكت بتلابيب القلب لم تخرج منه، ولم يُرج لصاحبها التوبة منها والرجوع إلى السنة الصافية، والله المستعان! فإن ذلك الميل سم زعاف يتجارى بالنفس كما يتجارى الكَلَب بالإنسان فلا يدع فيه مفصلا إلا دخله، فإذا دخله، كان هو أساس السمع والتلقي عنده، نسأل الله السلامة!

قال الدكتور مبينا ما استفاده من "عكوفه على العلم وعلى الشريحة الحية تحت الميكروسكوب":

> وحدة الوجود الهندية كانت عبارة شعرية صوفية، ولكنها غير صادقة.. والحقيقة المؤكدة التي يقولها العلم أن هناك وحدة في الخامة لا أكثر.. وحدة في النسيج والسنن الأولية والقوانين.. وحدة في المادة الأولية التي بني منها كل شيء.. فكل الحياة من نبات وحيوان وإنسان بنيت من تواليف الكربون مع الآيدروجين والأكسجين.. ولهذا تتحول كلها إلى فحم بالاحتراق.. وكل صنوف الحياة تقوم على الخلية الواحدة ومضاعفاتها. ومرة أخرى نتعلم من الفلك والكيمياء والعلوم النووية أن الكربون ذاته وكذلك جميع العناصر المختلفة جاءت من طبخ عنصر واحد في باطن الأفران النجمية الهائلة هو الآيدروجين. الآيدروجين

يتحول في باطن الأفران النجمية إلى هليوم وكربون وسليكون وكوبالت ونيكل وحديد إلى آخر قائمة العناصر وذلك بتفكيكه وإعادة تركيبه في درجات حرارة وضغوط هائلة. وهذا يرد جميع صنوف الموجودات إلى خامة واحدة.. إلى فتلة واحدة حريرية غزل منها الكون في تفصيلات وتصميمات وطرز مختلفة. والخلاف بين صنف وصنف وبين مخلوق ومخلوق هو خلاف في العلاقات الكيفية والكمية.. في المعادلة والشفرة التكوينية، لكن الخامة واحدة.. وهذا سر الشعور بالنسب والقرابة والمصاهرة وصلة الرحم بين الإنسان والحيوان وبين الوحش ومروضه وبين الأنف التي تشم والوهرة العاطرة وبين العين ومنظر الغروب الجميل. هذا هو سر الهارموني والانسجام. إن كل الوجود أفراد أسرة واحدة من أب واحد. وهو أمر لا يستتبع أبدا أن نقول إن الله هو الوجود، وأن الخالق هو المخلوق، فهذا خلط صوفي غير وارد.

قلت: تأمل كيف يهون من عقيدة وحدة الوجود حتى بعدما خرج منها، فيقول إنها كانت "عبارة شعرية صوفية" و"غير صادقة"! ولو أنه درس الشريعة على أهل السنة لأنزل ذلك الاعتقاد منزلته بين عقائد الكفر والإلحاد، ولتكلم في ذلك بما يتكلم به أهل العلم. ولكن تقدم أن "العلم" عند الرجل إنما هو العلم التجريبي ولا سيما العلم الطبيعي! فعندما أراد الدكتور أن يقرر لنفسه موقفا من تلك العقيدة التي لا يخفى بطلانها على صاحب عقل سوي، لم يجد في

"الحقائق المؤكدة التي يقولها العلم" (أي العلم الطبيعي) ما يثبتها ولا ما ينفيها بطبيعة الحال، وإنما وجد عند الطبيعيين ما سماه "بوحدة الخامة" و"وحدة النسيج والسنن الأولية" و"القوانين"، يقصد بذلك، اشتراك الكائنات الحية والميتة في مواد أولية واحدة تتركب منها بتراكيب مختلفة، فقال إن هذا لا يستلزم وحدة الوجود أو أن تكون تلك الوحدة التي يقول بها الطبيعيون راجعة في سببها إلى كون أجزاء العالم أبعاضا لذات الرب، أو لكونها كلها تمثلات أو تجليات له، سبحانه وتعالى وتقدس! ونحن نقول: إذا كان هذا ما تحولتَ به عن وحدة الوجود يا دكتور مصطفى، فلست على شيء لا فيما كنت عليه أولا ولا فيما صرت إليه ثانيا، والله المستعان!

ذلك أن أول مشكلة منهجية كلية يعاني منها الفيلسوف الطبيعي بسبب الأصل الدهري الذي تقوم عليه تلك الصنعة عند الطبيعيين الغربيين، إنما هي الحرص على استجلاء الغيب (كله من أوله إلى آخره) بقياس جميع ما فيه على ما في الشاهد! ففي كل مرة يتكئ الواحد منهم على أريكته ويمد رجليه ويرفع عقيرته بوضع "نظرية" (أي: فرضية قياسية) يصف بها العالم بأسره والكون برمته من أوله إلى آخره، فإنه يتلبس بتلك الآفة وبذلك الغرور الفلسفي الذي ورثه الطبيعيون من أساتذة الأكاديمية اليونانية القديمة ومن نطاعتهم بالقياس والنظر على الغيب وما فيه! فلا يرضى الواحد منهم عن نفسه ولا يرضى عنه أتباعه حتى يأتي بنظرية كلية يصف بها كل موجود، ويجريها على كل شيء بلا استثناء، ولن يرضى عما وصل إليه حتى يجعل الناس تلك النظرية

المتنطعة هي "العلم" و"حقائق العلم" في ذلك الشأن العظيم، وحتى يصبح كل ما سواها من الدعاوى الغيبية عند البشر خاضعا لها، فإن وافقها كان حقا وعلما وإلا كان باطلا وجهلا!

وقد تشرب الدكتور بتلك الآفة الفكرية والمعرفية وتشبع بها غاية التشبع! فلو أنك تأملت فيما ذكره من موافقات بين ما تتركب منه أنواع الكائنات الحية التي وقف الباحثون على تحليلها، لوجدته لا يملك أن يقول إن كل أنواع الكائنات الحية تتركب من الكربون! وقد وجد من مخرفة الطبيعيين في هذا الزمان من يتصور إمكان وجود كائنات حية من السليكون أو من غير ذلك، لا سيما عند بحثهم في الكواكب الأخرى طمعا في الوقوف على "أثر للحياة" خارج الأرض! فما المشكلة في استعمال المنطق الاستقرائي في بناء نظرية بشأن جميع أنواع الحياة المخلوقة في هذا العالم، مفادها أنها كلها تتركب من الكربون، بحيث تكون أدلة ذلك التعميم الاستقرائي هي تلك الوقائع الكثيرة التي وقف الطبيعيون عليها فيما درسوه وحللوه من أنواع وأفراد المخلوقات الحية على الأرض؟ المشكلة المنهجية تتمثل في طبيعة وحجم الفرضية أو النظرية المراد الوصول إليها بذلك الاستقراء! فصاحب الفرضية لا يتكلم عن أنواع معينة من المخلوقات أو عن جميع المخلوقات المرصودة في منطقة من المناطق مثلا، أو حتى عن جميع المخلوقات الموجودة (ما رصد منها وما لم يرصد بعد) على سطح الأرض وفي باطنها، وإنما يتكلم عن جميع صور "الحياة" في العالم، هكذا! هذا هو موضوع الفرضية التي يريد أن يجعل من

استقرائه دليلا عليها! مع أنه يعلم أن العقل لا يمنع من أن توجد أنواع من الكائنات الحية على سطح الأرض، مع كونها مختلفة تماما في أصل البنية والتركيب والمادة عن جميع ما رصده الراصدون إلى يوم الناس هذا! دع عنك ما جاء به النص الصريح من رب العالمين بوجود مخلوقات من النور وأخرى من النار في الغيب لا نملك طريقا لإبصارها! هذه المشكلة لا نرجع بها على أصل المنطق الاستقرائي نفسه كما تنطعه ديفيد هيوم وكما وافقه عليه من المعاصرين كارل بوبر وغيره! وإنما نرجع بها على مقياس وحجم وموضوع تلك الفرضيات التي يريد الطبيعيون إثباتها أو نفيها باستعمال الاستقراء في المحسوسات والمشاهدات، كما بيناه وبسطنا الكلام عليه في غير هذا الكتاب!

فلو أني قلت: كل الغربان سوداء اللون، أقرر ذلك كقاعدة أو كأصل عام، بناء على أني لم أر ولم ير غيري إلى الآن فيما أعلم غرابا غير أسود إلا في حالات شاذة، لكان ذلك استقراء مقبولا بالمجمل في بناء ظن راجح بشأن لون ذلك النوع من المخلوقات التي نسميها بالغربان (وهي تلك الطيور ذات الهيئة المعروفة التي تعيش في بيئات مخصوصة على سطح الأرض)! ولكن عندما يراد من الاستقراء أن يثبت أو ينفي زعما ما بشأن جميع الأنواع الحية في هذا العالم، فلا شك أن الأمر يتجاوز حدود الاستقراء نفسه لأنك من الأصل لا تملك – كباحث في التجريبيات والطبيعيات - تعريفا جامعا مانعا لما تسميه "بالأنواع الحية" أولا (فلا تدري ما هي النظائر التي ينبغي أن يجتمع بعضها إلى

بعض عندك في بناء الاستقراء نفسه حتى يصح من الأساس)، ولا تبصر ولا تدرك بحواسك من هذا "العالم" إلا جزءا ضئيلا مهما عظم ثانيا! فمن ذا الذي قال إن جميع أنواع المخلوقات الحية في هذا العالم يجب أن تكون داخلة تحت الحواس البشرية (مثلا)، حتى ما كان منها مشاركا لنا في هذه الأرض التي نعيش عليها؟ نحن المسلمون عندنا من النص القطعي – كما أشرنا آنفا - ما به نثبت أنواعا من "المخلوقات الحية" لا تدركها حواس البشر مهما تكلفنا البحث عنها، وهم يروننا من حيث لا نراهم، كما في قوله تعالى: ((إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)) الآية [الأعراف : ٢٧]! وعندنا كذلك أن الجن خلقوا من مارج من نار، وأن الملائكة يرجع أصل خلقتهم إلى النور، لا إلى الكربون ومركباته! فهل يراجع الفيلسوف الطبيعي نفسه إن نحن أوقفناه وقابلنا استقراءه العريض المتنطع بشأن "الأنواع الحية في العالم" بإثبات ذلك العلم الذي عندنا بما في الغيب من أنواع المخلوقات الحية؟ أبدا! فهو لا يرى مصدرا لحصول المعرفة بما في الوجود (هكذا!) إلا طريقته هو في بناء الدعاوى والنظريات والتعميمات بشأن العالم وما فيه!

في يوم من الأيام، سئل الفيلسوف الطبيعي المغرور ستيفن هوكينغ عما إذا كنا نحن البشر وحدنا في هذا العالم، فأجاب بكل سهولة "لسنا وحدنا على الأرجح"! فبعيدا عن السؤال الواضح: ما معنى: "وحدنا في الكون" هذه ابتداء، نسأله نحن: على أي أساس "رجحت" ما رجحت وبأي استقراء وعلى أي مستند؟!

وفي نطاعة أخرى يقول في محاضرة له [٤] إنه من الممكن أن توجد أنواع أخرى من الكائنات الحية في العالم تقوم على أساس بخلاف الكربون كالسليكون مثلا، ولكن الكربون هو الأثرى من الناحية الكيميائية، يقصد بذلك أنه أكثر مرونة في التفاعل مع العناصر الأخرى وأكثر قدرة على الدخول في مركبات كيميائية بالغة التعقيد. فتأمل كيف يتكلم الفيلسوف الطبيعي وكأنه هو خالق السماوات والأرض، أو كأن البارى جل وعلا رجل مثله، يقف في معمل كمعمله، ويركب المخلوقات كما يركب هو ما يصنع من المركبات الكيميائية في معمله! وكأنه قد بلغ من العلم بغايات ومقاصد خلق المخلوقات الحية وأنواع الحياة في العالمين، ومن الإحاطة بأنواع المواد والخامات في السماوات والأرض وما يمكن وما لا يمكن تركيبه منها (على التسليم بمبدئهم الذى في الخلق والتصوير!) تحقيقا لتلك المقاصد والغايات، ما يؤهله معرفيا لأن يحكم بأن الكربون (أو غيره) هو العنصر الكيميائي الأنسب "للحياة" في هذا العالم، أو حتى أن يتصور أي العناصر المعروفة يكون هو الأنسب كأساس

---

٤ المصدر: مقال في مجلة "ديلي غالاكسي" الرقمية نشر في ٢٠١١ بعنوان: "ستيفن هوكينغ يتكلم حول أنواع الحياة خارج الأرض، غير القائمة على الأساس الكربوني"، الرابط:
http://www.dailygalaxy.com/my_weblog/2011/05/stephen-hawking-on-non-carbon-based-alien-life.html، دخل عليه في ١٠ من ذي القعدة ١٤٣٧، الموافق ١٣ أغسطس، ٢٠١٦ الميلادية!

لخلق الكائن الحي في بيئة معينة! فيا هذا من تظن نفسك وفي أي شيء أنت؟؟

هذه هي الآفة وذاك هو المرض أيها القارئ الكريم! والجواب الصحيح لذلك المتغطرس وأمثاله لا يكون ببيان أن اللّٰه تعالى قد خلق بالفعل من صور الحياة ما لا علاقة له بشيء مما رأيناه على سطح الأرض، ولا ببيان أن الحياة لا يقتصر تعريفها على تلك المخلوقات ذات الأساس الكربوني التي وقف القوم على دراستها، وإنما يكون الجواب الفصل بأن يوقف هؤلاء العتاة المستكبرون عند حدودهم بكل حزم وصرامة، وأن يبين لهم حدود آلتهم النظرية في القياس والاستقراء بيانا حاسما لا تهاون فيه، وأن يكشف لعوام المسلمين كذلك ما في قلوب القوم من كبر وعلو وغطرسة بالغة، فلا يود أحدهم أن يكون إماما للبشر يتبع كما تتبع الرسل والأنبياء وحسب، بل يود لو يكون إلها يعبد من دون اللّٰه، يتكلم عن العالم أو الكون (هكذا) وما هو ممكن له وما هو ممتنع عنه وما هو واقع فيه وكأنما كان هو خالقه وباريه!

الآفة ماثلة في ذلك الكبر نفسه، الذي قال الرب جل وعلا فيه: ((إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [غافر : ٥٦]! هذه هي الآفة أيها القارئ الكريم: كبر الفلاسفة وغرورهم! يريد الفيلسوف الطبيعي أن يحل نفسه محل الباري نفسه، جل في علاه، يقيس خلق السماوات والأرض على ما هو

خالق وما هو صانع بيديه، ويقيس تحريك الأجرام والكواكب في السماء على ما يراه هو في الأرض وما يمكنه إحداثه من صور التحريك، يسأل نفسه بكل وقاحة: لو كنت خالقا عالما كهذا العالم، فكيف أبدأ خلقه؟ لو كنت خالقا أنواع الحياة فيه فبأي طريقة أبدأ ذلك الخلق؟ هل أضرب البروتينات الحية في بركة الماء بالصواعق مثلا، لأستعمل بعض ما استقرأته من سنن التفاعل بين العناصر الكيميائية في إحداث الحياة (كما في تجربة ستانلي ميلر الشهيرة)؟ أم أبحث عن طريقة أخرى، حتى أقيس عليها ما وقع في "نشأة" الحياة على الأرض ولتصبح هي العلم المعتمد في ذلك؟ فنحن نقول إن مجرد فكرة نصب تجربة معملية للنظر في الكيفية التي خلق اللّٰه بها ما خلق، هذه في ذاتها سبة وشتيمة عظيمة في حق رب العالمين جل وعلا، إذ تقتضي تشبيه الرب بخلقه في صفة الخلق، تكذيبا لمثل قوله تعالى: ((أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) الآية [الرعد : ١٦] سبحانه وتعالى علوا كبيرا!

والآن تأمل كيف تلقى الدكتور مصطفى محمود عن القوم نظريتهم في مسألة نشأة العناصر المختلفة كلها فيما سموه "بالفرن النجمي" وكأنها حق ثابت بالمعاينة والمشاهدة، وكأنها أمر شاهدناه المرة تلو المرة حتى عُلم بالاستقراء مثلا (على ما حررناه من نقد لطريقة القوم في استعمال الاستقراء في تلك الأبواب)! هذه نظرية لا أساس لها إلا قياس خلق البارئ جل وعلا لأنواع العناصر والخامات المختلفة في السماوات والأرض يوم خلقهما

سبحانه، على ما يفترضون حدوثه من تغير في البناء الذرى لبعض العناصر تحت تأثير الحرارة البالغة والضغط الشديد! فلماذا يتعين علينا أن نسلم لهم بصحة ذلك القياس الساقط (في أصله وفروعه)، دع عنك أن نجعله من جملة "الحقائق المؤكدة التي يقولها العلم"؟!

لا نرى حقيقة مؤكدة ولا علما في قول الدكتور: "هناك وحدة في الخامة لا أكثر.. وحدة في النسيج والسنن الأولية والقوانين.." هذا تعميم ميتافزيقي واسع واستقراء لا نسلم به، وإنما نرى وحدة في بناء أفراد النوع الواحد، ونرى تشابها بين الأنواع لا أكثر! ولا نرى حقيقة مؤكدة ولا علما في قول الدكتور: "وحدة في المادة الأولية التي بني منها كل شيء.."، فلا نراه جائزا في العقل ولا في الشرع لأي إنسان أن يطلق قياسه أو نظره ليحكم على كيفية بناء "كل شيء"، هكذا ! ولا نرى حقيقة مؤكدة ولا علما في قوله: "فكل الحياة من نبات وحيوان وإنسان بنيت من تواليف الكربون مع الآيدروجين والأكسجين.. ولهذا تتحول كلها إلى فحم بالاحتراق.."، فالنبات والحيوان والإنسان ليس هو "كل الحياة"! ولا نرى حقيقة مؤكدة ولا علما في قول الدكتور: "وكل صنوف الحياة تقوم على الخلية الواحدة ومضاعفاتها." لما أسلفناه، وإلا فهل يرى الدكتور الجن والملائكة من صنوف الحياة يا ترى؟! ولا نرى حقيقة ولا علما في قوله "ومرة أخرى نتعلم من الفلك والكيمياء والعلوم النووية أن الكربون ذاته وكذلك جميع العناصر المختلفة جاءت من طبخ عنصر واحد في باطن الأفران النجمية الهائلة هو الآيدروجين" وإنما نرى تقريرا لعقيدة غيبية ميتافزيقية عند

الطبيعيين المعاصرين، تلقاها الرجل تلقي التابع المقلد الذي لا يتصور لنفسه خروجا عليها ولا شذوذا عنها، وإلى الله المشتكى! هذا "الطبخ" هو ما يتصوره الفيلسوف الدهري بوهمه وقياسه الفاسد في الكيفية التي خلق الله بها السماوات والأرض! فنحن نقول إن أصل هذه النظرية ونظائرها من دعاوى بشأن النشأة الأولى لهذا العالم وما فيه، إنما هو قياس متنطع لا نرى معقوليته من الأساس!

فما الذي أحال تلك التقريرات ونظائرها إلى "حقائق علمية" عند الدكتور وأمثاله؟ إنه الحرص على السلامة من اتهام هؤلاء المتغطرسين له على العقل والعلم معا! هم اليوم متفقون عليها، فلابد أن تكون حقيقة مؤكدة "يقولها العلم"! وإن تحولوا غدا إلى خلافها واتفقوا على ذلكم أيضا، فلابد أن تكون حينئذ حقيقة مؤكدة كذلك، "يقولها العلم"! وحينئذ يتكلف جهمية ذلك العصر نظير ما تكلفه جهمية زماننا، ونظير ما تكلفه جهمية القرون السالفة من تحريف الدين والاعتقاد حتى يرتضيه منهم أصحاب ذلك "العلم" المقدمون به بين الناس!

تأمل قوله: " وهذا يرد جميع صنوف الموجودات إلى خامة واحدة.."! قلت: جميع صنوف الموجودات؟؟ أليس ربك وخالقك نفسه من صنوف الموجودات؟ أليس غيب السماوات والأرض وما خلق فيهما ربك مما لا نظير له في محسوسنا، هو كذلك من صنوف الموجودات؟ فمن أين جاء ذلك

الإطلاق الفاسد؟ من إصابة الرجل بنفس الآفة التي قامت عليها فلسفات الدهرية الطبيعيين في تلك البابة! وهي تلك الآفة التي يظل الجهمي أسيرا لها ما بقي حيا، يتقلب من نظرية إلى نظرية ومن رأي إلى رأي، بل ومن عقيدة إلى عقيدة، خضوعا لها ولتأثيرها على عقله وقلبه ودورانا في فلكها من حيث لا يشعر!

وأما قول الدكتور في النهاية: " وهذا سر الشعور بالنسب والقرابة والمصاهرة وصلة الرحم بين الإنسان والحيوان وبين الوحش ومروضه وبين الأنف التي تشم والوهرة العاطرة وبين العين ومنظر الغروب الجميل. هذا هو سر الهارموني والانسجام"، فهذا كلام فارغ لا قيمة له ولا أساس! أي صلة رحم هذه التي يشعر بها "الإنسان" فيما بينه وبين "الحيوان"؟ ومن الذي قال إن سبب ذلك الشعور – إن سلمنا بوجوده – هو تلك الوحدة التي يقول بها؟ هل حقا تزعم يا دكتور أنك إنما تستمتع بمشهد الغروب الجميل إذا ما وقعت عليه عينك، لأن عينك فيها أيدروجين وأكسوجين والسماء كذلك فيها أيدروجين وأكسوجين؟ أي عبث هذا؟؟ لو كان لهذا القياس الاختزالي السخيف وجه يعتبر لكانت القردة والنسانيس أحب المخلوقات إلينا وأكثرها "انسجاما" معنا، ولشعرنا "بالنسب والقرابة وصلة الرحم" معها كما لا نجده مع غيرها، لأنها أقربها شبها بنا، ولكن ليس الأمر كذلك إلا فيما يزعمه أتباع داروين ووالاس كما لا يخفى! تلك المحاولة السخيفة لإرجاع كل اعتقاد وكل معرفة بل وكل شعور ووجدان وحس وذوق إلى دعاوى الطبيعيين وآحاد نظرياتهم

الشمولية الفاحشة Universal Theories، هي أصل الداء الذي نزعم أن سببه ما يكون في القلب من الأهواء، وهي أهواء لا تزول بمجرد إعلان التوبة من الردة والإلحاد كما قد يتوهمه بعض الناس! ولهذا كانت هي المنطلق الذي ينطلق منه الدكتور للتحول من اعتقاد إلى اعتقاد ومن رأي إلى رأي في شأن الغيب وما فيه كما ترى! والمشكلة أنه ظن نفسه قد نجا من سطوة الفكر المادي الدهري على نفسه في نهاية المطاف كما سيأتي، ولكن واقع الأمر أن أصل الآفة القلبية بقي في نفسه، فأوقعه فيما أوقعه، والله المستعان لا رب سواه!

أما قول الدكتور: "وإنما تقول النظرة العلمية المتأملة لظواهر الخلق والمخلوقات، إن هناك وحدة بينها.. وحدة أسلوب ووحدة قوانين ووحدة خامات تعني جميعها أن خالقها واحد لم يشرك معه شريكا يسمح بأسلوب غير أسلوبه" (ص. 15)، فينبغي أولا أن نطلب التفصيل الدقيق فيما هو مقصود ببعض المصطلحات المستعملة ها هنا قبل أن نقبل أو نرد، فنسأله أولا ما معنى النظرة العلمية عنده، وما معنى ظواهر الخلق؟ فإذا كان الأمر على ما رأينا من منهج الدكتور في ذلك، فلا نقبل منه ذلك "التأمل" ولا نرتضيه، بل ننصحه – لو كان حيا - بتركه وتخلية النفس من دواعيه، والله المستعان! وإلا فكيف يعقل أن يكون جمع نظريات الدهريين الميتافزيقية (في حقيقتها) بعضها إلى بعض طريقا لغرس اليقين فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؟؟ هذا لا يقوله إلا جهمي مكابر!

الفيلسوف الدهري المستكبر هو من سمحت له نفسه المستكبرة المتعاظمة بأن يجعل من نفسه ندا لخالقه وباريه، فيقول إن أسلوب "الخلق" (ولا يراه الدهري "خلقا" من الأساس!) هو كذا وكذا، فلا يتصور ولا يمكن لديه أن تنشأ المخلوقات في العالم إلا هكذا، لماذا؟ لأن قانون الطبيعة كما استقرأه القوم لا "يسمح" بغير هذا الذي تصوروه بأقيستهم الواهية، من تغير المواد المحسوسة وتحولها تركبا وتحللا! فكأنما كان خالق السماوات والأرض رجلا مثلهم يقف في معمل من المعامل، يجرب ويحاول ليجد الطريقة الأنسب لاستعمال ما استكشفه من قوانين الطبيعة وسننها كما وجدها، في خلق ما يخلق وإنشاء ما ينشئ وتركيب ما يركب، فإذا ما "توصل" إلى اكتشاف أسلوب مناسب لتلك القوانين، طرده في كل نوع من أنواع خلقه، سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا!

هذا أيها القارئ الكريم هو منطق الدهريين في البحث في مسائل الخلق والنشأة! يقف أحدهم في المعمل يحاول أن يستجمع من الظروف ومن الأسباب الكونية المواتية ما به يتمكن من أن يخلق الكون نفسه أو أن يخلق أنواع الأحياء فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فهو قياس لخالق السماوات والأرض وما فيهما، على ما يكون من الصانع البشري الذي يجد نفسه مخلوقا في عالم هو خاضع فيه لسننه السببية التي ركبها خالقه فيها من قبل! أما رب العالمين تبارك وتعالى فهو الذي خلق كل شيء، وجعل لكل نوع قدره وسننه، من غير أن يكرهه شيء من فوقه أو أن يخضع لقانون حاكم

عليه أو على صنعته جل وعلا! ولهذا تفرد البارى جل في علاه باسم الخالق، من غير شريك ولا ند، لأن خلق الله لا يشتبه بصنائع خلقه وتراكيبهم إلا عند الفلاسفة وأضرابهم! قال تعالى: ((قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) [الرعد : ١٦] وقال تعالى: ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)) [الطور : ٣٥] وقال تعالى: ((فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)) [الصافات : ١١] وقال سبحانه: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ)) الآية [الحج : ٧٣] وقال تعالى: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً)) [فاطر : ٤٠] وقال تعالى: ((أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ)) [الطور : ٣٦]، فهو معنً مستفيض في القرآن!

ثم نقول: إن وحدة الخالق لا يلزم منها وحدة القوانين والسنن السببية في جميع أنحاء العالم (كما هو منطق الدهريين في نظرياتهم الكلية التي تعلق بها الدكتور)، بحيث لا يختلف ما يكون منها جاريا في السماء الدنيا عما يكون في

السابعة مثلا [٥]، ولا يختلف ما يكون منها في الأرض الأولى عما يكون في الأرض السابعة، وبحيث لا تختلف الخامة التي منها أنشئت الكائنات الحية من

---

٥ فعلى سبيل المثال، من ذا الذي يملك أن يقول إن ما يسمى بالجاذبية هو قانون مطرد في جميع أنحاء الكون، وأنه – إذن – يجري على السماء السابعة كما يجري على السماء الدنيا، وبأي سلطان يمكن للطبيعيين المعاصرين أن يقولوا بذلك؟ الدهرية لا يقسمون السماوات إلى سبع أصلا، وإنما هم على قياسهم الأعمى المسمى بالمبدأ الكوزمولوجي الكوبرنيكي، يرون السماء كلها "فراغا" متصلا واحدا من جنس واحد (وليس عندهم أن السماء سقف صلب مرفوع لا ينفد منه شيء إلا من باب عليه ملائكة، كما هو اعتقاد أهل السنة)، فكل ما في "الكون" لابد وأن يكون على نحو ما يرون بأعينهم في هذه السماء القريبة، أقصاه كأدناه، وأوله كآخره، سواء بسواء! وكذلك سعي الفيزيائيين والكونيين والرياضيين المعاصرين في تصور "شكل" الكون (هكذا)، وكأنه بالوسع الوصول إلى تصوره بطريق من طرق القياس! وكثيرا ما تسمع الرياضيين يقولون إن فلاسفة اليونان قد تمكنوا من تصور شكل الأرض وكرويتها وحساب قطرها بأساليب القياس والتنظير الجيومتري، فما المانع من تصور شكل الكون بكليته بنفس تلك الأساليب؟ ولا شك أن قياس قطر الأرض ودراسة العلاقة بينها وبين المدرك المحسوس من أجرام السماء هو أمر نطيقه ويدخل في شهادتنا بالمجمل، بل إن كروية العالم يشهد بها البشر من قديم الأزل من قبل أن يتكلف الرياضيون تقدير قطرها! أما الكلام عن كيان لا يدرك البشر له حدا ولا نهاية، ولا يرون منه إلا الأرض التي هم فيها وغطاء السماء الدنيا من فوقها، فهذا من محض الكبر والغطرسة الفلسفية التي تعلمها الطبيعيون الغربيون من أساتذة اليونان كما بينا في غير موضع! وبطبيعة الحال فمن تتبع نظرياتهم في ذلك الشأن (أعني قضية شكل ما سموه بالفراغ وشكل الكون و"هندسته") وجدها تسلم بألغاليط عقلية فاضحة، كمفهومهم الوجودي لما يسمى بالفراغ نفسه، ومفهومهم الوجودي لما يسمى "بالأبعاد الفراغية" وغير ذلك مما تناولناه بالنقض في غير هذا الكتاب! لن يبلغ الفيلسوف أن يتكلم في الغيب المحض استقلالا عن الوحي إلا بالقياس، ولن يتكلف ذلك القياس (كيفما كانت صورته وطريقته عنده) إلا وسيأتي منه بالوهم لا بالعلم، مهما أعجبته طريقته وراقت له أدواته! ومهما اتفق له أن أصاب الحق في شيء مما يأتي به من التنظير في الغيبيات المحضة فلا نسلم له بتلك الطريقة ولا نقبل نظرياته فيها وإن

خرج منها بما يوافقه الوحي عندنا، لأن طريق الوصول إلى ذلك الاعتقاد عنده ليس من العلم في شيء أصلا!

نحن المسلمون نقول إن السماوات سبع، والأرضون كذلك سبع، فلا نثبت ولا ننفي شيئا عنها إلا بالوحي الثابت من رب العالمين، لأنه من الغيب المحض الذي لا نصل إليه بالحس مهما صنعنا، ولا نملك أن نقيس ما فيه على شيء مما نشهد في عالمنا أصلا لأنه إذن يكون رجما بالغيب ورميا في عماية! هذا هو الفرق الجوهري بين منهجنا معاشر أهل السنة في التجريبيات والنظريات والأقيسة والاستقراءات الطبيعية، وبين منهج الدهرية والفلاسفة، وقد بينا ذلك باستفاضة بحول الله وقوته في غير هذا الكتاب! ونقول إن السماء السابعة لم يثبت لدينا أن فيها من الأجرام نظير ما جعله الله في السماء الدنيا زينة ورجوما للشياطين، وهي تلك الأجرام التي قاس نيوتن العلاقة الحركية الرابطة بينها في أفلاكها الثابتة على المقذوفات الأرضية قياسا متحكما لا نسلم له به أصلا، وقد بسطنا الكلام عليه في غير هذا الكتاب! فبأي سلطان يدعي العاقل أن لديه ما يصلح دليلا على أن ما يسمى بقانون الجاذبية هذا قانون كوني عام، لا يخلو في العالم موضع أو جرم من أن يكون خاضعا له؟ لا شيء إلا التوهم! ولا ينفع القوم ائتلاف أوهامهم (نظرياتهم) في ذلك الغيب العريض مع بعضها البعض وتناسقها فيما بينها، لأن المجموع يظل له نفس الحكم في النهاية: أنه وهم في وهم! والقصد أن علم القوم في الحقيقة أضعف من أن يعمم به ما سموه بالجاذبية (التي هي من أقوى ما يدعمه الاستقراء من قوانين الطبيعة بعموم) على جميع الأجرام في هذه السماء الدنيا التي نراها، دع عنك ما وراءها مما لا نصل لمشاهدته! وإذن فالعقل لا يمنع من وجود أجرام في هذا العالم تجري عليها سنة التدافع في محل سنة التجاذب (مثلا)، فلا يقترب بعضها من بعض إلا تدافعت وتنافرت، خلافا لما هو معتاد عندنا، ولما عممه أينشتاين من تصور لعمل الجاذبية، ومن قبله إسحاق نيوتن! أو بعبارة أخرى: لا يمنع العقل أن يكون في هذا العالم الذي نعيش فيه ما لو اجتمعت مشاهدته لأولئك الطبيعيين لجعلوا ثمة قانونين: قانونا للجاذبية وقانونا للدافعية، ولما سهل عليهم إذن أن يعمموا الأول ليشمل كل جسم في كل مكان في العالم! ولكن القوم لا اعتبار لهم بالغيب أصلا، فلا يرون خروجه (إبستمولوجيا) عن حدود القياس المستساغ (سواء كان تمثيليا Analogy أو شموليا بالاستقراء Induction)! وإنما يجب أن يكون كل شيء في العالم قابلا من حيث المبدأ للقياس على هذا القريب المحسوس، حتى ينام الواحد منهم قرير العين بتلك "النظريات" المتنطعة العريضة التي تصوروا بها العالم

نوع إلى نوع أو من جنس إلى جنس، كما لا يلزم من اختلاف "الأساليب" و"القوانين" و"الخامات" وتعددها تعدد الخالقين! فإن الله تعالى لا يزال خلاقا لما يريد كما يريد، يخلق الشيء وضده معه، فيكون من ذلك تمام ما اقتضته حكمته جل وعلا، كما في قوله تبارك وتعالى ((وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ

بأسره والكون برمته من أوله إلى آخره، داعين الناس إليها ليجعلوها حكما على ما جاء به الأنبياء والمرسلون من دعاوى بشأن الغيب وما فيه!
هذه مسألة في فلسفة العلم الطبيعي لو تدبرها القارئ وتأملها بروية لتبين له أصل المرض الذي ننسبه إلى الفلاسفة الطبيعيين عموما، وإلى الدهرية والجهمية خصوصا! لا يقنع الفيلسوف الطبيعي حتى يكون لديه ما يصف به العالم كله، ويتصور به الكون كله! فلو أنه اكتفى بالكلام في ظاهرة أرضية ما وقصر استقراءه على نظائرها وأشباهها فيما يشهده الناس اعتيادا، لما تعدى علمه دائرة التطبيق المباشر لتلك السنة السببية التي اكتشفها! ولكنه في واقع الأمر يطمع في أكثر من ذلك بكثير (معرفيا)! يطمع في أن "يكتشف" نظام العالم كله، وقانون الكون كله، وأن يمتلك الأسباب كلها، وأن يكون لديه في ذلك من العلم ما يجعله حكما على الغيب وما فيه! فإنه لم يزل الناس يتابعون من يدعي العلم بذلك الغيب العظيم اتباعا لا يشتهي الفيلسوف شيئا لنفسه كما يشتهي أن يكون هو الرأس فيه المتبوع عليه! هذه الشهوة الفلسفية الفاحشة، قد كذب وجهل من ادعى أنها انقرضت من بعد زمان الأكاديمية اليونانية القديمة! فإن الأكاديمية الغربية المعاصرة بعموم، إنما هي وريث مدرسة اليونان وفلاسفة اليونان، من حيث المنهج النظري الكلي، في مقاصده وأدواته على السواء، أي من حيث مادة البحث وطبيعة السؤال من جهة، والمدخل المطروق لجوابه من الجهة الأخرى! وهي تلك المدرسة التي اختلط فيها – ولا عجب! - الحقيقة بالخرافة، والعلم بالجهل، والميتافزيقا بالفيزقا، والعقل بالسفاهة، اختلاطا قد نبه على كثير من ثمراته وتبعاته من أئمة القرن السابع الهجري شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى! وها نحن أولئكم اليوم، في هذا القرن الخامس عشر، نحتاج – من جديد - إلى من يربط الفرع بأصله والخلف بسلفه، ليبين للمفتونين بالأكاديمية الغربية المعاصرة نظير ما بينه الشيخان من قبل من عوار الأكاديمية اليونانية الأم، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) [الذاريات : ٤٩]! فمن استدل باختلاف المخلوقين أو تعدد "أساليبهم" أو "تراكيبهم" أو كذا على تعدد الخالقين فقد وافق المجوس الثنوية الذين قالوا إن للخير والنور خالقا، وللشر والظلمة خالقا آخر، وبينهما صراع سرمدي أبدي! ووافق كذلك طوائف النصارى التي قالت إن الرب ليس في خلقه شر ولا ظلمة (أي بإرادته الكونية)، وإنما يرجع ذلك كله إلى خلق الشيطان وصنعه وتدبيره! فجعلوا الشيطان شريكا له في خلقه وتكوينه، وهذا كله ونحوه من شرك الربوبية كما لا يخفى!

فلا تعدد الخالقين يلزم – عقلا - من تنوع أجناس المخلوقين في "أساليب تركيبهم" أو "خاماتهم" أو اختلاف القوانين والسنن السببية في العالم من موضع إلى موضع، ولا وحدة المصدر تلزم من اتحادها واتفاقها في ذلك فيما يظهر للناظر! ولا نزال نرى تنوع الأساليب والخامات بل والقوانين المركبة في الشيء المصنوع في صنع الصانع البشري الواحد، كما نرى اتفاق الكثرة من الصانعين على أسلوب واحد وخامة واحدة ونظام واحد فيما صنعوا أحيانا، فلا يكون شيء من ذلك دليلا لا على وحدة الصانع البشري ولا على كثرة الصانعين وتعددهم حتى في حق البشر المخلوقين، فكيف برب العالمين تبارك وتعالى، خالق كل شيء، ولله المثل الأعلى؟ والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ((مَا اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)) [المؤمنون : ٩١] فلم يقل جل وعلا: "إذن لاختلفت الخامات والأساليب وتباينت القوانين .. إلخ"، وإنما

قال "إذن لعلا بعضهم على بعض ولذهب كل إله بما خلق"، والفرق بين المعنيين واضح لمن تدبر!

ويواصل الدكتور فيقول: "وتقول لنا (يعني النظرة العلمية المتأملة كما سماها) إن هذا الخالق هو عقل كلي شامل ومحيط، يلهم مخلوقاته ويهديها في رحلة تطورها ويسلحها بوسائل البقاء" (ص. ١٠). قلت: فما معنى "عقل كلي شامل ومحيط" هذه يا دكتور، وبأي "علم" استجزت أن تصف رب العالمين بها؟ أي العلوم هو ذاك الذي يجيز للمسلم أن يصف الله بصفة من الصفات أو ينفيها عنه، إن لم يكن هو العلم بالتوحيد وبالكتاب والسنة؟! ليس هذا الذي زعمته علما والله، وإنما هو من هذرمات الفلاسفة! ولو أنك تعلمت من دينك ما يجب عليك أن تتعلمه لما كتبت ما كتبت، ولقلت لبيان المعنى الذي تريد: "إن علم الله تعالى محيط شامل، وحكمته سابغة وسعت كل شيء، فهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى"! ولكنه شيء في النفس يصدها عن طلب ذلك العلم الشريف، ويجرئها على التخوض في صفات الرب جل وعلا بما يأتي على وفق الهوى، فنعوذ بالله من ذلك! ((إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [غافر : ٥٦] وهو نفس نوع الداء الذي كان من قبل التوبة يجرئها على نفي وجود البارئ جملة واحدة، فلما تابت من الردة والإلحاد، أصبح يجرئها على ما دون ذلك من عدوان على ذات الرب وصفاته وعلى الغيب وما فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولو أحسن الدكتور لنفسه ولقرائه لامتنع من

الكتابة والتأليف بالكلية، ولحمل نفسه حملا على الجلوس تحت أقدام العلماء الربانيين لعله ينجو، ولكن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء!

وأما مسألة "يهديها في رحلة تطورها" هذه، فمرجعها إلى اعتناق الدكتور نظرية داروين في أصل الأنواع، كما سيأتي بيانه في قسم لاحق، وبدعته في إدخال مفهوم الارتقاء الدارويني على صفة الخلق الإلهي، بل وجعله من مقتضيات الحكمة والعدل!

رحلة الدكتور إلى تعطيل الصفات الإلهية!

قال الدكتور مواصلا الكلام في الصفات بغير سلطان أتاه: "فهو واحد أحد قادر عالم محيط سميع بصير خبير .. وهو متعال يعطي الصفات ولا تحيط به صفات"! قلت: فلو صبر الدكتور على نفسه وتعلم عقيدة المسلمين من مصادرها السلفية الصحيحة، لعلم أن قوله "لا تحيط به صفات" حقيقته نفي الصفات عن رب العالمين بالكلية وتصييره عدما لا حقيقة له! فهو يجعل الصفات شيئا مخلوقا يعطَى للمخلوقات ولا يتعلق بالخالق نفسه، وهذا كلام الجهمية الغلاة كما هو معلوم! وأما أهل السنة فعندهم أن اللّٰه تعالى موصوف في الكتاب والسنة بصفات ثابتة، يثبتونها له على ظاهر معناها وعلى الوجه اللائق بذاته، وهي صفات كمال لا يعتورها النقص بحال! وعند أهل السنة أن تلك الصفات قد تشترك مع صفات المخلوقين اشتراكا معنويا

(أو تواطؤا لفظيا)، ولكنها تخالفها في الكيف والحقيقة مخالفة واجبة، فصفة المخلوق تليق به وصفة الخالق جل وعلا تليق به، ولله المثل الأعلى! فالمخلوق يوصف بالحياة والبارى جل وعلا يوصف بالحياة، ولكن ليست حياة المخلوق كحياة البارى ! والمخلوق سميع والبارى سميع، ولكن ليس السمع كالسمع! والمخلوق بصير والخالق بصير ولكن ليس البصر كالبصر! ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)) الآية [الشورى : 11]. هذه صفات مشتركة في المعنى متباينة في الحقائق والكيفيات ضرورةً!

ولكن لأن الدكتور أراد أن يؤسس اعتقاده في الرب على ما سماه "بالنظرة العلمية المتأملة"، فقد رأى أن الأنسب لما يريد هو أن يصف ربه بأنه "عقل كلي شامل يعطي الصفات ولا تحيط به صفات"! فهو لما سبق له من قبل أن وصف الرب سبحانه بأنه هو كل شيء وبأنه هو كل موجود ولا موجود سواه، طمعا في أن يخلص نفسه من إشكالية الأزلية، ثم أراد أن يخرج من ذلك الاعتقاد الوثني الهندوسي الذي غاص فيه، مستندا في مخرجه منه – كما في مدخله إليه – إلى فلسفات الطبيعيين المعاصرين، فقد وجد أن قصر معنى "الوجود الكلي الشامل" على صفة "العقل" أنسب لتلك الفلسفات من أن يعمم ذلك المعنى على الذات العلية وجميع صفاتها! واستوى عنده ذلك المعنى بما في الكتاب والسنة من معنى إحاطة علم الله تعالى بجميع خلقه! ثم إنه وجد كذلك أن في نفي الصفات عن الرب بالكلية وتنزيهه عنها ما هو أسلم له من تلك العقيدة التي جعلت الخالق هو عين المخلوق، الموصوف

بجميع صفات خلقه بلا استثناء! ولكنه في الحقيقة لم يكن في العقليات كما كان يظن نفسه، فلم يدقق في تلك المسائل كما تعمق فيها الجهمية القدماء، ولم يبحث في لوازمها ومقتضياتها ومتعلقاتها كما بحثوا! وهو في اعتقاده الأول كما في الثاني لا ناقة له ولا جمل في عقيدة المسلمين وما في الكتاب والسنة وما ورثه سلف الأمة من علم بصفات الله جل وعلا وبما يثبت له سبحانه وما لا يثبت، وهو مع ذلك لا يرى أنه ينقصه في ذلك علم يُطلب أصلا (وهذه هي الطامة الكبرى)!

فاعتبر أيها القارئ الكريم، فإن هذا هو منبع الجهمية في كل زمان، وهو ما لأجله كتبت هذا الكتاب! يُغرق الرجل نفسه أولا فيما عظم في صدره من فلسفات الدهريين المعاصرين له وميتافزيقاهم (لعلو أصحابها في نظره وطمعه فيما عندهم!) حتى تبلغ منه تلك الفتنة وذاك الهوى غاية المبلغ، فإذا ما أراد أن يرجع لموافقة المسلمين معلنا انتمائه إليهم، واشتهى أن يتقدم بينهم كما اشتهى من قبل أن يتقدم بين أصحاب تلك الفلسفات، سولت له نفسه أن يتخذ من تلك الفلسفات نفسها (التي برع فيها وتفوق بها) مدخلا إلى ذلك، ثم إذا بآلة التسويغ والتبرير في باطن نفسه تزين له الظن بأنه يقدم للمسلمين بما يصنف وما يؤلف في ذلك أداة ناجعة قاطعة للرد على الدهرية الملحدين ولنصب البرهان على صحة الدين، ولإزالة الشك وتحلية النفس باليقين، ولتأسيس "الإيمان" على "العلم المحكم المتين"! فإذا ما خاض مع القوم في مناظرة أو ألف لنفسه كتابا، رأيته يتكلف وصف رب

العالمين بما هو أوفق لتلك الفلسفات التي خرج بها من ذاك المستنقع العفن، حتى يحصل له ما يرجوه من العلو بتلك الصنعة الفلسفية بين عامة المسلمين! فأي شيء أحب وأشهى لتلك النفس المفتونة المنكوسة من أن تكون تلك الفلسفات نفسها التي سبق له التفوق فيها وإفناء العمر الطويل في دراستها، هي سبيل المؤمنين لتحقيق الإيمان الصحيح وبناء اليقين في صحة الدين؟؟ هذا هو بيت الداء وأصل العلة، ومنبع الجهمية في كل زمان ومكان، والله المستعان!

إنه ذاك الداء العضال الذي لخصه الدكتور نفسه في مختتم تلك الفقرة بقوله: "وهكذا قدم لي العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله"! (ص. ١٦) قلت: بل لو صدقت لقلت: "هكذا قدمت لي ميتافزيقا الطبيعيين المعاصرين اعتقادا فلسفيا كاملا عن الله، جعلته أنا عقيدة المسلمين"! ليس عندنا معاشر المسلمين شيئا اسمه "الفكرة الإسلامية عن الله"، وإنما عندنا عقيدة في الله تعالى وأسمائه وصفاته، لا نتلقاها من نظريات الطبيعيين وإنما من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة الموروث في أمتنا كابرا عن كابر!

ثم قال الدكتور في فقرة تالية محررا برهانه الكلامي الجديد (ص. ١٦):

> الكون إذن ليس أزليا .. وإنما هو كون مخلوق كان له بدء بدليل آخر من قاموس العلم هو ما نعرف باسم "القانون الثاني للديناميكا الحرارية". ويقرر هذا القانون أن الحرارة تنتقل من الساخن إلى البارد، من الحرارة

الأعلى إلى الحرارة الأدنى حتى يتعادل المستويان فيتوقف التبادل الحراري. ولو كان الكون أبديا أزليا بدون ابتداء لكان التبادل الحراري قد توقف في تلك الآباد الطويلة المتاحة وبالتالي لتوقفت كل صور الحياة.. ولبردت النجوم وصارت بدرجة حرارة الصقيع والخواء حولها وانتهى كل شيء. إن هذا القانون هو ذاته دليل على أن الكون كله له بدء.

قلت: في هذا الكلام، يأتي الدكتور بما لا يرضى الفيلسوف عن نفسه ولا يرجو التقدم على أقرانه من الفلاسفة وبين أيدي رؤوس أكاديمياتهم في زمانه بدينه وإيمانه حتى يأتي بمثله: برهان لحدوث العالم أو لوجود الصانع أو لكليهما معا، أو لصحة الملة، أو لجميع ذلك، بحيث يقوم على مقدمات من ميتافزيقا الفلاسفة المعاصرين له، التي تعتبر عندهم من قطعيات العقل المعتمدة أكاديميا أو من "قاموس العلم" على حدّ عبارته! فلما كان السائد في القرون السالفة في ميتافزيقا الأكاديميين الكبار من الطبيعيين وغيرهم، التأسيس على نظرية الجوهر والعرض الأرسطية وعلى تصورهم الكوني وما يتعلق بذلك من حدود وتعريفات ميتافزيقية، كان اللاهوتيون والمتكلمون من أهل الملل يتزلفون إليهم بتقديم براهين الحدوث تأسيسا على تلك النظريات، مع شيء من التلاعب بها على طريقة أصحابها إذا ما لزم، جريا على الأصول المعرفية الكلية التي سلموا بها لفلاسفة العصر وأخضعوا رقابهم وعقولهم لها! وأما اليوم، فقد تغيرت الميتافزيقا السائدة في تلك الأكاديميات كما هو

معلوم، واختلفت اختلافا كبيرا! وصار الطبيعيون اليوم يؤسسون عقائدهم الغيبية على تصورات كونية مغايرة لما كان عليه الأمر في تلك القرون الأولى! لذا وجد جهمية العصر ومتكلمو هذا الزمان أنفسهم مطالبين بإحداث البراهين الجديدة، جريا على نفس الشرط المعرفي الكلي الذي أخضعوا له عقولهم عبر القرون، ألا وهو رفع ميتافزيقا الفلاسفة المعتمدة أكاديميا في عصرهم (كيفما كانت)، واعتبارها هي العلم المنتهي والقطع العقلي التام، ومن ثم استعمالها كمقدمات كلية لإثبات الحدوث وإثبات الصانع وإثبات صحة الدين إذا ما تكلفوا ذلك، رجاء أن تندفع عنهم تهمة "إيمان السفهاء" و"المقلدين"، التي يرمي بها الفلاسفة أهل الدين والإيمان! فبدلا من التأسيس على ميتافزيقا اليونان، أصبح التأسيس اليوم على ميتافزيقا نيوتن وأينشتاين وكوزمولوجيا الانفجار الكبير والتوسع الكوني وغير ذلك من نظريات وقوانين كلية شمولية مططها فلاسفة العصر ليصفوا بها العالم بأسره والكون بجملته كما هي طريقة سلفهم من مدرسة اليونان! وكما أن أرسطو لم يكن لديه سلطان من الحس أو العقل يجيز له ادعاء أن العالم برمته من أوله إلى آخره يتركب مما سماه "بالجوهر" وما سماه "بالعرض" (على ما في تصورهما من خلل عقلي أفاض في بيانه أئمة السنة رحمهم الله تعالى)، فكذلك الشأن فيمن يعتقد أن العمليات الكوانطية التي تتبعها الفيزيائيون في هذا الزمان في معاملهم ومخابرهم هنا على الأرض لابد وأنها تجري بنفس القانون وبنفس النظام السببي في كل مكان من "الكون"، ومن يوم أن "نشأ" إلى يوم أن يفنى، وفيمن

يعتقد أن "الكون" لا يزال يتوسع وينتفخ على النحو الذي زعموا (بتأويل بعض المشاهدات المشتهبة) أنه واقع الآن، ثم مدد ذلك التوسع في الماضي أزلا وفي المستقبل أبدا، فاستنتج بداية للكون تأسيسا على ذلك المنطق الدهري !

وها هو ذا الدكتور مصطفى محمود يتحفنا الآن ببرهانه الكلامي الخاص: "برهان الحدوث من طريق الإنتروبي"، الذي يبدو أنه نقله عن بعض الخلقيين النصارى المعاصرين، فيجريه على الصورة التالية:

مقدمة (١): ينص قانون الديناميكا الحرارية الثاني على أن الحرارة تنتقل من الجسم الساخن إلى الأجسام الباردة المماسة له، حتى يستوي المحتوى الحراري بين جميع الأجسام المتماسة (في إطار النظام المغلق).

مقدمة (٢): لا تزال الحرارة تنتقل بين جميع الأجسام المتماسة في جميع أنحاء العالم على هذا النحو (الإنتروبي) طالما كان للعالم وجود في الخارج.

مقدمة (٣): لو كان العالم أبديا أزليا بدون ابتداء لكان التبادل الحراري قد توقف في تلك الآباد الطويلة المتاحة وبالتالي لتوقفت كل صور الحياة.

النتيجة: إذن لابد أن يكون العالم حادثا، لأننا لم نصل إلى تلك النقطة بعد!

وقد فرقت في بيان مقدمات برهانه بين المقدمتين (١) و(٢) حتى يظهر للقارئ الكريم الفارق بين القانون الفيزيائي الاستقرائي الذي لا نزال نشهد أفراد عمومه وشواهد صحته تقع في كل نظام مغلق يدخل تحت محسوسنا، وبين المسلمة الميتافزيقية الدهرية الكلية التي اضطر الدكتور لاستصحابها والتسليم بها ضمنيا حتى يحصل له ما يريد من التقديم لبرهانه، كما يضطر لنظيره كل متكلم في كل برهان من براهين الحدوث يتكلفه الواحد منهم (أعني التسليم ببعض كليات ميتافزيقا الدهريين المعاصرين له)! ولا عجب، إذ بدون المسلمة الميتافزيقية المعتمدة عند الدهريين، التي تتناول وصف العالم بكليته، لن يتمكن المتكلم من التقديم لبرهان "علمي" (بحسب ما يعده الأكاديميون الدهريون هو "العلم" في عصره) يثبت لهم به حدوث العالم بكليته كما يشترطون وكما هو منهجهم المعرفي!

فنحن نقبل ونسلم بصحة المقدمة الأولى إجمالا، لأنها ناشئة عن استقراء مباشر لسنة سببية ماضية في المحسوسات باطراد لا ينقطع، وهي عندنا (في طريق الثبوت المعرفي) بمنزلة القول بأن من ترك جسما معلقا في الهواء فوق سطح الأرض فلابد أنه سيسقط لأسفل لا لأعلى (مثلا). فنقول إن من تكلم عن الإنتروبي أو مبدأ الإنتروبي كسنة كونية مطردة في الأجسام الواقعة تحت العادة، وهو يقصد به أن الأجسام الساخنة تفقد من حرارتها ما تصل به إلى التعادل والاتزان الحرارى مع الأجسام المماسة لها (في إطار ما يقال له النظام المغلق، وهو النظام الذي لا يفقد من داخله ولا يكتسب من خارجه أي

مادة أو طاقة)، فهذا نقبل منه كلامه ولا إشكال. أما من تكلم عن الإنتروبي (بهذا المعنى) بوصفها سنة شاملة لجميع أنحاء السماوات والأرض، ماضية فيه من يوم أن وجد وإلى يوم أن يفنى، فهذا لا نصدقه (لأنه لا يملك ولا يمكن أن يملك دليلا على دعواه) ولا نكذبه (إذ لا يمتنع في العقل أن يكون الأمر كذلك في الواقع)، وإنما نعده صاحب ادعاء غيبي عريض لا دليل عليه ولا طريق لإثباته أو نفيه! فلا طريق في القياس والاستقراء البشري لتغطية عصور طويلة في الماضي البعيد لم نشهدها ولم تردنا شهادة من أحد قد شهدها من قبلنا، ولا لتغطية أنحاء ذلك العالم الفسيح التي تجاوز ما يطاله الحس في السماء والأرض! فبأي برهان نظري يستقيم تمديد القياس في ذلك حتى يغطي جميع المكان من أوله إلى آخره، وجميع الزمان من أوله إلى آخره؟

هذه دعوى ميتافزيقية لا مستند لها كما ترى وإنما يعتمدها الدهريون تحكما ورجما بالغيب حتى يحصل لهم في مادة علومهم ما يقوم مقام دعاوى الأنبياء والمرسلين بشأن غيب السماوات والأرض، والله المستعان لا رب سواه! فنحن نقول إن آخر ما يملكه الطبيعيون من استقراء مقبول هو أن نتوقع في هذه الأرض التي نعيش عليها، فيما بلغه منها حسنا ومشاهدتنا، وفي ذلك القدر من السماء الذي بلغه منها حسنا ومشاهدتنا، أن نرى تلك السنة تطرد في ذلك النطاق المعتاد لنا كلما توفرت لها نفس الظروف المعتادة في استقرائنا. هذه هي حدود الاستقراء الذي تحصلنا عليه في ذلك على الحقيقة،

وهي حدود قانون الديناميكا الحرارية الثاني الذي يقوم الاستقراء به قياما معتبرا في العقل والحس معا! أما باطن الأرض في طبقاتها السحيقة، أو في الأرض الثانية أو ما دونها مما لا يعلم طبيعته إلا الله ولا يبلغه أحد من البشر مهما فعل، وما يكون في السماء الأولى والثانية وما فوق ذلك مما هو غيب محض بالنسبة لنا كذلك، فكل هذا لا يغطيه استقراؤنا لتلك السنة الكونية المعينة كما هو واضح، وكما لا يماري فيه إلا مكابر! فبأي شيء نستجيز أن نقول إن قانون الديناميكا الحرارية هذا مطرد في جميع السماوات والأرض، من أولها إلى آخرها؟ لا شيء إلا التوهم والتخمين! وإلا فليس في العقل ما يوجب أن يطرد أي قانون طبيعي أو سنة سببية قد اعتدناها في شهادتنا (أي في هذا الإطار الضيق الذي نشهده ونصل إليه بالحس والتجربة المباشرة من هذا العالم الفسيح)، على غيب السماوات والأرض بكليته، من أوله إلى آخره!

هذه المسلمة الدهرية الكلية (تعميم القانون السببي المستقرأ في محسوسنا، على جميع أنحاء غيب الزمان والمكان بلا حد ولا قيد إلا ما قد يستفاد من تلك التعميمات نفسها) سوغت لبعض الخلقيين النصارى استعمال هذا القانون في الانتصار على نظرية داروين في أصل الأنواع، إذ وافقوا الدهرية في قول بعضهم – استنادا إلى تعميمهم لذلك القانون - بأن العالم لا يزال ماضيا بالتدريج من النظام الأعقد إلى الأبسط، ومن التركب إلى التفكك، ومن الحركة إلى السكون، وإذن، فلا يمكن أن تصح أي نظرية تدعي أن بعض النظم فيه تترقى تدريجيا عبر ملايين السنين من الأبسط إلى الأعقد،

لأن هذا يناقض "القانون" في زعمهم! ونقول إن كلتا العقيدتين الميتافزيقيتين من محض خرافة الدهرية المعاصرين (عقيدة التفكك والتفسخ الكوني المطرد بدعوى الإنتروبي، وعقيدة الارتقاء من أصل منحط إلى ما هو أعقد وأرقى في أنواع النظم الحيوية)، فلا يصح ركوب إحداهما لإسقاط الأخرى إلا من باب التنزل. ومعلوم لمن لديه اطلاع في ذلك الشأن أن عند الدهريين طرقهم السوفسطائية في الجمع بين العقيدتين على أي حال! [٦]

والقصد أنه يجب على كل من له اشتغال بتلك العلوم أن يتنبه إلى الفرق بين "القانون الطبيعي" Law الذي هو حقيقة ثابتة بالتجربة والاستقراء الحسي المطرد، وبين الدعوى الميتافزيقية (الغيبية المحضة) التي يؤسسها الدهريون على ذلك القانون، فإن إثبات الأول لا يقتضي القول بالثاني بوجه من الوجوه! فمن أين تأتي أمثال تلك العقائد الميتافزيقية العريضة عند الطبيعيين إذن؟ ليس من الاستقراء ولا من الحس والمشاهدة قطعا، ولكن من سعي الدهرية الحثيث في إسقاط مبدأ الغيب نفسه معرفيا (أي كحد نهائي للقياس والاستقراء البشري) وادعاء أن في هذا القدر المحسوس بالنسبة لنا من هذا العالم (في إطار عادتنا وتجربتنا البشرية الضئيلة)، ما يكفي الفلاسفة لتحصيل

---

٦ كقولهم على سبيل المثل بأن الانتخاب الطبيعي والتطفر العشوائي لا يتعارضان مع القانون الثاني للديناميكا الحرارية (يقصدون ذلك التعميم الميتافزيقي الواسع المسلم به لديهم!) لأنهما يقعان على خطوات متراكمة كثيرة جدا، كل خطوة صغيرة منها لا تعارض ذلك القانون، وإذن فلا يتعارض القانون مع مجموعها!

المعرفة النظرية القياسية بكافة الموجودات بلا استثناء، على سبيل تقرير الإمكان والامتناع النوعي والعيني تارة، وعلى سبيل الإثبات والنفي تارة أخرى !

هذا من فساد منهج فلاسفة اليونان ودهريتهم التي جرأتهم على إطلاق النظر والقياس في جميع أنحاء العالم بلا حدّ ولا قيد، حتى أصبحت "الطبيعة" (بأجزائها وقوانينها ونظمها) هي كل موجود، ولا موجود بحق سواها! وهذا هو منبع كل عدوان على الغيب يقترفه الطبيعيون من ذلك العصر وإلى يوم الناس هذا! وهو السبب في اجتراء الفلاسفة على الإلهيات يعاملونها معاملة الطبيعيات (معرفيا)، يربطون هذا بذاك في الاستدلال والنظر والقياس، لأن الأمر يرجع عندهم (كمبدأ أكاديمي كلي) إلى تجويز القياس على كل موجود، فما لا يقبل القياس على صورة من صوره (مبدئيا) فإما أنه لا يمكن حصول المعرفة به لنوع البشر، أو يمتنع وجوده في الخارج بالكلية! ولا يقبل الفيلسوف من كبره أن يقال له: دع عنك البحث في هذه المسألة فإنها لا طريق للعلم بها بالنظر والقياس، ولذا تراه يصير إلى الدهرية المعرفية، أي إلى اعتقاد أنه لا موجود بحق إلا ما كان داخلا في قدرة الفيلسوف على إدراكه بالقياس على المشاهد والمحسوس، بالقوة أو بالفعل! وإذن فلابد وأن يكون أول العالم كآخره كما وراءه إن كان له وراء (أي الغيب المكاني المطلق)، قابلا للقياس على ما نشهده ها هنا في محلنا هذا منه، وأن يكون ماضيه كمستقبله كما كان قبله وما يكون بعده إن قُدر (أي الغيب الزماني المطلق)، قابلا للقياس على ما نشهده منه الآن! وإذن فلا يأتيهم من يحدثهم بخبر ما في الغيب من غير طريقهم النظري

إلا طالبوه بنظير أقيستهم في إثباته، أو بأن يكون موافقا لما أثبتوه من ذلك بتلك الأقيسة، وإلا ردوه عليه!

ولا تزال ترى الدعاوى الميتافيزقية الغيبية المحضة تُضرَب عندهم بكل أريحية تبعا لأقيسة عريضة لا أساس لتمديدها على ذلك النحو الشمولي الفاحش إلا التحكم المحض، ثم تصير علما معتمدا (أكاديميا) بشأن الكون والعالم ونظامه الكلي إذا ما توافق القوم على قبولها! واليوم لم يعد أحد من الفلاسفة - إلا في القليل النادر - يفرق بين الفيزيقا (نطاق الاستقراء في المحسوسات بالقوة أو بالفعل) والميتافزيقا (ما لا يطاله الحس لا بالقوة ولا بالفعل) في دعاوى الطبيعيين من ذلك، لأن الجميع قد أصبح يطلَق تحت راية "العلم" في أكاديميات العلوم، فيروج بين العامة والخاصة على السواء على أنه مما توصل إليه "العلماء"!

ومعلوم أن صناعة الفلسفة قد افترقت عن صناعات التجريب والبحث الطبيعي افتراقا أكاديميا مؤسسيا في القرنين الميلاديين الأخيرين على نحو أكسب حصانة اجتماعية (على الأقل في الأوساط الأكاديمية الغربية) لما يتفق عليه أصحاب الأكاديميات التجريبية الطبيعية لا يتمتع بنظيرها المتخصصون في أكاديميات الفلسفة التخصصية، على الرغم من رجوع كلا الفريقين إلى نفس الأصول اليونانية الجدلية الكلية في مفهوم المعرفة وإلى نفس الكليات الدهرية القديمة في مصادر تلقي المعرفة بالغيبيات المحضة

(كمبدأ الاستمرارية الزمانية المطلقة Uniformity والتساوي المكاني المطلق Isotropy والمبدأ الكوزمولوجي وغير ذلك) كما بيناه آنفا، وبسطنا الكلام عليه في غير هذا الكتاب! وما ذاك إلا لارتباط الأكاديمية الأولى (التجريبية الطبيعية) بالتكنولوجيا والإنتاج والصناعة ولكثرة ما بين أيدي أصحابها من استقراءات صحيحة يستفاد منها في تطويع السنن السببية التي سخرها الرب جل وعلا لنوع البشر تسخيرا، خلافا لما أغرق فيه أصحاب الأكاديمية الثانية (الفلسفية التخصصية) من بحث نظري صرف لا ارتباط لأكثره بتطبيق أو عمل أو إنتاج! ولهذا صرنا نرى من الطبيعيين المعاصرين من يسخر ممن يطالب الباحثين التجريبيين بالاطلاع على بعض مباحث فلسفة العلم ونحوها، ويرى في ذلك هدرا وتضييعا، وهذه مسألة تناولناها بشيء من التفصيل في غير هذا الكتاب.

فلما تشبع بتلك الفلسفة المعرفية الكلية وميتافزيقا الجدليين المعتمدة أكاديميا (كمسلمتي الإطلاق الزماني والمكاني لكل قياس وكل استقراء)، أذناب هؤلاء الفلاسفة ومخانيثهم من أهل الملل، أصبحت من المسلمات عندهم كما هي عند الدهريين سواء بسواء، من غير أن يتكلف أحدهم ولو لمرة واحدة أن يراجع القوم فيها أو يسألهم عن مستندها المعرفي لديهم، وعلى أي شيء قامت تلك الإطلاقات العريضة الفاحشة لديهم على التحقيق!

وللإنتروبي معن كلي آخر بخلاف اتزان الحرارة المذكور آنفا، ألا وهو قولهم إن النظم كلها في خبرتنا البشرية تؤول إلى التفكك والتحلل، لا إلى مزيد من التماسك والإحكام! فالكائنات الحية مهما طال بها العمر فلابد أن تهلك، والماكينات المصنوعة لابد في النهاية أن تتعطل، والأقمشة لابد أن تبلى، والمعادن لابد مع مر الزمان أن تصدأ وتتآكل، وهكذا! فيزعمون بالتعميم الميتافزيقي الفاسد أن في العالم سنة كونية مطردة مفادها أن الأصل في العالم كله الأيلولة إلى الفوضى والتفسخ والفساد! وهذا باطل واضح، لأنه لا تزال تنشأ فيه النظم الجديدة كما تفنى وتبلى النظم القديمة! وما زلنا نرى الكائنات الحية تلد خلقا جديدا والأرض تنبت الزرع الجديد كما نراها تأكل الموتى! وما زلنا نرى المادة التي تنفصل عن جسم متآكل أو متحلل تنتقل إلى غيره فتصير جزءا من نظام آخر، يجري كسابقه بمقدار دقيق إلى أجله المسمى عند عليم خبير! فلا يجوز أن يقال إن الأصل في العالم البلى والهلاك والتحلل، كما لا يصح أن يعمم فيقال إن الأصل في العالم ضد ذلك! وإنما بني العالم على نظام محكم دقيق، كل شيء فيه بمقدار لا يجاوزه، فلا يتحلل كله من أوله إلى آخره في منتهى أمره، ولا يتفكك كما زعموه بالقياس الميتافزيقي على الماكينة القديمة المتهالكة، وإنما تقوم قيامته إذا ما جاء أجله بأسباب مخصوصة ومقدمات مقدرة في علم باريها على أحكم تقدير!

والقصد أننا لا نسلم للدكتور بالمقدمة الثانية المسلمة لديه ولا نلتزمها، والأهم من ذلك (لمقصودنا من تأليف هذا الكتاب) أن يتبين للقارئ الكريم

السبب في كونه هو نفسه قد التزمها واستصحبها كمسلمة خفية غير محررة في أصل برهانه! فإن هذا من أفسد أصول الجهمية في كل عصر، سواء أبطنوه في براهينهم أو أظهروه، والله المستعان. فإذا سقطت المقدمة الثانية، سقطت معها الثالثة بالضرورة! فإن التصور الذي اقتضته المقدمة الثانية في ذهن الدكتور، هو أن الانتقال الحراري على هذا النحو المعمم على جميع أجسام العالم كافة وفي جميع أنحائه، لابد وأن يمضي مطردا حتى يحصل تساوي حراري شامل ونهائي Thermodynamic Equilibrium (Maximum Entropy) بين جميع أجزاء العالم، فلا تجد الحرارة إذن جسما تنتقل إليه حتى تعتدل، وحينئذ تتوقف سائر عمليات الحياة في العالم لأن الحرارة حينئذ لا تنتقل بزعمهم، وانتقالها لازم من لوازم الحياة فيما نراه من أنواع الأحياء على الأرض! فإذا ما أضيف إلى ذلك اعتقاد القوم بأن العالم لا يزال يتوسع باطراد إلى غير نهاية، فلابد وأن الحرارة الكلية ستمضي إلى مزيد من التناقص حتى يتجمد كل شيء بعد بلايين السنين!

هذه الشطحة الدهرية ليست من كيس الدكتور في الحقيقة، وإنما هي من عقائد الدهريين المعاصرين فيما يعرف عندهم بالموت الحراري للعالم Heat Death of the Universe! فإن هذا التعميم الكوني الدهري Universal Scale في تناول مسألة التوازن الحراري هذه، وما أفضى إليه من تصور لهلاك الكون بموت الحرارة فيه، ظهر أول ما ظهر في كتابات ويليام ثومسون (لورد كيلفن) في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وهو تعميم لا يقتضيه القانون

نفسه على ما هو معتمد من منطوقه الأشهر كما ذكرنا، إذ من الواضح أننا لا نملك مستندا في جعل العالم بأكمله "نظاما مغلقا" Closed System ولا في جعله مفتوحا! ولكن الظاهر أن الدكتور لما قرأ تلك الأفكار أعجب بها، ورأى فيها طريقا لاستعمال قوانين الديناميكا الحرارية كدليل على حدوث العالم، على أساس أننا لما نصل بعد إلى ذلك الموت الحراري المزعوم كما هو واضح، فإذا كان ذلك كذلك، فلابد وأن يكون العالم قد كانت له بداية في الماضي، بعدت أو قربت، وهي – على هذا القياس - نقطة الحد الأدنى للإنتروبي Minimum Entropy التي بدأ منها انتقال الحرارة بين الأجسام في العالم حتى وصل إلى ما هو عليه الآن!

ثم إنه من الواضح لمن تدبر في تلك المسلمة الدهرية الكونية Universal Postulate التي التقطها الدكتور بكل سهولة وجعلها مقدمة خفية Implicit Premise لبرهانه الكلامي، أنه حتى على التسليم باقتضائها حدوث العالم [٧]،

---

[٧] وليس بمسلم عند الدهريين بطبيعة الحال، فهم يجيزون أكثر من أنموذج كوزمولوجي لما كان عليه "العالم" قبل الانفجار الكبير، جريا في جميع ذلك على أصولهم الدهرية في تمديد أقيستهم من الأزل وإلى الأبد! فمنهم من قد يجيب بأن من المتصور أن يكون الأنموذج الصحيح للكون هو الأنموذج الترددي Oscillating Universe الذي يظل العالم فيه خاضعا لسلسلة لا تتناهى ولا بداية لها من الانفجارات والانسحاقات المتتابعة المتكررة، وحتى مع كونه ليس كذلك، فمجرد اعتماد مبدأ التذبذب الكوانطي Quantum Fluctuation (الذي كان في اعتقاد غير القائلين بهذا التصور الترددي هو حال الطاقة في الوجود قبل نشوء الفردية المزعومة التي انفجرت لتنشئ الكون الذي نعرفه)، يجيز لهم أن يفترضوا عالما أزليا تتقلب فيه الإنتروبي باضطراب لا يقتضي انقطاع تلك الترددات أو التذبذبات الكوانطية ومن ثم لا يقتضي امتناع نشوء

فرديات أخرى تنشأ منها أكوان جديدة يكون لكل منها أنتروبي خاص به، وهكذا! وإذا ما ضاق الأمر عليهم في شيء من تلكم الفرضيات (بسبب الطرق المرعية في حشوها وتركيبها مع غيرها من نظرياتهم)، لم يعجزهم افتراض وجود "مادة مضادة" و"مادة مظلمة" ونحو ذلك من أوهام افترضوها لتمرير فرضياتهم الكزمولوجية بشأن "تطور" الكون في إطار نظرية التمدد الكوني المعتمدة لديهم حاليا!
فإذا كان المبدأ المعرفي الكلي هو افتراض الفرضيات لدعم الفرضيات وضرب الأقيسة الميتافزيقية لتعضيد نظيرها من الأقيسة الميتافزيقية، وهما فوق وهم وتخمينا فوق تخمين وخرافة فوق خرافة، فلا نهاية ولا حد إذن لما يمكن للفيزيائي المعاصر أن يفترضه من ذلك تحكما Ad Hoc باستعمال تلك الأدوات التنظيرية التي اعتادوها في الكونيات المعاصرة، لينصر أي دعوى ميتافزيقية يريد اعتقادها بشأن أصل العالم وما كان قبله وما يكون بعده! وهذا هو الواقع فعلا عند من اطلع على تلك النظريات وطريقة القوم في بنائها! وقد بينت في "آلة الموحدين" كيف أن القول بالانفجار الكبير (بحسب المسلمات الكلية الدهرية التي أوصلتهم لافتراض ذلك الانفجار المزعوم من الأساس) لا يلزم منه اعتقاد أن النظام الطبيعي الكلي، أو على الأقل قوانين المجال الكوانطي التي نشأت عنها الفردية الأولى نفسها Singularity في اعتقادهم، قد حدثت في نقطة ما في الماضي، كما يتوهمه كثير من اللاهوتيين والمتكلمين في هذا الزمان، بل حتى كلمة كون Universe نفسها لا ينضبط لها حد ميتافزيقي واحد عندهم أصلا، وكل منهم يعرفها بحسب أنموذجه الكوزمولوجي! فكذلك الشأن في مسألة كوزمولوجيا الإنتروبي هذه ولا فرق! فإن قال المتكلم إن العالم الذي يريد إثبات حدوثه هو الزمكان، قلنا: فماذا عن الآلية الطبيعية التي افترضها القوم سببا لنشأة ذلك الزمكان من الأساس؟ ماذا عن زعمهم في مسألة التذبذب الكوانطي Quantum Fluctuation؟ لماذا تقبل منطقهم في إثبات الفردية المزعومة في الماضي تفسيرا لكون العالم على ما نراه اليوم، ولا تقبل منطقهم في تفسيرها هي نفسها؟ أليس يقتضي المنطق الدهري أن تكون في تلك الذبذبات المزعومة الكفاية السببية في نشأة الفردية المزعومة، كما جعلوا في تلك الفردية نفسها وما جرى عليها بزعمهم من تغيرات "طبيعية" وتمدد وتوسع وكذا، الكفاية السببية في صيرورة العالم إلى ما هو عليه الآن؟ يجب أن نفهم المنطق الدهري في بناء تلك النظريات "التفسيرية" فهما صحيحا، إن أردنا أن نبين وجه البطلان والفساد في اعتقادات القوم! أما أن نتخذه هو نفسه طريقنا لإثبات حدوث

فإنها تقتضي عالما لا قائم به من فوقه ولا مدبر، قد بدأ بانفجار حزمة من الطاقة بصورة ما أو بأخرى، ثم أخذت تلك الطاقة في التنقل (قياما بنفسها) بين الأجسام حتى وصلت بعد كثير من التنقل والتفكك والتفرق بين الأجسام الماضية في مزيد من الانتشار ومن التباعد عن بعضها البعض، إلى حال لم تجد عندها ما ينقلها من جسم إلى جسم أصلا، فتم تفسخ العالم بذلك وتساقطت أجزاؤه لزاما! أي أن سبب الانتقال من جسم إلى جسم عند هؤلاء مختزل ومقصور – من دهريتهم – في مجرد وجود ذلك الفارق الظاهر نفسه في مقدار الطاقة المخزونة في كل جسم، فلا تنتقل الحرارة من الجسم الأسخن إلى الجسم الأبرد إلا لأن الأول فيه مزيد طاقة، فإذا ما تبدد ذلك الفارق وتساوى الجسمان، لم يعد ثمة سبب وجودي لانتقال الطاقة (أي فيما سموه بالنظام المغلق)! وهذا اعتقاد دهري اختزالي مصادم لاعتقاد المسلمين، ولا نلتزمه في معنى "النظام المغلق" نفسه عند تقريرنا لذلك القانون! وإنما نقطع بأن أسباب تلك العملية الطبيعية لا تقتصر على ذلك، وأن منها في الغيب ما لا علم لنا به ولا اطلاع عليه!

وعند الدهرية تصور آخر أعم وأشمل لمبدأ الإنتروبي الكوزمولوجي الميتافزيقي سالف الذكر، يسمونه بسهم الزمان Arrow of Time، حيث يعتقدون أن المسألة ليست مقصورة على انتقال الطاقة وصولا إلى حالة

العالم ووجود الباري، فهذه طريقة الجهمية واللاهوتيين من أهل الملل التي أورثتهم عن أسلافهم دينا يقوم بأكمله على ميتافزيقا أرسطو!

الإنتروبي الأعلى أو الاتزان التام الذي لا يبقى فيه شيء يفضل شيئا أو يزيد عليه في الطاقة، وإنما تتعدى ذلك ليدخل فيها مفهوم النظام نفسه Order، إذ عندهم أن الطبيعة لا تتحول إلا من النظام إلى الفوضى من حيث الأصل، ولا يحصل العكس إلا في ظروف خاصة، لابد وأن تؤول في النهاية وفي محصول الأمر إلى الفوضى على أي حال. فالتآكل والتفكك والانهيار والانفجار هو الأصل عندهم في أحداث العالم، وإذن فهو سهم الزمان الطبيعي، أن ينتقل النظام إلى الفوضى، وليس العكس. ولهذا ظن بعض اللاهوتيين النصارى – كما تقدم - أن في تقرير قانون الإنتروبي ردا على نظرية النشوء والارتقاء الدارويني لأنها تزعم أن النظام الحيوي يمضي بخلاف ذلك السهم الكلي المزعوم (أي من الفوضى والعشواء إلى النظام والإحكام)!

وهذا كله كما ترى من إطلاقات وتعميمات الفلاسفة في تنظيرهم الميتافزيقي الخرافي الذي لا يقوم إلا على نظرية المعرفة الدهرية في استعمال قياس الشمول لتصور الغيب وما فيه! فصحيح إن العالم يكثر فيه التفكك والتحلل، إلا أنه لا يزال يُخلق فيه خلق جديد ويتركب فيه مركب جديد يوما بعد يوم، ولا يزال نظامه محكما موزونا بيد رب العالمين حتى تقوم ساعته يوم يأتي أجله، فلا يقال إن التحلل والتفكك والبلى والفناء هو الأصل، ولا يقال إن الخلق والتجدد والبناء وإحداث النظم الجديدة هو الأصل، وإنما يجري الخلق على نظام بالغ الإحكام، فلا يزول منه شيء يقتضي زواله وانهياره بكليته، ولا يظهر فيه شيء محدث جديد لا محل له أو لا مقتضى في علم باريه

جل وعلا وحكمته، وإنما يخلق اللّٰه تعالى ما يخلق بمقدار، ويفني ما يفني بمقدار، وكل شيء عنده إلى أجل. قال تعالى: ((الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ)) [الملك : ٣] وقال جل شأنه: ((اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ)) [الرعد : ٨] وقال تقدس اسمه: ((وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)) [الحجر : ٢١] وقال عز وجل: ((إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)) [القمر : ٤٩] وغير ذلك في معناه كثير مستفيض في القرآن!

والقصد أن الدكتور يلزمه من اعتناق تلك العقيدة الميتافزيقية التي أسس عليها "برهان الحدوث الإنتروبي" هذا، أن ينفي عن اللّٰه تعالى صفة التدبير والقيومية على أمر العالم وأنه سبحانه يمسكه عن الزوال كما في قوله جل شأنه: ((إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) [فاطر : ٤١]، فإن عالما يجري بالتدرج (في مجمل أمره) عبر ملايين السنين من النظام إلى الفوضى ومن الحركة إلى السكون ومن الحرارة إلى البرودة، ومن الحياة إلى الموات، ومن التركب إلى التفكك والتفسخ، بحيث يُتوقع له يومٌ ينهار فيه بالتقادم غاية الانهيار ويزول فيه النظام ويذهب أدراج الرياح، يتآكل كما يأكل الصدأ الحديد أو كما يأكل العفن جيف الموتى، هذا عالم لا رب له ولا قائم عليه، سبحان اللّٰه وتعالى عما يصفون!

وكما بينا آنفا وبسطنا الكلام عليه في غير موضع، فإن أمثال تلك الأقيسة المتنطعة على أصل العالم ونشأته ومصيره، إنما هي من عدوان الطبيعيين الدهريين على غيب السماوات والأرض، ومن تخرصهم على ما لم يشهدوه ولما يأتهم تأويله، وما كانوا ليطلعوا عليه مهما عملوا!

وأصل هذا الداء عند الجهمية واللاهوتين وأضرابهم، أيها القارئ المحترم، إنما هو تشبع القوم بنظرية المعرفة الجدلية اليونانية القديمة، التي هي أساس البحث والنظر ومنطلقه عند الأكاديميين الغربيين ومن لف لفهم في كل عصر من العصور. فلقد دأب الفلاسفة الجدليون من زمان أساتذة الأكاديمية اليونانية القديمة، على الزعم بأن الإنسان يفتقر – من حيث المبدأ - إلى برهان نظري كلي لإثبات حدوث العالم حتى يحصل لديه العلم بأنه مخلوق مربوب، هو وجميع ما في العالم من حوله، فلا يلزمه قبول رسالة الرسول إذا ما جاءته منسوبة إلى خالق كل شيء حتى يحصل لديه العلم المكتسب أولا بأن العالم حادث وبأن له محدثا! ونحن نزعم أنهم كاذبون جاحدون مسفسطون بتلك الدعوى المعرفية الكلية نفسها، وبنفيهم المعرفة الفطرية بوجود البارئ وحدوث العالم، فلا نقبلها منهم ابتداء ولا نسلم بها! ولهذا دأب أئمة السنة رحمهم الله تعالى على اعتبار الفطرة دليلا من جملة الأدلة على وجود البارئ، ومعلوم أن الفطرة ليست علما يكتسب بالنظر والاستدلال من بعد خلو النفس عنه، فليست هي عندنا – معاشر أهل السنة – دليلا بالمعنى الجدلي الفلسفي الذي يشترطونه هم في الدليل والاستدلال، وليست من جنس

المعارف التي تفتقر إلى النظر (بأي صورة من صوره) حتى تحصل في نفوس العقلاء، وإنما هي دليل بالمعنى اللغوي: أنها تدل الإنسان على الإقرار بوجود ربه وباريه وباستحقاقه لجميع صفات الكمال، سبحانه وتعالى، دلالة طبعية جبلية ضرورية!

أما الجهمية والمتكلمون من أهل القبلة فقبلوا من الفلاسفة الجدليين نظريتهم المعرفية وسلموا لها ولشرطهم في حصول تلك المعرفة في نفس الإنسان، فنفوا المعرفة الفطرية وأنكروها كما أنكروها، ونسبوا من آمن من غير استدلال على حدوث العالم "للتقليد" المذموم، ثم اختلفوا في حكم إيمانه نفسه، تماما كام كان موقف من قبلهم من متكلمة أهل الكتاب من اللاهوتيين والأحبار وغيرهم! هذا، أيها القارئ الكريم، هو الفرق المنهجي الكلي في مفهوم المعرفة نفسها بيننا معاشر أهل السنة وبين الجهمية على اختلاف طوائفهم وفرقهم! فهم لما وهنت قلوبهم وافتتنت بتلكم النظريات العريضة التي تنطع بها الفلاسفة على غيب السماوات والأرض، وأصبحت عندهم هي العلم القطعي المعتبر، وأرادوا أن يحرزوا لأنفسهم منزلة بين أولئك الفلاسفة وأن ينافسوهم في تلك البضاعة نفسها التي علوا بها في أكاديميات العلوم في زمانهم، وأحبوا في نفس الوقت أن يصبحوا رؤوسا بين عامة المسلمين في الانتصار للدين و"الدفاع عنه" ضد هجوم الفلاسفة وادعائهم أنه "مخالف للعلم" (على حسب مفهومهم هم للعلم)، أصبح الكلام منهجهم وطريقهم لإصابة كلا المطمعين معا، وللجمع بين "الحسنيين" (زعموا)، وصارت براهين

الحدوث تخترع أشكالا وألوانا بالتأسيس على تلك النظريات الميتافزيقية، وجريا على نظرية المعرفة الجدلية سالفة الذكر، التي بها جعلوا المؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر من غير "نظر في حدوث العالم ووجود الصانع" مقلدا مذموما لا عقل له! ثم إذا بآحاد العقائد في الله تعالى وصفاته وأفعاله وفي غيب السماء والأرض تتأسس بناء على تلكم البراهين ومقدماتها الميتافزيقية، وإذا بالفرق الجهمية تتشعب وتتكاثر تكاثرا انشطاريا، تبعا لكل مناظرة وعلى أثر كل مخاصمة، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال الدكتور (ص. ١٧):

> إن العلم الحق لم يكن أبدا مناقضا للدين، بل إنه دال عليه مؤكد لمعناه، وإنما نصف العلم هو الذي يوقع في الشبهة والشك، وبخاصة إذا كان ذلك العقل مزهوا بنفسه معتدا بعقلانيته، وبخاصة إذا دارت المعركة في عصر يتصور فيه العقل أنه كل شيء، وإذا حاصرت الإنسان شواهد حضارة مادية صارخة تزأر فيها الطائرات والسفن والأقمار الصناعية هاتفة كل لحظة: "أنا المادة ... أنا كل شيء"

قلت: لعله قد تبين للقارئ من التحليل السابق لبرهان الدكتور المستمد مما سماه "بقاموس العلم"، أننا لا يجوز أن نسَلّم لمن يقول "العلم الحق لم يكن مناقضا للدين، بل إنه دال عليه مؤكد لمعناه" حتى نستفصل منه عن

مقصوده "بالعلم الحق" على وجه التحديد، بل وعن مقصوده "بالدين" كذلك! فلا شك أن العلم الحق (المطابق للواقع) لا يناقض الدين الذي أوحى به رب العالمين، لكن ما هو "العلم الحق" هذا وما ضابطه عند أحدكم، معاشر المتكلمين؟ إنني أجزم بأنه لو ولد الدكتور مصطفى محمود في القرن الثالث أو الرابع الهجرى ، لكان مراده بالعلم الحق ميتافزيقا اليونان كنظرية الجوهر والعرض ونحوها، كما كان مراده بهذه العبارة في هذا العصر ميتافزيقا الطبيعيين المعاصرين التي قدم بها لبرهان الحدوث كما حرره فيما مر معك! وإلا فأي علم حق هذا الذي استحوذ عليه الفلاسفة (سواء فيما مضى أو في هذا الزمان) في وصفهم العالم برمته والكون بكليته على نحو ما اعتادوا من ذلك، وبأي برهان صار ذلك القياس المتنطع على الغيب المطلق "علما" أصلا ومن أين لهم به؟ هذا من زهو الفيلسوف بعقله (وليس زهو العقل بعقلانيته على حد عبارة الدكتور!)، وهو زهو لا يورث الشك ولا الشبهة في الحقيقة، وإنما يورث العلو والاستكبار على مطلق الاتباع والخضوع والانقياد والتسليم الذي هو من أركان الإيمان في دين رب العالمين، وعلى ملازمة سبيل المؤمنين إذا ما تبين! وهو استكبار لا يزول من الفيلسوف الدهرى بمجرد أن يعلن توبته ودخوله في الإسلام كما قد يتوهمه كثير من الناس، وإنما يتوجه بنظر صاحبه الفيلسوف إلى وجهة أخرى وينتج على يديه بدعة أخرى ، من شدة طمعه في أن يظل رأسا متبوعا حتى بعد خروجه من الدهرية والإلحاد، فيصير الفيلسوف متكلما، ويصبح الطبائعي الدهرى طبائعيا جهميا، ويصبح له في

الثانية تابع وجمهور ومحبون ومريدون كما كان له في الأولى أو أكثر، والله المستعان!

ومن تعطيل الدكتور لصفات الله تعالى على نفس تلك الطريقة (طريقة الجهمية المعاصرين)، قوله في إحدى حلقات برنامجه "العلم والإيمان":

> في الواقع إن كل شيء يجرى عليه التغير ويجرى عليه التآكل، يبقى ممكن نعرف عمره. إذا قدرنا نظبط ونكتشف ونقيس هذا التآكل. ودي هي الفكرة اللي اتبنت عليها كل الساعات اللي اتكلمنا عنها. يعني مثلا، في ساق صنوبرة، حصل تغيرات في النمو وازدياد متواصل كل سنة بتبني طبقة. بناء على هذه التغيرات إذا قدرنا نشوفها ونقراها بنعرف على طول العمر. العكس بيحصل لما بناخد عينة من جثة وبنكتشف إن فيه كربون ١٤ تآكل وتحلل وفضل منه كذا. بردو مسألة حصل عليها التغير وحصل عليها التآكل وقدرنا نقيس مدى التآكل بنعرف مدى العمر. نفس الحكاية بردو في الساعة الذرية العجيبة اللي هي ساعة البتواسيوم اللي حكينا عنها. بناخد عينة من الصخر ونكتشف إن كمية البوتاسيوم تآكلت وتحللت، بدل ما تقبى كذا بقت كذا. من معدلات التآكل أو التحلل بنقدر نعرف إن الصخر ده عمره ألف مليون سنة. جميع الساعات مبنية على تغيرات، ابتداء من الساعة الشمسية. لأن الساعة الشمسية هي مجرد انحراف الظل

مبني على حركة الشمس. فتغيرات مواضع الظل بنعرف منه على طول الزمن. وكذلك الساعة الرملية والساعة المائية. تغيرات كمية المية اللي بتنزل كل شوية أو كمية الرمل اللي بتنزل كل شوية.

ثم قال:

طيب إذا كان فيه شيء لا يتغير، شيء لا يتغير، ما فيش إلا اللّٰه سبحانه وتعالى هو الذي لا ينام ولا يتغير، يغير ولا يتغير. وعشان كده بنقول إن اللّٰه لا يجرى عليه طارئ الزمان. ما يجريش عليه طارئ الزمان. اللّٰه غير متزمن، ولا يخضع للزمان لأن هو اللي خلق الزمان. الزمان أحد مخلوقات اللّٰه سبحانه وتعالى. وعشان كده ما يصحش نقول إن ربنا سبحانه وتعالى له ماضي وحاضر ومستقبل زي ما بنقول على نفسنا. لأن كل ما يحدث بالنسبة للّٰه هو تحصيل حاصل. اللّٰه لا يستجد عليه شيء. اللّٰه لا ينتظر شيء. لأن المستقبل بالنسبة للّٰه حصل وانتهى في علمه ودون في أم الكتاب. اللّٰه حضور مستمر. لا يعني الزمن بالنسبة للّٰه أي شيء، يعني بالنسبة لنا، لأن احنا في حالة تغيرات، وعالمنا هو عالم التغير، وعالم الانحلال وعالم التآكل، وعشان كده عالمنا عالم الزمان، إنما عالم اللّٰه سبحانه وتعالى، اللّٰه فوق الزمان، وعشان كده بنقول عليه متعال، ولا يخضع للزمان، ولا يجرى عليه طارئ الزمان، وعشان كده بنقول إن اللّٰه لا ينتظر شيء.

قلت: بصرف النظر عن انتقادات النقاد لمنهجية التأريخ الحفري Dating Methodology عند الجيولوجيين المعاصرين التي يبدو أن الدكتور كان يأخذها أخذ المقلد المتمحض في التقليد، نقول: قول القائل إن الله تعالى "يغير ولا يتغير" فيه تفصيل. فلو أراد به أنه سبحانه لا ينام وأنه لا يفنى ولا يبلى ولا يتغير كتغير المخلوق، فهو حق لا بأس به، ولهذا أجاز العلماء أمثال الشيخ صالح الفوزان والعلامة ابن عثيمين رحمه الله قول القائل "سبحان الذي يغير ولا يتغير" لأن سياق قولهم تلك المقولة يكشف أنهم لا يريدون بها نفي الحوادث عن الله تعالى وإنما يريدون تنزيهه عن المرض والغفلة وخسارة الأملاك وذهاب السلطان ونحو ذلك! ولكن كلام الدكتور في الفقرة السابقة يبين أنه يريد بقوله "يغير ولا يتغير" نظير اعتقاد الجهمية القدماء الذين يعطلون جميع الصفات بعلة امتناع الحوادث! فالظاهر أن الرجل لم يصل إلى هذا الاعتقاد من قراءة أو مطالعة في مصنفات الجهمية القدماء، ولكن من جريان عقله على طريقة الجهمية نفسها، التي ضربنا لها المثل في غير موضع من كلامه كما مر معك!

ذلك أنه يبدأ بمقدمة مفادها تقرير أن التغير من صفات المخلوقين، ثم يتبعها بمقدمة مفادها أننا لا نعرف الزمان إلا بتتبع التغير، ثم يستنتج من ذلك أن الزمان من خصائص المخلوقين، وأن الله الخالق منزه عما سماه بالتزمن (يعني أن تجري عليه معاني الماضي والحاضر والمستقبل)! فإذا كان الزمان في الحقيقة هو ما يوصف به تتابع الحوادث أيا ما كان نوعها (التي هي هنا

بمعنى الأحداث عموما، كتتابع الأفعال من فاعلها أو الأقوال من قائلها أو غير ذلك)، فلا شك أن نفي معاني الزمان عن اللّٰه يلزم منه نفي اتصافه بتتابع الأقوال والأفعال وغير ذلك مما يجري عليه معاني الترتيب الزماني بأن يكون بعضها في الماضي بالنسبة إلى بعض، أو في الحاضر أو في المستقبل، وهذا هو محض التعطيل! ونحن نسأل الدكتور: هل خلق اللّٰه تعالى آدم أولا، أم خلقك أنت أولا؟ فإن قلت خلق آدم أولا، فقد أثبتّ للّٰه فعلا في الماضي، بالنسبة إلى فعل خلقه هو، وإذن بطل قولك! وإن قلت بل خلقهما جميعا بلا ماض ولا مستقبل ولا حاضر، لزم ألا يصح أن يقال إنه "خلقهما" أصلا لأن هذا في اللغة يقال له "فعل ماض"، أي بالنسبة إلى اللحظة الحاضرة التي نحن فيها، ولزم إذن ألا يكون ثمة فارق بين فعل خلقه لآدم وفعل خلقه لك أنت في الترتيب، فيستوي إذن معنى أن يكون خلقك قبله، بمعنى أن يكون خلقه قبلك، وبمعنى أن يكون خلقكما معا في نفس اللحظة، وإذن فسد الدين والاعتقاد واللغة وذهب العقل بالكلية، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه!

ولا شك أن القرآن طافح بمعاني الترتيب الزماني في أفعال اللّٰه تعالى، ومن ذلك (على سبيل المثال لا الحصر، ومن سورة البقرة وحدها) قوله تعالى: ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) [البقرة : ٢٨] فلزم من هذا الترتيب أن يقع الإحياء الأول في المستقبل بالنسبة للميتة الأولى، وفي الماضي بالنسبة إلى الإحياء الثاني الذي يفعله اللّٰه تعالى بعدهما جميعا، ودلالة "ثم" على هذا الترتيب مع

التراخي هي من بدهيات اللغة التي لا تحتاج إلى إثبات! وقوله تعالى: ((هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُم مَّا في الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [البقرة : ٢٩] فكان فعل الاستواء على العرش وفعل تسوية السماوات لاحقين في الترتيب الزماني على فعل خلق ما في الأرض، وقوله تعالى: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) [البقرة : ٣١] فكان تعليم آدم الأسماء كلها في الماضي بالنسبة إلى عرضها على الملائكة! وقوله تعالى في بني إسرائيل: ((وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)) [البقرة : ٥١ - ٥٢]، فمواعدة الله جاءت في الماضي بالنسبة إلى اتخاذهم العجل، ثم جاء العفو في المستقبل بالنسبة لهما جميعا! وقوله تعالى: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)) [البقرة : ١٢٦]، فالله تعالى يضطر إلى عذاب النار من سبق منه في الماضي أن متعه قليلا على كفره وإشراكه! وقوله تعالى: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ)) الآية [البقرة : ٢٤٣]، فكان قوله لهم "موتوا" في الماضي بالنسبة إلى إحيائهم، إلى غير ذلك مما هو واضح لا يحتاج إلى بيان أصلا! ولهذا نقول إن نفي معاني الترتيب الزماني عن الله تعالى تعطيل محض! قوله: "وعشان كده بنقول إن الله لا يجرى عليه طارئ

الزمان. ما يجريش عليه طارئ الزمان. اللّٰه غير متزمن، ولا يخضع للزمان لأن هو اللي خلق الزمان." فما معنى "طارئ الزمان" هذه؟ طوارئ الزمان هي الحوادث على التحقيق، وهذه هي عين مقولة الجهمية القدماء: لا تجرى عليه الحوادث أو "لا تحل به الحوادث"!

وأما قوله "اللّٰه لا يستجد عليه شيء. اللّٰه لا ينتظر شيء." ففي قوله "لا يستجد عليه شيء" إجمال قد تبين لنا من سياق كلامه وجهه عنده، وأن حقيقته تعطيل كافة الصفات! وأما قوله "لا ينتظر شيء" ففيه تكذيب لقوله تعالى: ((هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ)) [الأنعام : ١٥٨] وقوله تعالى: ((وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)) [هود : ١٢٢]، فاللّٰه تعالى يثبت لنفسه أنه ينتظر الآن – وكما كان في زمان التنزيل – قيام الساعة ونزول العقوبة الكبرى بالمجرمين! يقول اللّٰه "إنا منتظرون" والدكتور يقول "اللّٰه لا ينتظر شيئا"، فإنا للّٰه وإنا إليه راجعون!

ومن الواضح الجلي أن يوم القيامة لم يقع بعد، فلا يجوز أن نقول إن اللّٰه تعالى قد أقام الساعة فيما مضى بالفعل، وأنه قد أدخل المؤمنين الجنة والكفار النار، ومن قال بذلك فقد حكم على نفسه بذهاب العقل! ومع ذلك يستدل الدكتور بما جاء في القرآن من بيان وقائع يوم القيامة وما بعده بالزمان الماضي، على أن هذه الأحداث كلها قد وقعت بالفعل "بالنسبة إلى اللّٰه" وإن

كانت لم تقع بالنسبة لنا! يقول: "لأن المستقبل بالنسبة للّه حصل وانتهى في علمه ودون في أم الكتاب. اللّه حضور مستمر." ويقول: "المستقبل بالنسبة له ماضي، وعشان كده ربنا سبحانه وتعالى لما يحكي عن يوم القيامة، يحكي عنه بالفعل الماضي. يقول لك ونفخ في الصور! نفخ؟ احنا نفهم إنه حاينفخ! إنه لسه القيامة ما جاتش! آه إحنا نقول كده، لكن ربنا سبحانه وتعالى إذا تكلم فبيتكلم بعلمه، وفي علمه الحاجات حصلت خلاص. المستقبل بالنسبة للّه حصل، ودون في أم الكتاب. حدث في علمه!" اهـ. قلت: فلازم هذا أن يكون اللّه الآن موصوفا بأنه قد أقام الساعة ولم يقمها في نفس الوقت، وبأنه قد حاسبنا بالفعل وبأنه ينتظر يوم الحساب في نفس الوقت! حاسبنا بالنسبة إلى نفسه ولم يحاسبنا بالنسبة إلينا! فباللّه أي تناقض وأي فساد فوق هذا؟

ولو أن الدكتور درس شيئا من لغة القرآن التي بها يفهمه أهل العلم بالقرآن، لعلم أن الكلام عن المستقبل بصيغة الماضي في القرآن هو من باب مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولتحقق وقوع الأمور المخبر بها أو وجوب وقوعه. ولهذا نظائر في كلام العرب كما يقول القائل: "ستذكر غدا إذ تحقق ما أنبأتك به، وجاءك الخير الذي وعدتك، وظهر الحق وانتصر أهله، وكان كل شيء على وفق ما أخبرتك، ثم أنت يومئذ تقول: يا ليتني صدقته".

ومن الواضح أن الدكتور لم يكن يدري ما المقصود بالتدوين في "أم الكتاب"، فيظن أنه اتمام اللّه تعالى خلق أحداث الماضي والحاضر والمستقبل كلها

معا، فيما هو الماضي بالنسبة لنا، فإن كان كذلك فهو جهل وضلال لا قائل به قبله! فالتدوين في أم الكتاب عند أهل السنة والجماعة إنما هو كتابة القلم (المخلوق) ما هو كائن إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، وذلك قبل بدء خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وهي كتابة لجميع ما هو كائن من أمر العالم بعد الكتابة، وليست خلقا لذلك الذي هو كائن أو تكوينا له، وإلا لم يصح أن يقال "ما هو كائن" على سبيل الاستقبال! ففي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء"، وفي الحديث عن عبد الواحد بن سليم (صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي) قال قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح، فقلت له: يا أبا محمد: إن أهل البصرة يقولون في القدر، قال: يا بني أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: فاقرأ الزخرف. قال: فقرأت : حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ فقال: أتدري ما أم الكتاب؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السموات، وقبل أن يخلق الأرض، فيه أن فرعون من أهل النار، وفيه تبت يد أبي لهب وتب، قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول صلى الله عليه وسلم فسألته: ما كانت وصية أبيك عند الموت؟ قال: دعاني أبي فقال لي: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر خيره وشره، فإن مت على غير هذا

دخلت النار. وإني سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد). اهـ.

ثم قال الدكتور: "الزمن أكبر لغز في الفلسفة وأكبر لغز في الدين، واللي نعرفه منه إلى الآن إشارات." اهـ. قلت: ليس في دين الله ألغاز ولا أحاجي يا دكتور، وإنما فيه محارات للعقول من حيث كونها لا تتصوره أو لا تجد له قياسا على معهودها! أما الألغاز ففيها معنى إضافي على المحارات، إذ فيها معنى التحدي وطلب الحل وفك الإشكال، وهو ما لا يطلب شرعا ولا عقلا في تلك المسائل التي يقال لها "محارات" في أخبار الغيب من ديننا!

وقال الدكتور في حلقة أخرى بعنوان "المكان":

> النهاردة موعدنا مع المكان، والمكان ما ينفصلش عن الزمان، لأن المكان والزمان حقيقة واحدة عند أينشتاين، وحانشوف إن أينشتاين له حق.

قلت: لا ليس لأينشتاين ولا لغيره حق في فرض فلسفته الميتافزيقية الفاسدة على عقلاء البشر! فعند أينشتاين – كما بسطنا بيانه والرد عليه في غير موضع – أن الزمان والمكان عنصران وجوديان subjects يتركب منهما كيان وجودي خارجي (خارج الذهن) يقال له الزمكان، هو عنده النظير الوجودي أو الترجمة الواقعية لنظام الإحداث الرياضي الذي اخترعه أستاذه مينكاوسكي

وسماه بالزمكان أو المتصل الزمكاني Space-Time لأنه يدخل الزمان كبعد رابع إضافي للأبعاد الثلاثة الفراغية المعروفة. هذا الكيان الوجودي المزعوم تتجلى فيه بلية التنظير الميتافزيقي الكلي التي نبه عليها أئمة السنة عندنا في غيرما موضع من مصنفاتهم، إذ يحول الفيلسوف الكليات الذهنية إلى أعيان خارجية تؤثر في الحوادث وتتأثر بها. فعند أينشتاين في نسبيته العامة أن الزمكان هذا "نسيج" Fabric ليس ما يسمى بالجاذبية بين الأجسام إلا نتاجا للتأثر الذي يطرأ عليه من أثر تحيز الأجسام والأجرام بداخله! وهذا مذهب باطل قطعا وله تبعاته في تصور الفيزيائيين المعاصرين للزمان والمكان وفي نظريتهم الكونية السائدة في هذا العصر (كوزمولوجيا الانفجار الكبير)، وله كذلك تبعاته على اعتقاد اللاهوتيين والمتكلمين المعاصرين ومن لف لفهم في صفات رب العالمين وأفعاله، وهو أمر قد أطلنا النفس في بيانه في موضعه بحول الله وقوته! بل حتى استعمال مينكاوسكي نفسه – في تنظيره الرياضي لأصل ما يسمى بمتصل الزمكان هذا - للعدد التخيلي i في اصطناعه البعد الزماني الرابع الجديد، فيه نظر من جهة المفهوم الوجودي Ontological conception لما يقاس بذلك البعد التخيلي الإضافي في الخارج، وهو ذلك المفهوم الذي على أساسه سوى مينكاوسكي في المعاملة الرياضية والجيومترية بينه وبين الأبعاد الفراغية المعروفة، وعلى أساسه قال أينشتاين بتأثير الزمان في المكان وتأثيرهما معا في الأجسام، وقد بينا ذلك في موضعه ولله الحمد!

فعندما يقبل الدكتور مفهوم أينشتاين للزمان والمكان ومذهبه في جعلهما "حقيقة واحدة" بهذا الإجمال، فلا يجوز أن نقبل منه كلامه! ولا يجوز أن يتعامل المسلم المعاصر مع نسبية أينشتاين ذلك التعامل السطحي الساذج، بل عليه أن يكون مدققا إلى أبعد الحدود فيما يقبل وما يرفض من جملة المفاهيم الميتافزيقية التي أحدثها أينشتاين في النصف الأول من القرن الميلادي الماضي وصارت اليوم تدرس في جميع المعاهد المعنية بالعلوم الطبيعية وكأنها هي الحق المنزل من رب العالمين!

ثم قال الدكتور:

> لكن إدراك الحيوان للمكان إدراك غير واعي، إدراك غريزي ، الإنسان هو الكائن الوحيد اللي أدرك المكان إدراك واعي ورسم وخطط وعمل خرايط. الإنسان كان هو الكائن الوحيد اللي عمل أدوات قياس المكان، وعمل خريطة بلده وخريطة جغرافية القطر بتاعه ورسم القارات والكرة الأرضية وبعدين المجموعة الشمسية رسمها وبعدين عمل أطلس فلكي، وحاليا بيعمل أطلس كوني.

قلت: هذا الكلام لا يصدر إلا عن متشرب بالفلسفة المادية في نظرتها الدهرية المحضة إلى أنواع الدواب على الأرض! فإن الأصل عند الطبيعيين الدهرية أن أنواع الحيوانات كلها لا عقل لها لأنها لا تنطق نطقنا، فإذا تأمل أحدهم في مسالك بعض أنواع الدواب ووجد منها ما يمكن أن يفهمه هو بالقياس على

أنه نوع من أنواع الوعي الذاتي أو التعقل أو التواصل، حمل ذلك على أنه غاية ما لهذا النوع أو ذاك من حظ من العقل والمعرفة وما في معناهما، حتى يثبت لديه المزيد إن ثبت! وهذا في الحقيقة تأسيس على جهالة، لأن اللّٰه تعالى علمنا على رسله وفي كتبه أن الدواب أمم أمثالنا، كما في قوله جل شأنه ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)) [الأنعام : ٣٨]، فهم أمم أمثالنا من حيث كونها تعبد اللّٰه جل وعلا وتسعى في مصالحها وتحرص على ما ينفعها وتعرف وتتعلم في حدود ما مكنها اللّٰه منه من أسباب الأرض! فأما الوعي والتعقل فلا فرق بيننا وبينهم إلا في كونهم لم يخلقوا للخلافة في الأرض ولم يمكنوا من أسبابها، وإنما خلقوا للتسخير فيها، فلا يقدرون على كسب ما نقدر نحن على كسبه بأيدينا، ولا يتسلطون كتسلطنا على بيئة هذا العالم، ولم يمكنوا من أنواع العلوم التي مكننا اللّٰه من اكتسابها. وإلا فقد حكى اللّٰه لنا في القرآن قول الهدهد لنبيه سليمان عليه السلام: ((فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)) الآية [النمل : ٢٢] فقدم لنفسه بأنه لم يتغيب ولم يختف عن سليمان عليه السلام إلا لأمر جلل، وأنه رجع إليه من تلك الرحلة التي تغيب فيها بنبأ لم يحط سليمان نفسه – وهو من هو - بعلمه! ثم مضى الهدهد ليقول: ((إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)) [النمل : ٢٣-٢٥] ويحكي الرب كذلك قصة نملة سمع سليمان عليه السلام خطابها لأقرانها وتحذيرها إياهم منه ومن جنوده، قال تعالى: ((حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)) [النمل : ١٨]. من هنا يتبين فساد قول الدكتور: "إدراك الحيوان للمكان إدراك غير واعي، إدراك غريزى ، الإنسان هو الكائن الوحيد اللي أدرك المكان إدراك واعي"! فها أنت ترى الهدهد وهو يعي أنه في أرض معينة اسمها سبأ، وأنه وجد فيها ما وصف مما سماه تسمية الواعي العارف المدرك، والنملة كذلك تدرك سليمان وجنوده إدراكا واعيا، وتأمر أقرانها من النمل بأن يدخلوا في مكان يعرفونه فيما بينهم على أنه مساكنهم! فمن أين للدكتور ومن نقل عنهم نظريتهم الدهرية تلك، الزعم بأن الحيوان يدرك المكان إدراكا "غير واع" فضلا عن الزعم بأنه "غريزى"؟ هذا حكم من لا يعلم فيما لا يعلم، مستندا إلى ما لا يملك!

لهذا أقول لو قدرنا أن عُلِّم الباحث الدهرى الطبيعي منطق تلك القردة التي جلبها إلى معمله ليدرس سلوكها، كما علم الله سلميان منطق الطير، لوجدها تسبه وتسخر منه أبلغ السخرية، لأن الأبعد جاهل يدعي العلم، ولأنه سفيه حتى في الطريقة التي ذهب إليها في تحصيل ذلك العلم!

ذلك أن منطق الطير الذي عُلمه سليمان ومن قبله داود عليهما السلام، ليس تعلمه مما تُطرق له طرق الأسباب الدنيوية ويتحصل بالبحث ويكتسب بالنظر المستقل، لأن طرائق المخلوقات في التواصل فيما بين أفراد النوع الواحد منها (منطقها اللغوي)، لا قياس لها على بعضها البعض، ولا نملك مستندا في أن نقيس، وإنما هو محض تحكم! فمثلا من منطقنا نحن البشر في النداء، أننا نوجه أعيننا صوب من نناديه، ثم نشير بأنواع معينة من الإشارات ونخرج ألفاظا معينة مرتبة على ترتيب معين ثابت، فيحصل بذلك التعبير اللغوي المطلوب وينتقل المعنى إلى من نخاطب من أفراد نوعنا! هذا هو منطق النداء عندنا. فبأي مستند ندعي أنه هو نفسه منطق النداء بين القردة مثلا؟ هذا أمر لا نعلمه! ومع ذلك، ترى الباحث الدهري يسلم بأصل القياس، ويقيس مقدار ذكاء القرد المحتبس في معمله، بمقدار ما يجد منه من مسالك مشابهة لمسالك الإنسان التي يوصف صاحبها بالعقل! ثم يحاول أن يحمله على التواصل معه بمنطقه هو، لا بمنطق القرد الذي لا يعلم طريقا لفهمه أصلا! وهذا تحكم لا وجه له، ولا تدل استجابة القرد لشيء منه على ما يظن الطبيعيون أنها تدل عليه!

ثم قال الدكتور:

> دلوقتي، يبقى أينشتاين كان معاه حق، لما قال ما فيش حاجة اسمها مكان مطلق كده مستقل، وربط الزمان بالمكان، وقال كل حدث في

المادة لازم يتحدد كنقطة في الزمان ونقطة في المكان، نقول حدث تصادم قدام شبرد، زمان - مكان، وإن الزمان والمكان هو النسيج اللي بتحصل فيه جميع أحداث المادة، وإن مافيش مكان مستقل كده لوحده وما فيش زمان مستقل كده لوحده! إحنا مش عايزين نتفلسف مع أينشتاين، عاوزين ببساطة نقول بشرح بسيط، نقول بدون مؤشرات يبقى كلمة المكان مالهاش معنى. والمؤشر الوحيد للمكان هو الجاذبية. فيه في القرآن أربع كلمات، آية من أربع كلمات، فيها تلخيص بديع لكل الكلام ده. ربنا سبحانه وتعالى بيقول "وعلامات وبالنجم هم يهتدون"، أربع كلمات.. العلامات هي المؤشرات، النجم هو مركز الجاذبية، مركز الجاذبية هو الجرم الفضائي الكبير اللي له جاذبية وهو اللي بيحدد المؤشر في الفضاء. في الفضاء ما فيش مؤشرات إلا الجاذبية! في الفضا ما فيش شوارع إلا شوارع المجال المغناطيسي. وعشان كده لو رميت أي حاجة خارج جاذبية الأرض، غصبن عنها هذه الحاجة أو القمر الصناعي هاتاخذ شارع من شوارع المجال، فتلف حوالين الأرض، زي القمر ما بيلف حوالين الأرض، لأن مافيش في الفضاء مؤشرات غير الجاذبية، وما فيش شوارع غير شوارع المجال. ما فيش شارع دوغري.. كل الشوارع ماشية حسب المجال المغناطيسي. فلما نشوف تلخيص بديع جدا ما فيهوش لا فلسفة ولا تعقيد، خالص.. وكلام اتقال، من إمتى ده، ألف وربعميت

سنة! وعلامات وبالنجم هم يهتدون! ببساطة شديدة جدا اتحطت القضية كلها. إن لابد من مركز كبير في الفضاء، هو مركز الجذب اللي هو النجم أو أي جرم فضائي أو أي أرض، كل دي أجرام فضائية ذات جاذبية، هي دي المؤشرات، وهي دي اللي حاتدينا العلامات اللي احنا بنتحرك على أساسها!

قلت: من جديد يغرقنا الدكتور في الإجمالات العريضة التي لا نخرج منها بعلم ولا ننتفع منها بشيء! قوله "يبقى أينشتاين كان معاه حق، لما قال ما فيش حاجة اسمها مكان مطلق كده مستقل، وربط الزمان بالمكان،" نقول: ما معنى "مكان مطلق مستقل" هذه؟ وكيف تعتبر هذه العبارة من عبارات العلم التجريبي Empirical Science عند أي عاقل يدري موضوعات العلوم وأنواع المعارف؟ هذه عبارة فيلسوف ميتافزيقي يتكلم بإجمال شنيع عن مفهوم ما يسميه الناس في لغاتهم "بالمكان"، ثم ينفي عنه نفيا مطلقا صفة "الإطلاق" التي لم يبين ما مراده منها، كما ينفي صفة "الاستقلال" التي لا ندري – أيضا – ما مراده منها! وحتى عندما يبين مراده، فسيظل هذا الزعم من جنس مزاعم فلاسفة الميتافزيقا لا من موضوعات العلم التجريبي الذي يدور في الأصل على استقراء المحسوسات واستنتاج نظمها القانونية وسننها السببية Causal Regularities! هذا كلام فيلسوف مغرور متكئ على أريكته، يقول لكم: إذا سمعتم كلمة "مكان" وكلمة "زمان" فافهموهما على نحو كذا وكذا! وكثير من المفتونين بالفيزياء المعاصرة من بني جلدتنا لا يعلمون – للأسف – مقدار ما

تشربت به نظريات أصحابها من مزاعم ميتافزيقية محضة، ودعاوى وجودية كونية لا فضل لأي منها على أوهام فلاسفة اليونان القدماء بحال من الأحوال، ولا يستدل أصحابها لإثباتها بشيء ذي بال!

وحتى نبين للقارئ وجه كون هذا الكلام من التنظير الميتافزيقي المحض، وكونه كذلك من المغالطة العقلية الفجة، ندعوه لتأمل قول الدكتور في بيان مقصوده من نفي كون ما سماه "بالمكان" أمرا مطلقا أو مستقلا: "وربط الزمان بالمكان، وقال كل حدث في المادة لازم يتحدد كنقطة في الزمان ونقطة في المكان، نقول حدث تصادم قدام شبرد، زمان - مكان، وإن الزمان والمكان هو النسيج اللي بتحصل فيه جميع أحداث المادة، وإن مافيش مكان مستقل كده لوحده وما فيش زمان مستقل كده لوحده!" ثم قال بعد هذا الكلام العجيب: "إحنا مش عايزين نتفلسف مع أينشتاين"! ونقول: نعم لا نريد أن نتفلسف مع أينشتاين، ولكن نريد أن نحذر العقلاء مما فسد في تفلسف أينشتاين، وهذا حقنا، بل واجبنا الشرعي! ذلك أنه يجب على المسلمين في هذا الزمان، المشتغلين بالفيزياء والرياضيات وعلوم الطبيعة بعموم، أن يفرقوا بين ربط الزمان بالمكان ذهنيا أو معرفيا (إبستمولوجيا) في بعض الصيغ الرياضية المستعملة لتوصيف الواقع عند الفيزيائيين المعاصرين، وبين ربطهما وجوديا (أنطولوجيا) أي إطلاق الدعوى الميتافزيقية بأن الزمان والمكان هما في الحقيقة عنصران في كيان وجودي واحد (موجود خارج الذهن) يعامل معاملة النسيج المتلاحم المنتشر في أنحاء العالم، كنظيره القديم المسمى "بالأثير"

أو كدعوى الفلاسفة المتقدمين فيما سموه بالجوهر الذي تتقلب عليه الأعراض! فعند أينشتاين أن الارتباط المعرفي الذهني الرياضي الذي اخترعه هو وصاحبه لورنتز وصاحبهما منكاوسكي يقتضي الارتباط الوجودي خارج الذهن، وهذا باطل من وجوه عدة لا يتسع المقام لبسط الكلام فيها ها هنا!

ومن آثار تلك التسوية الفلسفية الفاسدة عند أينشتاين بين ما في الذهن وما في الخارج، نفيه للتزامن المطلق وجوديا Absolute Simultaneity، ودعواه أن التزامن كله أمر نسبي، وهذا لا يقول به إلا دهري لا يؤمن بوجود رب حسيب رقيب مطلع على جميع خلقه معا في نفس الوقت، يراه جميعه في نفس اللحظة، ويعلم ما كان عليه كله في الماضي وما هو منقلب إليه من حال في المستقبل، فما يراه الآن في هذه اللحظة في مصر خلاف ما يراه الآن في هذه اللحظة نفسها في سوريا أو في أستراليا أو في الأمريكتين أو في الصين، مع كون ذلك كله حاضرا حادثا في لحظة واحدة وفي آن واحد بالنسبة إليه سبحانه! وهذا من مقتضيات صفات المعية والسمع والبصر والإحاطة العلمية التي أثبتها الله لنفسه، وتقتضيها البداهة والفطرة في حقه جل وعلا. قال تعالى: ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [المجادلة : ٧]، وقال جل شأنه: ((قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)) [طه : ٤٦]، وقال تعالى: ((قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)) [المجادلة : ١]، وقال تعالى: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) [الحديد : ٤] وقد بسطنا الكلام في ثمرة اعتقاد انتفاء التزامن المطلق على صفات الله تعالى في كتاب "حدود القياس والنظر" فلا نعيد.

قوله "عاوزين ببساطة نقول بشرح بسيط، نقول بدون مؤشرات يبقى كلمة المكان مالهاش معنى. والمؤشر الوحيد للمكان هو الجاذبية" قلت: قال الدكتور "مش عاوزين نتفلسف"، فإن لم يكن هذا الكلام "تفلسفا" فأي شيء هو إذن، وتحت أي باب من أبواب المعارف يدخل على التحقيق؟ إن قال قائل القوم: هذا كلام علمي، قلنا: فبأي شيء صار علميا؟ هل مجرد التلفظ بمصطلح "الجاذبية" يجعل الكلام كلاما علميا؟ هذا تنظير ميتافزيقي محض ولا شك! فهو يتفلسف ليقرر أن ما يقال له "مكان" لا يمكن أن يعرف أو يدرك أو يكون للكلمة نفسها أي معنى لولا وجود ما يسمى "بالجاذبية"، على اعتبار أنها هي التي بها يمتاز لدينا الفارق بين جهة العلو وجهة السفول (فوق وتحت)! وهذا غير مسلَّم لأن الإنسان يعرف فوقه بما يلي رأسه في جهة السماء، ويعرف تحته بما يلي قدميه في جهة الأرض، ويدرك معنى اليمين بما يلي يمناه واليسار بما يلي يسراه، والأمام بما يلي وجهه والخلف بما يلي ظهره، بصرف النظر هل هو خاضع حال ذلك الإدراك لما يسمى بالجاذبية أم لا!

فلما كانت خلقتنا في هذا العالم بحيث نرى الأرض منبسطة تحت أقدامنا في عموم أحوالنا، ونرى السماء مرفوعة فوق رؤوسنا أينما ذهبنا، وبحيث نشعر في نفس الوقت بانجذابنا وتثاقلنا إلى أسفل لا إلى أعلى، وبحيث تتحرك إبرة البوصلة في اتجاه المجال المغناطيسي المحيط بالأرض، كانت الجاذبية والمغناطيسية مؤشرات تعرف بها الجهات على الأرض من هذا الوجه، فلا يبلغ الأمر أن يقال إنه بدون الجاذبية لم يكن لكلمة المكان معنى!

هذا إفراط وغلو واضح في أمر الجاذبية، لعله يرجع إلى تشرب الدكتور بفلسفة أينشتاين في نسبيته العامة التي فُسرت الجاذبية فيها بأنها انفعال الأجسام المادية بتشكل ذلك النسيج الوجودي المزعوم الذي يملأ أركان الكون، ويقال له "الزمكان" أو المتصل المكاني الزماني! ونحن نقول: صحيح إن معادلات أينشتاين قد استخرج منها توصيف صحيح لحركة الأجرام المشاهدة تحت تأثير ما يسمى بالجاذبية، إلا أن التصور الوجودي (الأنطولوجي) الذي بنى الرجل عليه معادلات الهندسة غير الإقليدية التي تبناها في تلك النظرية، تصور فاسد لا يصح. ذلك أنه يحيل المعاني الذهنية المجردة إلى أعيان خارجية، على أثر تنظير ميتافزيقي مغلوط بشأن حقيقة كل من الزمان والمكان كما تقدمت الإشارة إليه.

وقد بينا في غير هذا الكتاب أنه لا تلازم بين كفاءة الأنموذج الرياضي في توصيفه للواقع (إجمالا)، وبين صحة الدعاوى الوجودية الغيبية التي يزعمها

صاحب ذلك الأنموذج ويفسر بها جريان الظاهرة التي يتناولها ذلك الأنموذج على ذلك النحو بعينه لا غيره! فتحويل لورينتز على سبيل المثل يصدقه الواقع المشاهد، مع كون ذلك الواقع نفسه يقبل التأويل وفقا لأنطولوجيا لورينتز (نظرية الأثير) إن سلمنا بصحتها، كما يقبل التأويل وفقا لأنطولوجيا أينشتاين ومينكاوسكي (نظرية الزمكان) إن سلمنا بصحتها! وما زلنا إلى اليوم نرى من فلاسفة العلوم من يتبنى المدرسة اللورنتزية في فهمه لمعادلات النسبية الخاصة، فيقبل المعادلات والتحويلات واستعمالها التطبيقي، ولا يقبل دعوى انتفاء التزامن المطلق (مثلا)، ولا يراها تلزمه! فهذا موقف متصور معقول كما بسطنا الكلام عليه في موضعه، ولا يصح أن تتخذ مجرد موافقة المعادلات الرياضية الواصفة للواقع المشاهد الموصوف بها، دليلا على صحة أي من الفرضيتين الغيبيتين! فكيف إذا كانت العين الوجودية الغيبية المزعومة في النظرية مغالطة عقلية في أصل تصورها نفسه (كما هو الشأن فيما يسمى "بنسيج الزمكان" أو "نسيج الفراغ" أو نحو ذلك مما صيره أينشتاين علما مع أنه من أفسد ما أنت راء من سفسطة الفلاسفة)؟

قوله: "فيه في القرآن أربع كلمات، آية من أربع كلمات، فيها تلخيص بديع لكل الكلام ده. ربنا سبحانه وتعالى بيقول "وعلامات وبالنجم هم يهتدون"، أربع كلمات.. العلامات هي المؤشرات، النجم هو مركز الجاذبية، مركز الجاذبية هو الجرم الفضائي الكبير اللي له جاذبية وهو اللي بيحدد المؤشر في الفضاء" قلت: مرة أخرى يرجع الفيلسوف الجهمي لمصحفه لينتقي لنفسه آية من كتاب

اللّه، يبدو له – على عجمته – أنها تقبل التأويل لنصرة فلسفته المتهافتة، ومن ثم يجعل القرآن ناطقا بتلك الفلسفة دالا عليها، ولا حول ولا قوة إلا باللّه! أي جرأة على اللّه أعظم من أن يتفلسف الرجل فلسفته الغيبية الخاصة متراميا فيها ذات اليمين وذات الشمال، ثم يأتي إلى شيء من كلام اللّه انتقاه انتقاء ليقول فيه: "اللّه تعالى يلخص هذا الكلام كله تلخيصا بديعا في قوله كذا وكذا"؟؟ اللّه يلخص كلامك أنت ونظريتك أنت؟ يا هذا من تظن نفسك؟؟ سبحان اللّه العظيم! ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [الزمر : ٦٧]

قوله تعالى ((وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)) [النحل : ١٦] فيه بيان لمنة اللّه تعالى على الإنس والجن بأن جعل لهم في الأرض علامات يهتدون بها، وفي السماء نجوما تدلهم على الجهة والطريق. ولا شك أن كل ما يدخل في معنى العلامة الدالة على الجهة فهو داخل في معنى الآية المجمل، ولكن الدكتور يحمِّل الآية جميع ما تقدم في الحلقة من فلسفته في معنى المكان والجاذبية ونحو ذلك بقوله "تلخيص بديع لكل الكلام ده" وما يأتي من كلامه بعد، وهذا عدوان على كلام اللّه عظيم!

يقول: "لأن مافيش في الفضاء مؤشرات غير الجاذبية، وما فيش شوارع غير شوارع المجال. ما فيش شارع دوغري.. كل الشوارع ماشية حسب المجال

المغناطيسي. فلما نشوف تلخيص بديع جدا ما فيهوش لا فلسفة ولا تعقيد، خالص.. وكلام اتقال، من إمتى ده، ألف وربعميت سنة! وعلامات وبالنجم هم يهتدون! ببساطة شديدة جدا اتحطت القضية كلها. إن لابد من مركز كبير في الفضاء، هو مركز الجذب اللي هو النجم أو أي جرم فضائي أو أي أرض، كل دي أجرام فضائية ذات جاذبية، هي دي المؤشرات، وهي دي اللي حاتدينا العلامات اللي احنا بنتحرك على أساسها!" اهـ. قلت: من ذا الذي قال إنه ليس في الفضاء علامات تدل الناس على الجهة إلا الجاذبية؟ ثم ما معنى "مؤشرات" هذه أصلا، التي أدخلتها في معنى قوله تعالى "وعلامات"، ثم أخرجت كل ما سواها من معنى الآية هكذا بكل سهولة؟ هل المقصود مسارات حركة الأجرام الحرة في الفضاء، أم العلامات التي تدل الإنسان على الجهة؟ ثم أين قال الله تعالى إنه لابد من مركز جذب كبير في الفضاء حتى يهتدي الناس إلى منافعهم؟ لا والله لم يذكر الله تعالى جاذبية النجوم في الفضاء ولم يشر إليها من قريب أو بعيد، ولم "يلخص" فلسفة الجاذبية ولا فلسفة المكان أو الفراغ عند الفيزيائيين في القرن العشرين ولا في أي قرن آخر، ولم يقترب منها أصلا، ولكنها قرمطة الجهمية التي لا تعرف سلفا ولا تقتفي أثرا في فهم كلام رب العالمين!

ثم قال الدكتور:

معنى كده إيه؟ معنى كده إن حتى كلمة المكان، ما فيش مكان مستقل! ما فيش مكان مستقل، ده المكان ده مرتبط باستمرار بوجود جرم فضائي كبير، اسمه أرض أو نجم أو شمس أو كوكب أو أو، هذا الجرم الفضائي عامل، إيه عدل الفراغ حواليه وعمل الشوارع اللي بنسميها إحنا شوارع المكان، وحط المؤشرات بتاع الحركة. يعني إذن أينشتاين لما عمل هذه النظرية، ما كانش بيعقد! ده هي المسألة فعلا، ببساطة شديدة، وفي كلمتين: بدون مؤشرات، كلمة المكان لا تعود لها معنى!

قلت: في هذا الكلام تلبيس واضح على المستمعين، لأن أينشتاين لم يربط بين المكان والجاذبية بهذا الربط الساذج الذي يوهم به كلام الدكتور! بل ربط بينهما ربطا وجوديا خارجيا، إذ فسر ظاهرة "الجاذبية" على أنها تأثير "شكل" ما يسمى "بنسيج الفراغ" على حركة الأجرام الجارية فيه، وهذا يعرفه أدنى دارس مبتدئ للنسبية العامة! المسألة ليست مجرد مجالات مغناطيسية تنشأ حول الجرم الكبير فتؤثر في حركة الأجرام الصغيرة المحيطة به! فالتأثير على الحركة عند أينشتاين ليس صادرا عن المجال المغناطيسي الملازم للجرم أو النجم الكبير، وإنما هو (ومعه المجال المغناطيسي نفسه) صادر عن "المكان" أو "الفراغ" الذي يتشكل بصورة معينة على أثر "وجود" الجرم الكبير فيه! مع أن المكان أو الفراغ هذا معنى ذهني محض وليس متعينا وجوديا في الخارج! فعندما يعمي الدكتور على هذه البائقة الفلسفية بقوله "وعمل الشوارع اللي

بنسميها إحنا شوارع المكان"، فهذا تغرير بالسامعين واستغفال لهم! فالسبب في فقدان كلمة "مكان" للمعنى بدون الجاذبية عند أينشتاين أن الجاذبية هي "فعل المكان" وتأثير ما يسمى بالزمكان على حركة الأعيان، وليس أنه بدون مؤشرات فإن كلمة المكان لا تعود لها معنى!

وقد كان هذا التمهيد ضروريا حتى ينتقل الدكتور لتقرير جهميته العصرية في مسألة المكان كما قررها آنفا في مسألة الزمان والحدوث، فقال في مختتم الحلقة:

> الله سبحانه وتعالى ليس له مكان، إحنا (غير واضح) كده، العالم المادي هو عالم الزمان والمكان. زي ما قلنا إن ربنا سبحانه وتعالى لا يجري عليه طارئ الزمان، وإن هو تعالى على الزمان وإنه غير متزمن، فأيضا الله سبحانه وتعالى ليس له مكان، وهو منزه عن أن يتحيز في حيز أو مكان، لأنه غير محدود بطول أو عرض. ولا يصح أن يقال إن ربنا فوق أو تحت أو عن يمين أو عن شمال، والقرآن يقول لنا عن ربنا سبحانه وتعالى: ((وهو معكم أين ما كنتم)) يعني في معية مع الكل في نفس الوقت! يعني في حضور في جميع الأبعاد وعبر جميع الأبعاد! إزاي يبقى فيه شيء موجود في كل مكان؟

قلت: هذه المقولة "الله منزه عن أن يتحيز في حيز أو مكان" التقطها الدكتور من كلام الصوفية الأشعرية ونحوهم، فطار بها كل مطار كما ترى، لأنه وجدها

تناسب اعتقاده الأينشتايني الحديث. ذلك أنه اعتنق عقيدة أينشتاين في كون المكان أو الفراغ عينا خارجية تؤثر على الأجسام، كما هو اعتقاده في الزمان كذلك! فمن قبل بهذا المفهوم التشيئي للزمان والمكان، لزمه أن ينزه الرب عن الاتصاف بهما أو بمعانيهما لأنهما من جملة خلقه! وإذن فمن قال إن الله في السماء، فهو عند صاحب هذا الاعتقاد حشوي مجسم لأن السماء "مكان"، والله خالق "الزمكان"، فلا يكون في السماء إلا جنس الحوادث المخلوقة، لأنه لا يكون في "الزمكان" هذا إلا الحوادث المخلوقة، والله خارج عن ذلك كله، "متعال عليه"! ولهذا فرح الأشاعرة المعاصرون بتلك النظرية الوجودية التشيئية Substantivalist للزمان والمكان، وما ترتب عليها من كوزمولجيا النسبية العامة، لأنها تحصر معنى الحوادث والحدوث (ميتافزيقيا) في داخل ما يسميه الفيزيائيون المعاصرون "بالزمكان"، كما كان ينحصر من قبل في إطار ما سماه الميتافزيقيون اليونانيون القدماء بحيز الجواهر التي تطرأ عليها الأعراض! فإذا أراد الأشعري المعاصر أن ينتصر لبرهان الحدوث القديم لديه بميتافزيقا المعاصرين، فلن يجد ما هو أرجى لنوال ذلك المطلب بين أيدي النظار الأكاديميين المعاصرين من التقديم لبرهانه القديم بكوزمولوجيا الانفجار الكبير المعاصرة المبنية على القول بحدوث الزمان والمكان معا في الماضي في نقطة الانفجار المزعوم! ولهذا فرح الأستاذ سعيد فودة المنظر الأشعري المعاصر ببرهان الكلام الكوزمولوجي عند اللاهوتي النصراني الأمريكي المعاصر ويليام لين كريغ غاية الفرح كما بيناه في كتاب "الأجوبة

الناسفة" وغيره، لأنه يعيد تأسيس برهان الحدوث عند الغزالي على تلك الميتافزيقا المعاصرة كما لم يستطعه أي أشعري من أشاعرة العصر!

فإذا صار الزمان والمكان من جملة الحوادث المخلوقة، وصح أن الحدوث لا يفهم إلا بلغة الزمان والمكان، رجع الأمر إلى معتقد الجهمية القدماء في قولهم: "ما تحل به الحوادث فهو حادث"، ومن ثم تعطيل صفات رب العالمين على معهود مذهبهم! وفي هذا المذهب دور وتناقض لا يخفى! إذ لو كان الزمان والمكان حادثين مبتدأين بعد أن لم يكونا، فلا شك أن حدوث الزمان نفسه يقتضي أن يكون في الماضي قبل ذلك الحدوث لحظة ليس فيها "زمان"، أي توصف بأنها في الماضي بالنسبة إلى خلق الزمان نفسه! فإذا كان لا يوصف بالمضي والحضور والاستقبال إلا ما يقع في بطن تلك العين المزعومة التي يقال لها "الزمان"، فلا معنى أصلا لقولنا إن الزمان قد "حدث" أو خلق، لأن الحدوث هو حصول ما لم يكن حاصلا في الماضي، ولهذا لا يمكن للعقل السوي أن يجرد معنى الحدوث عن معاني الزمانية الثلاثة (المضي والحضور والاستقبال)! وإذن فقد لزم أن يكون الزمان موجودا قبل حدوث الزمان حتى يصح له في العقل أن يحدث، فتأمل!

والظاهر أن الدكتور أدرك هذا الدور والتناقض الصارخ في تلك المسألة، فتفلسف للخروج منها بعزل السببية عن مفهوم الترتيب الزماني بين السبب ومسببه بالكلية، فأغرق في الباطل بذلك كما سيأتي! وقد وقع في تناقض

آخر رجع به إلى وحدة الوجود التي كان يرجو الفرار منها! إذ زعم أن اللّٰه موجود في كل مكان، وليس بموجود في أي مكان معا في نفس الوقت، أو جعل الأول (الوجود في كل مكان) تفسيرا للثاني (تنزيهه عن المكان)، مع أنهما في الحقيقة نقيضان! قال الدكتور: "ولا يصح أن يقال إن ربنا فوق أو تحت أو عن يمين أو عن شمال، والقرآن يقول لنا عن ربنا سبحانه وتعالى: ((وهو معكم أين ما كنتم)) يعني في معية مع الكل في نفس الوقت! يعني في حضور في جميع الأبعاد وعبر جميع الأبعاد!" قلت: تقدم بيان أن معية اللّٰه تعالى المرادة من هذه الآية ونحوها هي معية العلم والإحاطة وليس معية الذات، وهذا هو اعتقاد أهل السنة خلافا للحلولية والاتحادية! ونقول: إن صح – تنزلا – أن اللّٰه "في حضور في جميع الأبعاد" كما يقول الدكتور، كان الصواب أن يقال هو فوق وتحت ويمين وشمال معا في نفس الوقت! بل إنه قال أولا إن اللّٰه لا يوصف بالطول والعرض، ثم قال إنه حاضر في جميع الأبعاد، فما هي "الأبعاد" هذه إن لم تكن ما يقاس به الطول والعرض والامتداد؟ وعليه فإن آخر كلام الدكتور ينقض أوله، والمعية عنده هي وحدة الوجود أو الاتحاد والحلول على التحقيق! وآية تلك الحلولية التي جنح إليها أنه يواصل فيورد دفاعا من دفاعات أصحاب وحدة الوجود والاتحاد والحلول في الرد عن ضلالتهم، فيقول:

ساعات بعض الناس يعني، أو طفل مثلا يسألك: إزاي يا بابا ربنا يبقى موجود في كل مكان؟ لأن ساعات بتبقى صعبة في التصور يعني! فنقول له إيه؟ نضرب له مثال بسيط بصوت عبد الحليم! صوت عبد

الحليم في الهواء عبارة عن موجة لاسلكية أنا باجيبها بالراديو! ترانزيستور صغير كده أضبطه، فأسمع صوت عبد الحليم. صوت عبد الحليم في الهواء وفي الفضاء عبارة عن موجة لاسلكية. أنا باسمع الموجة اللاسلكية دي على السطح، وفي الدور العاشر والتاسع والثامن والدور الأول وفي البدروم بردو أدور أسمع، في البحر في غواصة أدور أسمع! في المنجم، أدور أسمع! في نفس الوقت، ده مثال، الموجة اللاسلكية دي، ده مثال لشيء موجود في كل حتة في نفس الوقت! تحت الأرض أسمعه، فوق الأرض أسمعه، في طيارة أسمعه، في قاع البحر أسمعه، على سطح البحر أسمعه! هي من فرط سرعتها، اللي هي الموجة اللاسلكية، من فرط سرعتها، تكاد توجد في كل مكان. فأهو ده مثال للتقريب، لأن هي بردو ما نقدرش نقول موجودة في كل مكان، لكن هي تكاد من كتر السرعة، لأن هي بردو الموجة اللاسلكية كأي شيء مادي بردو لها حدود، ولها زمان وتردد وذبذبة وقياس وطول و.. إلى آخره، لكن من فرط السرعة تسمعها في كل حتة في وقت واحد. فهي مثال للتقريب. لكن سبحان الله ربنا متعال على التقليد والتمثيل، وليس كمثله شيء.

قلت: إذن نفهم من هذا المثال أن الله منتشر في الفراغ انتشار الموجة اللاسلكية! فإن قال الدكتور: لا، لا أقصد هذا قطعا، وإنما هو مثال للتقريب وإلا فالله ليس كمثله شيء، قلنا: تقريب إلى أي شيء؟ ما هو المعنى المراد

التقريب إليه، وما علاقته بالمعنى المستعان به في التقريب؟ أما المعنى المراد تقريب الذهن إليه هنا فهو أن الله في كل مكان! وأما المعنى المستعمل في التقريب فهو أن موجة الراديو منتشرة في كل مكان! فالذي يصل إلى ذهن أي عاقل أن المراد أن الله تعالى ممتد في المكان بذاته فلا يخلو منه مكان، وهو اعتقاد الحلولية والاتحادية!

ثم قال الدكتور:

> ربنا سبحانه وتعالى بيؤول للنبي عليه الصلاة والسلام: "ولو كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر" ، "وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون"، "وما كنت لديهم إذ يختصمون"، أمال مين كان هناك؟ الله! الحاضر في كل الأزمنة وكل الأمكنة. بيؤول للنبي عليه الصلاة والسلام، أنت ما كنتش هنا لما حصل كذا، ما كنتش هنا لما حصل كذا، ولا كنت هنا لما حصل .. أمال مين كان موجود؟ الله الموجود في جميع الأزمنة وفي جميع الأمكنة، في نفس الوقت، وعبر كل الأزمنة وعبر كل الأمكنة! لأن هو اللي خلق الزمان وهو اللي خلق المكان! فهو متعال على الاتنين. وعشان كده نقول تسهيلا للتصور، ليس كمثله شيء.

قلت: قوله "الله الحاضر في كل الأزمنة وكل الأمكنة" ونظيره "الموجود في جميع الأمكنة، في نفس الوقت عبر كل الأزمنة وعبر كل الأمكنة" هو قول

صريح بالحلول، ولا يغني عنه شيئا أن ختم كلامه بقوله "ليس كمثله شيء"! وصحيح إن أهل السنة قد يطلقون القول بأن الزمان مخلوق أحيانا، ولكنهم إن قالوا هذه المقالة فإنما يقصدون أن مقياس الزمان عندنا معاشر البشر (تقلب الليل والنهار) مخلوق! وقد ورد هذا المعنى في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مواطن عدة. أما أن يراد من مخلوقية الزمان رفع معاني التقدم والتأخر الزماني والتزامن عن أفعال الله جل وعلا، فهذا لا يقوله أحد من أهل السنة ألبتة، وإنما هو جهمية محضة وتعطيل محض!

ثم قال مقررا فلسفته في مسألة خلق الزمان هذه:

> والقرآن يصفه سبحانه وتعالى بأنه هو الأول والآخر، الأول ليس بمعنى زماني، لأن له أولية على الزمان كمان! مادام له أولية على الزمان، يعني قبل الزمان، يبقى حتى كلمة قبل، "القبلية" دي مش زمانية! أمال قبلية إيه؟ قبلية مسبٍب على سبب، لأنه هو مسبب الأسباب. قبلية منزلة قبلية مرتبة، لأن هو خالق والزمان مخلوق، ولما بنقول الأول والآخر يعني بردو مش آخرية زمان، يعني مش ينتهي الزمان وهو بعده، البعدية هنا مش زمانية لأن ما دام انتهى الزمان يبقى ما يصحش نقول قبل ولا بعد خلاص! إنما هي آخرية انقطاع السبب. إن ربنا خلاص قفل على الزمان، انتهى! فهنا معاني عميقة أوي! لا الأولية أولية زمانية ولا الآخرية آخرية زمانية، إنما هي أولية

سبب على مسبب، وآخرية انقطاع سبب على مسبب! وأولية مرتبة، باعتبار الله خالق والزمان مخلوق والمكان مخلوق! فدي طبعا حاجات تلخبط المخ لما الواحد يقعد يحاول يتصورها! استحضار هذه الأشياء ما نقدرش نستحضرها بمخنا! ربنا سبحانه وتعالى فوق العقول، وبنقول عليه متعال عشان كده، ومن صفاته هذا التعالي على.. إيه، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، يدرك العقول ولا تدركه العقول، فتتلخص كلها في كلمتين "ليس كمثله شيء" وكلمة سبحان، سبحانك يا رب، يعني ما فيش زيك، كلمة سبحان يعني منزه أنت يا رب عن أن يشبهك شيء. سبحانك. فهي (غير واضح) الذات الإلهية جميع أدواتنا وجميع عقولنا تقصر، لأن دي الدرجة العليا بقى خلاص، مش .. ليس كمثله شيء.

قلت: هذه الجرأة على شرح صفات الله تعالى وأسمائه من أين لك بها يا دكتور، وأي شيء يؤهلك لها؟ ((وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)) [الأعراف : ١٨٠] قوله: "والقرآن يصفه سبحانه وتعالى بأنه هو الأول والآخر، الأول ليس بمعنى زماني، لأن له أولية على الزمان كمان! مادام له أولية على الزمان، يعني قبل الزمان، يبقى حتى كلمة قبل، "القبلية" دي مش زمانية!" قلت: هلا كلفت نفسك ونزلت من عليائك وبرجك العاجي يا دكتور، لتنظر في كلام أهل العلم عن معنى اسمه تعالى "الأول"، قبل أن تتفضل بالإدلاء بدلوك الشريف في المسألة؟ من

الواضح أن غاية حظ الدكتور من نصوص ورد فيها هذان الاسمان هو قوله تعالى: ((هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [الحديد : ٣]! و لو أنه سمع ما في النصوص الأخرى وما شرحها به أهل العلم لفهم عن الله أسمائه وصفاته كما يريد الله لها أن تُفهم! فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول: "اللهم رب السموات السبع والأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوارة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر" اهـ. فبين النبي عليه السلام معنى اسم الله الأول بأنه الذي ليس قبله شيء. وهذا يعني بالبداهة أنه ما من موجود في الماضي إلا ووجود الله تعالى متقدم على وجوده في الماضي أيضا، سابق له، وأخرج الإمام البخاري رحمه الله في كتاب بدء الخلق من حديث عمران ابن حصين رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (٣٠١٩): "كَانَ اللَّهُ وَلمْ يَكُنْ شَيءٌ غيرهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْض ، وَكَتَبَ في الذِّكْرِ كُل شَيءٍ"، قلت: فقوله عليه السلام، كان: أي في الزمان الماضي من الأزل، و"ثم" تفيد التعقيب الزماني مع التراخي كما هو معلوم في لغة العرب، وهكذا فهمه الصحابة والتابعون والعلماء من أهل السنة، أنه سبحانه تقدم وسبق كل موجود في الماضي (الزمان)! قال

الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في طريق الهجرتين (ص. ٤٧): "فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخريه كل ما سواه، فأوليته سَبْقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء... فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته" اهـ. فأي شيء يكون التقدم والسبق والقبلية إلا أن يكون في معاني الزمان (الماضي القديم والماضي الأقدم، أو الماضي البعيد والماضي الأبعد منه)؟ هذه مسألة لا يماري فيها عاقل!

ومع هذا يقول الدكتور في تنطع بالغ: "الأول ليس بمعنى زماني، لأن له أولية على الزمان كمان! مادام له أولية على الزمان، يعني قبل الزمان، يبقى حتى كلمة قبل، "القبلية" دي مش زمانية!" قلت: فهل يستقيم في العقل أن يكون الله ليس قبله شيء، ولكن ليس "بمعنى زماني"؟ وهل يكون وجود الشيء قبل غيره أو بعده إلا بمعنى زماني يا دكتور؟ ما معنى "أولية على الزمان" هذه؟ من الواضح أنه لا يريد بالزمان المخلوق هنا آلة قياس الزمان المخلوقة (جريان الشمس حول الأرض وتقلب الليل والنهار)، وإنما يقصد مطلق مسمى الزمان كما تصوره أينشتاين في ميتافزيقاه! فلا يطلق الزمان عند أينشتاين (وعند الدكتور بالتبعية!) إلا على أحد عنصرى تلك العين الوجودية الخارجية المزعومة التي تملأ أنحاء الكون بزعمه، المسماة بالزمكان Spacetime! وإذن فالمقصود بخلق الزمان عند الدكتور هو نشأة الزمكان النسباني المزعوم نفسه (كعين مخلوقة)! فإذا انحصر مفهوم الزمان ومسماه (بإطلاق أينشتاين) في محتويات تلك العين المخلوقة المزعومة، حصل الدور والتناقض الذي أشرنا

إليه آنفا لا محالة، إذ لا معنى في العقل "لحدوث" شيء لا تجري الحوادث إلا بداخله ولا يصح معنى الحدوث نفسه إلا به وفي إطاره!

ولهذا حاول الرجل الخروج من ذلك المأزق بادعاء أن الأولية الإلهية وقبلية الله تعالى ليست "زمانية"، لأنه لا يستقيم أن تكون زمانية وهي - مع ذلك - متقدمة على "الزمان" نفسه! ومن ثم تمحض الدكتور في تعطيل صفة الأولية، لأنها إذن لا تكون لها حقيقة تقرب إلى الأذهان، إذ ليس قبل بدء الزمان نفسه (بإطلاق أينشتاين) ماض ولا زمان، ولا معنى لتلك القبلية إذن أصلا! قال الدكتور: "القبلية دي مش زمانية! أمال قبلية إيه؟ قبلية مسبِّب على سبب، لأنه هو مسبب الأسباب. قبلية منزلة قبلية مرتبة، لأن هو خالق والزمان مخلوق" قلت: فما معنى قلبية السبب على مسبّبه إن لم يكن المراد التقدم الزماني في الوجود؟ هل يجيز الدكتور أن يوجد المسبّب قبل السبب زمانيا؟ إن قال لا يجوز، فقد لزمه ما يقول به العقلاء من كون ترتيب الأسباب والمسببات بقولنا "قبل" و"بعد" ترتيبا زمانيا، وإذن سقطت عليه شقشقته! وإن قال نعم أجيز تقدم المسبّب على سببه زمانيا ولا أرى ما يمنع ذلك، مع بقاء العلاقة السببية بينهما كما هي، فقد حكم على نفسه بالخلف البين! بل إنه يلزمه ترك برهان الحدوث عنده أيا ما كانت صورته، لأن تجويزه تقدم المسبّب على سببه في الماضي يُسقط دلالة حدوث العالم نفسه على الوجود السابق لمن أحدثه! إذ يجوز والحالة هذه أن يكون سبب حدوث العالم في الماضي لم يوجد بعد أصلا!

فتأمل كيف لا يتكلف الجهمي التفلسف والسفسطة للفرار من ضلالته إلا وقع فيما هو شر منها! هذه سنة الله الماضية في هؤلاء، لا تبديل لخلق الله، ولله الحمد من قبل ومن بعد!

والظاهر أنه أدرك – أيضا – أن مسألة "قبلية المسبِّب على السبب" هذه لا معنى لها، فضرب لنفسه تأويلا آخر للقبلية ليختار السامع منهما ما يعجبه، فقال "قبلية منزلة، قبلية مرتبة، لأنه هو خالق الزمان"! فهل هي عندك قبلية سبب على مسبب، أم قبلية منزلة ومرتبة يا دكتور؟ هلا حررت لنفسك مذهبا قبل أن تقذف ببضاعتك في وجوه الناس؟ نعوذ بالله من الكبر والغرور بالعقل!

قوله "ولما بنقول الأول والآخر يعني بردو مش آخرية زمان، يعني مش ينتهي الزمان وهو بعده، البعدية هنا مش زمانية لأن ما دام انتهى الزمان يبقى ما يصحش نقول قبل ولا بعد خلاص! إنما هي آخرية انقطاع السبب. إن ربنا خلاص قفل على الزمان، انتهى! فهنا معاني عميقة أوي! لا الأولية أولية زمانية ولا الآخرية آخرية زمانية، إنما هي أولية سبب على مسبب، وآخرية انقطاع سبب على مسبب!" قلت: نعم هي معان عميقة مما قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم "هلك المتنطعون"! ما معنى انقطاع سبب عن مسبب هذه؟ وما معنى انقطاع الأسباب (بهذا الإطلاق)؟ كلام فاسد وسفسطة لا معنى لها! السببية مبدأ بدهي ضروري ، لا يزال موجودا بوجود الرب جل وعلا،

فلا يزال الله تعالى يُحدث ما يريد كما يريد وقتما يريد، ويخلق ما يشاء من الأزل وإلى الأبد، فيسبب المسبّبات، ويجعل من بعض خلقه سببا لما قضته مشيئته من المسببات المخلوقة، وهذا وصف لازم له سبحانه من الأزل وإلى الأبد! ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : ٦٨] فما علاقة كون الله تعالى ليس بعده شيء (كما هو معنى اسمه الآخر سبحانه)، بهذا الهذيان عن انقطاع الأسباب وانتهاء الزمان؟ ليس بعده شيء أي لا ينتهي وجوده في المستقبل سبحانه، فلا يمكن أن يوجد شيء بعده! ولكن لأن الزمان عند الدكتور جزء من نسيج بناء العالم نفسه، ولا تحدث الحوادث إلا فيه، فقد لزمه كما زعم أن الزمان بدأ ببداية العالم، أن يعتقد انتهاءه بقيامته كذلك! ومن هنا، فكما أنه لا ماضي قبل خلق العالم، فلا مستقبل بعد انتهاءه أيضا! فلا أدري هل قرأ الدكتور القرآن من أوله لآخره ولو لمرة واحدة؟ هل مر به قول الله تعالى (على سبيل المثال): ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [العنكبوت : ٢٠]؟ "ثم" هذه تفيد الترتيب والاستقبال الزماني عند عامة العقلاء، فمن هذه الآية فهم المسلمون أن النشأة الآخرة هذه ستأتي في المستقبل بترتيبها الذي استفاضت به النصوص في الكتاب والسنة، فليت شعري أي شيء تفيد عنده وقد ألغى "الزمانية" عما بعد نهاية العالم، وأي شيء فهمه منها الدكتور، بعيدا عن تأويله المبتدع لقوله تعالى "فانظروا كيف بدأ الخلق"؟!

العجيب أنه يأتي بعد هذا العجين والخلط المبين ليقول: "فدي طبعا حاجات تلخبط المخ لما الواحد يقعد يحاول يتصورها! استحضار هذه الأشياء ما نقدرش نستحضرها بمخنا! ربنا سبحانه وتعالى فوق العقول، وبنقول عليه متعال عشان كده، ومن صفاته هذا التعالي على.. إيه، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، يدرك العقول ولا تدركه العقول،" اهـ. قلت: طيب يا دكتور إن كنت قد تلخبط "مخك" وعجزت عن التصور، فما الذي منعك من الرجوع لأهل العلم بالكتاب والسنة الذين شابت لحاهم وانحنت ظهورهم في العلم بدين الله تعالى، تسألهم عما طاش فيه عقلك وشذ به فهمك، لعلهم يرشدونك إلى الحق بدليله الصحيح؟ أنا أجيبك أيها القارئ الكريم! إنه الكبر، نسأل الله السلامة! قال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [غافر : ٥٦]، وجاء في الأثر: "يضيع العلم بين اثنتين: الحياء والكبر"!

هو يريد – كما يريده كل جهمي - أن يكون إماما في الجمع بين نظريات "العلم الحديث" والفلسفات المعظمة في زمانه، وبين "الدين"، حتى لا يتهمه الأقران من الفلاسفة الدهرية بالجهل والسفاهة، وبأنه لو فهم ذلك العلم حق الفهم، لما آمن بهذا الدين كما آمن! فكيف تطلب من مثل الدكتور مصطفى محمود، المفكر العملاق صاحب الآراء الألمعية في قضايا العلم والفلسفة وصاحب الكتب التي أثارت العواصف والأعاصير وسارت بها الركبان في جميع بلاد المسلمين، أن ينزل بنفسه إلى منزلة السائل المتعلم المتتلمذ على شيخ من

المشايخ؟ هذا قريب من المحال! هؤلاء إن قيل لهم اسألوا أهل الذكر قالوا لك في غطرسة منقطعة النظير: "الدين ليس فيه كهنوت، فلا تحتكروا الحق ولا تحجروا علينا ولا تلزمونا بفهمكم أنتم"! وهذا من سفههم وفساد قلوبهم ولا شك، لأنهم يعلمون تمام العلم أن علماء الإسلام ليسوا كهنة ولا عندهم كهنوت، ولا يخاطبون الناس إلا بالأمر بالمعروف بمعروف والنهي عن المنكر بغير منكر! ويعلمون كذلك أن أولى الناس بالكلام والنشر في أي مجال من المجالات، هم أهل التخصص فيه، وأنهم ليس لغيرهم أن يزاحمهم في تخصصهم، وإنما على غيرهم أن يتعلم منهم إن أراد لنفسه الفلاح والإحسان فيما تخصص فيه هؤلاء من فنون المعارف! وهم مع هذا يعلمون أنهم لم يتأهلوا في دراسة العلوم الشرعية معشار ما تأهل به العلماء والمشايخ المتخصصون في تلك العلوم، ولا قريبا من ذلك! فإن كان من فضل في هذا المجال لأحد على أحد، فلا شك أن علماء الشرع أعلم منهم بالعقيدة الصحيحة وبالمعنى الصحيح لأسماء اللّٰه تعالى وصفاته! وهذه مسألة لا تحتاج إلى إثبات أصلا! فأي شيء يصرفهم عن النزول على كلام العلماء والأئمة إذن إن لم يكن كبر نفوسهم ومرضها؟ يفتح أحدهم لنفسه الباب للخوض في كل شيء بلا قيد ولا شرط، وتراه يتكلم عن ربه وخالقه بالآراء والنظريات والتخرصات وكأنه يتأمل في جرثومة أو مزرعة باكتيريا تحت المجهر في معمله، ولا حول وقوة إلا باللّٰه! ((مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)) [نوح: ١٣-١٤] ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون؟ ألا يعلمون أنهم محاسبون

مسؤولون؟ ألا يخافون مشهد يوم عظيم؟؟ لو علموا وتيقنوا وصدقوا في زعمهم اليقين بأنهم مبعوثون موقوفون بين يدي ربهم، ما كان هذا شأنهم، ولعظم عليهم وثقل على نفوسهم غاية الثقل أن يخوضوا في دين الله جل وعلا من غير أهلية، ولوجدوا في قلوبهم ما يحجزهم عن ذلك ويمنعهم منه أشد المنع! ولكن أكلت الأهواء عليهم قلوبهم فذهبت ببصيرتها، وما تركت لهم إلا حظ النفس والكبر والاعتداد بالرأي، فهان عليهم الكلام في دين الله بغير سلطان، ((فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) الآية [الحج : ٤٦]!

في ندوة من ندوات الدكتور أبدى الرجل استياءه من انتقاد مشايخ الأزهر الذين سماهم تهكما "بالمعممين" لكتابه "القرآن محاولة لفهم عصري"، وتحايل على مبدأ النقد نفسه حيلة لا تنطلي على صبي صغير، فقال [8]: "على أي حال كانت أول محاولة إني أكتب كتاب عن القرآن، اللي هي (محاولة لفهم عصري)، وإياميها بقى هاج المشايخ، إزاي أنا أفسر أو أفكر وآجي أكتب في القرآن بالشكل ده، وأنا ولا شيخ ولا لابس عمة ولا درست في الأزهر، ولا .. إلى آخره، وبنت الشاطئ كتبت تلتميت (ثلاثمئة) مقال تهاجم التفسير العصري، مع إني أنا باقول مجرد محاولة! (القرآن، محاولة لفهم عصري)، وكلمة محاولة تشتمل على احتمال الخطأ والصواب! يعني ما تعوزش كل الهوجة دي!" اهـ.

8 https://www.youtube.com/watch?v=TbWVgqUeC2A

قلت: تأمل مدى التهاون بكتاب الله جل وعلا والتساهل في أمره الذي يبلغه هؤلاء من كبرهم ومرض قلوبهم ولا حول ولا قوة إلا بالله! قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو من هو من رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم"، ويروى أن عليا بن أبي طالب رضي الله عنه دخل يوما مسجد الجامع بالكوفة فرأى فيه رجلا يعرف بعبد الرحمن بن داب وكان صاحبا لأبي موسى الأشعري وقد تحلق الناس عليه يسألونه وهو يخلط الأمر بالنهي والإباحة بالحظر فقال له علي رضي الله عنه: "أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال لا، قال "هلكت وأهلكت"، وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه "لا يقص الناس إلا أحد ثلاثة، أمير أو مأمور أو رجل يعرف الناسخ والمنسوخ والرابع متكلف أحمق"، ويروى عن الإمام مالك رحمه الله أنه كان يقول: "لا أوتى برجل يفسر كتاب الله بغير علم بلغات العرب إلا جعلته نكالا"! وكلام الصحابة والسلف في هذا المعنى كثير في مظانه! ومع ذلك يأتي هذا الجهول الضائع، الزاحف من مستنقع الإلحاد والدهرية، ليقول متكئا على أريكته، مستخفا عقول الناس كافة، مستهينا بعلوم القرآن كلها، التي منها ما قد يعجز أمثاله – والله – حتى عن قراءة اسمه، اسم العلم نفسه، دع عنك موضوعه: "أنا ما زدت على أن حاولت أن أفهم القرآن فهما عصريا جديدا، فعاملوني معاملة المجتهد المخطئ"!

فمن أين تأتي تلك الجرأة المهلكة على كتاب رب العالمين، إن لم يكن من كبر في قلوب القوم ما هم ببالغيه؟ نعوذ بالله! مع أن هذا الرجل نفسه لو أننا

قلنا له نريد أن نؤلف كتابا نسميه: "علم التشريح: محاولة لفهم جديد" مثلا، لقال لنا بكل حزم: "من أنتم وما مؤهلكم في علم التشريح والفيسيولوجيا لتخوضوا في هذه المسائل؟ لا تزاحموا أهل العلوم في اختصاصهم حتى لا تفسدوا العلوم على الناس!" فبالله أي علم أعظم وأخطر على مصير المسلم في دنياه وآخرته إن أفسده الدخلاء عليه، من علم يعرف به ربه، ويصفه كما هو على الحقيقة، ويفهم به كلامه على مراده الصحيح جل وعلا؟ أي علم أخطر من علم يهلك من جهل به في الآخرة هلاكا مبينا، حتى إنه ليعذب في جهنم وبئس المصير؟ وما السبيل للعلم بصفة الرحمن كما وصف نفسه ووصفه رسوله الذي أوحى إليه سبحانه، إن لم يكن هو ذلك العلم الموروث الأعظم شأنا والأرفع قدرا؟ وما السبيل للعلم بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد، إن لم يكن هو ذلك العلم؟ أليس يشرف العلم بشرف معلومه؟ فأي معلوم أشرف من رب العالمين جل وعلا؟ وأي معلوم أرفع من علم يحصل به التوحيد الصحيح للرب تبارك وتعالى كما يريده الله من العباد؟ وأي علم أحرى بأن يلزم المسلم فيه قدره ولا يجترئ عليه ولا يتخوض فيه بغير مكنة ولا عدة، من هذا العلم الأشرف على الإطلاق والأخطر على الإطلاق؟ ومع هذا، لا تجد في الأرض علما يجترئ عليه كل أحد ويخوض فيه من لا خلاق لهم من أهل الأهواء كهذا العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

الرجل يهزأ بعقول ناقديه ويقول لهم: أنا ما زدت على أن كتبت "محاولة"، فلا تلوموني إن أخطأت! ونحن نقول: يا هذا حاول ما شئت في بيتك، وأهلك

نفسك بعيدا عن الناس! أما أن تنشر كتابا تدعو الناس لقراءة "محاولاتك" تلك، فهنا يجب أن يتصدى لك ولأمثالك أهل الشأن بكل قوة وحزم! فإنه لا يجوز بحال من الأحوال لغير المتخصصين أن ينشروا "محاولاتهم" لفهم القرآن في المسلمين حتى يأخذها عنهم غيرهم! غير المختص هذا عامي أو في حكمه يا دكتور، والعامي الجاهل بأدوات النظر والترجيح في أي علم من العلوم ليس له إلا أن يقلد أهل ذلك العلم كما عليه العقلاء من أصحاب العلوم كافة، أو إن قدر له أن فهم عنهم استدلالاتهم في مسألة من المسائل، وكان لديه تمييز صحيح لتلك الأدلة، أن يأخذ بما هو أظهر له عند الخلاف، ويقف عند ذلك ولا يعدو قدره! أما أن يؤلف كتابا يسميه "محاولة لفهم كذا وكذا" من موضوعات علومهم التي هو أجنبي عنها، ثم ينشره للناس، فهذا عبث قطعا، وتطاول على علوم لا يرى نفسه – من كبره وغروره بعقله – مفتقرا لطلب العلم بها أساسا!

وحتى لو سلمنا تنزلا بأن الدكتور درس تلك العلوم (علوم القرآن وعلوم اللغة وعلوم الآلة) دراسة تصل به إلى درجة المتخصص في التفسير، فهل للمتخصصين في هذه العلوم الشريفة، المؤهلين للتأليف والنشر فيها، ولأن يقلدهم العامة على ما يقولون فيها، هل يجوز لهؤلاء أن يصفوا فهمهم لكتاب الله "بالعصري"، وكأن المسلمين في هذا العصر يفتقرون إلى ذلك "الاجتهاد" الذي اهتدى إليه أحدهم أخيرا بعد طول بحث ونظر، وقرر أن ينشره بمجرد أن أتم كتابته؟ لو كان للدكتور حظ من العلم بدين الله جل وعلا لعلم أن مجرد وصفه فهمه هذا "بالعصري"، قد نادى به على نفسه بالجهل والهوى والكبر

القاتل، نسأل الله السلامة! فهو به على طريقة: "جئتكم بما لم تستطعه الأوائل"، مع أن الأوائل هؤلاء هم تلامذة الرسول عليه السلام، الذين أخذوا عنه فهمه لكلام ربه أخذا مباشرا بلا واسطة! فصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال في أمثال هؤلاء المستكبرين على علوم السلف وآثارهم وعلى فهمهم لكلام ربهم: "سيكون في آخر الزمان أناس يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم" (أخرجه الإمام مسلم في صحيحه)! فوالله لو سمع الدكتور هذا الحديث وحده، لا أقول طلب العلم بالسنة ومنهجها من أمهات كتب السلف كما كان يجب عليه، بل هذا الحديث وحده، ووعاه بقلبه كما يجب على كل مسلم أن يفهمه، لما تجاسر على هذا الذي كتب ونشر، ولما دافع عنه بهذا الكلام الساقط السخيف!

قال الدكتور في اللقاء المذكور مواصلا التهكم على الأزهر وعلماء الأزهر (وفي حضور محمد الغزالي نفسه) لا لشيء إلا لأنهم صادروا كتابه ونقدوا كلامه في كل صفحة من صفحات الكتاب (كما هو واجب من يتصدى لذلك العبث ولا شك):

> أياميها الأزهر منع تداول الكتاب، وكان أياميها مين بقى وزير ال .. إيه، الر.. إيه شيخ الأزهر كان عبد الحليم محمود، ووزير الأوقاف كان أخونا .. ممم .. كان عبد العزيز كامل. فأحالوني إلى لجنة، وعلى .. رئيس اللجنة واحد اسمه الشيخ عبد المهيمن. فكل يوم أروح أقول له إيه يا

شيخ عبد المهيمن، ومسك بقى الكتاب يفصص صفحة صفحة، وكفر سيئات أهلي! ولقيت ما فيش فايدة خالص! وبعدين قلت له اسمع بقى.. هو أنت الشيخ عبد المهيمن والا المهيمن نفسه؟ هههه ...

فاروحت اشتكيته لعبد العزيز كامل، قلت له ما فيش فايدة في الناس دي خالص!

قلت: تأمل السخرية الفجة في قوله "فكل يوم أروح أقول له إيه يا شيخ عبد المهيمن"، وسوء الأدب في قوله "كفر سيئات أهلي"! أما قوله: "ما فيش فايدة في الناس دي خالص خالص" فهو – على ما فيه من كبر وغطرسة ظاهرة - شهادة منه على هلكة نفسه لا على ضلال ناقده في الحقيقة! فإنه هو من كتب في غير اختصاصه وبلا أهلية، وأما الشيخ المذكور فرجل معدود من أهل التخصص جاء لينقد كلامه ويراجعه عليه! فلو كان الدكتور صادقا في إرادة الحق وفي طلب العلم والفهم بما في كتاب الله تعالى على سبيل المؤمنين في ذلك، لنزل عن ذلك الكتاب الذي نشره ولطلب من أساتذة علوم الشريعة المشهود لهم بالضبط والإتقان فيها، أن يعلموه ما يلزمه تعلمه ودراسته من كتاب الله كعامي من عوام المسلمين، فإن أفلح وصبر، نظروا في أهليته لتحصيل ما وراء ذلك من علومهم! ولكنه رماهم كلهم عن بكرة أبيهم بهذا الكلام الشنيع (أن أهل العلم بالقرآن لا فائدة فيهم)، نسأل الله السلامة!

وما ذاك إلا لأنه لم يرد أن يتعلم، ولم ير للقرآن علما يلزمه أن يحصله قبل التأليف فيه أصلا، وإنما أراد أن يحفظ لنفسه منزلة الأستاذ المعلم، وأن يكون هو المفكر المنظر العبقري صاحب الكتب الأكثر مبيعا، الذي جاء بالاكتشاف الجديد وبالفهم البعيد الذي لم يصل إليه أحد قبله، وأن يلزم أهل التخصص – من ثم - بقبول ثمرة "فكره" هذا في موضوع تخصصهم كيفما كانت، أو على الأقل بألا يضيقوا عليه بالنقد والفحص والتمحيص، ولا يصادروا له كتابا مهما جاوز فيه حدود العلم واللغة والعقل نفسه، ومهما بلغ به الشطط فيه! ولهذا لا تجد فيلسوفا أو "مفكرا" إلا وهو يكره أن يتعرض له متخصص من المتخصصين في أي علم من العلوم بالتشنيع على ما كتب ونشر مما خالف به ما هو مستقر عندهم، لأنه يرى نفسه فوق تلك العلوم نفسها أيا ما كان موضوعها، ويرى أن الذي عنده من نظر وتفلسف كلي شامل، هو أعلى في المنزلة مما عند هؤلاء المتخصصين، الأولين منهم والآخرين، لا سيما في قضايا الغيب وأصول الدين! ولا شك أن الدكتور كان يعلم أن الشيخ "عبد المهيمن" هذا إنما هو متخصص يستعمل أدوات صنعته وعلمه الذي تخصص فيه في نقد كلام كاتب هاو لا صلة له بهذا العلم من قريب أو بعيد، وهذا حق لذلك المتخصص بل هو واجبه بالشرع والعقل جميعا! ومع هذا يريد أن يوهم سامعيه في دهاء بالغ بأن ذلك الناقد يحجر على "الرأي" المستساغ و"الاجتهاد" المقبول مبدئيا، بل ويحلل ويحرم وكأنه هو "المهيمن" نفسه جل في علاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

نعم قد يكون في كلام ذاك الناقد شيء من التعسف في بعض المواضع، فلا نقول بعصمته على أي حال، بل ولا ندرى ما حاله فهو عندنا مجهول الحال، ولكن الدكتور ما كان يملك من آلة العلم بكتاب الله تعالى معشار ما عند ناقده أصلا بالضرورة (بدليل أن الأزهر قد اختار ذلك الناقد لرئاسة لجنة فحص الكتاب وتفنيد ما فيه) فما كان يملك أن يحكم عليه بأنه تشدد أو تعسف في النقد أو بالغ في الفحص و"التفصيص"! ومع هذا راح يتكلم وكأنه ملك تلك الصنعة وفاق فيها أهلها، بل وبلغ من الإياس من جهل أقرانه وضيق عطنهم أن قال فيهم: "ما فيش فايدة خالص"، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! ما حظ ذاك المسكين من المعارف الشرعية أصلا؟ هو طبيب درس الطب، وقرأ قراءات عابرة في الطبيعيات والفلسفة والأدب العالمي، مع ثقافة عابرة في الأديان واطلاع عابر على كتب التفسير! فهل هذه القراءات تصنع من صاحبها عالما من علماء القرآن، يملك أن يصنف فيه وينشر ويرد على شيخ أزهرى متخصص تصدى لكلامه في كتاب الله بالنقد؟ وهل يوصل إلى المعرفة بمراد رب العالمين من كلامه من طريق نظريات داروين وأينشتاين وكتب أرسطو وأفلاطون ومسرحيات موليير وتشيكوف وكتب البورانا الهندوسية ونحو ذلك؟ أبدا والله، ولا يزعم ذلك إلا مكابر مغموص على قلبه في الكبر والله المستعان!

يقول الدكتور في معرض كلامه "تركت كل المسلمات والموروثات وبدأت على بياض"! ونحن نقول: وهل يصح في العقل أن يقال لمن ترك الثوابت كلها

والموروثات كلها عند أهل المعارف كلها، إنه بدأ "على بياض"؟ بل والله ما بدأ إلا على سواد وقطران وضلال مبين! أي شيء هذا الذي بدأه الدكتور "على بياض"؟ إنها رحلته في اصطناع الاعتقاد الغيبي لنفسه بقياسه المستقل وتنظيره الميتافزيقي الحر على طريقة الفلاسفة! والعجيب أن الواحد من هؤلا يحسب أنه بذلك قد انخلع من قيود "التقليد" والاتباع الأعمى، وشرع في بناء اعتقاده على بصيرة، مع أنه في حقيقة الأمر قد ابتلي بتقليد أضل الفلاسفة على الإطلاق: فلاسفة الشك الجدليين الدليليين، الذين زعموا أنه لا يحصل للإنسان أي نوع من أنواع المعرفة على الإطلاق إلا بعد نظر واستدلال، وزعموا أن القياس العقلي من مصادر التلقي المعرفي الصحيحة في الإلهيات والغيبيات! مع أن هذه الدعوى نفسها عند هؤلاء لم تحصل لهم من نظر أو استدلال، فتأمل! فعندما يخرج الإنسان من عقله، ومن أوليات الفطرة وبدهياتها، وينخلع من ضروريات الدين الحق الذي لا يحتاج إثبات صحته عند كل عاقل إلى نظر أو بحث أصلا، عندما يخرج من جميع ذلك ثم يقول: "أنا ابتديت على بياض"، فهذا محض الجهل والتلبيس ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فأنا أقول لكل من يقرأ كلام الدكتور مصطفى محمود أو يسمعه في حلقاته وتستهويه طريقة الرجل في التفلسف في صفات الله تعالى وأفعاله: اتق الله في نفسك، وإياك والملحدين في صفات ربك، العابثين بكلامه، المتطاولين على تفسيره بغيرما أهلية، فإن الموقف يوم الحساب عظيم، وإنما هذا العلم دين، فانظر عمن تأخذ دينك! ولقد وددت - والله - لو استطعت أن آتي على

جميع حلقات ذلك الرجل أنخلها نخلا فلا أترك فيها موضعا فاسدا إلا حذرت المسلمين من فساده، لسعة ما رأيت من انتشار حلقاته بين الناس ولعظيم تأثيرها على كثير من الشباب في زماننا، ولكن الأمر كما يقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق! وأنا إنما ألفت هذا الكتاب لأبين للقارئ المفتون بمن يسمون "بالمفكرين الإسلاميين" عامة، والتائبين منهم من الإلحاد خاصة، كيف أنهم تحركهم في إسلامهم نفس تلك الأهواء الخبيثة التي حركتهم في إلحادهم من قبل وسولته لهم، ونفس ذلك الكبر اللعين الذي أمرنا الله تعالى في كتابه بأن نستعيذ به منه ومن أهله، نسأل الله السلامة! فلا يحرص الكاتب التائب من الإلحاد على أن يظل يصنف ويؤلف ويظهر بين الناس بعد إعلانه توبته إلا من أثر تلك الأهواء لا محالة، ومن بقاء حب الرياسة والعلو بين النظار والمفكرين والفلاسفة في نفسه لا محالة! فلا تتخذ - أخي المسلم - لنفسك إماما من هؤلاء، يقودك إلى هلكتك وهو يزعم أن سبيله فيه نجاتك وسلامتك! فإن أبيت إلا الأخذ عن هؤلاء الجهلاء المستكبرين، فاعلم أنك محجوج بالعلم والعلماء ورثة الأنبياء، وبأن الله تعالى لم يعدم المسلمين من طائفة من أهل العلم بدينه، ثابتين على الحق الذي جاء به الرسول كما جاء به الرسول، يتوارثونه كابرا عن كابر، ينفون عنه انتحال المبطلين وتأويل الغالين وتحريف الجاهلين، يتحرون الأثر غاية التحري ، ويذبون عن حياضه بكل صرامة، ويجرحون بكل حزم كل دخيل متهاون مستكبر يستجيز القول على الله بغير علم والنشر في دين الله بغير أهلية، فينزلونه منزلته الصحيحة ويحذرون الناس

منه ويصفونه بما هو أهله ولا كرامة! فلا يخافون في اللّٰه لومة لائم ولا يثنيهم عن التحذير من أئمة الضلالة شيء، مهما كثر أتباعهم وقويت شوكتهم! وهم لهؤلاء الأئمة المضلين بعون اللّٰه تعالى بالمرصاد، فانتظر منهم ألا يدعوا جاهلا مستكبرا يعبث بدين المسلمين إلا قرعوه على أم رأسه وفضحوه على رؤوس الأشهاد، بعون اللّٰه وقوته! فالحمد للّٰه الذي منّ على أمة المسلمين بهؤلاء العلماء المجاهدين النبلاء، الذين هم - على التحقيق - تأويل قوله تعالى: ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [الحجر : ٩]

رحلته إلى المفهوم الوثني للروح وتجهمه في إثباتها!

رجوعا إلى كتاب "رحلتي من الشك إلى الإيمان"، وبعد الكلام عن اللّٰه عز وجل فيما مر معك التعقيب عليه، انتقل الدكتور إلى جزء بوب له باسم "الجسد"، وأخذ فيه يمنطق ويفلسف لمسألة التفريق بين الروح والجسد، محاولا أن يبين كيف انتقل "بعقله" من المذهب المادي النافي للروح والنفس، إلى القول بإثباتهما. فيبدأ أولا بمحاولة استعمال مسألة الشفرة الوراثية وما وضعه الطبيعيون من أكواد موحدة لتوصيفها في كل كائن حي، ويقرر كيف أن أفراد كل نوع يتفرد كل واحد منها بصفات وسمات خاصة به على الرغم من التعدد البالغ لتلك الأفراد، ومن رجوعها جميعا إلى "كود" وراثي واحد في توصيفها، فلا ندري بأي شيء نخرج من هذا، أكثر من إثبات واقع وجودي بشأن التنوع

العظيم وطلاقة قدرة البارئ جل وعلا من جانب، وواقع معرفي بشأن الكيفية التي اتفق عليها أصحاب البحث في العلوم الوراثية لتوصيف الخصائص الوراثية للأنواع الحية! ثم يلتمس الدكتور مزيدا من تقرير مسألة التفرد هذه ببيان كيف أن الجسم الواحد لا يقبل انتقال أعضاء من أجسام أخرى إليه إلا بعد كثير من المعالجة الفارماكولوجية، وأنه يحارب ذلك العضو الدخيل حربا مناعية، ونحن نسأل كل قارئ عاقل: هل يحتاج الإنسان الصادق، الذي سلمت نفسه من الهوى والفتنة بتلك العلوم، إلى هذه المسألة الوراثية أو مسألة نقل الأعضاء حتى ينتقل منهما إلى تقرير أن الله تبارك وتعالى قد جعل لكل فرد من أفراد كل نوع حظا من التفرد بسمات وخصائص فردية لا يشاركه فيها غيره؟ إن هذا والله لمن أذم الخصال في الكلام وأهله، ومما يستبين منه كل إنسان وهاء ما يزعمه أصحاب تلك الصنعة من إفادتها اليقين والقطع في نفوسهم بصحة الدين! فإن مسألة التفرد هذه مسألة جلية واضحة لا تحتاج إلى استدلال ولا نظر أصلا، ومع ذلك يعاملها الدكتور معاملة المسألة النظرية التي تقام في النفس ببراهين وأدلة ومقدمات، ويجتهد الإنسان في البحث والنظر والتفكر حتى يصل لإثباتها، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وما ذاك إلا لأن الكلام من صنائع الفلاسفة الجدليين، يجري على نظريتهم المعرفية الدليلية وشروطهم المتنطعة في الإثبات والنفي! ولهذا بين شيخ الإسلام رحمه الله في غير موضع من تصانيفه المباركة أن من آفة المتكلمين أنهم يتكلفون التقديم للواضحات بما هو أبعد عن الأذهان منها، مع أن العاقل

من يلتمس النظر ليصل إلى المسألة البعيدة باستعمال الحقائق القريبة. هذه هي حقيقة الاستدلال في العقل: أن يتخذ الإنسان من الواضحات الجليات دليلا يوصله إلى ما هو أقل وضوحا في حقه! ومع أن مسألة الوضوح والخفاء قد تتفاوت من إنسان إلى إنسان إجمالا كما هو معلوم، لكن هذا إنما يقال في المسائل النظرية، التي لا تعرف في البداهة ابتداء، وإلا فقد تقدم أن العقلاء يولدون وفي نفوسهم فطرة وجبلة تجعلهم يقرون بجملة من الحقائق البدهية من غيرما اكتساب ولا تعلم، فما أن يستقيم لسانهم على اللغة التي يتعلمونها من الآباء وممن يخالطونهم في مجتمعهم حتى تحصل منهم العبارة عن تلك الحقائق عند الحاجة، من غير أن يعرض لأحدهم شعور بالحاجة الملجئة إلى إثباتها أو تجليتها أو الاستدلال لها حتى تثبت في نفوسهم. هذه الحقائق من بداهتها لا يحتاج العقلاء إلى إحصائها وتقريرها حتى يثبتوا الاتفاق عليها فيما بينهم! أي أنه لا يجد العقلاء الأسوياء ما يحوجهم لإحصاء أقوال الناس في دعوى أن الواحد نصف الاثنين (مثلا) حتى يقرروا أنها من الضروريات! ومن التمس إحصاء الأقوال وتتبعها في أمثال تلك المسائل حتى يقرر في النهاية أنها "لا خلاف فيها بين العقلاء"، فقد تأثر بطريقة الفلاسفة من حيث لا يشعر، ولن تجده يتكلف ذلك إلا في سياق المخاصمة والمناظرة مع مخالف له من الفلاسفة لا محالة!

هذه أيها القارئ الكريم هي آفة الفلاسفة فيما نسميه بنظرية المعرفة الجدلية Evidentialist Epistemology: أن تكون كافة الدعاوى المعرفية قابلة للجدال

والاختلاف والنزاع أيا ما كان موضوعها، وأنه مهما سفسط أحدهم وتنطع وتعامى وادعى في مسألة ما أنه لا يجد لها دليلا، أو لا يجد ما يقنعه بصحتها [9]، أصبح لزاما على مخالفه أن يأتيه بالدليل النظري المطلوب حتى يقنعه كما

---

[9] كحقيقة أنه مخلوق مربوب وأن ربه وخالقه كامل الصفات لا يرد عليه النقص بحال، ولا يخالط خلقه ولا يحل فيهم، وأنه سبحانه إذا بعث رسولا وجب على الناس أن يتبعوه، وأنه لا مكره له من فوقه فلا يجب عليه إلا ما أوجبه على نفسه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة ولا يضع الشيء إلا في موضعه الصحيح، لأن الظلم جهل ونقص لا يليق به، وأنه لا يقبل أن يتخذ شيء من خلقه شريكا له في العبادة والتعظيم والتوقير الذي لا يليق إلا به وحده، وأنه صاحب العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة، وصاحب التقدير المحكم الذي لا يجاوزه شيء، والملك الكامل الذي لا يخرج عنه شيء، بيده خزائن كل شيء، فلا يجري سبب إلا بعلمه وإرادته، فلا يجوز اتخاذ الشريك له فيما لا يقصد به أحد سواه من خوف أو رجاء، فإذا ما جاء الرسول من عنده بهذه المعاني وجب قبولها منه فورا والتسليم لرسالته بأنها الحق من رب العالمين، والخروج من كل ملة تخالف ذلك، فمن أبى وأصر على البقاء على الشرك بعد ما جاءه من ذلك الحق الجلي الواضح، وبعدما قامت آيات نبوة الرسول الذي أرسله بما لا يماري فيه عاقل، استحق العقوبة إذن، إلى آخر تلك المعاني البدهية الواضحة التي لا تفتقر في نفسها إلى برهان أو دليل نظري يثبتها!

هذه المعاني الواضحة لا عبرة بخلاف من يخالف فيها ولا يُلتفت إلى طلبه نصب الدليل على صحتها، لأن ذلك راجع إلى سفسطة الفلاسفة الجدليين وتمحلهم وكذبهم على أنفسهم وادعائهم أنه مهما طالب أحدهم بنصب الدليل النظري على مسألة ما، فقد وجب على مخالفه أن يأتيه بما يطلب من ذلك! وهذا من كبرهم ومرض قلوبهم الذي نحذر منه في هذا الكتاب، فلا يجيبهم مجيب إلى شرطهم إلا زادهم كبرا فوق كبرهم وأنفة فوق أنفتهم وغرورا فوق غرورهم، وما كان لينقلهم عما هم عليه بشيء مما يأتيهم به إلا أن يصيب الأمر بجملته هواهم! فلن ترضى عنك الفلاسفة حتى تتبع نحلتهم وطريقتهم السوفسطائية على أي حال، وحتى يبقى لهم في تلك الطريقة – مع موافقتك - ما يشتهون من العلو وزيادة، وحتى يكون الواحد منهم سيدا على عقول الناس! تريد أن تدعوهم إلى قبول دين الحق؟ عليك إذن بإجابتهم لشرطهم في المعرفة بصحة ذلك الدين، فتبدأ أولا بالإتيان ببرهان نظري يثبت حدوث العالم، لأنهم قد سبقت

يشترط، بصرف النظر عن موضوع المسألة وطبيعتها، ومهما كانت المسألة من أوضح الواضحات وأظهر البدهيات! وإذن تصبح الضروريات نظريات، والبدهيات جدليات خلافية، وتستوي كافة الدعاوى المعرفية في دعوى افتقارها إلى دليل ونظر إذا ما فتحها أحد الفلاسفة للتشكيك والمساءلة! ويصبح ثبوتها عند من يثبتها مردودا عليه حتى يأتي نوع الدليل الذي يتفق عليه أولئك الفلاسفة المتخاصمون عليها فيما بينهما، مهما كانت تلك الدعوى محل الجدال من أظهر الظاهرات وأوضح الواضحات! وإذن يصبح تقرير ما هو ضروري وما هو نظري من أنواع الدعاوى المعرفية راجعا إلى مجاري الجدال نفسه كيفما كانت، لا إلى مقدار وضوحها أو خفائها في نفس الأمر! فالدعوى التي يتفقان عليها ويسلمان بها عند الخصومة، تكون من "الضروريات"

منهم السفسطة في حقيقة حدوثه التي هي عند العقلاء الأسوياء حقيقة بدهية لا تلجئ للنظر! ثم تثني بالإتيان ببرهان نظري يثبت أن له صانعا خارجا عنه وأنه لم يحدث من تلقاء نفسه! ثم تتكلف بعد ذلك إثبات أنه يمكنه أن يرسل الرسل وأن يصطفي من البشر من يشاء! فإن جئت بما شرطوا عليك – في سفسطتهم ونطاعتهم الباردة – أن تقدمه من البراهين على ذلك كله، نازعوك في إثبات أن محمدا رسول من عنده، وأن الإسلام هو الملة الوحيدة الجديرة بأن تقبل على أنها الحق من رب العالمين خلافا لمئات بل آلاف من الملل والديانات في أمم البشر! وإذن يقف منهم من يقف، ويقول: لقد بحثت طويلا وقارنت بين الأديان طويلا فلم أصل إلى شيء، ويصبح المتكلم مطالبا بأن يقبل منه دعواه الخفاء في ذلك، وأن الأمر يحتاج إلى نظر كثير وبحث طويل، قد يمضي أحدهم فيه عمره ولا يصل إلى شيء! بل ويصبح مطالبا وملزما في الحقيقة بأن يعذره في ذلك، وأن ينسبه إلى "طالب الحقيقة" و"الباحث عن الحق" ونحو ذلك مما نسمعه من متكلمة العصر من ألقاب يطلقونها على أمثال هؤلاء الجحدة المستكبرين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

و"الواضحات"، وإلا كانت من النظريات المتحملة – أيا ما كانت - لا لشيء إلا لاختلاف المتخاصمين عليها! فإن كره أحد المتخاصمين أن يفتحها للنزاع والجدال لما قد يترتب على ذلك من لوازم يكره التزامها ولا يراه لنفسه، سارع إلى اتهام خصمه بالمراء والتكذيب بالواضحات الجليات، وقطع الجدال معه فورا مدعيا ظهور المسألة وانقلاب المناظرة إلى المراء، مع أنها (أي تلك الضرورة في ادعائه) قد تكون من أبعد المسائل عن أذهان العقلاء وأكثرها تكلفا وتنطعا في الإثبات!

وعلى هذه المدرسة المعرفية اليونانية القديمة، يستوي الغيب بالشهادة، ويستوي البدهي الواضح بالنظري المستنبط، فلا شيء يخرج عن مبدأ الاستدلال النظري والقياس العقلي أصلا!

ففي هذا الجزء يجتهد الدكتور اجتهادا غير محمود، ليثبت حقيقة لا يماري فيها عاقل، ألا وهي أن الإنسان يتركب من روح وجسد، وأن الروح ليست هي عين الجسد، وأن الموت يفني الجسد ولا يفني الروح، وأن الروح لا ترصد بالحس ولا يمكن إخضاعها للفحص المخبري أو النظر الوضعي! فلولا أن تشبع الدكتور بتلك النظرية المعرفية اليونانية السائدة في أكاديميات الغرب من زمان فلاسفة اليونان القدماء، ما وجد ما يلجئه إلى ذلك البحث أصلا، ولترك أمر الغيب برمته ليكون مصدر المعرفة الوحيد المعتبر في تلقيه هو الخبر الصحيح من رب العالمين! ولكن كيف يرضى له أقرانه من المفكرين أن يقرر هكذا بكل

سهولة، من بعد طول نزاع وسجال وسفسطة شنيعة مع المسلمين في كل مغيّب يعتقدون فيه، أنه قد آمن أخيرا بأن في الإنسان روحا تًقبض بعد موته ثم يبعث صاحبها يوم القيامة بجسد جديد، ليحاسب على جميع عمله، فإما أن ينجو وإما أن يهلك؟ هذا لا يليق بالفيلسوف الكبير والمفكر العظيم! بل يجب أن يكون لديه مستند "فلسفي" لإثبات تلك الغيبيات ومسوغ عقلي بالغ العمق والدقة في النظم والسباكة من جنس ما يرتضيه هؤلاء ويحترمون صاحبه، حتى يمر بينهم بإيمانه الجديد من غير أن يرمى بالسفاهة وخفة العقل، ويقال إنه فقد عقله، أو آمن إيمان العامة والدهماء! ذلك أنهم لا يقيمون وزنا للدين ولا لنصوص الدين، وعندهم أن أتباع المرسلين جهلة أميون لا طاقة لهم على التعقل والنظر، كما في قوله تعالى: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ)) [البقرة : ١٣] والعقل عندهم هو ما يقوم على نظريتهم المعرفية الجدلية السوفسطائية، التي تقدم بيانها فيما مر معك! فصدق رب العزة جل وعلا إذ قال فيهم: "ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون"! فهم سفهاء لأنهم من كبرهم وغرورهم بذكائهم، كرهوا أن يكونوا أذنابا وأتباعا لرجل اصطفاه ربهم ليكون رسوله لهم ولغيرهم من الناس على السواء، فيتبعه الغني والفقير، والسيد والعبد، والذكي وخفيف العقل، والأستاذ والتلميذ، كل هؤلاء يستوون في اتباعه وطاعته! لقد كرهوا أن يكونوا في التبعية والانقياد سواء مع قوم كانوا من قبل يتبعونهم هم ويرفعونهم إلى تلك المنزلة التي قضى رب

العالمين أن ينزل فيها غيرهم من فوقهم! فأبى الله جل وعلا إلا أن يلبسهم لباس الخزي والسفاهة على التحقيق، إذ يتكلف الواحد منهم من السفسطة الباردة ومن الذرائع الساقطة ما يضحك منه الصبية الصغار، ويرى عواره وسخفه كل عاقل سوي النفس، وما ذاك إلا ليوهم نفسه وغيره بأنه على شيء إذ أعرض وكره الخضوع للرسول كما خضع غيره، واعترض على الحق الواضح الجلي الذي آمن به غيره!

لقد كتبت ذات يوم مقالا في نقد عقيدة الفيزيائي المعروف "ستيفن هوكينغ"، وسميته "العباقرة السفهاء: عندما تتمحض السفاهة في أحدّ الناس ذكاء!"، فسخر مني وهزأ بي بعض من لا خلاق لهم، وقالوا ما حاصله: "هذا العالم قد حاز في نفسه من العلم بالرياضيات والفلك والكونيات ومن الذكاء في الاستنباط والتنقل بين النظريات ما لا يطمع ذاك الكاتب المسكين في أن ينال معشاره في يوم من الأيام، ومع ذلك يصفه ذاك الشيخ "المتخلف" بالسفاهة والحماقة، فمن السفيه حقا ومن الأحمق على التحقيق؟" فقلت في نفسي: سبحان من أحكم القُفل على قلوب هؤلاء غاية الإحكام بما كسبت أيديهم وبما علوا واستكبروا وأصروا على الباطل إصرارا! هذا رجل درس ما درس في الفيزياء والفلك وأفنى فيه عمره، وهو يسعى - في محاولات ساقطة في موازين الأدلة والبراهين المعتبرة، ولا تعدو أن تكون تخمينا وقياسا اعتباطيا ورجما بالغيب المحض! - لأن يفسر بالصدفة والحتمية الطبيعية، نظاما سماويا بالغ الإحكام، يشهد كل صبي صغير بأنه لولا أن جعله

خالقه وباريه على ذاك الإحكام ما وجد هو ما يدرسه ولا ما يتشوف لاستكشافه والتنظير فيه أصلا! فيؤلف مجلدا ضخما في الكونيات يخرج منه بنتيجة خلاصتها أن الكون لم يكن بحاجة إلى خالق ولا مدبر! فبالله يا عقلاء أي وصف أليق بذلك العبقري الفذ من وصف السفاهة والحماقة إن كنتم صادقين؟؟ دع عنك حقيقة أن الأقيسة العقلية والحسية لا يوصل منها لإثبات أو نفي البدهيات الأولى (كمسألة وجود الباري جل وعلا) ولا مدخل لها إلى الغيبيات المحضة (كمسألة أصل العالم ونشأته) كما هو واضح عند كافة العقلاء خلا الفلاسفة وأذنابهم من أهل الملل، فهذه قضية كلية قد تربى الرجل من نعومة أظفاره على خلافها، كما تأسس عليه كافة الأكاديميين الطبيعيين الغربيين من زمان المعلم الأول أرسطوطاليس! وإنما تأمل وخبرني بربك: ما القول في رجل لا يرجو لنفسه شيئا كما يرجو أن يكون أول من توصل إلى اكتشاف القانون الدقيق الحاكم لكل سبب في هذا العالم (أو نظرية كل شيء كما يسمونها!)، وهو في نفس الوقت يريد أن يجعل ظنونه وتصوراته في ذلك طريقا لإثبات أنه لا سبب لوجود ذلك النظام المحكم والقانون الدقيق أصلا ولا خالق له من خارجه؟؟ ما القول في رجل وضع عصارة ذكائه واستعمل كافة قدراته العقلية الفذة، وبذل في ذلك عمره كله، في محاولة حثيثة لنفي الحقائق البدهية الأولى وإثبات أن العالم خلق نفسه بنفسه أو "نشأ" من تلقاء نفسه، وأن نظامه السببي كان "سينشأ" على ذلك النحو لا محالة، سواء وجد من يخلقه أو لم يوجد؟؟ ما القول في رجل رزق سيارة فارهة

بالغة السرعة، ثم قرر أن يقفز بها في الترعة، بدلا من أن يجعلها سببا في قضاء حوائجه وقطع أسفاره؟ إن لم يكن هذا هو السفيه فليس في الأرض سفهاء!

قال الدكتور مصطفى محمود معقبا على كلامه في مسألة "الفردية" هذه (ص. ٢٢): "ومعنى هذا أن الفردية والتفرد حقيقة جوهرية يشهد بها العلم.. وهي حقيقة لم ألتفت إليها في بداية تطوري الفكري."

قلت: في هذا الكلام يقرر الدكتور أن "العلم" (يعني الطب والعلوم الوراثية) تشهد بما سماه بالفردية والتفرد، وهذا غير صحيح، لأن مبنى العلم التجريبي نفسه على تعدد الأشباه والنظائر واستقراء المحسوسات وتتبع الأسباب والمسببات، فما يشذ ويتفرد فإنما يقع على خلاف ما يراد للعلم التجريبي (من حيث المبدأ) أن يدرسه ويستجلي نظمه وسننه وقوانينه المطردة! بل حتى استدلاله بمسألة تعذر نقل الأعضاء هذه، قد يرد عليها خصومه الطبيعيون الماديون بتقرير أن علم العقاقير ماض في مزيد من التطور في سبيل استكشاف السنن السببية لرفض الجسم البشري لما ينقل إليه من الأعضاء، ومن ثم التغلب على ذلك بأنواع موحدة من العقاقير تصلح للكثرة الكاثرة من الحالات المتشابهة المتناظرة! فعن أي "تفرد" يتكلم الدكتور إذن؟ المشكلة أيها القارئ الكريم أن القضية الكلية التي يريد أن يثبتها لا علاقة لها بمادة العلم التجريبي أصلا، ولا بالطب ولا بالجينات الوراثية ولا بنقل الأعضاء ومناعة الجسم ولا بشيء من ذلك! ولكن لأنه قد تعاظم لديه أمر تلك العلوم أشد

التعاظم، وكره أن يتهم بمخالفتها أو الجهل بها بين أيدي النظار الكبار فيها، بعدما كان يتخذها هي نفسها مستندا لإلحاده ودهريته، ولأنها أصبحت لديه كما لدى عامة الماديين هي المدخل والطريق الأعلى لإثبات أي دعوى معرفية أو نفيها، ولتجويز القول بموجود معين في الخارج (في عالم الغيب أو في الشهادة) أو منعه، وأصبحت هي "العقل" و"القطع" المقدم – معرفيا - على كل شيء، فقد وجد نفسه مضطرا للبحث عن طريق للتقديم لدعواه وجود الروح والنفس المغيبة عن الحس، ودعواه تفرد تلك النفس عند كل إنسان بما يمتاز به عن غيره من السمات والخصال، باستعمال مقدمات كلية من تلك العلوم المعظمة عنده كيفما كانت!

بل حتى كلامه عن أن الميت إذا ما مات أو النائم إذا ما نام ظلت عملياته العضوية المادية كما هي من غيرما اختلاف ظاهر إلا في أنواع السلوك الإرادي التي تنقطع بنومه، هذا ليس فيه إثبات ولا نفي (أي من طرق القياس والنظر التي يشترطها الفلاسفة الماديون الطبيعيون) للروح التي هي غيب محض! فالفيلسوف المادي ملتزم في دراسته لظاهرة النوم بل ولظاهرة الموت نفسها، بنظرية المعرفة المادية الدهرية المحضة التي تنسب كل تغير في أحوال الإنسان إلى أسباب قابلة للقياس على المشاهد والمحسوس (وهو ما يُقصد عادة بقولهم: "تفسير علمي" أو "طبيعي" أو "منطقي")، فلا يمكن أن يسلم له بأن عدم العلم الطبيعي حاليا بتلك الأسباب يقتضي إثبات موجود غيبي من ورائها لا يطاله القياس التجريبي الطبيعي! ولو أنه وقع – أي

الدكتور – في يوم من الأيام في مناظرة مع خصم من الفلاسفة الدهرية متوسط المستوى في إلمامه بفلسفة البحث التجريبي والطريقة الإمبريقية، لأداره حول رأسه، ولقلبه في تلك الاستدلالات على وجهه، ولبين له كيف أن "حقيقته الجوهرية التي يشهد بها العلم" هذه لا علاقة للعلم التجريبي بها أصلا من قريب أو بعيد! ولو صدق الدكتور في التزامه بالطريقة العلمية التجريبية كمصدر معتبر لتحقيق المعارف القطعية أو حتى الظنية بما هو موجود في الغيب، للزمه البقاء على نفي الروح وعلى القول بهلاك النفس بعد الموت وصيرورتها إلى العدم المحض! لماذا؟ لأن ما لا يطاله الحس بالقوة أو بالفعل فلا ثبوت لوجوده عند التجريبيين الذين هم أصحاب ذلك "العلم" الذي يدور الدكتور بعقيدته في فلك أصحابه! ولو أنهم خرجوا في يوم من الأيام بنظرية تجريبية قياسية زعموا فيها أن ما نسميه نحن بالروح إنما هو نوع من أنواع المادة أو الطاقة كالمادة المظلمة المزعومة أو المادة المضادة أو نحو ذلك، ثم راجت تلك النظرية بين القوم أكاديميا وتلقوها بالقبول، للزمه إذن أن يجعلها هي اعتقاده في حقيقة الروح كيفما كانت، ليس هذا وحسب، بل للزمه كذلك أن يؤول اعتقاد المسلمين في نفس الأمر إلى ما يوافق ذلك ويواطئه كيفما كان، متأولا ما يلزم تأويله من النصوص على حسب ذلك، خارما ما يلزم خرمه من إجماعات السلف تبعا لذلك، كما هي طريقة الجهمية في كل عصر!

ولو أنه صدق لشهد بالداعي الفعلي الحقيقي في نفس كل عاقل للقول بوجود الروح وببقائها بعد الموت، ألا وهو الفطرة أولا، ومجيء الوحي من رب العالمين بما يصدقها ثانيا! ولكنه لا يريد ذلك، وإنما يريد أن يستعرض "عضلاته" الفلسفية على الأقران! يريد أن يبين لقرائه أنه "تطور فكريا"، فما وصل إلى تلك المعارف إلا من بعد ذلك "التطور" وبسببه! والتطور الفكري – كما نسبه إلى نفسه - معناه أنه كان من قبل على فلسفة وعلم و"فكر"، ثم صار إلى فلسفة و"فكر" آخر، باستدلال أحسن من الأول ولكنه من نفس النوع، جار على نفس الطريقة الاستدلالية المعرفية! فظهرت له أمور بعد كثير من التفكير والتدبر لم تظهر له من قبل، مع استعماله "الطريقة العلمية" نفسها في حالته الأولى كما في الأخيرة ولا فرق! أي أن ما كانت تلك الطريقة الاستدلالية نفسها تمنعه من اعتقاده من قبل، في طوره الفكري الأول، أصبحت تجيزه له في طوره الفكري الثاني! ولو أنه صدق وتجرد، لأدرك أن الخلل راجع إلى تلك مبدأ استعمال تلك الطريقة نفسها من الأساس! ولأدرك أنه يلزمه من التزام تلك الطريقة في تلك المسألة ونحوها أن يجعل دينه واعتقاده في الغيب وما فيه خاضعا لصنعة قد اعتدى بها أصحابها على الغيب المطلق عدوانا فاحشا ما أنزل الله به من سلطان!

نحن أهل السنة نقول إن الروح حقيقة غيبية يعلم كل إنسان من نفسه علما فطريا بديهيا بوجودها فيه، كما يعلم أن لديه عقلا وإن كان لا يراه ولا يلمسه، ولا نتكلف الخوض في حقيقتها ولا محاولة تصورها أو قياسها على شيء من

محسوسنا، لأن الله تعالى يقول في كتابه: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : ٨٥]! فمن الذي ألجأ العقلاء لتكلف البراهين والأقيسة المصطنعة، من أي نوع كانت، لإثبات تلك الحقيقة الجلية الواضحة (أعني وجود الروح في الإنسان)؟ إنما هو سفسطة وشقشقة الفلاسفة الدهريين الذين زعموا أنهم لا بعث لهم بعد الموت ولا نشور، ورأوا أن نفي الروح عن الإنسان من الأساس هو أقوى المسالك للتكذيب باليوم الآخر ولإسقاط المبدأ نفسه ابتداءً! وبالتأسيس على نظريتهم المعرفية الساقطة في الغيب وما فيه، يصبح الموت مقصورا في حقيقته على سكون الجسد سكونها نهائيا وانقطاع السلوك والوعي، وشروع الجسم في التحلل والتآكل، وتصبح دعوى الروح (التي تفارق الجسد بالموت كما هو ثابت في فطرة كل عاقل) ومن ثم دعوى البعث من القبور والحساب بعد الموت ضربا من الوهم لا ثبوت له، كما أن الباري لا ثبوت له من الأساس عندهم!

وخلافا لطريقة الجهمية في الرد على هؤلاء الأنطاع المتشدقين وفي التزلف لهم واستحلاب رضاهم، فإننا معاشر أهل السنة لا نتكلف سباكة البراهين النظرية والأقيسة الشمولية في الغيبيات المحضة حتى نثبت لهم ما هو مغروس في فطر العقلاء ابتداءً، لا لشيء إلا لأن أولئك المستكبرين قد اشترطوا – من نطاعتهم وإباء نفوسهم المريضة – ذلك الاستدلال على الرسل وأتباعهم، وطالبوهم بفتح النظر والجدال السوفسطائي عليه كما يشتهون! هذا مطلب لا يلزمنا الخضوع له، ولا يضيرنا اتهامهم إيانا على العقل

إن امتنعنا منه، فهم أهل التهمة في ذلك من كل وجه كما قدمنا لا نحن! والآفة والمرض فيهم هم لا فينا، والحمد لله على نعمتي الإسلام والعقل![١٠]

فليس من العقل أن يتكلف الإنسان توضيح الواضحات ويلتمس إثبات الثابتات الراسخات، بل ويتكلف من ذلك ما يحيل ثوابت الدين الحق

---

١٠ ولا يقال لمن كتب في الرد عليهم بمصطلحاتهم وبين للمسلمين (لا لهم بالأصالة) وهاء ما هم عليه، أو جاء ببرهان ناقض لما هم عليه باستعمال بعض مصطلحاتهم على سبيل التنزل عند الرد والتفنيد، لا يقال في مثل هذا إنه قد تكلف الكلام أو تلبس بالكلام وصناعته كما زعمه بعض المبتدعة والجهلاء في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى! فمعلوم عند من له اطلاع على مؤلفات الإمامين رحمهما الله تعالى أنهما أتيا بنيان أهل الكلام من قواعده، وبينا بما استدعاه الحال في زمانهما، فساد الطريقة الاستدلالية الكلية التي تكلفها القوم في خوضهم مع الفلاسفة بدعوى إثبات أصل الدين! فكيف يقال لمن نقد صنعة الكلام نفسها وصرح بذم أهلها إنه متكلم، ولمن نقض طريقة الفلاسفة وحذر من الفلسفة إنه فيلسوف؟ لقد جاهد شيخ الإسلام رحمه الله جهادا مباركا في بيان أن المنطق المشائي الأرسطي – الذي كان أساسا من أسس العقل عند الأكاديميين في زمانه – وميتافزيقا اليونان ونظرياتهم في بنية العالم وتركيبه وكذا، ليست قطعا منتهيا كما زعموا وكما توهمه أذنابهم من أهل قبلتنا لا لشيء إلا لكونها هي المعتمدة أكاديميا في صناعات أهل العلوم، وبين رحمه الله أن فيها من الأوهام والأغاليط ما فيها، حتى صار سفره الضخم في نقد المنطق الأرسطي مرجعا من مراجع المنطقيين أنفسهم في بحثهم في تلك القضايا! فلولا أن ظهر الداعي في زمانه لإرجاع الأمور إلى نصابها في أبواب الغيب التي اعتدى عليها الفلاسفة والمتكلمون بتلك الأوهام والظنون، التي بلغت من الاستقرار في معاهدهم ومدارسهم أن صارت هي "العلم" و"القطع" وما سواها ظن لا يتقوى إلا بالاستناد إليها، لولا أن صار الأمر إلى تلك الحال في زمانه ما تكلف الشيخ رحمه الله شيئا من ذلك النقد الكلي المبارك! وقد خلف لنا في تراثه من ذلك ما استدعاه نظره في أحوال أهل زمانه والقرون المتقدمة عليه من افتتان بتلك الفلسفات "الأكاديمية" وأصحابها كان منبتا عندهم لبدع التجهم والكلام من كل صنف ولون، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء!

وضرورياته وعقائده في الرب جل وعلا وفيما دونه من أمر الغيب، التي تتقرر بها نجاة الإنسان أو هلكته في الآخرة، إلى نظريات تابعة لأوهام قوم مرضى لا خلاق لهم، ولأقيستهم الساقطة فيما هو غيب محض لا مدخل للقياس إليه أصلا! وليس من الحكمة أن يُستدل للبدهيات بالنظريات إثباتا أو نفيا، لا لشيء إلا لأن فئة من الجددة قد بلغوا من غرورهم وكبرهم وجحودهم أن اشترطوا أنواع القياس المحببة لديهم طريقا وحيدا للإثبات والنفي! فالعقل يقضي ببناء النظريات على البدهيات الواضحات وليس العكس! وليس من الحكمة ولا من العقل أن يُظن الخير بأولئك المستكبرين الجددة أصلا، وبأنهم "باحثون عن الحقيقة" قد طال بهم البحث وتشعب وتعثر لشدة خفاء الحق في المسألة كما زعموا، وأن يعاملوا بمقتضى ذلك إذا ما نسبوا أنفسهم للبحث والنظر أو "للتشكيك" أو "التوقف" من عمق القضية وغور براهينها المزعومة بين أيديهم (أعني قضية وجود الباري جل في علاه وغيرها من قضايا الغيب المحض) وصعوبتها في نظرهم، كما يغتر به عامة الأذناب والمخانيث في هذا الزمان! فإنه ما من حق واضح ولا معرفة بدهية ظاهرة، إلا وُجد في الأرض من يسفسط عليها ويتنطع في نفيها بأنواع القياس والنظر! حتى قول القائل إن الواحد نصف الاثنين قد وجد من الفلاسفة من يلتمس الاستدلال لإثباته هو نفسه وكأن الناس ما كانت من قبل تقول به إلا تقليدا من غيرما دليل أو

أساس معرفي معتبر! [11] فمن وقع في نفسه تعظيم ذلك النظر المتنطع والآلة المستعملة فيه، وغفل أو تغافل عن موضوع النظر نفسه، وعن بداهة ما طرحه هؤلاء للبحث والجدال والاستدلال، فهذا مريض في قلبه، مفتون مغرور بآلة النظر نفسها، يشتهي العلو بها والتفوق على أهلها، وقد حكم على نفسه بالضياع والضلالة إذ أخضع مسلمات الفطرة وضروريات الملة لتلكم الآلة الصناعية التي عظمت الفتنة بها وبأهلها في نفسه، فلا يخاطب مثل هذا بالبراهين والأدلة وإنما يخاطب بالوعظ والتذكير إن كان مثله ممن يرجى له أن

---

[11] وقد كان إبليس اللعين هو أول من تفلسف وسفسط على البداهة الواضحة بالقياس، إذ أمره الرب جل وعلا بالسجود لبعض خلقه، فبدلا من أن يسلم بحق الباري جل وعلا في أن يأمر مخلوقاته بما يشاء ويختار، ويخضع وينقاد للأمر والتكليف المباشر من فوره كما خضع غيره، أبت عليه نفسه المستكبرة أن يسجد توقيرا لمخلوق رآه أدنى منه منزلة في أنواع المخلوقين! فالتمس طريقا للتشغيب على أمر رب العالمين نفسه، معترضا بأصل كلي باطل مفاده أن المخلوق الأعلى أو الأحسن في الخلقة لا "يصح" ولا يستقيم في العقل أن يؤمر بالسجود لمن هو أدنى منه في ذلك! فهل يصلح هذا الكلام الواه حجة أو مستندا كليا لإسقاط الأمر والتكليف الإلهي أو الاعتراض عليه؟ أبدا! فالله تعالى هو صاحب الحق الأعلى في الأمر والتكليف، وهو سبحانه لا يأمر إلا بخير ولا يكلف إلا بحق وعدل وحكمة، ولا يضع الشيء في غير موضعه الصحيح! هذه حقيقة بدهية فطرية لا يخالف فيها عاقل سوي النفس! ولو كان في اعتراض إبليس رائحة الشبهة لرد عليه رب العالمين ولبين له فساد منطقه وقياسه، ولأعذره باشتباه الأمر عليه وخفائه، ولكن هذا لم يقع! بل وقعت عليه اللعنة التي علم أنه يستحقها لكبره وجحوده وإبائه الخضوع للأمر الإلهي المباشر! فتأمل في هذا جيدا، ثم انظر إلى مواقف الجهمية والمتكلمين من الفلاسفة المستكبرين الجاحدين، وخضوعهم لشرط أولئك الجحدة المسفسطين في الإثبات والنفي، وقل الحمد لله على نعمة السنة!

يسمع ويجيب، وأن يشهد بالحق الواضح الجلي الذي لا يلجئ العقلاء إلى قياس أو نظر حتى يسلموا به ويقبلوه، وإلا فنفض منه يديك ولا كرامة!

فهؤلاء الفلاسفة، على نبوغهم وذكائهم الواضح وعمق نظرهم فيما أسسوه من دعاوى برهانية، هم في الحقيقة قوم لا عقل لهم (على المعنى الصحيح للعقل) ولا خلاق، وإنما أتوا من قبل قلوبهم المريضة المغموص عليها في الكبر والإباء، التي منعتهم من إخضاع أنفسهم لما منّ اللّه به على الرسل من الهداية، من شدة كراهتهم أن يصيروا أتباعا لغيرهم بعد أن كان الناس تبعا لهم، فجاؤوا في الواضحات الجليات بما تعمى به الأبصار والبصائر وتصير العلوم ظنونا والظنون أوهاما والبدهيات اقتراحات وتخمينات وبحارا من النظريات والفرضيات والحدود والتعريفات لا ساحل لها! وصارت الألفاظ الواضحة المعروفة بأصل الاستعمال اللغوي تضرب لها التعريفات والحدود المتكلفة المتنطعة لإخراجها عن ذلك الاستعمال الذي يستلزم من المعاني (بالبداهة) ما يكرهون، إلى معان أخرى تناسب – في نفسها وفي لوازمها - النظرية الميتافزيقية الكلية التي يخترعها الفيلسوف لنفسه، فأفسدوا بذلك اللغة نفسها واللسان نفسه! وأصبحت المعاني الجلية الواضحة في عقول الأسوياء من البشر محلا للبحث والنظر والاستنباط والقياس والجدال الطويل، يثبت منها الفيلسوف ما يوافق فريته الغيبية الكلية وينفي ما لا يناسبها، ويتكلف من الأقيسة الواهية في جميع ذلك ما يدير به الناس خلف أذيالهم لما فيه من دقة في التركيب وقوة في البيان!

فهم كما قال الله فيهم: ((أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ)) الآية [البقرة : ١٣]، وصدق رب العزة تبارك وتعالى إذ يقول: ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) [الحج : ٤٦]! وما تابعهم عليه الجهمية والمتكلمون من تقديم نظرياتهم الساقطة على النقل وفهمه السلفي الموروث، وجعلها (أي تلك النظريات) طريقا قطعيا لإثبات أصل الدين ولتأويله وفهمه، استرضاء لرؤوس معاهدهم وأكاديمياتهم الكبرى حتى لا يرموهم بالسفاهة وخفة العقل، هو كذلك من السفاهة تحقيقا ومن تمام الخذلان، نسأل الله السلامة!

فإذا دعانا هؤلاء الجحدة المسفسطون للمناظرة وللإثبات على شرطهم الساقط هذا فيما تثبت به المعارف الغيبية وتستقر به العقائد في النفوس، لم نزد – معاشر أهل السنة - على أن نقول لهم: اتقوا الله في أنفسكم وفي عموم الناس، واشهدوا بما علمتم أنه الحق! فإن زعمتم أنكم لا تجدون في بداهتكم ما يقضي بوجود الروح والنفس والعقل في كل إنسان، وأنكم كذلك لا تجدون في فطرتكم ما يقضي بوجود ربكم وخالقكم ومصوركم من فوق هذا العالم، فأنتم كذبة جاحدون، ولا خوض لنا ولا جدال مع الجحدة المكابرين ولا كرامة! ((وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)) [الأنفال : ٢٣]!

ومما يكشف لك تضارب المتكلمين المعاصرين (كأسلافهم المتقدمين) في منهجهم المعرفي الكلي ومصادر التلقي لديهم، أنك تجد الدكتور بعدما بالغ في استعمال القوانين والنظريات الطبيعية كأساس لإثبات الغيبيات المحضة، ينتقل عند الكلام عن "الشخصية" وعن "النفس" إلى نقد موقف الوضعيين والسلوكيين الماديين Behaviorists في اختزالهم عند تعريف و"تفسير" تلك القضايا واقتصارهم على المحسوس طريقا إلى تحصيل المعرفة بهما (ص. ٢٤)! فعلى أي المنهجين أنت يا دكتور على الحقيقة؟ على منهج من يستعملون المحسوس لإثبات المغيب المحض بالقياس والاستقراء، أم على منهج من يرون ذلك المسلك من أفسد المسالك وأشدها اختزالا لمصادر تلقي المعرفة عند البشر؟ فإن كانت الأولى، فليس لك أن تنتقد "التفسير المادي" على نحو ما صنعت إذن! وإن كانت الثانية، فقد ناقضت نفسك بتكلفك إثبات حدوث العالم ووجود البارئ ووجود الروح باستعمال تلك الطريقة نفسها!

قال الدكتور بعدما ذكر ما يكون من الإنسان من تضحية بنفسه وراحته ولذته من أجل قيمة عليا لديه، وكيف أن ذلك يخالف المفهوم المادي للنفس الذي يخضعها إخضاعا مطلقا لشهوتها الدنيوية العاجلة (ص. ٢٥):

> والذي يقول إن الإنسان مجموعة وظائف فسيولوجية مادية لا غير عليه أن يفسر لنا أين يذهب ذلك الإنسان في لحظة النوم. إن جميع الوظائف الفسيولوجية قائمة ومستمرة في أثناء النوم. وجميع

الأفعال المنعكسة واللاإرادية تحدث بانتظام. فالقلب يدق والنفس يتردد والغدد تفرز والأحشاء تتلوى والأعضاء التناسلية تهتاج والذراع ينقبض لشكة الدبوس .. ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم أشبه بشجرة.. مجرد شجرة .. أو حياة بدائية لا تختلف عن الحياة الحشرية. فأين الإنسان؟ إن النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت ثم البعث، يكشف لنا مرة أخرى عن ذلك العنصر المتعالي الذي يخلق بحضوره في تلك الجثة النائمة فجأة وبلا مقدمات هتلر أو نيرون فإذا بذلك الممدد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويغزو ويسحق ويمحق وإن الفرق لهائل أكبر من أن يفسر بتغير مادي يتم في لحظات.

قلت: يرجع الدكتور بعدما أعلن ضجره بالمنطق المادي والتفسير المادي في تناول قضية النفس والروح، إلى الاستعانة بالتفسير المادي نفسه في إثبات الروح! فيبدأ بسؤال الماديين عن تفسيرهم لانقطاع السلوكيات الظاهرة التي يمتاز بها إنسان عن إنسان عند النوم، مدعيا أنهم لا يملكون "تفسيرا" لذلك! ولكن واقع الأمر، الذي يعلمه كل من له اشتغال بالتنظير التفسيري ودراسة لمسالك الطبيعيين والتجريبيين في ذلك، أن القوم لا يفسرون المحسوس إلا بمحسوس مثله، بالقوة أو بالفعل. فمهما طالبتهم بتفسير لأي ظاهرة محسوسة فلن يعجزهم اختراعه بوضع الفرضيات والنظريات القياسية وتأويل المشاهدات لمناصرتها! ولأنهم يضربون الأقيسة الغيبية مطلقة التغييب في تفسير كثير من الظواهر الحسية، فإنهم لا يخرجون من تلك الأقيسة إلا

بنظريات ممتنعة الترجيح، أي لا يمكن استعمال المحسوسات كطريق لترجيح أي منها على الأخرى تحقيقا! وهو ما سماه دوهيم وكواين في فلسفة العلوم بامتناع الترجيح Underdetermination of Theory، وهي قضية مهمة بسطنا الكلام عليها في غير هذا الكتاب. فصحيح إن النائم يصير كالشجرة كما سماه الدكتور، ولكن انقطاع الوعي وانقطاع السلوك الإرادي عن النائم حال نومه (كما هو التعريف الأشهر للنوم [١٢]) وغيره من التغيرات المحسوسة التي تطرأ على جسم الإنسان، لا تخلو – ولن تخلو – عند الماديين من "تفسير طبيعي" Scientific Explanation يقدمه الواحد منهم لمن يطلبه بكل ثقة! فقوله " إن جميع الوظائف الفسيولوجية قائمة ومستمرة في أثناء النوم. وجميع الأفعال

---

[١٢] وهو تعريف لا داعي لتكلفه أصلا كما لا يخفى، لأنه ما من عاقل إلا يدري أنه حال النوم لا يعي ما حوله ولا يأتي بشيء من أنواع السلوك الإرادي البتة! هذا أمر واضح لكل عاقل. وعند الطبيعيين تعريفات مختلفة للنوم تأتي من ذكرهم لبعض الشواهد والظواهر التي يتعرض لها الجسم البشري أثناء النوم، وكلها تعريفات لا فائدة منها لأنها لا توصف بكونها جامعة مانعة كما يشترط في الحدّ والتعريف الصحيح، ولأنها كلها تعرّف بما هو معروف ابتداء! فلسنا نحتاج إلى "تعريف" للنوم حتى يمتاز عندنا عما سواه، وإنما قد نحتاج إلى دراسة حالة الجسم الطبيعي والجسم المريض عند النوم، حتى نعالج أدواء النوم عند المصابين بها. ولكن لأن الطبيعيين المعاصرين هم ورثة المدرسة اليونانية في بناء المعارف، فقد أصبح من المعتاد أن تجدهم يتكلفون وضع "التعريف" و"الحد" لكل ظاهرة محسوسة على طريقة الميتافزيقيين، حتى وإن كانت الظاهرة نفسها مما يعرفه العاقل معرفة كافية (أي يتماز لديه عن غيره) بمجرد أن يسمع اللفظة التي تطلق عليه في اللغة، فلا يحتاج إلى من "يعرفه" بها أو يحدها له!

المنعكسة واللاإرادية تحدث بانتظام." هذا ليس فيه ما يعجزهم عن تكلف ذلك التفسير المادي المطلوب!

فعند القوم قياس للنوم على الماكينة الصناعية في تفسيرهم المادي لتلك الظاهرة! فالإنسان عندهم ينام بصورة آلية كما تنطفئ الماكينة التي طال تشغيلها حتى يحصل على قسط من الراحة تتجدد فيه وظائفه الحيوية، تماما كما تحتاج إليه الماكينة من سكون من وقت لآخر حتى لا تحترق محركاتها دوائرها الكهربية الدقيقة! وصحيح إن النوم يحصل فيه ذلك للإنسان، فضلا من اللّه ورحمة، إلا أنه لا يصح اعتباره تفسيرا إلا فيما يكون جوابا عن السؤال: "ما ثمرة النوم فيما نرصده من تأثيره على جسم الإنسان؟ ولماذا يحسن بالإنسان أن ينام من وقت لآخر؟" فإن كان هذا هو المراد بالتفسير، فالتفسير الطبيعي أو التجريبي على هذا القياس المذكور لا بأس به ولا اعتراض عليه، وهو كاف للجواب ومؤد للمطلوب! أما عندما يتخذ من ذلك القياس مدخل لإجابة السؤال المطلق المجمل: "لماذا ينام الإنسان؟" (هكذا)، أو عندما يزعم صاحب ذلك التفسير أنه يصلح للإجابة عما يحدث للإنسان في عالم الغيب عند النوم، أو يزعم أنه لا يحصل للإنسان شيء مما لا يمكن رصده بالحواس، لأنه ليس الإنسان إلا تلك الجثة الساكنة الواقعة تحت الحس، وأنه ليس في ظاهرة النوم شيء يمكن التوصل إلى معرفته من غير طريق ذلك القياس ونحوه، ومن غير طريق تتبع الظواهر الحسية والتغيرات المادية التي يمر بها الجسم البشرى حال النوم، فهذا نرد عليه كلامه ونسقطه ولا كرامة!

والقصد أن الذي يرى أن الإنسان ليس إلا جملة من الوظائف الفسيولوجية، هذا لن يعجزه أن "يفسر" النوم بأنه جملة أخرى من أنواع الوظائف الفسيولوجية، وأنه تغير فسيولوجي عارض يطرأ على جسم الإنسان، وليس ذهابا للإنسان نفسه إلى محل أخرى أو عالم آخر كما يريد أن يلزمه الدكتور! فالخلل والمرض هنا في مفهوم "التفسير" نفسه، وفي تلك النظرية المعرفية التي لا ترى طريقا صحيحا لحصول المعرفة بشيء من الموجودات الخارجية إلا الحس والقياس على المحسوس! لذا فعندما يسأل الدكتور خصمه المادي بعدما قرر ما قرر من ظواهر فسيولوجية لدى النائم: فأين الإنسان، فلن يجيبه إلا بقوله: "الإنسان نائم! الإنسان يمر بحالة من اللاوعي واللاحركة!" فأين الإلزام في ذلك وما وجهه؟ يقول الدكتور: "إن النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت ثم البعث، يكشف لنا مرة أخرى عن ذلك العنصر المتعالي الذي يخلق بحضوره في تلك الجثة النائمة فجأة وبلا مقدمات هتلر أو نيرون فإذا بذلك الممدد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويغزو ويسحق ويمحق وإن الفرق لهائل أكبر من أن يفسر بتغير مادي يتم في لحظات." اهـ. قلت: فهل وجه الإلزام في هذا الكلام أن التغيرات المادية الهائلة لا يمكن أن تقع في لحظات؟ إن كان كذلك فهو باطل بالحس والعقل معا، وحسبك في إبطاله أنك ترى القنبلة الذرية تنفجر بسبب مادي لا يجاوز في إتيانه ضغطة بالأصبع على لوحة مفاتيح! فإن كان المقصود بالمادي في كلام الدكتور كل ما هو محسوس أو داخل تحت الحس بالقوة أو بالفعل، فليس في هذا الكلام ما

يلزم منه جعل ذلك العنصر "المتعالي" على حد عبارته عنصرا "غير مادي"، أو للدقة: عنصرا غيبيا مطلق التغييب!

هذا هو منطق الاستدلال الذي استعمله الدكتور في محاججة الماديين! كأنما يقول لهم: "دعوني أثبت لكم "بالبرهان المادي" و"التفسير المادي" أن التفسيرات المادية قاصرة ناقصة نوعا!" مع أن الطريقة المادية قد يتخلف عنها المغيب مطلق التغييب، كما يتخلف عنها المغيب النسبي على السواء! فالغيب النسبي قد لا يراه زيد الآن، ولكن قد يراه عمرو غدا! وأما الغيب المطلق فلا يمكن أن يراه أحد من البشر أبدا! وأصحاب المذهب المادي لا يؤمنون بوجود غيب مطلق أصلا، فيكف يراد إلزامهم بإثبات بعض ما فيه من الموجودات من طريق إثبات عدم وقوع تلك الموجودات تحت الحس؟ قد سبق أن وجود الروح في الغيب أمر فطري بدهي لا يحتاج إلى إثبات! ولكن بهذا المسلك الذي سلكه الدكتور، أصبحت موجودا نظريا يفتقر إلى برهان! ليس هذا وحسب، بل يلزم أن يكون البرهان من صنف يرتضيه ذلك الجاحد المكذب حتى يحصل به المطلوب! وهنا مكمن الانحراف في طريقة الجهمية بعامة، فانتبه!

لقد أراد الدكتور أن يستخدم بعض مسلمات الماديين (القائمة على تجويز القياس والنظر في المغيبات) لإسقاط أصل تلك المسلمات عندهم (أي ذلك التجويز نفسه)! ونظير ذلك أن يقال للرجل: أنظر بعينيك الآن جيدا،

واستعمل أقوى ما لديك من الأدوات والآلات التجريبية، وخبرني: هل ترى الفيل الأبيض في هذه الغرفة الآن؟ فإن أجاب بلا، قال له: فهذا دليل على أن الفيل الأبيض موجود وجودا غيبيا لا يخضع في الإثبات ولا في النفي للطريقة المادية! قلت فمن الواضح أن هذا غير لازم، إذ قد يكون الفيل الأبيض موجودا خارج الغرفة، بحيث لو عرف الباحث طريقه أمكنه الوقوف على رؤيته وإدراكه! ثم إنك طالبته باستعمال أدوات البحث التجريبي في إثبات أو نفي ما تعلم أنت أنه غيب مطلق (غير مادي)، فيلزمك إذن أن تلتزم بطريقته في الإثبات والنفي (بما في ذلك منطقه المادي في التفسير)، وهو ما يرجع عليك أنت بنفي التغييب المطلق مبدئيا! فإن كنت تطالبه بإثبات موجود مفسرٍ لظاهرة النوم داخل نطاق عالم الشهادة (المحسوسات بالفعل أو بالقوة)، فهو يزعم أن ذلك التفسير حاصل عنده فعلا، بلا حاجة لادعاء عنصر غيبي أو موجود "غير مادي"! فكيف تريد أن تلزمه بعد ذلك باستعمال تلك الطريقة التفسيرية نفسها في إثبات ذلك العنصر؟

ولا شك أن الدكتور لا يريد أن يستعمل كلمة "غيب" أو "غيبي" في هذا السياق كما ترى، لأنه يعلم أن الخصم يكرهها ولا يطيقها! لذا تراه يعدل عنها إلى لفظة "متعالي" على ما فيها من إجمال لا يخفى! فالعنصر المتعالي هذا يبدو أنه يريد به في هذا السياق: متعالي على الحس والمادة المحسوسة! فإن كان يقصد بذلك أنه موجود "غيبي"، فقد يكون تغييبه الحالي الذي يدندن حوله الدكتور (أو عدم ماديته كما يسميه) تغييبا نسبيا (إن سلم به الفيلسوف المادي) وقد

يكون تغييبه مطلقا كما هو اعتقاد المسلمين! فحتى عندما أراد الدكتور أن يلزم الخصم بإثبات غيبية الروح وخروجها عن الطريقة المادية في الإثبات والنفي، تخاذل غاية التخاذل عن التصريح بالغيبية في وصفها!

ثم تأمل قول الدكتور: "ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم أشبه بشجرة.. مجرد شجرة .. أو حياة بدائية لا تختلف عن الحياة الحشرية."، فإن فيه مزيد بيان لتلك الآفة التي نتكلم عليها. فهو يجري في قوله "حياة بدائية" على طريقة الدهريين الطبيعيين في تصنيف أنواع الحياة إلى "بدائي" أو "متخلف" أو "منحط" في مقابل ما هو "أرقى" أو أكثر "تطورا"! فصحيح إن الشجرة ليست حياتها مقارنة لما يسمى بالروح، إلا أنه لا توصف تلك الحياة بالبدائية Primitiveness إلا عند الطبيعيين الذين أسسوا لأنفسهم أسطورة طويلة الذيل في "تطور" أنواع الكائنات الحية على الأرض، فجعلوا فيها الكائن الأقل "تعقيدا" أي فيما يظهر لهم من وحدات تركيبه العضوي والخلوي، أقل "رقيا" أو أكثر "بدائية"، لأن أسطورتهم في النشوء والارتقاء تزعم أن الكائنات لم تزل تتدرج من "الأبسط" إلى "الأعقد"! والدكتور في الحقيقة من المنتمين إلى طائفة التطويريين أو القائلين بالتطور الموجه، وهم فئة غالبة واسعة الانتشار في جهمية هذا العصر لهم سلف في بعض اللاهوتيين المعاصرين من أهل الكتاب، قد كرهوا أن يتهموا بالجهل والتخلف إن ردوا نظرية النشوء والارتقاء الداروينية، فسعوا في تلبيسها بالدين، كما هي عادة الجهمية في كل عصر من العصور، إذ يعتنقون النظريات الميتافزيقية السائدة أكاديميا عند الفلاسفة الكبار في

زمانهم، ثم يكيفون الدين وفهمه ونصوصه بما يناسب تلك النظريات! فإن أعياهم التأويل والتحريف بما يكفي لاستيعاب النظرية بكليتها، أصولا وفروعا، على نحو تتحسن به صورتهم عند من يشتهون الرياسة عليهم، عمدوا إلى معالجة بعض مسائلها وفروعها بتغليط أصحابها في تلك المسائل الدقيقة، مع إظهار التسليم بأصلها، حتى يظهروا في مظهر "الوسطيين" المعتدلين الذين أرادوا التوفيق بين "العلم" و"الإيمان"!

رحلته إلى بدعة "الخلق بالتطوير" أو ما بات يسمى "بالتطور الموجه"

يقول الدكتور في حلقة من حلقات برنامجه التلفزيوني "العلم والإيمان"، بعنوان "غلطة داروين"، بعدما قرر وجود التنوع الواسع لأنواع الأحياء على ظهر الأرض: "وبعدين الحاجة الغريبة إن الحياة ما بتقفش ساكتة، تبص تلاقي الأسماك، بعد كده ظهرت البرمائيات، وبعد كده الزواحف، وبعد كده الطيور، وبعد كده الثدييات ... اللّٰه! ده فيه عملية ترقي! كائن بيزداد تعقيدا، بيزداد كفاءة، في التحكم في البيئة والتعامل مع الظروف، لغاية ما نوصل لغاية الإنسان، نلاقي عجب! حاليا فيه خمسة آلاف مليون بني آدم على الكرة الأرضية، ما فيش واحد زي التاني. يعني إذن فيه خمسة آلاف مليون موديل، في الكتالوج اللي اسمه بني آدم... البني آدمين. ده تصنيف مش عادي!" اهـ.

قلت: فهو كما ترى يقرر عقيدة الارتقاء الدارويني المزعوم من أصل منحط إلى فروع أرقى وأعقد، على ما بدعه القوم من أسطورة بالغة التفصيل في ترتيب تلك الأنواع ترقيا من نوع إلى نوع! فعندهم أن السمكة أحط تركيبا من البرمائي، لأن في البرمائي مزيد من الأعضاء والوظائف الظاهرة (فيما يظهر لهم)، فظهور البرمائي في عقيدتهم (الغيبية المحضة كما سنبين)، جاء متأخرا عن ظهور السمك في الأرض، على سبيل "التطور الحيوي" Evolution لأن به حصلت زيادة في "التعقيد" و"الكفاءة" و"التعامل مع الظروف" على حد عبارة الدكتور، ولولا هذا لانقرضت البرمائيات مع بلايين البلايين من آحاد الكائنات التي ولدت مشوهة وهلكت هملا عبر تاريخ الأرض الطويل في اعتقاد داروين إذ لم تحظ بالطفرة العشوائية المناسبة التي تجعلها "تترقى" بما فيه الكفاية حتى تبلغ من التعقيد الوظيفي والكفاءة العضوية ما يؤهلها للتأقلم مع البيئة و"التعامل مع الظروف" ومن ثم تصبح "أنواعا" مستقرة!

فالذي جاء به التطويريون هؤلاء أنهم تلقوا تلك الأسطورة بحذافيرها، ثم رفعوا كلمة "عشوائية" عن الطفرة الداروينية المزعومة وسموها بالطفرة الموجهة توجيها إلهيا! وكذلك رفعوا كلمة "الطبيعي" عن الآلية الثانية الأساسية عند داروين ألا وهي "الانتخاب الطبيعي" ووضعوا في محلها "الإلهي"، ثم زعموا أن هذا "التعديل" يكفي "لأسلمة" النظرية وللجمع بينها وبين اعتقادهم في خالق كامل الصفات منزه عن كل نقيصة! ومنهم من اختار أن يفصل خلق آدم عليه السلام عن الأسطورة الداروينية، فيقبلها في جميع

أنواع المخلوقات إلا الإنسان، مستندا في ذلك إلى ما في القرآن والسنة من تفصيل في خلق آدم عليه السلام في السماء وأنه خلق من طين لازب لا من غيره من أنواع المخلوقات! ومنهم من رد السنة في خلق آدم، وزعم أن ما في القرآن من قوله تعالى: ((وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)) [نوح : ١٤] المقصود به "تطويرا" أي من أصل دارويني منحط (مما يسميه القوم بأشباه البشر أو القردة العليا Hominids)، فجعل آدم بذلك أول من "ارتقى" في "الطور الأخير لخلق الإنسان" من تلك الأنواع البدائية المتخلفة، ليصبح على تلك الصورة التي نعرفها الآن (صورة البشر)! ومعروف ما بدعه الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه "أبي آدم" من ضلالة في ذلك! [١٣]

---

[١٣] يقول "عبد الصبور شاهين" في مقدمة كتابه (أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة)، مقررا أصلا كليا من أصول منهج الجهمية في تناول قضايا الغيب المطلق (ص. ١٠): "إن كل ذلك (يعني ما ذكره المفسرون في قصة خلق آدم عليه السلام) صار يمثل أمام العقل الحديث مشكلة خطيرة، نتيجة التصادم بين معطيات القصة القديمة ومعطيات العصر الحديث، وهو ما ظل يخامر عقلي طيلة ربع قرن من الزمان أو يزيد، في محاولة لفهم النصوص التي جاءت في القرآن الكريم، وهي قطعية، تروي وقائع قصة الخلق، وأيضا للتوفيق بين التصوير القرآني والاتجاه العلمي في تصوير الحياة البشرية على هذه الأرض، ولا حرج علينا في هذا ما دمنا نرعى قداسة النصوص المنزلة، وما دمنا لا نخالف معلوما من الدين بالضرورة، وما دمنا نقدم رؤية عقلية تحترم المنطق، وتستنطق اللغة من جديد، وتدعم إيمان المؤمنين بما ينطوي عليه كتاب الله من أسرار، قد تكون خفيت عن بصائر ذوي التمييز، ثم أذن الله سبحانه لبعض السر أن ينشكف، وللرؤية أن تنجلي، وهو ما نؤمل أن نكون قد حققناه في هذا الكتاب" اهـ.
قلت: قوله "مشكلة خطيرة أمام العقل الحديث"، هو نفس قول الجهمية القدماء بتقديم العقل على النقل، إذ يجعلون نظريات الفلاسفة الأكاديميين المعاصرين لهم في الغيب

المطلق (والكيفية التي خلق الله بها العالم وبرأ ما فيه من الأحياء هي من الغيب المطلق قطعا!) هي العلم القطعي وهي "العقل الحديث" و"العقل الظاهر" و"الصريح" .. إلخ، ثم يتناولون نصوص الوحيين انطلاقا من تلك النظريات وتأسيسا عليها، فما وافق تلك النظريات قبلوه وما خالفها ردوه أو تأولوه (باستنطاق اللغة من جديد، على حد عبارة الرجل)! فهؤلاء عندما يتكلمون عن "العقل" و"العقل الحديث" وهذه الأشياء، لن تجد منهم إلا الإجمال المتعمد، والكلام الإنشائي الفضفاض، واتهام كل من خالف النظريات الميتافزيقية السائدة في عصره فيما يتعلق ببناء العالم ونشأته وكذا، بأنه يخالف "العلم" (هكذا) والعقل (هكذا) معا، وأنه إن تلبس بذلك وصرح به ودعا إليه، فقد جلب التهمة إلى القرآن نفسه لا محالة، وألحق الضرر بالشريعة من حيث أراد الانتصار لها! مع أنه معلوم لدى كل عاقل أنه ليس كل ما اتفق عليه الناس في صناعة من الصناعات في عصر من العصور لزم أن يكون حقا في نفس الأمر، وإنما العبرة بطريق الاستدلال ومادة الدليل وصلاحيتها للإثبات والنفي في موضوع النظر! وما أكثر ما نشأت المعاهد والأكاديميات العلمية في طول التاريخ وعرضه وأجمع أصحابها على تدريس نظريات ميتافزيقية معينة جعلوها هي العلم وهي العقل، ثم لم يلبث أولئك الفلاسفة أنفسهم في قرن لاحق أن تركوا تلك النظريات وانصرفوا عنها إلى غيرها من مثلها! وإلا فهل يجد ورثة المتكلمين القدماء في عصرنا هذا من يقول بنظرية الهيولى والصورة الأرسطية مثلا، عند كلامهم عن بناء العالم وتركيبه (وهو ما يظهر لكل عاقل أنه موضوع ميتافزيقي محض، لأنه ما من إنسان يملك القدرة على أن يفكك كل جزء – بل أي جزء - من أجزاء العالم حتى يصل به إلى مركب أولي لا يقبل التفكيك إلى مزيد من الأجزاء، فيكتشف بذلك أن العالم بكليته من أوله إلى آخره يتركب في بنائه من تلك الأجزاء الأولية المزعومة "كالجوهر" و"العرض" مثلا أو "الهيولى" و"الصورة" أو نحو ذلك مما ساحت فيه أوهام فلاسفة اليونان!)؟؟ فإذا جاء معتنقو تلك الفلسفة الميتافزيقية المحضة بلوازم ومقتضيات ناشئة عنها فيما يتعلق بالحدوث والقدم ونحو ذلك، ثم زعموا أن هذا هو مقتضى "العقل" وضرورة العقل وكذا، فلنا أن نقول لهم وبكل حزم: اخسؤوا جميعا أنتم وعقولكم فلن تعدوا قدركم، فإنما هو عبث وهذيان من قوم مستكبرين متعاظمين قاسوا بعقولهم المفتونة حيث لا قياس، ونظروا حيث لا متسع للنظر البشري أصلا! ولا يضيرنا اتفاقهم في عصر من العصور على هذه النظرية أو تلك مهما اتفقوا، فإن موضوع الاتفاق نفسه (غيب الزمان المطلق وغيب المكان المطلق) لا يقوم لديهم على دليل أصلا ولا يمكن أن يقوم على دليل صحيح، وإنما هي أقيسة واهية ما أنزل الله بها من سلطان! فالغيب المطلق إنما يتلقى العلم بما

فيه سماعا لا قياسا، فمن قاس فيه فإنما يرمي في عماية يضرب بالوهم والتخمين ويرجم بالغيب رجما، ولا يقال لصاحبه إنه صاحب "عقل" أو "علم" بل هو على الحقيقة صاحب وهم وتخرص، من جنس ما قال الله فيه: ((وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)) [يونس : ٣٦]!

فلا نخاف على دين العامة من أثر تصريحنا بإسقاط تلك النظريات الغيبية والأوهام الميتافزيقية العريضة على رؤوس أصحابها أو ردها عليهم بالكلية، وإنما نخاف على دين المسلمين من صنيع من صرحوا باعتناقها والتسليم بها كحقائق راسخة وبجعلها هي "العقل الحديث" و"معطيات العلم الحديث"، وهو الأثر الذي رأيناه يتكرر في تاريخ الأمة مرة بعد مرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فالشيء نفسه نقوله اليوم في نظريات الطبيعيين (الكونيين والبيولوجيين والجيولوجيين وغيرهم من الأكاديميين المعاصرين) في نشأة العالم والكيفية "الطبيعية" التي "تحول" بها "تدرجا" من أصله الأول المزعوم، التي زعموا بكل سهولة أن تتبع الحوادث الجارية الآن في محسوس البشر من هذا العالم يصلح دليلا لإثباتها! ونظير ذلك ما قاله داروين في نشأة الأنواع الحية على ظهر الأرض، وتلبس به عبد الصبور شاهين (إجمالا) تلبسه بالاعتقاد الجازم المنصرم، ثم رجع على كتب المفسرين وكلام السلف بالتسفيه والتشنيع، زاعما أنه قد أوتي الناس في عصرنا من العلم في قضية أصل الخليقة ما لم يؤته الأوائل!

فإن ناقشته هو وغيره من جهمية العصر في أصول تلك النظريات والفلسفات الكلية الدهرية التي تقوم عليها عند أصحابها، بداية من مبدأ الاستدلال نفسه ومنطق القياس، رأيته يتهمك على العقل والعلم معا لا محالة، ويحذرك من أثر صنيعك على إيمان المسلمين، وكأن الناس ما آمنت بالكتاب والسنة وما تبين لهم أن الإسلام هو دين الله الحق، إلا لما ظهر لهم موافقته لتلك النظريات الغيبية عند أصحابها، التي فتن بها هؤلاء المخانيث غاية الفتنة وانقادوا لها غاية الانقياد وسلموا رقابهم لأصحابها أتم التسليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

إن آكد أصول الجهمية في كل عصر، ومنبع جهميتهم نفسها على التحقيق، إنما هو الجري على نظريات الفلاسفة الأكاديميين من أهل العصر (لا سيما ميتافزيقا القوم في أصل العالم وبنائه)، وإنزالها بمنزلة العقل القطعي والعلم المنصرم، ومن ثم اتخاذها مقدمات لإثبات الصانع (كما يشترطه عليهم الفيلسوف الدهري المكذب الجاحد) ومستندا لتأويل نصوص الوحيين في نفس الأمر! إنه ذلك الأصل الكلي الذي سماه أئمة السنة رحمهم الله تعالى بتقديم العقل على النقل، فلا يكون الجهمي جهميا إلا به، ولا يكون المتكلم متكلما إلا به! فإذا كان السائد في عصر من العصور في

ومن بدع الجهمية التطويريين أنهم يعتقدون أن الشرع يأمر المسلمين ويوجب عليهم أن يتكلفوا وضع النظريات والأقيسة التي يتصورون بها الكيفية التي

الأكاديميات المعظمة عند الفلاسفة الكبار هو نظرية فلان أو فلان في بناء العالم وتركيبه الكلي أو في أصله ونشأته أو نحو ذلك، كانت تلك النظرية السائدة هي "العقل" وهي "العلم" وهي "معطيات العصر" التي يجب أن يأتي الدين موافقا لها من كل وجه، ويا حبذا لو استطاع المسلم أن ينشئ باستعمالها وبالتأسيس عليها برهانا "عصريا" يثبت به حدوث العالم ووجود صانعه، فإنه حينئذ يتم له ما يرجوه هؤلاء المرضى المفتونون من علو على أصحاب تلك الأكاديميات في زمانهم، مع البقاء على دينهم في نفس الوقت، وحتى يسلموا من تهمة "إيمان السفهاء" والتقليد في الإيمان، التي يرمي بها أولئك الفلاسفة أتباع المرسلين في كل زمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فأي خذلان فوق خذلان هؤلاء، وأي خزي فوق خزيهم على التحقيق؟ أي عاقل هذا الذي يخاطبه ربه، خالق كل شيء جل في علاه، بما كان منه سبحانه في غيب الزمان المطلق من خطوات وأفعال إلهية في خلق السماوات والأرض وما بينهما، ثم يأتيه إجماع المخاطبين الأوائل بذلك الخطاب على فهمه على وجه معين، فإذا به يقف ويقول: هؤلاء ما كانوا يعقلون وما كانوا يعلمون ما علمناه نحن اليوم، والصواب في تأويل هذه النصوص هو كذا وكذا؟؟ صواب على أي أساس وبناء على أي علم أصاب ذلك الفهم عندكم؟؟ بناء على أقيسة واهية يجعل صاحبها أحداث نشأة العالم وخلقه وتركيبه يوم ركبه رب العالمين، قابلة للقياس (نوعا) على ما هو جار الآن فيه من أحداث وتغيرات محسوسة ومشاهدة، ويجعلها كذلك خاضعة (نوعا) لجملة مما يخضع له العالم الآن من سنن الأسباب! فخبرني بالله عليك أيها القارئ العاقل كيف يتأسس على ذلك المبدأ الكلي في القياس علم أو معرفة، فضلا عن أن يقدم شيء من ذلك على النقل وفهم الأولين له؟ هذه أحداث لا طريق للعلم بها (نوعا) إلا إخبار رب العالمين، ولا طريق لمعرفة مراد رب العالمين بما أخبر به من ذلك إلا المأثور الموروث من فهم السلف الأولين! فما لم يأت به الخبر من ذلك فإننا نمسك عنه ولا نخوض فيه إثباتا ولا نفيا! أما أن يتخذ من تلك الأقيسة الواهية "علم" و"عقل"، فلا علم ولا عقل ولا معرفة ولا شيء إلا محض التخرص!

خلق اللّه بها السماوات والأرض وما بينهما، بما في ذلك خلق الكائنات الحية على سطح الأرض في أصل نشأتها الأولى! ولهم في ذلك تأويل جهمي مشهور لقوله تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [العنكبوت : ٢٠]

قال الدكتور في حلقة أخرى من نفس البرنامج في تقرير تلك البدعة [١٤]:

وفي الواقع، البحث في النشأة ليس محظورا على المسلم. والناس عندها فهم خاطئ لما الواحد يبتدي يتكلم في التطور، يواجه بتشنجات عنيفة جدا، وحرام وما يصحش وغلط، وتجديف، لكن ده فهم مش صحيح! ليه؟ لأن الموقف القرآني على العكس! يعني المسلم ليس فقط لا يوجد حظر عليه في مسألة البحث في النشأة، لكن ده مأمور! يعني على العكس! هم متصورين إن القرآن عمل حظر على البحث في نقطة التطور، وباقول لهم لأ القرآن بالعكس أمر الإنسان بالبحث! "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق"، ربنا بيؤمر أمر صريح، بالسير في الأرض وجمع الشواهد، لنعرف ونصل إلى "كيف بدأ الخلق"! قل سيروا في الأرض فانظروا، يعني المسألة فيها

---

١٤ المصدر: مقطع فيديو على الرابط https://www.youtube.com/watch?v=wcyAUoWHh3o، دخل عليه في ليلة الأول من ذي الحجة ١٤٣٧ من الهجرة، الثاني من سبتمبر ٢٠١٦ الميلادية. وهو كلام طويل أنقله بطوله لأهمية التفصيل في الرد عليه في بيان أصل الخلل في منهج هذه الطائفة من الجهمية المعاصرين!

نظرا على طول! ربنا يعرف إن النظر البشري محدود وإننا ممكن نغلط! ومع كده أمرنا، قال "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق"! إذن البحث في النشأة مأمور بيه! كوننا إن احنا نغلط، نصيب، مش مهم! لأن ربنا يعلم إن احنا خطائين، ولما قال انظروا يبقى الله سبحانه وتعالى يعلم إن المسألة فيها نظر! فإذن مافيش حرمة أبدا، المسألة مش بس حلال، ده واجبة، مهما شطح بك التفكير! فكر واجتهد! لا تحجير على البحث في الإسلام ولا تحجير على العلم، وليس في الإسلام باباوية ولا كهانة!

قلت: تظهر هنا بدعة جديدة في تأويل القرآن لم يُسبق إليها الدكتور مصطفى محمود وليس له بها سلف. وقد انتقلت تلك البدعة إلى غيره من رؤوس جهمية العصر عند تناولهم ما يسمى بقضية "النشأة"، حتى ألف الدكتور "عمرو شريف" (الجهمي التطويري الأشهر في هذا الزمان) كتابا كاملا سماه "كيف بدأ الخلق؟"، أسس فيه موقفه الشرعي من تلك البابة على هذه البدعة، وقد بُسط الرد عليه في غير هذا الكتاب. ونقول إن ما نسبه الدكتور إلى عامة من أسمعهم نظرية داروين وتفاصيلها من "فهم خاطئ" هو في الحقيقة مقتضى الفطرة السوية المستقيمة، التي لولا تشبع الدكتور بتلك النظرية وفلسفة أصحابها لوجد أثرها في نفسه كما وجدوا! فإنه لا يقبل العاقل سوي الفطرة صحيح العقل سليم القلب أن يقال له إن أصل نوع البشر، وأصل أبيهم الذي هو أول الأنبياء في خلق الله جل وعلا، هو من سلالات وأنواع حقيرة ومنحطة

(بالنسبة إلى الإنسان)، كالقردة أو نحوها، فضلا عما دون ذلك مما هو أحقر من أنواع الأحياء! فالقرد وإن كان شبيها بالإنسان إجمالا، إلا أنه شبيه على وجه المسخ والتقبيح، فلو أن الله تعالى أراد أن يحقر إنسانا ويقبحه لمسخه قردا، أي لحول صورته إلى صورة القرد، وهذا المعنى لا يمارى فيه إلا مكابر! ولا يزال الناس من سلامة فطرتهم يشبهون العابثين السفهاء من الناس، أولي العقول الخفيفة بالقردة على سبيل السبّ والتحقير، فيقال: "هذا القرد قال كذا، أو فعل كذا"! ولا يزال أصحاب الفطرة السوية يرون نظرية داروين نفسها من جملة ما يخزى الله به الدهرية الطبيعيين في هذا الزمان أشد الخزى وأبلغه، فهم قوم دأبوا غاية الدأب وبذلوا غاية الوسع في إثبات نسب أبيهم إلى أنواع القردة وإلى ما هو أحقر من ذلك من أصول أنواع الحمير والبغال والخنازير في زعمهم! فالقردة العليا هم أجدادهم، والنسانيس والشيمبانزى أولاد عمومتهم، والخنازير والجرذان والذباب عندهم من أولي القربى! فأي خزى وتقبيح عند العقلاء أشدّ من هذا؟ صدق الملك إذ قال في أحدهم: ((ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ)) [الحج : 9] ! فهذا من خزى هؤلاء في الدنيا قطعا! ولا يراه خزيا – كما هو على الحقيقة – إلا من استقامت عقولهم وسلمت قلوبهم وصحت فطرهم، والحمد لله رب العالمين!

فعندما يعترض العاقل من عامة المسلمين على تلك الخرافة الدهرية، ولا يجد لديه في ردها إلا تنزيه نوع البشر (الذي أسجد الله له ملائكته) عن ذلك

التحقير والمسخ في أصل برئه وخلقته، فهذا والله من رحمة الله بعامة المسلمين ومن فضله عليهم، وليس من جهلهم أو سوء فهمهم كما زعم الدكتور!

ثم إن القائل بأن الله تعالى خلق الأنواع بعضها من بعض "بالتطوير"، أي لا يحدث البارى نوعا من أنواع الأحياء على الأرض إلا تحسينا وتعديلا على نوع سابق عليه، خلقه من الأصل ناقصا (نقصا نوعيا) غير مستكمل لما يلزم أن يقوم به من الصفات حتى يأتي بما صنع من أجله من أغراض عند صانعه (ومنها بقاء نوعه واستمراره إن قدر أن كان هذا من مراد الصانع له)، صاحب هذا الاعتقاد متلبس بقياس الأفعال ضرورة، لأنه ينسب النقص والجهل لرب العالمين كما يكون في الصانع المخلوق! وهذا واضح لا يمارى فيه إلا مكابر! فإن الصانع المخلوق الناقص (في العلم أو في القدرة أو فيهما جميعا) هو الذي يبدأ صنعته بأنموذج ناقص معيب (نوعا)، فإذا ما مضى ذلك الأنموذج في التكاثر والانتشار في الأرض، وتبين لصانعه ومنتجه أن فيه عيبا ونقصا يوشك أن يأتي عليه بالهلاك والانقراض، طور عليه إذن وحسن فيه وزاد عليه، لعله يتمكن من إبقائه في الأرض فلا ينقرض، وإلا هلكت أفراد ذلك النوع بمجموعها حتى لم يبق له على الأرض من أثر! وإذن فلا يزال ذلك الصانع الناقص يترقى في صنعته بالمحاولة والخطأ من الأحطّ والأنقص إلى الأكمل والأغنى، خطوة بعد خطوة! فأي شيء هذا إن لم يكن هو محض قياس

الأفعال، الذي تشربت به الجهمية من نظريات الدهرية ومن طريقة الفلاسفة في التنظير في تلك القضايا الغيبية المحضة؟

يجب أن يفهم المفتونون بتلك النظرية أنها تتلخص في اعتقاد أن الأصل في الأحياء الفوضى والعشواء، وأنما "نشأ" الكائن الحي الأول المزعوم في أسطورتهم الطويلة بالصدفة المحضة، ثم تكاثر صدفة وهملا، فإذا بأفراد نوعه تفنى وتهلك جميعا – من حيث الأصل – حتى ظهر في بعض أفراده بالطفرة العشوائية صفة أو أكثر أحالته إلى هيئة جديدة قابلة للبقاء وللتأقلم مع تلك الظروف التي أبادت سلفه، فبقي وتكاثر وتشعب إلى أنواع جديدة بنفس تلك الآلية! فالانتخاب الطبيعي معناه أن الأصل في الأحياء الهلاك والهمل والفوضى، إلا أن يظهر بالصدفة ما يتواءم مع البيئة فيبقى ويصير نوعا مستمرا! فالذي يقول إن الانتخاب الطبيعي و"الطفرة العشوائية حصلت بالفعل، ولكن بإرادة الله وخلقه ومشيئته، هذا والله ما يدري عن أي شيء يتكلم! وعندما يعترض العامي المسلم على نظرية داروين بأنها تقتضي نسبة النقص والجهل إلى رب العالمين، فهذا من سلامة فطرته واستقامة عقله قطعا، خلافا للجهمي المعاصر الذي تشرب بتلك الزبالة الدهرية حتى أصبحت عنده هي منتهى العقل وهي نهاية الأرب من العلم وهي الحق الذي لا يحيد عنه إلا جاهل، وإلى الله المشتكى!

ولأن الدكتور لم تكن له دراية بالدين إلا فهمه الأعجمي لما قرأ في القرآن، فقد سهل عليه أن يدعى أنه ليس في الشريعة ما يمنع المسلم من استعمال العقل والنظر العقلي في تصور الكيفية التي برأ الله بها السماوات والأرض وأنواع الأحياء على الأرض، أو ما يسمى في مجمله عند جهمية العصر "بقضية النشأة" أو "مسألة النشأة". بل زعم أنه وجد في القرآن ضد ذلك! أي أن الله تعالى يأمر المسلمين في القرآن بأن ينتهجوا ذلك المنهج التنظيري القياسي في تحصيل العلم بالكيفية التي خلق الله بها أنواع الأحياء على الأرض! فمن أين جاء الرجل بذلك الفهم المبتدع الذي لم يسبقه إليه أحد من العالمين؟ جاء من عجمته في فهم قول الله تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [العنكبوت : ٢٠]! فزعم الدكتور أن المراد من الآية تكليف المسلمين تكليفا شرعيا (جعله من جملة الواجبات!) بأن يبحثوا بالقياس والنظر في المحسوس حتى يتصوروا الكيفية والطريقة التي بدأ الله بها خلق السماوات والأرض وكيف أنشأ أنواع المخلوقات الحية على ظهر الأرض طورا بعد طور، على تلك الطريقة الدهرية التي وضع بها الطبيعيون المعاصرون نظرياتهم (بل قل: أساطيرهم) في نفس الأمر!

ونحن نسأله وكل من وافقه: من سبقكم من المسلمين إلى القول بأن الآية تفيد ما زعمتم من تكليف المسلمين بالنظر العقلي في الكيفية التي خلق الله بها السماوات والأرض وما فيهما؟ إن قلتم لنا في ذلك سلف، قلنا:

فنتحداكم من الآن إلى عشر سنوات أن تأتونا به! وإن قلتم لم يسبقنا أحد من المسلمين إلى ذلك المذهب قطّ، وإنما فهمناه نحن من القرآن بعقولنا، قلنا: فهو إذن باطل قطعا! ذلك أننا إن قدرنا صحته، لزم من ذلك تلبس جميع المسلمين بما فيهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل وفيهم رسول الله نفسه، بمخالفة ذلك التكليف الشرعي والقصور عنه، إذ لا نجد به أثرا عن السلف مع عظم الداعي لنقله (وقد توافر السلف على نقل ما هو أهون منه وأدق بكثير!)، وهذا ممتنع قطعا، وإلا بطل قول الملك جل وعلا: ((وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً)) [النساء : ١١٥]، فإن سبيل المؤمنين كما ورثناه لم يكن فيه ذلك التكليف الشرعي، ولم يفهمه أحد من المؤمنين السابقين قطّ لا من هذه الآية ولا من غيرها! فلزم أن يكون القائل به مبتدعا مبطلا مفارقا سبيل المؤمنين فيما يقول وجوبا!

ونقول إن الدكتور إنما أتي في هذا الفهم السقيم من عجمته وجهله بدين رب العالمين وبأصول التفسير وبالآلات التي يُفهم بها النص في دين المسلمين. فالله تعالى في هذه الآية (آية العنكبوت) يخاطب المشركين لا المؤمنين، وهو خطاب محاجة وبيان، لا خطاب تكليف وتشريع! فهو يدعوهم سبحانه لأن ينظروا (بأعينهم التي في رؤوسهم لا بالقياس العقلي الفلسفي من أي نوع كان!) ليروا ما خلق الله تعالى في هذا العالم من مخلوقات قائمة بالفعل كالشمس والقمر والجبال، ومن مخلوقات لا يزال رب العالمين يبرؤها ويحدثها

خلقا من بعد خلق، الأجنة في بطون أمتهاتها والنبات في الأرض والمطر النازل من السماء وغير ذلك! فإذا كان هذا خلق الله وصنعه الجلي الواضح، يرونه يتجدد أمام أعينهم كل يوم، ففي أي شيء يمارى هؤلاء إذ كذبوا بالبعث والنشور في اليوم الآخر؟ أليس الذي خلق هذا بقادر على أن يخلق مثله وأن يبعث الموتى من القبور؟ بلى وهو الخلاق العليم! فهذه حجة ظاهرة عليهم لا مراء فيها!

ونظيرها في القرآن قوله جل شأنه: ((فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)) الآية [الإسراء : ٥١] وقوله تعالى: ((وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً)) [الكهف : ٤٨] وقوله تعالى: ((قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)) [يس : ٧٩] وغير ذلك، فمقصود الآية أن يقال لهم: ألا ترون كيف أنه سبحانه قد أنشأ النشأة الأولى وخلق الخلق الأول وهو عليه هين؟ فكذلك النشأة الآخرة، وكذلك إخراجكم من قبوركم وحشركم ليوم الحساب! كذلك النشور! هذا هو المعنى بإجماع من يؤبه بهم ويعتبر بكلامهم في تفسير كتاب رب العالمين! قال القرطبي رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية: "أي قل لهم يا محمد سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم كيف أهلكهم، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة" اهـ. وقال ابن جرير الطبرى في تفسيره: "يقول تعالى ذكره لمحمد صلى الله عليه

وسلم: قل يا محمد للمنكرين للبعث بعد الممات، الجاحدين الثواب والعقاب: سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ اللّٰه الأشياء وكيف أنشأها وأحدثها، وكما أوجدها وأحدثها ابتداء، فلم يتعذر عليه إحداثها مُبدئا، فكذلك لا يتعذر عليه إنشاؤها معيدا (ثم اللّٰه ينشئ النشأة الآخرة) يقول: ثم اللّٰه يبدئ تلك البدأة الآخرة بعد الفناء، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل". اهـ. وقال البغوي رحمه اللّٰه في تفسيره: "أي ثم الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت، فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبدءا لا يتعذر عليه إنشاؤها معيدا." اهـ.

قلت فأين يا عقلاء ما فهمه الدكتور وموافقوه من بعده من أن المراد هنا: "قل يا محمد للمسلمين أن يسيروا في الأرض فيستنبطوا بالنظر والقياس التجريبي كيف خلق اللّٰه السماوات والأرض في أيام الخلق الأولى"؟!! كيف واللّٰه تعالى يقول في معرض الرد على المشركين فيما اتخذوه من عبودية المخلوقين أمثالهم: ((مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)) [الكهف : 51]؟ اللّٰه تعالى لم يتخذ من الجن والملائكة شاهدا ولا عضدا في خلقه السماوات والأرض، وفي خلقه كل نوع منهم يوم خلقه جل وعلا، وهؤلاء المتنطعون المتعاظمون من الفلاسفة وأذنابهم يقولون بأنواع القياس إنه خلق السماوات والأرض على نحو كذا وبطريقة كذا وكذا! فأين بلغ مخانيثُ الفلاسفة الطبيعيين هؤلاء أن صحابيا من الصحابة أو إماما من أئمة المسلمين تكلف في يوم من الأيام - إجابة لذلك التكليف المزعوم - قياس شيء من أحداث خلق السماوات والأرض وما

فيهما على أنواع المحسوسات وعلى أنواع الحوادث والسنن الجارية الآن في العالم كما هي طريقة هؤلاء في نظرهم الدهري ؟ هذا محض هذيان ما أنزل اللّٰه به من سلطان!

فإن قال أحدهم: "لكن اللّٰه تعالى يقول: فانظروا "كيف" بدأ الخلق، فهو يدعونا للنظر في الكيفية التي بدأ بها الخلق، وهي موضوع تلك النظريات في قضية النشأة"، قلنا له هذا من عجمتك وجهلك بلسان العرب الذي نزل به القرآن، فاللفظة "كيف" هنا لا يراد بها إشهاد المخاطب على "الكيفية" التي هي صفة الفعل المذكور وحقيقته، وإنما المراد بها إشهاد المخاطب على حقيقة وقوعه: أي إشهاده بأن اللّٰه تعالى قد بدأ الخلق تحقيقا وجعل فيه ما لا يحتاج إلى أكثر من تقليب البصر في الأرض والسماء حتى يثبت حدوثه عند العقلاء! كأن يقول القائل: "أرأيت كيف أني أطعمتك وكسوتك وفعلت لك كذا وكذا، ومع ذلك تجحد فضلي عليك؟"، فلا يكون المراد هنا: أعلمت الكيفية التي أطعمتك بها وكسوتك وكذا، وإنما المراد إشهاده على أصل حصول ذلك منه! وإلا فإن اللّٰه تعالى يقول: ((وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) الآية [البقرة : ٢٥٩]، فهل هذا عندكم تكليف من رب العالمين للمخاطب بهذا الكلام أن يضع النظريات التجريبية في الكيفية التي يبعث اللّٰه بها الموتى ويكسو العظام لحما بعدما رمّت؟ فما هو قولكم هنا فهو قولنا في آية العنكبوت! واللّٰه تعالى يقول: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ)) الآية [البقرة : ٢٦٠] فهل طلب إبراهيم – على فهمكم الأعجمي هذا – من الله تعالى أن يعلمه كيفية إحياء الموتى؟؟ فبأي شيء أجابه سبحانه وتعالى في نفس الآية؟ أمره بعمل يرى به حقيقة الإحياء، لأن هذا هو مطلبه عليه السلام، أما الكيفية التي هي حقيقة الإحياء وأسبابه من قبل رب العالمين فغيب مطلق لا يعلمه إلا الله وحده، ولا يعقل أن يطلبها نبي من الأنبياء من ربه جل وعلا! والله تعالى يقول: ((مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)) [المائدة : ٧٥] فالمقصود هنا: أنظر كيف أننا قد بينها لهم الآيات ورأوا بأعينهم أن المسيح رجل مثلهم يأكل الطعام هو وأمه كسائر البشر، ومع ذلك أفكوا في حقه ما أفكوا وعبدوه وأمه من دون الله! فعلى فهمكم هذا يلزم أن يكون المراد هنا: ابحث وضع النظريات والفرضيات في تصور الكيفية التي بها بينا الآيات للنصارى في المسيح وأمه! ونظائر ذلك في القرآن كثير!

فقول الدكتور: ""قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق"، ربنا بيؤمر أمر صريح، بالسير في الأرض وجمع الشواهد، لنعرف ونصل إلى "كيف بدأ الخلق"! قل سيروا في الأرض فانظروا، يعني المسألة فيها نظر! على طول! ربنا يعرف[١٥] إن النظر البشري محدود وإننا ممكن نغلط! ومع كده أمرنا، قال "قل سيروا

[١٥] ولا يجوز أن يقال إن الله "يعرف"، لأن المعرفة انكشاف بعد خفاء، أو إدراك مسبوق بجهل، فيقال إن الله يعلم ولا يقال إن الله يعرف!

في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق"! إذن البحث في النشأة مأمور بيه! كوننا إن احنا نغلط، نصيب، مش مهم!" اهـ. قلت: فمما تقدم يتبين لك بطلان وفساد قوله "يعنى المسألة فيها نظرا!" وقوله "إذن البحث في النشأة مأمور بيه"! وأنا لا أدري والله، من صح في تصوره هذا الفهم السقيم للآية، كيف يفهم قوله تعالى في تمامها ((ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))؟ هل يكون المراد عنده: وانظروا كذلك بالرأي والقياس في الكيفية التي سينشئ الله بها النشأة الآخرة، وحتى تعلموا أنه على كل شيء قدير؟ ما وجه هذه التتمة على فهمكم الأعوج هذا؟

ثم يقول الدكتور منتشيا في مجلسه منتفخا على أريكته: "فإذن مافيش حرمة أبدا، المسألة مش بس حلال، ده واجبة، مهما شطح بك التفكير! فكر واجتهد! لا تحجير على البحث في الإسلام ولا تحجير على العلم، وليس في الإسلام باباوية ولا كهانة!" اهـ. قلت: مهما شطح بك التفكير؟ رحماك يا رب! أهذا كلام رجل يعقل ما يخرج من رأسه؟ وهل يصح أن يقال للناظر في أي مسألة نظرية في أي علم من العلوم: إذهب بنظرك ورأيك أيما مذهب واشطط كيفما شئت، لا تثريب عليك؟ أي علم هذا الذي لا يضبطه ضابط ولا يحده حد، ويُقبل فيه كل قول مهما "شطح" به صاحبه في التفكير، يا من تزعم النسبة إلى العلم وأهله؟

ثم لا يفوت الدكتور أن يدندن بمثل ما يدندن به كل جهمي من جهمية العصر في الرد على من يتهمونه بالجهل وبالعدوان على علوم الدين وعقائد المسلمين بغير حق، فيقول "ليس في الإسلام كهنوت" و"ليس في الإسلام باباوية" أو "تحجير على العلم"! فهذا كلام حق يراد به باطل! فصحيح إن الإسلام ليس فيه كهنوت ولا باباوية، ولكن في الإسلام علوم لها أهلها الساهرون عليها الذين شابت فيها لحاهم وانحنت فيها ظهورهم، فهم من قال الله فيهم: ((فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)) الآية [التوبة : ١٢٢]! فهؤلاء لا يقبلون الدخيل عليهم ولا يسكتون عن كل مغامر سفيه متعالم يقول على الله بغير علم، بل يقرعونه على رأسه قرعا، ويغربلون كلامه غربلة، صيانة للدين من زبالة الجهلاء ودخن الدخلاء! ولولا أن منّ الله على الأمة بوجود تلك الطائفة التي ترث العلم الشرعي صافيا نقيا، كابرا عن كابر، جيلا بعد جيل، فتنفي عنه انتحال المبطلين وتأويل الغالين، وتسلمه لمن يليها كما تسلمته، لساخت الأرض بالمسلمين ولصاروا إلى ما صار إليه أتباع الرسل السابقين من ضياع الدين وتحريفه سواء بسواء! فالحمد لله القائل في محكم التنزيل ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [الحجر : ٩]!

فالدكتور أسس وأصل في هذا الكلام لبدعة كلية خطيرة، مفادها وحاصلها وجوب التقرب إلى الله تعالى باستعمال النظر والقياس الدهني في الغيبيات

المطلقة لبناء النظريات والتصورات بشأن الكيفية التي أنشأ الله بها السماوات والأرض وما فيهما!

ومن لوازم ذلك المنهج الدهري الفاسد في إثبات المغيبات المطلقة في "قضية النشأة"، التي خفيت على الدكتور وعامة أتباعه: آفة تشبيه الأفعال التي انتقلت من الدهرية إلى المعتزلة قديما من جهة قضية التحسين والتقبيح العقليين! فهي اليوم تنتقل إلى معتزلة العصر من الدهرية أيضا ولكن من جهة قضية خلق السماوات والأرض وخلق الكائنات الحية على ظهر الأرض! فإذا كان الجهمية الأوائل قد شبهوا الباري بخلقه في أفعالهم حتى يقولوا إنه يحسن منه كذا ويقبح منه كذا، جريا على طريقة الفلاسفة الذين ناظروهم في أمثال تلك الأقيسة، فكذلك جهمية العصر يشبهون الباري بخلقه في أفعال الصنع والإنشاء والخلق، حتى يصلوا إلى تصور الكيفية التي خلق بها السماوات والأرض وما بينهما تأسيسا على نظريات الدهريين وأقيستهم! فنقول لهؤلاء: إن الصانع الذي يخلق ما يخلق ملتزما في خطوات خلقه بسنن هذا العالم ونواميسه السببية إنما هو الصانع المخلوق المركب في هذا العالم نفسه من الابتداء! فإذا ما أردنا نحن البشر أن نصنع شيئا ما، لم يكن بوسعنا أن نتصور له كيفية في الإحداث والصنع إلا ما كان جاريا (نوعا) على سنن هذا العالم السببية التي نجد أنفسنا خاضعين لها شئنا أم أبينا! فإننا لا نعلم طريقا للخلق والإحداث والتركيب إلا ما كان جاريا على تلك السنن نفسها

بالضرورة، قابلا للقياس على ما نشهده في عالمنا من جريان الحوادث والأسباب!

وغاية ما بلغه المنظر الطبيعي الدهري في قضية النشأة أن أجرى أحداثها الأولى على سنن أخرى تصورها افتراضا بالقياس أيضا (كما تصوروا الأصل "الطبيعي" لقوانين الطبيعة نفسها في نظرية الانفجار الكبير مثلا)! فهو محكوم في الإثبات والنفي بالقياس على جنس ما يرى في هذا العالم من الحوادث والسنن لا محالة! فإذا انتقل الكلام إلى مراحل خلق هذا العالم نفسه وإحداث هذا النظام نفسه، بما فيه من سنن وقوانين وأسباب، فنحن إذن نتكلم عن أفعال إلهية لا قياس لها في كيفيتها على شيء من أفعالنا نحن البشر، ولا على شيء مما نرى من وقائع الحدوث، ولا تخضع - بالضرورة - لشيء من تلك السنن الكونية نفسها التي نراها في عالمنا ولا لغيرها من السنن الكونية المفترضة عند المنظر الممكنة في تصوره، لأنها أحداث كانت سابقة على سنّ ما في العالم من سنن وطبائع وأسباب بالضرورة، ولأنها كانت هي منشأ تلك السنن كلها في صنع رب العالمين جل وعلا، ولأن الله عز وجل لا مستكره له ولا حاكم له من فوقه كما هو الشأن في أفعال كل صانع مخلوق!

فإذا جاءنا الخبر في الوحي بأن الله جل ثناؤه وتقدس اسمه قد خلق كل شيء من الماء (مثلا)، فلا يجوز لأحد من العقلاء أن يقول إن الدخان الذي خلق من الماء، وخلقت منه السماوات، صفته كذا وكذا وطبيعته كذا وكذا إلا إن كان

مستنده في ذلك النص الصحيح، لأنه إن قال بذلك من غير أن يكون مستندا إلى النص، لم يكن له إذن مستند إلا القياس، وهو قياس ساقط باطل من حيث المبدأ، لأن المذكور وإن كان اسمه "دخان"، فليس هو من نوع الدخان الذي نعرفه في عالم الشهادة قطعا، الذي يخضع لما جعله الله في هذا العالم المحسوس من سنن كونية وقوانين مطردة ما علمناها إلا استقراءً! كيف وقد وجد ذلك الدخان المذكور في زمان سابق على خلق هذا العالم نفسه بما نراه الآن فيه من سنن ونواميس مطردة؟؟ وكذلك ليس الماء الذي هو تحت العرش كالماء الذي نعرفه، وليس تحويل ذلك الماء إلى هذه الأرض اليابسة التي نعرفها، حدثا جاريا على شيء من سنن هذا العالم، لأن الله إنما سنها فيه حال خلقه وتكوينه لا قبل ذلك! وكان ذلك كله على نحو وتفصيل لا يبلغه تصورنا ونظرنا - بالضرورة - لأنه لا قياس له على شيء مما يجري في حوادث العالم الآن، تحت الحس والعادة!

فإذا كان منهج الطبيعيين الدهرية أنهم يقيسون على السنن الجارية في العالم حاليا ليتصوروا كيف تحول العالم - في زعمهم - من حال سابقة في مراحل "النشأة" الأولى إلى حاله التي هو عليها الآن، فنحن نقول لأذنابهم من الجهمية الذين أخذوه عنهم تقليدا، ثم ما زادوا على أن نسبوا ما استنبطه القوم من طريقه من حوادث النشأة إلى صنع الباري جل وعلا: إن هذا القياس فاسد منهجيا، لأنكم التزمتم فيه بقياس أفعال الباري جل وعلا على أفعال المخلوقين المحكومين بنواميس الطبيعة (نوعا)، وزعمتم جريان الرب في خلقه

السماوات والأرض على تلك السنن التي ركبها في السماوات والأرض، أو على حوادث خاضعة لجنس تلك السنن التي ركبها الله في هذا العالم حال خلقه وإنشائه، فبأي سلطان من العقل ساغ عندكم ذلك القياس الدائري الساقط (منهجيا)، ليس هذا وحسب، بل زعمتم أن الله قد أوجبه على المسلمين وفرضه في القرآن فرضا؟!

من هنا لزم أن يقال إن كل تنظير في كيفية "نشأة العالم" و"أصل الخليقة" وقصة بناء السماوات والأرض وما فيهما، لا يمكن أن يقوم عند أصحابه إلا على تشبيه الأفعال ضرورة، فإنه لا يستقيم للمنظر أن يقيس على المحسوس حتى يصل إلى تصور ما كان من أحداث في برء العالم أو برء الأنواع الحية على الأرض، إلا بتشبيه أفعال الباري في إحداث العالم وإنشائه من الأساس، بما يقع في العالم نفسه من أفعال المخلوقين ومن أحداث خاضعة (نوعا) لما ركبه الله في العالم من قبل من سنن وأسباب! ومن هنا لزم أن يكون منهج أهل السنة والجماعة هو المنع الحازم والصارم من تكلف التنظير فيما يسمى "بقضية النشأة" من أصل المبدأ المعرفي نفسه، وحصر المعرفة ومصادر تلقيها في تلك القضايا مطلقة التغييب على المصدر الوحيد الذي تحصل منه تحقيقا، ألا وهو السمع والنقل! فما جاء به الخبر في الوحيين من أحداث خلق السماوات والأرض وخلق أنواع الكائنات الحية قبلناه على ما فهمه به سلفنا رضي الله عنهم، وما سكت عنه النص أمسكنا عنه وجوبا، لأننا

لن نتكلم فيه – إذن - إلا بالقياس، ولا أساس للقياس في الغيب المطلق كما تقدم، وفيه من اللوازم ما ذكرنا، والله المستعان!

فإذا جاءنا القوم بتلك النظريات والدعاوى بشأن أصل العالم ونشأته بما فيه، فإننا نرد عليهم المنهج نفسه وطريقة الاستدلال، وننهى المسلمين عن إجراء تلك الأقيسة وعن مبدأ التنظير في تلك القضية! وأما آحاد دعاواهم التي انفصلوا عنها وانتهوا إليها من تلك الطريق الفاسدة، وانتشرت بين المسلمين من طريقهم، فينظر فيها، فأما ما وافق ما عندنا من نصوص الوحيين فإننا نقبله، ويكون قولنا به وقبولنا إياه راجعا إلى أن الوحي جاء به على الراجح من فهم السلف، لا لأن تلك النظريات دلت عليه! وأما ما خالف نصوص الوحيين وفهم السلف لها (سواء بالمطابقة أو بالتضمن أو بالاقتضاء) فإننا نرده ونسقطه ولا كرامة، ولو أجمعت عليه أكاديميات الأرض قاطبة! وأما ما لم يوافق ولم يخالف بوجه من الوجوه فإننا لا نثبته ولا ننفيه، وإنما نقول إنهم زعموه توهما وتخرصا ولا دليل لهم عليه، فليس هو من "العلم" ولا "العقل" ولا يمكن – أصلا – أن يتحصلوا من جهتهم على دليل يثبته! ونقول إنه لا يجوز تدريس تلك الدعاوى الطبيعية العريضة بشأن نشأة العالم بكليته ونشأة الحياة على الأرض للمسلمين، وذلك لبطلانها في نفسها إجمالا، ولأنها لا يُدرِّسها صاحبها – بطبيعة الحال - إلا ومعها منهج الاستدلال الذي قامت عليه عنده، ولا تدرِّس تلك الأكاديميات الباحث من المسلمين طريقا للنظر في أقوال أصحابها ونزاعاتهم في تفاصيلها ودقائق مسائلها إلا ذلك الطريق!

وهو طريق باطل بالكلية كما تقدم، فلا نبثه بين المسلمين ولا نجيز ذلك، والله المستعان!

ثم يقول الدكتور مواصلا التأصيل في نفس الحلقة في مسألة التطور تلك:

> الوضع الحالي إيه؟ الوضع الحالي: العلم ما عندوش دليل قاطع، حاسم، باتر، في مسألة النشأة. آدي حاجة. ثانيا، القرآن من ناحية التفسير في آيات النشأة، كلها آيات من متشابه القرآن، بمعنى: أنها تحتمل أكثر من وجه من وجوه التفسير! تحتمل تفسير النشأة المستقلة، وإن آدم جيه كبدء مطلق، وتحتمل أيضا النشأة التطورية! "ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا"، صريحة: أطوارا! هم قالوا: مراد الله سبحانه وتعالى أطوار الجنين في البطن. طيب عرفوا منين؟ دي رأي! هو ده رأي! إنما ما نقدرش نجزم! لا نستطيع الجزم! لا يعلم مراد الله إلا الله! وما دام ربنا قال سيروا في الأرض فانظروا، يبقى المسألة فيها نظر! يبقى نبحث وما نتخانقش! اللي أنا عاوز أقوله وأؤكد عليه، إن احنا ما نتخانقش، ليه؟ لأن ما فيش حد عنده رخصه، ولا كمبيالة من ربنا، ولا تفويض بأنه عنده الحقيقة! ربنا قال: ((مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)) ربنا بيقول أنا ما أشهدتش حد خلق السماوات والأرض، ولا خلق نفسه! إذن ما

فيش حد عنده رخصة بال .. يعني، إذن مسألة اجتهاد بقى! مسألة اجتهاد! ممكن ده يغلط وممكن ده يغلط! فما فيش داعي يتخانقوا!

قلت: فقول الدكتور "العلم ما عندوش دليل قاطع"، هو من نسبة الجهل إلى العلم والوهم والتخرص والتخمين إلى المعرفة! فنحن نقول إنهم فاقدون لمبدأ الدليل نفسه، لا للدليل القاطع الحاسم الجازم الباتر .. إلخ! وإلا فدعونا نسأل الدكتور وموافقيه ونطلب منهم أن يتفضلوا علينا تحننا، ويخبرونا بشرطهم وتصورهم للدليل الذي يصح عندهم أن يوصف بأنه "قاطع" و"حاسم" و"باتر" في تلك القضية! تلك النظريات تقوم من أولها إلى آخرها عند أصحابها على أقيسة واهية لا أساس لها، كما سيأتي من كلامه هو نفسه ما يبين ذلك! فصحيح إنه قد ثبت بالمشاهدة أن بعض أنواع الكائنات الحية قد تتزاوج وقد تتغير بعض صفاتها (داخل إطار النوع الكلي الواحد) تغيرا متلائما مع البيئة فيما يقال له "التكيف" Adaptation، وثبت كذلك أن بين أنواع الكائنات الحية تشابها هيكليا وبنيويا ووظيفيا إجماليا! ولكن بأي حجة ينتقل المنظر الطبيعي من هاتين القضيتين إلى ادعاء أن جميع الأنواع الحية الكلية منها والجزئية قد نشأت "بالتطور" من النوع الأقل في ظاهر تركيبه الحيوي والعضوي إلى النوع الأكثر و"الأعقد"، بداية من كائن أحادي الخلية ظهر بالصدفة في بحيرة خاملة، بحيث إن سأله السائل عن الدليل، أفاض في إثبات حالات التشابه والتقارب في الحفريات وحالات التكيف والتغير في الأحياء؟! بأي عقل يقول القائل إن تفسير كون الواقع المشاهد حاليا على الصورة (أ)

هو (ت)، ويقول في نفس الوقت إن الدليل على صحة النظرية (ت) بشأن الماضي هو الصورة الواقعية (أ) نفسها؟؟ هذا القياس الدائري السخيف هو غاية ما عند القوم في باب الاستدلال عند من عقل وتجرد من الهوى الذي يعمي الأبصار، وقد بسطنا القول بعون الله تعالى في بيان فساده المنهجي في غير هذا الكتاب! فأي دليل "قطعي" هذا الذي يرجو الدكتور ويؤمل في ظهوره في هذا الصنف من النظريات عند الدهرية الطبيعيين في يوم من الأيام؟

أما كلامه في آيات القرآن فيما سماه إجمالا "بالنشأة" وتقريره أنها كلها من متشابهات القرآن التي تحتمل أكثر من وجه في التفسير، فهو مما لا نستغربه من الجهمية وهو من أصول منهجهم التأويلي المنحرف! فحتى إن سلمنا تنزلا بأن الآيات التي جاء بها ذكر خلق السماوات والأرض والدواب والبشر وغير ذلك من أنواع المخلوقات في العالم كلها من المتشابه (وليس الأمر كذلك قطعا، بل يوشك أن يكون العكس هو الصحيح!)، فإن لكل متشابه في كتاب الله تعالى نص محكم في الكتاب أو في السنة يُرجع إليه ويرتفع به الاشتباه، ولله الحمد والمنة! فأما الجهمية فيتبعون ما تشابه ابتغاء تأويله على ما يخدم نظرياتهم وأغراضهم، ويجعل النص تابعا لها كما يشتهون! وأما أهل السنة فيحملون المتشابه على المحكم كما حمله سلفهم من قبل، ويقولن كل من عند ربنا، من غير اختراع ولا ابتداع ولا إحداث في الرأي! قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ)) [آل عمران : ٧]! فالدكتور يلتمس مسألة التشابه وتعدد الأوجه هذه حتى يصل لأن يقول إن تلك الآيات: "تحتمل تفسير النشأة المستقلة، وإن آدم جيء كبدء مطلق، وتحتمل أيضا النشأة التطورية!" ومن ثم ينتقل إلى تجويز القول بأن آدم قد خلقه الله بيديه في الجنة خلقا مباشرا (كما هو ثابت في السنة الصحيحة المتواترة وعليه إجماع المسلمين، بل وهو صريح في القرآن في قوله تعالى: ((قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)) الآية [ص : ٧٥])، وتجويز القول المخالف – أيضا – الذي يزعمه هؤلاء الجهمية الدروانة من أن آدم قد خلق في الأرض بالتطوير على نوع من أنوع القردة العليا، ثم يصبح الخلاف بين القولين خلافا مستساغا في "الرأي" والاجتهاد، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولا شك أن للدكتور هوًى وغرضا واضحا في تسويغ ذلك الخلاف البدعي الشنيع! فهو من جانب يريد أن يتلبس أمام الفلاسفة والأكاديميين الكبار بلبوس الباحث التجريبي المثقف المتحضر الذي يقيم "للعلم الحديث" وزنه، ويدعو الناس إليه ويحملهم على نبذ الخرافات والأساطير وكذا، ويريد من الجانب الآخر أن يصبح له قدم وعلو بين أهل الملة في فهم الدين نفسه وفي الانتصار له (أو بالأحرى الانتصار به للنفس)! فلما أطلق نظره في استدلالات الدراونة وردود من ردوا عليهم بنفس منهجهم، ووجد أن الترجيح من طريق

القوم وباستعمال أدواتهم غير متصور أصلا، ثم كره – على ما يبدو - أن يعلن البراءة من تلك الطريقة نفسها في تناول تلك الغيبيات المحضة، لم يجد – إذن - إلا أن يسوغ ذلك الخلاف وأن يدعو علماء الملة لقبوله، ولترك "التشنج" و"التشدد" في الرد عليه، مدعيا أنه راجع إلى اجتهاد ونظر علمي معتبر، بل ومأمور به في القرآن! وما دام القرآن حمال أوجه في تلك المسألة على أي حال (بزعمه)، فليأت كل "مجتهد" إذن بما عنده ولا تثريب عليه مهما "شطح به فكره"!

يقول الدكتور مواصلا:

> الموقف الصح في نظري هو الاجتهاد والتفويض، والقول بأن الله أعلم! إنما نتخانق لأ! بالطريقة دي ممكن نفكر في هدوء، نبطل تشنجات، ونشوف إيه القضية! القضية في نظري قضيتين! أولا قضية التطور نفسه، وثانيا قضية النشأة الإنسانية. ودول قضيتين مش قضية واحدة!

قلت: بل التطور قضية واحدة وحكمه عندنا واحد سواء في الإنسان أو في غيره، وإنما تضاعف الفساد والبطلان والشناعة في شأن الإنسان خاصة لتوافر النصوص المتواترة من الكتاب والسنة على إثبات خصوصيته في الخلق والتكريم من بين المخلوقات! وأما قول الدكتور بالاجتهاد والتفويض في المسألة فأما الاجتهاد فأول ما يُسأل عنه الداعي إلى الاجتهاد في أي

قضية من القضايا هو مصادر التلقي المعرفي عنده: ما هي أنواع الأدلة التي يعتقد أداءها للمطلب المعرفي الذي يريد الاجتهاد فيه؟ ولهذا لا يعترف أهل السنة بالفقه الرافضي (المذهب الجعفري) لأنه لا يستند إلى مصادر أهل السنة، وإنما السنة عندهم أقوال منسوبة في الأعم الأغلب إلى "أئمة آل البيت"، فيما يسمى "بالسنة المعصومة"! وأما القرآن فهم يبطنون القول بتحريفه ويتأولونه تأويلا باطنيا! فعندما يدعونا الرافضي لمناقشته في قضية فقهية اجتهادية فلا يجوز أن نقبل منه حتى يدع كتبه المكذوبة ويرجع معنا إلى مصادرنا الصحيحة في تلقي الشريعة: الكتاب ثم السنة ثم الإجماع (إجماع أهل العلم بالكتاب والسنة)، وإلا كان النقاش بيننا ضربا من العبث!

وكذلك نقول بشأن قضايا "نشأة" السماء والأرض وما بينهما من أنواع المخلوقات. فإن مما نخالف فيه الدهرية خلافا منهجيا كليا أن مسألة الخلق الأول وما يتعلق بها (خلق السماوات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق) لا يجوز أن تتبع طرائق القياس للعلم بشيء من تفاصيلها لأنها لم تجر على نحو يتصور أن يناظره شيء من تلك الحوادث الجارية في العالم (التي لا تجري فيه كما نراها إلا تبعا لسنن سببية قد ركبت فيه بعد خلقه)! فهي بالضرورة من الغيب المحض الذي لا يوصل إلى معرفته إلا من طريق السمع لا غير (النص صحيح النسبة لرب العالمين)! وهذه مسألة منهجية مهمة قد أطلنا النفس كثيرا في بيانها في غير موضع! فمن جاءنا الآن يقول نريد الاجتهاد في مسائل النشأة لنعرف كيف "بدأ" اللّٰه الخلق، فإن سلمنا بصحة استعمال هذا

الاصطلاح (الاجتهاد) في معنى طلب المعرفة بإطلاق (على اعتبار أنه يختص عند علماء الشرع بالقضايا التي ليس فيها نص صريح أصلا)، فنقول له من أي طريق تريد تحصيل تلك المعرفة؟ فإن قال من طريق التنظير الطبيعي قلنا له هذا باطل ولا يصح، لأن أحداث الخلق لم تكن أحداثا "طبيعية" أصلا، فلا تطالها أدوات تلك الصناعة من الابتداء! ولهذا ننكر عليكم كما ننكر، و"نتشنج" معكم – يا دكتور مصطفى أنت ومن تبعك – ونشدد في النكير، لأن مصادر التلقي عندكم في هذه القضية فاسدة أصلا، وإنما دخل عليكم الفساد فيها من إغراقكم في نظريات الطبيعيين الدهريين المعاصرين من غير أهلية شرعية ولا منهجية!

وأما قول الدكتور بالتفويض فتناقض، إذ التفويض يعني تفويض العلم لله تعالى والقول بأنه ليس ثمّ طريق يوصلنا إليه، وأما الاجتهاد فيعني التماس الطرق التي يرجى أداؤها للعلم في مسألة ما، وهو ما يقتضي بالضرورة التسليم بإمكان تحصيل ذلك العلم في المسألة من حيث المبدأ! فكيف يجتمع هذا الموقف وذاك لأحدهم في قضية واحدة؟ يقول:

> القضية الأولى اللي هي قضية التطور، عاوز أقول إنها حقيقة ثابتة علمية، وموضوعية وما فيش مجال فيها للخلاف. ليه؟ لأن مفهوم التطور هو: استنباط سلالات من سلالات، وتحسين هذه السلالات عبر التاريخ. وإن تطلع سلالات جديدة من سلالات قديمة ويحصل

تنويع واختلاف. ده فعلا حاصل! التزاوج بين الحمار والحصان بيعمل بغل! صنف جديد خالص. بين الأسد وبين النمر بيعمل مخلوق جديد، لا هو أسد ولا هو نمر! في النباتات بيعملوا دلوقتي عملية التقليم والتطعيم فاتبص تلاقي عملوا لك عجور بطعم الأناناس! وخد من دي بقى تجارب ما تنتهيش! ودلوقتي شغلتهم في البايو إنجينيرينج إنهم يتدخلوا في الجينات ويشيلوا حلقة ويحطوا حلقة ويطلعوا مصنفات جديدة خالص خالص نهائي. فإذن دي حقيقة خلاص. يعني إن بيحصل تنوع سلالي، باستنباط سلالات من سلالات من خلال التزاوج، وإن في التاريخ عبر التاريخ بتطلع طفرات، وأصناف جديدة، من خلال التزاوج دي حقيقة!

قلت: أما ما قرره الدكتور من حقيقة إمكان استنباط سلالات من سلالات فليس هذا محل النزاع أصلا، وإنما يحشره الدراونة الدهريون في مفهوم "الارتقاء الدارويني" Darwinian Evolution (أي الذي يجرى على آليات نظرية داروين) تنطعا حتى يكون من جملة مستنداتهم التجريبية في الانتصار لخرافتهم الغيبية الكبرى بشأن أصل الأنواع! وهذه الشبهة في الحقيقة من أكثر الشبهات انتشارا بين التطويريين في زماننا، سواء من اللاهوتيين من أهل الكتاب أو من "المفكرين" والمتجهمين من أهل قبلتنا كصاحبنا هنا. فنحن قطعا لا ننفي ما هو معلوم مشاهد من إمكان التعديل في بعض الصفات بإحداث التزاوج المصطنع Selective Breeding / Artificial Selection بين السلالات،

ولا ننفي ما هو معلوم مشاهد من ظهور سلالات جديدة ذات صفات هجينة (مختلطة) من أثر ذلك التزاوج، فهذا مما اقتضت حكمة الله تعالى أن يمكن البشر منه في هذا الزمان ولا إشكال. ولا ننكر كذلك عملية التكيف والتأقلم والتغير الجيني التي يجريها الله في بعض الأنواع كالباكتريا ونحوها مما يجري في إطار السلالة الواحدة. وإنما ننكر القياس القديم الذي تكلفه داروين في كتابه "في أصل الأنواع" إذ زعم أن كافة الأنواع الحية إنما نشأت على الأرض من بعضها البعض نزولا من أصل واحد، بتغيرات مشابهة لتلك العمليات الحيوية! من أين له بهذا القياس؟

دعونا نسأل الدكتور هذا السؤال، وهو ممن يقبلون تلك التسوية الدهرية بين الارتقاء الدارويني (الذي تنشأ به أصول الأنواع على الأرض بصفاتها بأعضائها بما يفرقها تمام الافتراق عن غيرها من الأنواع)، وبين "استنباط السلالات" (التي هي تنويعات خلقية في صفات أفراد النوع الواحد) الذي ضرب عليه الأمثلة في كلامه: هل يظهر في السلالات الجديدة التي يستنبطها الباحثون باستعمال التزاوج الجبري الانتقائي هذا، أعضاء جديدة أو وظائف حيوية جديدة؟ الجواب كلا، وهذا واضح! وإذن فلا مجال أصلا لادعاء ظهور معلومات جينية جديدة نوعا في السلالة الجديدة، ولهذا نسميها سلالة جديدة ولا نعدها نوعا جديدا! وإذن فلا علاقة بين هذه العملية وبين آلية التطفر العشوائي التي زعمها داروين في أصول الأنواع! وكذلك نسأله: هل تجري تلك العملية "استنباط الأنواع" جريا "طبيعيا"، أم أن الباحثين هم الذين

يتكلفونها خلطا بين السلالات وتلقيحا وتزويجا؟ الجواب واضح، وإذن فما علاقة هذه المسألة بمبدأ "الانتخاب الطبيعي" (ونظيره المسمى بالانتخاب الإلهي عند التطوريين)؟ وكذلك ما علاقة التغير الجيني عبر أجيال النوع الواحد تكيفا، بتلك العملية التي زعموا أن الأنواع نفسها نشأت بها من الأصل؟ لا علاقة البتة! والقياس في هذا الباب ممتنع أصلا كما تقدم، فلا تأثير "لحقائق" العلم على موقفنا من تلك الخرافة!

ثم قال الدكتور:

> إيه أنا عاوز أقول: إن ده ما هواش طعن في الصنعة الإلهية! اللي هي التطور، التطوير إلى الأحسن! هم بيقولوا لك، بعض الناس بيقولوا إزاي: دا معناه أنت بتطعن في صنعة ربنا! صنعة ربنا معناه تحتاج للتطور! يعني ربنا عمل حاجات ناقصة! أقول لهم والله دا ربنا نفسه بيقول "خلق الإنسان ضعيفا"! ربنا نفسه، بيقول على الإنسان: خلق الإنسان ضعيفا! ضعيف يعني فيه نقص! وهو جمال الدنيا إيه؟ هو شوق الناقصين إلى الكمال! إننا ناقصين، وبنشتاق إلى الكمال، وبنحاول نربي في نفسنا كمالات جديدة، ونتعلم ونترقى، و.. و.. إلى آخره! دي جمال الدنيا في كده! لأن لو كنا كاملين يبقى هان... (ضاحكا) .. هايبقى إيه لازمة أروح المدرسة والا الجامعة والا.. خلاص بقى!

قلت: وهنا يظهر تأثير التشبع بالنظرية الميتافزيقية الدهرية على الجهمي المتشبع بها كما لا أكاد أرى له مثالا أظهر ولا أجلى والله المستعان. قيل للدكتور إن اعتقاد نشوء الأنواع بالترقي من أصول منحطة لازمه الظاهر هو الطعن في قدرة الله جل وعلا وفي علمه وفي حكمته وقيوميته وغير ذلك من صفاته المعلومة من دين الإسلام بالضرورة، فكيف يكون المخرج من هذا المأزق؟ هل يتراجع ويكر على تلك النظرية بالإبطال أو حتى بالمراجعة؟ أبدا! محال! فهو يعلم ما يلحقه من التهمة والتسفيه بين الطبيعيين من أقرانه إن هو فعل ذلك، وليس يجد في الأرض شيئا أكره إلى نفسه من هذا! فما الحيلة إذن؟ لا يجد سبيلا إلا التنطع بالتأويل والتنظير في صفات الله جل وعلا حتى يمرر ما يريد ويوهم نفسه وغيره ببطلان تلك اللوازم الجلية! هو معتقد صحة تلك النظرية اعتقادا جازما (أو هكذا يحب أن يظهر بين الأقران)، فلزم أن يكون كل ما يخالفها من النص عندنا مدفوعا إما بالرد أو بالتأويل! فلما فتش الرجل في مصحفه، وجد الله تعالى يقول: ((يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً)) [النساء : ٢٨]، فقال: ها هو الله تعالى يثبت أن الإنسان فيه نقص!

ونقول في جواب هذه الشبهة المتهافتة: ليس الضعف المنسوب إلى الإنسان في هذه الآية (الذي هو جزء من بناء نوعه يرجع إلى الحكمة الإلهية من خلقه وتكليفه) كالنقص الكلي الشامل الذي تقتضيه مجرد الدعوى بأن رب العالمين يخلق الأنواع بالتطوير والتحسين، وهذا واضح لكل من لم تأكل الداروينية رأسه ولم تملأ عليه قلبه! ففرق واضح بين أن يعتقد الإنسان أن الله

تعالى خلق نوعا وابتلاه في خلقته بخصال من الضعف تبعا للحكمة المقصودة من خلقه (كالضعف عند اشتهاء النساء، كما فسرها به جمع من السلف)، وبين أن يعتقد أن اللّٰه تعالى ما خلق "الأنواع" كلها إلا من أصل واحد منحط أصم أبكم لا يعي، اتفق أن تكاثر وتنوعت فيه التركيبات الجينية بالطفرة المزعومة أشكالا وألوانا، فلم يتكاثر من تلك التراكيب ولم يبق إلا ما اتفق أن وافق البيئة التي خلق فيها فاستطاع أن يتناسل حتى صار بذلك نوعا له انتشار وبقاء في الأرض، ثم تأتي الطفرة مرة أخرى في جيل لاحق فتنشئ تراكيب أخرى مشوهة عاجزة كلها، حتى يتفق أن يوافق أحدها البيئة التي نشأ فيها ثم يتناسل ويتكاثر بدوره فيصير نوعا، وهكذا في كل الأنواع! هذا الاعتقاد طعن صريح في جملة عريضة من صفات الرحمان، وتكذيب لكثير من نصوص القرآن كما لا يخفى، وهو حقيقة وأساس تلك الأسطورة الداروينية الدهرية التي يٌعلمها القوم للطلبة في المدارس في جميع بلدان العالم في هذا الزمان، ويريد هؤلاء أن يؤسلموها، واللّٰه المستعان!

فمثلا، عند التطويريين هؤلاء أن اللّٰه تبارك وتعالى ما خلق أنواع البرمائيات كلها إلا عندما انحسرت المحيطات عن الأرض في أسطورتهم الطويلة في عصر من الأعصار، فهلكت كافة الأسماك والمخلوقات المائية التي كانت في تلك المحيطات إلا ما اتفق أن كان فيه جين "الطفرة" الذي به استطاع أن يتنفس الهواء وأن يزحف على سطح الأرض! فأنا أسأل كل من أعجبه كلام الدكتور وشقشقته الفارغة تلك ووجد لها وقعا في نفسه: هل هذه صنعة رب

حكيم عليم يخلق الشيء بمقدار، رب العالمين الموصوف في القرآن بأنه ((الَّذي أعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)) الآية [طه : ٥٠]، أم هي صنعة صانع بليد جاهل اتفق أن جعل في فرد من أفراد نوع متهالك (عاجز بكليته عن التكيف مع بيئته)، صفة إضافية تحفظ ذلك الفرد من الهلاك وتحيله إلى نوع جديد، فلا يدري هل يتكاثر صاحب تلك الطفرة بعد أم لا، وهل يبقى في مهلكة "الطبيعة" تلك أم لا يبقى؟ الجواب واضح إلا لمن أعمى الله بصره وبصيرته! لو حرص القوم حقا على تنزيه رب العالمين عن لوازم تلك القصة المتهافتة لأسقطوها بكليتها على رؤوس أصحابها ولم يبالوا، ولأعلنوا البراءة والتوبة منها جملة واحدة، أولها وآخرها! أما أن يقال إن الله أجرى الخلق على هذا التفصيل لحكمة عنده، فلا خلق إذن على التحقيق ولا حكمة ولا علم ولا شيء على الإطلاق، وإنما عبث وتجريب وملايين من المحاولات الفاشلة عبر بلايين السنين لتركيب أنواع المخلوقات في بيئتها لعلها تبقى، سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا!

فنحن نقول: لا يتكلف إدخال تلك الزبالة الداروينية تحت آية كهذه إلا جهمي! ولا يتكلف ذلك إلا لما بينا من مرض قلبه ومن تشبعه بهوى إظهار الموافقة لنظريات الفلاسفة المقدمين أكاديميا في عصره حتى لا يقال جاهل ولا يقال "رجعي" أو "متخلف" أو "مؤمن إيمان السفهاء"، وإلى الله المشتكى! قال الإمام القرطبي عند آية سورة النساء المذكورة: "والمعنى أن هواه يستمليه وشهوته وغضبه يستخفانه، وهذا أشد الضعف فاحتاج إلى التخفيف. وقال طاووس

ذلك في أمر النساء خاصة، وروي عن ابن عباس أنه قرأ "وخلق الإنسان ضعيفا" أي وخلق الله الإنسان ضعيفا أي لا يصبر عن النساء. قال ابن المسيب: لقد أتى علي ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى وصاحبي أعمى أصم – يعني ذكره – وإني أخاف من فتنة النساء." اهـ.

قلت فجمهور السلف كما ترى على أن المراد بالضعف هنا غلبة الشهوات على الإنسان (لا سيما شهوة النساء)، واحتياجه من ثم إلى التخفيف بالتشريع! فهل تكلف الدكتور قراءة كتب التفسير يوما من الدهر حتى يتعلم مراد الله من كلامه من آثار تلامذة الرسول عليه السلام، ومن تلامذة تلامذتهم؟ لا نظن ذلك! وإن قدرنا أنه فعل فما علاقة هذا المعنى المذكور بذلك التهالك النوعي الكلي الدارويني؟ لا علاقة بأي وجه كان، وإنما هي قرمطة الجهمية سلمنا الله!

تأمل الشقشقة البالغة في قول الدكتور: " وهو جمال الدنيا إيه؟ هو شوق الناقصين إلى الكمال! إننا ناقصين، وبنشتاق إلى الكمال، وبنحاول نربي في نفسنا كمالات جديدة، ونتعلم ونترقى، و.. و.. إلى آخره! دي جمال الدنيا في كده! لأن لو كنا كاملين يبقى هان... (ضاحكا) .. هايبقى إيه لازمة أروح المدرسة والا الجامعة والا.. خلاص بقى!" اهـ. قلت: وهل شوق الناقصين إلى الكمال هذا هو شوق للترقي الدارويني من نوع الإنسان إلى نوع أرقى يا دكتور؟ بالله ما هذا الكلام، وما مسلكه فيما نحن فيه؟

قال الدكتور:

ثم الكامل لا يتعدد! هو الكامل هايحتاج لواحد كامل تاني ليه؟ ما هو الكامل ده معناه عنده كل حاجة! يقدر يعمل .. مستغني! والكامل وحيد أحد هو اللّٰه سبحانه وتعالى! هو الوحيد الكامل! الكمال المطلق للّٰه سبحانه وتعالى وحده! الباقي لازم فيه نقص! اللّٰه! ثم الناس ما هم بينزلوا من بطن أمهم عميان، وواحد ينزل برجل واحدة، ومسوخ، وبنبص نلاقي في التاريخ جات سلالة إسمها الديناصورات، فظيعة جدا وانقرضت! اللّٰه! طيب مين خلق ده كله؟ ما هو ربنا بردو! هو لما يتولد واحد ناقص هانقول ده خلقه الشيطان؟ النقص حقيقة! حقيقة! لأن الكمال للّٰه وحده! وربنا لما وصف الإنسان، قال خلق الإنسان ضعيفا! انتهى الموضوع!

قلت: قوله "الكامل لا يتعدد"، نقول ما معنى الكمال وما معنى كامل هنا على وجه التحديد؟ هنا إجمال متعمد ولا شك لأن القاعدة عند العقلاء أن كمال كل شيء بحسبه، إلا كمال رب العالمين فإنه مطلق لا منتهى له! فكمال المخلوق ليس بأن يكون كاملا من كل وجه وفي كل صفة، فإنه لا يكون كذلك إلا رب العالمين، المتفرد بسائر الكمالات سبحانه وتعالى ((وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)) الآية [الأعراف : ١٨٠]، وهذه مسألة لا مراء فيها! وإنما يكون كمال المخلوق بأن يجري على الغاية التي من أجلها خلق! فأما الغاية التكوينية التي

من أجلها خلق نوع البشر بجملته، ألا وهي التكليف والابتلاء في الأرض، فخلقة البشر كاملة من ذلك الوجه قطعا، وفيها قال تعالى: ((لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)) [التين : ٤]، ولو أننا زعمنا نقصه أو قصور الإنسان (نوعا) عن الكمال من هذا الوجه لنسبنا النقص إلى رب العالمين نفسه بالضرورة: أنه لم يخلق هذا النوع على النحو اللازم لأداء الغرض التكويني الذي من أجله خلقه! وأما الغاية التشريعية التكليفية التي من أجلها خُلق نوع البشر، فهذه لا يوصف الإنسان بالكمال إلا بقدر استيفائه إياها بعمله وقيامه بحقها اختيارا، وفي هذا المعنى قال عليه السلام: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربعة" الحديث!

فقول الدكتور إن النقص داخل على كل المخلوقات بالضرورة: حق يراد به باطل! لأنه يريد به ها هنا تمرير معنى باطل من معاني النقص كما ترى ! ولا تأثير لحقيقة ظهور بعض أفراد الخلق بعيوب ونقائص كما ذكر (ممسوخة أو مشوهة)، على هذا التفريق بين وجوه الكمال والنقص الذي ذكرنا! فإن الرجل الذي يولد كفيفا أو أصما أو مبتور الذراع أو غير ذلك، هو عند الكمال في التكوين من وجه، وعلى نقص فيه من وجه آخر! فأما وجه كماله فهو أنه إنما خلق على وفق حكمة رب العالمين بلا زيادة ولا نقصان، وعلى وفق تدبيره الإلهي وإرادته التي لا يعلمها إلا هو سبحانه! فالذي يولد ضريرا أو أصما – مثلا - لا يولد كذلك إلا لأن الله تعالى قد قضى في حكمته ابتلاءه هو وغيره بذلك العجز لديه هو بعينه! وهذا ولا شك من كمال حكمة الله تعالى ومن

كمال التكوين والخلق الإلهي من هذا الوجه! وأما وجه كونه نقصا في التكوين، فهو واضح: إذ معلوم من صفة نوع البشر وهيئتهم أن هذا الفرد بعينه ناقص لا يوصف بالكمال في تركيبه وصورته، إذا ما قورن إلى هيئة البشر مكتملي الأعضاء! من هنا يلزم من يتكلم عن الكمال والنقص أن يفصل أبلغ تفصيل حتى يتبين عن أي وجه يتكلم وعن أي معنى، وعلى أي الصفات تحديدا يُدخل معنى النقص أو الكمال!

يجب التفريق بين أن ينسب النقص للمفعول، وبين أن تنسب النقص للفعل نفسه! فالله تعالى خلق الناقص وخلق الشرير وخلق إبليس نفسه، فهذا نقص وشر في المفعولات الإلهية، غير أنها جعلت على هذا النحو لحكمة عليا ولأغراض لا تحصل على وجه التمام إلا بذلك، فكان فعل الخلق نفسه كاملا وإن كان المفعول منقوصا، وكان الفعل خيرا وإن كان المفعول شرا! أما أنتم معاشر التطويريين فتنسبون النقص إلى الطريقة التي بها خلق الله الخلق على التحقيق، وليس إلى أنواع المخلوقات كما يريد الدكتور أن يوهم سامعيه! فهذا الذي تؤمنون به إنما هو صنعة صانع لا يدري كيف يضبط صنعته، فهو يخبط فيها كيفما اتفق، وليست صنعة صانع يخلق كل شيء بقدر، ويضع كل شيء في موضعه الصحيح بلا زيادة ولا نقصان، والله المستعان!

وأما مسألة "انقراض الديناصورات" هذه فلا نسلم بها! فالديناصور هذا نرى نسله الآن عيانا في أنواع السحالي وغيرها من الزواحف، وإن كانوا أصغر

حجما! وقد يقال إن اختفاء هذا النوع العملاق من السحالي والزواحف "بانقراضها" لم يكن سببه "نيزك عملاق" أو "عصر جليدي" أو غير ذلك مما شطّ به الدارونة، ولكن بتناقص أحجام ذلك النوع إجمالا وتغير سلالاته عبر القرون (والشبه واضح جدا بين الكبير من تلك السحالي العملاقة التي عثروا على حفائرها المتناثرة هنا وهناك، والصغير الذي نراه الآن في هذا الزمان)! ولنا في السنة شاهد في مسألة تناقص أحجام المخلوقات هذه في الإنسان نفسه، إذ جاء في الصحيحين أن آدم عليه السلام كان طوله ستون ذراعا، ثم لم يزل الخلق ينقص (أي في الأطوال والأحجام) إلى اليوم! ولعلك تجد نوعا من المناسبة بين تناقص أطوال البشر وافتراضنا تناقص أطوال ما يسمى بالديناصورات، فلا يبعد أن يكون كثير من أنواع الوحوش والدواب قد تناقصت في أطوالها كذلك! ولو كنتُ من المتكلمين، لانتصرت لهذه "النظرية" بقولي إن قوله عليه السلام "فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن" كما في لفظ مسلم، فيه لفظة "الخلق" عامة، فتحتمل في اللغة أن تؤول على أن المراد كل أنواع المخلوقات وليس البشر وحدهم، ولقلت بهذا وفرحت به وطرت به كل مطار وإن كان لا قائل به قبلي من المسلمين البتة! وإذن لاعتضدت بما عُثر عليه بالفعل من هياكل عظمية قديمة لدببة وأفيال وأسود عملاقة وغير ذلك مما اصطلح عليه الباحثون باللفظة Megafauna! ولكني لست من أهل الكلام والتجهم، فلا أقول في هذه المسألة بالافتراض والتنظير، ولست أثبت هذا "التفسير" لمسألة الديناصورات هذه ولا لحفائر الدواب العملاقة المذكورة ولا

غير ذلك، ولا أرى القول به ولا بغيره لأن الأمر غيب لا يثبت فيه علم إلا بالسمع، وليس ثمة سمع، فانتهت القضية، وانغلق باب "الاجتهاد" الذي ينادي به الدكتور من قبل أن ينفتح!

ثم قال الدكتور:

> فإذن التطور لا يطعن على الصنعة الإلهية، ده بالعكس! ده بيأكد جمال الصنعة! إن ربنا لما يصنع الشيء، يودع فيه سنن وقوانين تصلحه وتحسنه عبر التزاوج والسلالات المستمرة! ((رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى))، يعني شوف، بيخلق، ويضمن إنه يهدي المخلوقات في مسيرة التطور إلى الأحسن والأحسن والأحسن!

قلت: يواصل الدكتور مسعاه الحثيث كما ترى لتزيين وزخرفة عقيدة من أقبح وأفسد العقائد التي عرفها البشر في تاريخهم على الإطلاق! ويتأول هذه الآية التي هي حجة دامغة عليه في الحقيقة، على نحو باطني يقلب به معناها ليخدم مقصوده! فمما أطبق عليه أهل التفسير أن المراد بقوله تعالى "أعطى كل شيء خلقه" أي خلق كل مخلوق من أول زوجين وجدا على الأرض على أحسن ما يكون، "ثم هدى" أي هدى كل مخلوق لما خلقه له، وألهمه العلم بما يجلب به النفع لنفسه ويدفع به الضرر على وجه التمام! وهذه الهداية مشاهدة معلومة مطردة في جميع خصال تلك المخلوقات، بما فيه ما ركبه الله فيها من غرائز ومعارف "فسرها" الدراونة ظلما وإلحادا على أنها صفات

وراثية بقيت "بفعل الانتخاب الطبيعي"! فالمخلوق الجديد، لا يحدث في الأرض ابتداءً (أي من غير مثال سابق) إلا وقد استكمل – وجوبا - لوازم بقائه وقيامه بالغاية التكوينية التي خلق من أجلها على وجه التمام، وإلا كانت صنعة الخلق فيه معيبة بالضرورة، وهو ما يقدح في الخالق نفسه ويرجع على صفاته بالنقص، وهذا أمر في غاية الوضوح! فالمسألة التي بين أيدينا من أصول الاعتقاد التي لا يجوز للمسلم أن يخالف فيها ولا يحل له أن يفتحها للنظر و"الاجتهاد" بحال من الأحوال!

وحقيقة خلق كل شيء بإتقان وإحسان وهدايته على وجه التمام من أول وهلة، هي من الحقائق البدهية الظاهرة التي يحاجج الأنبياء أقوامهم بمجرد التذكير بها كما ترى ، من غير أن يعارضهم فيها معارض أو يستفصل فيها مخالف! فموسى عليه السلام ما زاد في تعريف ربه عند السؤال عنه على أن قال: الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فبالغ بذلك في نصب الحجة وقام بالمقصود! وأما على مذهب الدكتور، فهذه الهداية لم تحصل أصلا في الحقيقة، ولم يعط الله كل شيء خلقه ولا أحسن كل شيء خلقه كما في قوله تعالى: ((الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : ٧]، لأن نظرية التطور تجعل الأصل في ظهور الأنواع على الأرض هو النقص عن لوازم البقاء والانحطاط والعجز المفضي إلى الانقراض، إلا لما اتفق اتفاقا أن ظهرت فيه الطفرة المزعومة! فالتطويريون كصاحبنا هذا ما زادوا على أن أزالوا مسألة العشواء والاتفاق والصدفة هذه، وزعموا أنها كلما حدثت في التاريخ

(أي تلك الطفرة)، كان ذلك من علامات التدبير والهداية الربانية و"التحسين" في الخلق!

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية: "خلقه أول مفعولي أعطى، أي أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به؛ على قول الضحاك على ما يأتي . ثم هدى قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي: أعطى كل شيء زوجه من جنسه، ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه ، وعن ابن عباس ثم هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة. وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورة؛ ولم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديرا. وقال الشاعر: وله في كل شيء خلقة وكذاك الله ما شاء فعل يعني بالخلقة الصورة؛ وهو قول عطية ومقاتل. وقال الضحاك أعطى كل شيء خلقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له. يعني اليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع. وقيل: أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة. وقال الفراء: خلق الرجل للمرأة ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ثم هدى الذكر للأنثى. فالتقدير على هذا أعطى كل شيء مثل خلقه. قلت: وهذا معنى قول ابن عباس. الآية بعمومها تتناول جميع الأقوال. وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ الذي أعطى كل شيء خلقه بفتح اللام؛ وهي قراءة ابن إسحاق. ورواها

نصير عن الكسائي وغيره؛ أي أعطى بني آدم كل شيء خلقه مما يحتاجون إليه. فالقراءتان متفقتان في المعنى." اهـ.

قلت: فالآية صريحة في أن الله تعالى ما خلق شيئا إلا وقد أعطاه منفعته المنوطة به من أول يوم، التي بها يحصل المقصود من خلقه على وجه الكمال! وهذا نقيض ما يريد الدكتور أن يثبته في معناها، فتأمل! ثم إنه يزعم أن التطور الدارويني لم ينقل المخلوقات إلا إلى ما هو أحسن، وهذا باطل من وجوه: فأولا: إن سلمنا بأن التطور لا ينشأ عنه إلا ما هو أعقد، فالزيادة في الوظائف الحيوية والتعقيد في النظام الحيوي والتعدد في الأنواع لا يلزم أن يكون (في مجرده) "أحسن" من البساطة وعدم التعقيد، وليس في العقل ولا في العادة المحسوسة ما يوجب ذلك! بل إننا نجزم بأن النوع الأقل في عدد الأعضاء والوظائف الحيوية هو أحسن في موافقته للبيئة التي يعيش فيها وللنظام الحيوي الذي هو جزء منه وللأغراض التي من أجلها خلق، مما لو جعل في مكانه مخلوق "أكثر تعقيدا"، وهذا مشاهد معروف لا سيما في أنواع الكائنات الميكروسكوبية الدقيقة ولا يماري فيه أحد! فمن أين جاء القول بالتدرج في "التحسين" هذا، إن لم يكن من أثر فلسفة دهرية شيطانية يأبى أصحابها إلا أن يرجعوا كل نظام بديع في خلق الله تعالى إلى أصل عشوائي منحط؟ نسأل الله السلامة! وأما ثانيا: فالنظرية ليس فيها إلا الزيادة في التعقيد والتشعب النوعي على مر العصور، أما "التحسن" فلا تقول به النظرية من الأساس، وهذا في الحقيقة من أشهر أغلاط اللاهوتيين والمفكرين التطويريين من أهل الملل

في فهمها! فالتطور الدارويني ليس سلما يبدأ من الخلية الأحادية وينتهي عند هوموسابينز (الإنسان العاقل) كما يظنه كثير من الناس، وإنما هي شجرة تتوسع وتنتشر أفقيا ورأسيا، فأكثر الأنواع لم تنشأ "بالتحسين" على ما تفرعت منه بحسب النظرية، وإنما نشأت بالزيادة عليه.

فالطفرات ليست بالضرورة تحسينا، بل ولا تكون كذلك إلا في القليل النادر من أحداث تلك الأسطورة التطورية الضخمة عند التتبع! ومن فهم معنى الانتخاب الطبيعي أدرك من فوره أن الفوضى والعشواء هي الأصل في بناء تلك القصة، وهي السبب في تمديدها على تلك المدة الزمانية الفلكية، بناء على اعتقاد فاسد مفاده زيادة احتمالية حدوث الطفرات العشوائية كلما طال الزمان (وهو ما حمل داروين على تكلف التنظير الجيولوجي بنفسه كما هو معلوم)! وأما الانتخاب الطبيعي فلا ينتج "الأحسن" أصلا لا للنوع المخلوق ولا لغيره، وإنما يبقى على الأرض من الأنواع ما لم يبلغ به نقصه وعجزه أن يصل إلى درجة الانقراض والهلاك الشامل، وبهذا يقال إن الطبيعة قد انتخبته! ولهذا يقال البقاء "للأوفق" Fittest وليس "للأحسن"! فعندهم أنه لا يبقى في الأرض عبر الأعصار إلا ما اتفق أن تحقق فيه الحد الأدنى من شرائط البقاء ولوازمه! وقد تأتي الطفرة المزعومة أحيانا بتغييرات لا علاقة لها بعملية التكيف Adaptation مع البيئة ولا بمسألة الأهلية للبقاء Survival من الأساس، فلا تقيم على أنها أحسن ولا على أنها أسوأ على ما يسميه القوم غلطا "بالسلم الارتقائي"! ثم إن أسطورة التطور تقوم على ادعاء تعرض الأرض لتغيرات

مناخية حادة من عصر إلى عصر ومن إقليم إلى إقليم، على نحو لا تسعفه الطفرات! ومن ركب أسطورة التاريخ الطبيعي على التاريخ الجيولوجي والكلايماتولوجي المزعوم، رأى أن القصة ليس فيها تحسين ولا تحسن! وليس أمام التطويريين مخرج من تلك المآزق في الحقيقة إلا ادعاء أن جميع الطفرات الداروينية المزعومة كانت لا تأتي إلا بما هو أحسن لا محالة، دفعا بالصدر وخلافا للأساس الفلسفي الذي بنيت عليه القصة بأكملها!

قال الدكتور مواصلا لججه البارد: "وهو لما ربنا يخلق شيء قابل للتحسين، تبقى دي أجمل في الصنعة والا لما يخلق حاجة كده طوبة وخلاص؟؟ لأ!" قلت: تأمل المكابرة العجيبة في الانتصار لدعوى فيها ما فيها من شتم رب العالمين والحطّ عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ثم ما معنى "حاجة كده طوبة وخلاص" هذه؟ كلام فارغ!

ثم يقول: "فقضية التطور لا تطعن على الصنعة! بل بالعكس تؤكد العناية الإلهية، ليه؟ لأن المخلوق بييجي وربنا حاطط فيه سنة وقوانين إن هذا المخلوق دايما يسير إلى الأحسن والأحسن ويتطور إلى الأحسن والأحسن!" اهـ. قلت: ومن جديد نقول إن كمال الصنعة والعناية الإلهية يقتضي انضباط كل نوع من الأنواع وموافقته التامة للبيئة التي خلق فيها من أول ظهوره على الأرض، وهذا خلاف ما في تلك القصة الداروينية الدهرية الهزلية التي يريد الدكتور أن يدخلها على اعتقاد المسلمين بدعوى أنها لا تطعن على الصنعة!

ثم قال الدكتور:

> إنما القضية اللي فيها كلام هي إيه؟ هي القضية التانية! وهي النشأة الإنسانية! يعني هل نقول إن حتى الإنسان ينطبق عليه نفس القانون؟ إنه هو مستنبط من سلالة سابقة؟ والا هو ربنا اختصه بالبدء المطلق؟ هنا بقى اللي فيه كلام! هنا بقى اللي أقول إن هنا لغز، وما فيش ... آآآ ... ما فيش طايفة نقدر نقول هي حق والتانية على خطأ!

قلت: بل الحق واضح والباطل واضح ولله الحمد، إلا لمن زاغ به قلبه عن سواء السبيل، فاتخذ الكتاب والسنة والإجماع ظهريا في تلك القضايا الغيبية التي لا طريق للعلم فيها إلا السمع، وقبل من الطبيعيين الدهرية منهجهم وطريقتهم في الإثبات والنفي فيها، معتقدا أنها (أي تلك الطريقة) هي العلم وهي العقل فلا علم ولا عقل لمن تركها أو حاد عنها! فنحن نقول إن المسلم الذي يسمع مثل قول الله تعالى: ((الَّذي أحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإنسَانِ من طِينٍ)) [السجدة : 7] يرى فيه التصريح البين الكافي بأن الله بدأ خلق الإنسان من طين، لا أنه ولد من ذرية نوع من أشباه البشر أو القردة العليا كما عند التطوريين! ويرى فيها كذلك أن الله قد أحسن كل شيء خلقه، فلم يخلق الإنسان ولا غيره من المخلوقات سليلا من نوع منحط كما عند التطوريين! بل خلقه من أول يوم على أحسن تقويم ((لَقَدْ خَلَقْنَا الْإنسَانَ في

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)) [التين : ٤]، وخلقه سبحانه بيديه تكريما وتشريفا كما في قوله تعالى: ((قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ)) [ص : ٧٥]، ثم بث منه ومن زوجه المخلوقة منه البشر جميعا ذرية بعضها من بعض ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)) الآية [النساء : ١]. وأما الدراونة فلا يرون الإنسان إلا سليلا لما هو أحط وأقبح في التقويم، نشأ في الأرض كما نشأ غيره من الأنواع في خرافتهم، وهذا واضح معروف! وكذلك فقد توافرت مصادر السنة الصحيحة على رواية قصة خلق آدم عليه السلام في السماء بشيء من التفصيل، كما عند البخاري في باب "خلق آدم صلوات الله عليه وذريته" قال "حدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن." اهـ.

فهذا الاعتقاد بشأن خلق آدم محل إجماع لا نزاع فيه، ومع ذلك فنحن نجزم بأن الدكتور مصطفى محمود لو سئل في تلك الآية وفي تلك الأحاديث فسيتأولها جميعا تأول الجهمية القرامطة، ليصرفها عن هذا المعنى على نحو ما صنع مع غيرها!

وهذا هو الفرق بين السني والجهمي أيها القارئ الكريم، فالسني تكفيه آية واحدة من محكم الكتاب (كهذه الآية) لنسف وإسقاط كل ما يخالفها من نظريات أو مدارس فلسفية أو "علمية" وإن أطبق عليها أهل الأرض قاطبة في عصر من العصور! وأما الجهمي فلا يصير الرجل جهميا إلا من فتنته بجملة من النظريات المعتمدة أكاديميا في عصره، التي لا يتصور لنفسه الظهور بمظهر من يردها أو يقول بفسادها بين الناس ولو تلميحا! ولهذا فمهما جئته بأحكم النصوص وأجلاها وأعظمها في درجة الثبوت، ومهما جئته بإجماع المفسرين والسلف الأول من الأئمة والعلماء على فهم تلك النصوص على وجه معين، ووجد هو في ذلك الوجه ما ينغص عليه موقفه من تلك النظريات، فسيرد ذلك كله عليك قطعا لا محالة!

وفي هذه المسألة (أعني أصل آدم) يقع الجهمي في ورطة عظيمة كما ترى، إذ تتضاعف النصوص الصريحة في الكتاب والسنة التي يلزمه ردها وتكذيبها حتى يخلص لموافقة الدراونة في جميع مفردات نظريتهم كما يشتهي! ففي آدم بخصوصه نصوص لا نجد نظيرها في غيره من أنواع الدواب! وقد أفتى كبار علماء أهل السنة في عصرنا بأن من اعتقد أن آدم عليه السلام لم يبدأ الله خلقه بيده من طين، وإنما أخرجه من ذرية القردة العليا أو غيرها من الأنواع، فقد كفر بمجرد ذلك وارتد عن الإسلام، لأنه إذن يكذب صريح القرآن ويرد

معلوما من الدين بالضرورة! [16] فما المخرج إذن؟ كيف يسلك الجهمي لنفسه مسلكا يحرز به رضا الدراونة من جهة، ويفر به من قفص الاتهام الديني والتكفير

---

[16] قال الإمام ابن باز رحمه الله تعالى: "فالقول بأن أصله (يعني الإنسان) قردٌ قول منكر قول باطل لو قيل بكفر صاحبه لكان وجيهاً، فالأظهر والله أعلم أن من قاله مع علم له بما جاء به الشرع أنه يكون كافراً لأنه يكذب بالله وبرسوله يكذب بكتاب الله - سبحانه وتعالى.-" اهـ. المصدر: فتاوى نور على الدرب، المجلد الأول \ الموقع الرسمي للعلامة ابن باز، على الرابط:
https://www.binbaz.org.sa/noor/8937، دخل عليه في ٢٩ ربيع الآخر، ١٤٣٨ من الهجرة.
وقال الإمام ابن عثيمين رحمه الله تعالى: " وقد تقدم قبل قليل بيان أن اعتقاد أن أصل كون الآدمي قرداً كفر بالله عز وجل، لأنه تكذيب للقرآن الكريم ولما أجمع عليه المسلمون..." إلى أن قال السائل: "إذن يجوز قتله في هذه الحالة؟" فأجاب الشيخ: "إذا لم يندفع ضرره إلا بذلك، وهذا ضرر عظيم لأنه تكذيب للقرآن الكريم، فإذا لم يندفع إلا بهذا وصار هذا الرجل داعية إلى هذا الإلحاد والكفر فإنه يجب قتله، لأنه مرتد والمرتد يجب قتله" (فتاوى نور على الدرب، الشريط ٥٥ الوجه أ) وقال كذلك: " هذا القول ليس بصحيح أن أصل الإنسان قرد ، واعتقاده كفر لأنه تكذيب للقرآن فإن الله تعالى بين أن خلق الإنسان أصله من طين بخلق آدم عليه الصلاة والسلام وهو أبو البشر ، ثم جعل الله تعالى نسله من سلالة من ماء مهين ، والقرود المعروفة هي من جملة فصائل المخلوقات الأخرى ، فهي مخلوقات نشأت هكذا لطبيعتها أنشأها الله تبارك وتعالى على هذه الصفة ، كالحمير والكلاب والبغال والخيل والإبل والبقر والغنم والظباء والدجاج وغيرها ، ولا يجوز لأحد ، بل لا يجوز لدولة مسلمة تنتمي إلى الإسلام أن تقرر هذا في مدارسها ، بل يجب عليها أن ترفع ذلك من المدارس" (المصدر السابق).
وسئل العلامة صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله هذا السؤال: " فضيلة الشيخ بارك الله فيكم: ظهر في الآونة الأخيرة على شاشات الفضائيات من يقال عنهم أنهم من أهل فقه وعلم يقولون بأن آدم عليه السلام ليس أول الخلق من البشر بل هناك بشر قبله ولكن الله اصطفاه عليهم ، وأن له أبا وأما، وأن حواء لم تخلق من ضلع آدم ، فما رأيكم في ذلك؟"

من الجهة الأخرى في نفس الوقت؟ هنا يتفتق ذهن الدكتور مصطفى محمود عن فكرة القول بالتفوقف، أو على الأقل تسويغ الخلاف في المسألة (أي بين الدراونة وخصومهم)! ولا شك أن المتوقف في إكفار من يكذب صريح القرآن كافر مثله! فلا يجوز القول بالتوقف في هذه المسألة، ولا يجوز القول بتسويغ الخلاف كذلك للعلة نفسها!

والذي يغفل عنه التطوريون القائلون بخلق الإنسان خلقا مستقلا كما تواترت به النصوص وأجمع السلف على اعتقاده (أي ليس من نسل نوع آخر)، أنهم بذلك يتناقضون منهجيا تناقضا صارخا! فإن أدلة ارتقاء البشر من القردة العليا عند الدراونة، هي نفس نوعية الأدلة التي استند إليها القوم في إثبات ارتقاء كافة الأنواع الأخرى! فإما أنك ترى أن العلم يحصل من تلك الطريقة في الاستدلال (من حيث المبدأ) في قضايا الخلق والنشأة، وعلى هذا الأساس قبلت بما قبلت به من دعاوى تطور الأنواع كلها من بعضها البعض، وإما أنك لا ترى تلك الطريقة في الاستدلال تصلح في هذه البابة أصلا وإذن فيلزمك

فأجاب: " هذا كفر والعياذ بالله، هذا كفر وإلحاد، تكذيب لقول الله-جل وعلا-أن الله خلق آدم من تراب، خلقه بيده، خلقه من تراب، وليس له أب ولا أم، وأخبر أنه خلق حواء منه ((وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا..))، خلق منها زوجها يعني: خلق حواء من آدم، فالذي ينكر هذا يكون كافرًا بالله-عز وجل-مرتد عن الإسلام، نعم." اهـ. (المصدر: فتوى للشيخ مفرغة على موقع سحاب، على الرابط:
https://www.sahab.net/forums/index.php?showtopic=118159،
دخل عليه في ٢٩ ربيع الآخر، ١٤٣٨ من الهجرة.

رد النظرية بكليتها، من غير تفريق بين أصل آدم وأصل غيره من الأنواع! فإن أجاب بأنه يرفض القول بترقي آدم من نوع سابق عليه لأن النصوص الصحيحة في الإسلام فيها ما يخالف ذلك، فقد لزمه أن يقبل ما جاءت به النصوص في غير آدم من الأنواع كما قبلها في آدم وذريته! فإن قال إن النصوص في غير آدم تحتمل التأويل، بخلاف النصوص في أصل آدم، قلنا هذه دعوى باطلة لا تصح، لأن التأويل بالتطور والتحسين لا قائل به أصلا من المسلمين، وفيه ما فيه من طعن على رب العالمين كما تقدم بيانه!

يقول الدكتور مواصلا شقشقته: "فيه فرقتين! فرقة تقول لك: الإنسان حكمه حكم بقية الخلائق، أيضا مستنبط من سلالات سابقة، وجيه بالتطور! وفرقة تقول لك: لأه الإنسان ده بدء مطلق، وكل واحد عنده حججه!" اهـ. قلت: وهنا نسأل الدكتور سؤالا يكشف تناقضه المنهجي، فنقول: هذه الفرقة الثانية التي تقول إن آدم خلق خلقا مستقلا، ما نوع المستند الذي تستدل به لموقفها المخالف في أصل آدم بالأخص؟ فإن قلت النصوص الدينية، قلنا لك فليس النزاع إذن بين فرقتين من أهل صناعة واحدة يرجعون إلى نفس النوعية من الأدلة في الإثبات والنفي، وإنما هو نزاع بين أصحاب النصوص الدينية إجمالا من جهة، وأصحاب الأقيسة والنظريات الطبيعية من الجهة الأخرى! وإن قلت إنهم يستندون إلى أدلة "علمية" (يعني من نفس الصنف الذي يتعلق به من زعموا أن البشر قد تطوروا عن نوع متقدم عليهم)، فقد كذبت ولا شك لأنه ليس عند الطبيعيين ما يدعوهم للتفريق بين آدم وغيره، وقد رأوا فيما بينه

وبين أنواع القردة نظير ما رأوه فيما بين الأنواع الأخرى ، من مشاهدات تجريبية تأولوها كلها على وجه واحد دون تفريق!

والعجيب أن الدكتور نفسه يقسم الفريقين المذكورين إلى من سماهم "بالجماعة التطوريين" ومن سماهم "بالجماعة التانيين" في المقابل! فمن هم الجماعة "التانيين" هؤلاء إن لم يكونوا قائلين بالتطور (وهو لازم جعلهم قسماء "للجماعة التطوريين")؟ وفي أي صنعة من صناعات العلوم يكون الخلاف مستساغا بين فريقين يستند كل واحد منهما إلى نوعية من الأدلة لا يقبلها خصمه؟ هذا من أعجب العجب!

قال الدكتور:

> الجماعة التطوريين يقولوا لك: اللّٰه! يا أخي ما الإنسان تركيبه التشريحي زي القرد، لدرجة إنك تلاقي .. إيه .. ومش بس زي القرد، دا أنت تبص تلاقي كل عظمة في الإنسان لها نظيرها في القرد والأرنب والحمامة ومش عارف إيه! حاتلاقي بردو هنا (يشير إلى ذراعه) الهيوميروس، هي بردو في القرد الهيوميروس وفي الحمامة الهيوميروس، حتى الجناح بتلاقيه عبارة عن عظم الذراع بردو، بس طلع له ريش وحاجات بالشكل ده! أو مثلا تلاقي الفيمر والفيبيولا والتيبيا والحاجات دي وتلاقي الخريطة التشريحية بتاع الشرايين والأوردة، نفس الشريان تلاقيه بردو في القرد وتلاقيه في الحمامة

> والأرنب والضفدعة والجمل والبهيمة و... إيه .. التشابه التشريحي كامل. وبعدين الأجهزة! تلاقي جهاز السمع والبصر وتلاقي ال.. الجهاز التناسلي والجهاز البولي والجهاز الهضمي، كلها تركيبها واحدة، لما الواحد يبتديها من عند الصرصور لغاية ما نوصل للقرد والإنسان، نلاقي الخطة واحدة والقوانين الفسيولوجية واحدة، ونبص نلاقي الجنين في بطن أمه يعيد المراحل دي كلها وييجي في مرحلة يبقى له ديل وبعدين الديل ينكمش ومرة يبقى له شعر مغطي جسمه والشعر ينحسر، وشوفنا المخ في الجنين بيبتدا بتلات فصوص وبعدين خد تطوره وحظه لغاية ما وصل في التسعة أشهر إلى كماله. فاااا ... اللّٰه! ده خلاص! ده الجماعة التطوريين!

قلت: فهذا كلام الدكتور في تصوير موقف التطوريين وبيان السبب في كون الأمر عندهم في آدم كما في غيره بلا تفريق! فعندما يأتي بالجواب عنهم ممن سماهم تمويها "بالتانيين" (وهم في الحقيقة اللاهوتيون الطبيعيون النصارى)، تراه يأتي بجواب يلزم منه إسقاط التطور كله جملة واحدة، لأنه رد على منطق الاستدلال نفسه! يقول الدكتور:

> الجماعة التانيين يردوا عليهم رد مفحم، ورد كويس جدا! يقولوا لهم واللّٰه التشابه يدل على وحدة الصانع لكن ما يدلش على استنباط الأشياء من بعضها البعض! زي إيه؟ مثلا: لما ناخد وسائل

المواصلات! نلاقي إن العربية الكارو والحنطور والتروماي والأتوبيس والطيارة كله مبني على فكرة العجلة والموتور وكله معمول من مادة واحدة: خشب، وحديد وجلد! فهل معنى كده، إن الشيفروليه طلعت من الكارو؟ تطورت من الكارو؟ والا الحاجات دي كلها نشأت كأفكار مستقلة في ذهن المخترع؟ كل حاجة منها طلعت مستقلة؟ فإذن التشابه ما يدلش! التشابه ما يدلش! يدل على وحدة الصانع! وإذا كانت الحياة كلها معمولة من نفس المادة، التراب والطين ونفس العناصر، لدرجة إن كلها لما تتحرق تبقى فحم سواء كان نبات أو حيوان أو إنسان، فدي معناها وحدة الصانع وليس معناها إن ده طلع من ده طلع من ده!

قلت: فالأصل الذي يرجع إليه أصحاب الرد كما ترى هو أن التشابه لا يدل على وحدة الأصل بالضرورة، وهذا صحيح قطعا. ولكن من قال بذلك الأصل، فقد لزمه إسقاط الاستدلال بمطلق التشابه في جميع دعاوى النظرية بشأن أصول الأنواع كلها، لا في مسألة آدم بخصوصها! ومع ذلك، يتغافل الدكتور هذا المعنى الواضح لأنه لا يعجبه، ويختزل الرد في مثال سخيف لمسألة "وحدة الصانع" التي يقول أصحاب ذلك الرد بها، ثم يأتي برد الداروينيين على المثال ليتم له ما يريد إظهاره من أن المسألة عويصة ودقيقة فلا قطع فيها ولا حسم، فيقول:

التانيين لهم رد! يقول لك: اللّه! طيب إحنا ما بنشوفشي في الشيفروليه بقية من العربية الكارو! إنما في الإنسان بنلاقي فيه بقية، من أسلافه! بنلاقي عضلات ودان مثلا تليفت، من أيام ما كانت ودن الحمار بتعمل كده وكده، فكان فيه عضلات، العضلات نلاقيها في الإنسان هنا: واحدة فوق وواحدة ورا، تليفت! أو نلاقي الزائدة الدودية اللي كانت في الأرنب طول كده بقت قد كده .. إلى آخره، اللي بيسموها الفيستيجيال أورغانز Vistigial Organs، أو الأعضاء المنقرضة! فوجود أعضاء منقرضة جوه الإنسان يدل على إن له تاريخية!

قلت: من الواضح جدا أن جهل الجاهل بوظيفة العضو ليس حجة ولا دليلا على عدمها في نفسها (عدم العلم لا يعني العدم)! ومع ذلك يصر الدراونة على ادعاء العيوب والنقائص في خلق المخلوقات، وأن فيها "بقايا" من أعضاء كانت في سلفها، و"زوائد" وكذا، مستندين في جميع ذلك إلى جهلهم ودهريتهم التي جعلوها هي الأصل في تأويل كل شيء وتفسير كل شيء! وعلى الرغم من شناعة هذه الدعوى عند كل مسلم سليم القلب، تأمل كيف يتلقاها الدكتور تلقي القول العلمي المعتبر الجدير بالنظر، و"بالنقاش الكبير"، فيقول:

طبعا ده نقاش كبير، لأن التانيين بيردوا يقول لك: هي مسألة إن فيه عضو، والعضو منقرض وما لوش وظيفة ده مسألة مش صحيحة،

وإن ما فيش شيء نقدر نقول عليه بدون وظيفة في الإنسان، وكلام كتير وكلام كتير وكلام كتير! كل واحد عنده حجة وبراهين، لكن للإنصاف لازم نقول إن ما فيش حد منهم يحتكر الحقيقة! والمسألة ما زالت لغز! ولا يملك العلم البت في الموضوع دهوه، كما أن آيات النشأة كما جاءت في القرآن حمالة أوجه، يعني تحتمل أكثر من وجه من وجوه التفسير!

قلت: وهنا بيت القصيد! "العلم" لا يملك البت في الموضوع، طيب لماذا لا يأتي البت في أصل الموضوع نفسه من النصوص الصحيحة التي ندين الله بنسبتها إلى الوحي الإلهي؟ أوليست علما عندك؟ يقول: لا، بل هي ظن وليست علما، لأن القرآن حمال أوجه ولن يحسم المسألة! فتأمل دجل وتخليط الجهمية، عندما يلتمس أحدهم تأصيلا كليا يغلق به الباب أمام النصوص الشرعية فيما هو فيه بالكلية، هكذا "بجرة قلم" كما يقولون، فيجعلها ظنا ويجعل زبالة الفلاسفة هي القطع المنصرم في نفس الأمر! فهي شنشنة نعرفها من هؤلاء من يوم أن ظهر التجهم في أهل قبلتنا والله المستعان! يعتنق أحدهم النظرية الميتافزيقية الضخمة صاحبة السيادة الأكاديمية في عصره كيفما كانت، ثم إن قوبل بمصادمتها القرآن، قال بكل وقاحة: لا تأتينا بالقرآن لأنه حمال أوجه! فإن قلنا له: طيب نأتيك بالسنة؟ قال: لا تأوتني بها لأنها آحاد أو لأن في سندها نظرا! فإن قلنا: طيب نأتيك بما أجمع المحدثون على صحته من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أبدا، لا إجماع،

وما يدريكم أنهم أجمعوا؟ فإن قلنا إن القول الذي تزعمه لا قائل به قبلك في فهم كلام الرب وكلام رسوله أصلا، والأمة لا تجمع على ضلالة، قال: أنتم تحتكرون الحقيقة، وما المانع من أن يكونوا قد أخطأوا أو فاتهم نقل الخلاف؟ هم رجال ونحن رجال! وهكذا إلى غيرما نهاية، وكأن الله تعالى ما قال في محكم التنزيل: ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [الحجر : 9]، بل وكأن الدين لم يختم والرسالة لم تتم أصلا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

والخلاصة بعد كل هذه الشقشقة التي أوردها الدكتور على أنها جدل علمي عميق وطويل لا ينحسم:

> فالباب مفتوح للاجتهاد ولا داعي للشجار لأن ربنا أمرنا! هو سبحانه وتعالى أمرنا: قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق! معناها إن المسألة فيها نظر ومعناها إن فيه شرعية كاملة للبحث في هذا الموضوع، مهما شطح بيك التفكير، ومهما أدت بيك الشواهد والاستقراءات، وفي النهاية زي ما قلت، لا تحجير على العلم في الإسلام، ولا تحجير على البحث ولا باباوية ولا كهانة، وبهذه الروح، اللي هي روح عشق الحقيقة، وعشق العلم، والفناء للوصول إلى الصدق بجميع الوسائل، هي دي روح الإسلام، وده اللي نحب نطلع بيه من هذه الحلقة.

قلت: بل روح الإسلام يا دكتور هي التوحيد، ومن التوحيد توحيد الاتباع، ومن توحيد الاتباع صدق الانقياد لرسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم والتسليم بما جاء به الكتاب والسنة وما أجمع الصحابة والسلف الأول على أنه هو فهمهما الصحيح! ومن صدق الإسلام والانقياد ومن روح هذه الملة، أن يحمل المسلم نفسه على قبول الحق الذي جاء به الرسول مهما خالف به الناس ومهما اتهموه أو سفهوه، ومهما وجد في نفسه كراهة له! ومنه كذلك ألا نخترع في دين اللّٰه من التفاسير والتأويلات للكتاب والسنة ما لا سلف لنا به! فلسنا نقول بكهانة (ولعله يقصد: كهنوت) ولا بابوية ولا تحجير على البحث إن قررنا أن هذه النظرية (نظرية التطور المزعوم) باطلة أصلا وفرعا، وأن من اعتقدها فقد طعن على رب العالمين وخالف صريح الكتاب والسنة وإجماعات السلف! وإنما نقول بالعلم الصحيح المستقيم منهجا وطريقة، الذي لا يماري العاقل المتجرد في كونه هو العلم، وخلافه هو الجهل والخرافة! وبناء على هذا العلم الصحيح نفسه لا على غيره، ترانا نقطع الطريق أمام عبث الطبيعيين الدهرية وأذنابهم من جهمية العصر بعقائد المسلمين، بتغليق ذلك الباب الذي فتحه الدكتور بقوله " فالباب مفتوح للاجتهاد ولا داعي للشجار"! ليس عندنا شجار يا دكتور ولكن عندنا إنكار على المخالف، لأن هذا العلم عندنا دين واعتقاد، فما أخبرنا اللّٰه به ورسوله في قضية خلق الأنواع فهو الاعتقاد الحق الذي لا مزيد عليه عندنا، الذي نرى وجوب اعتقاده على المسلمين، ولا نفهمه إلا كما فهمته القرون من أئمة المسلمين، وصولا إلى تلامذة الرسول عليه

السلام، والحمد لله رب العالمين! فمن جاءنا بخلاف ذلك فهو الجاهل الغوي وإن كان من أعلى الناس منزلة في أكاديميات العلوم الطبيعية، وهو مطالب بالتوبة والرجوع عما يقول إن أراد النجاة في الآخرة، لا أن نكون نحن المطالبين "بمناقشته" فيما معه نقاشا "علميا" مهما "شطح به التفكير"! بالله هل هذا كلام عقلاء أصلا: "إن فيه شرعية كاملة للبحث في هذا الموضوع، مهما شطح بيك التفكير، ومهما أدت بيك الشواهد والاستقراءات" اهـ.؟ هذه والله ما يقولها طالب علم في أي صنعة من صناعات المعارف التي يرجى منها نفع للناس، وإنما يقولها متنطع صاحب هوى لا يبالي على أي عقيدة يهلك هؤلاء "الباحثون"! وقد بينا ولله الحمد بما نرجو أن تحصل به الكفاية، أنه لا شرعية أصلا في دين الله تعالى للبحث الطبيعي أو التجريبي في تلك القضايا، وأن ذلك المذهب بدعة من بدع جهمية العصر لا يجوز لمن فهم دينه حق الفهم وفهم نظريات الطبيعيين وطرائقهم في الإثبات والنفي وأصول فلسفاتهم الدهرية، أن يقرها أو يجيز للمسلمين الخوض فيها أصلا!

والخلاصة التي نحب نحن أن نخرج بها من التعليق على كلام الدكتور الطويل في تلك الحلقة من برنامجه "العلم والإيمان"، أن نبين للقارئ الكريم كيف يصطنع الجهمي لنفسه دينا على هواه، يوطن نفسه عليه بحيث يسلم به (فيما يرجو) من اتهام الأكاديميين الدهريين الكبار في زمانه بالجهل وخفة العقل و"التقليد في الإيمان" (الذي هو عبارة المتكلمين عن اتهام الفلاسفة أهل الدين "بإيمان السفهاء"!) من جانب، ومن اتهام عامة المسلمين إياه بالردة

والإلحاد من الجانب المقابل! فالجهمي في الحقيقة ليس إلا رجلا قرر أن يدخل في الإسلام على شروطه، لا على ما كان عليه أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بالضرورة، لأنه يكره أن يكون مؤمنا كعامة المؤمنين، بل يحب أن يكون مؤمنا مخصوصا متميزا بعقله ونظره والطريقة التي بها "وصل" إلى هذا الإيمان، والله المستعان!

ولهذا لا يكون إيمان الجهمي إيمانا صحيحا ولا يقينا منصرما أبدا مهما زعمه لنفسه، لأن الله جل شأنه هو أغنى الشركاء عن الشرك، سبحانه وتعالى وتقدس، ولا يقبل في أهله وخاصته إلا من رضي بإخضاع نفسه وتذليلها لما جاء به الرسول غاية الإخضاع والتذليل! قال تعالى ((فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً)) [النساء : ٦٥] وقال جل شأنه: ((قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [آل عمران : ٣١] وأما هؤلاء فما أخضعوا أنفسهم إلا على هوى أنفسهم وبشروطها فيما يقبلون وما يذرون مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يتبعوه حق الاتباع، فمضت فيهم سنة الله تعالى وحكمه بأن يتقلبوا في الضلالة والبدعة وألا يؤمنوا كما آمن الصالحون الخلّص الذين وفقهم الله بفضله ومنته لحسن الاتباع وتقفي الأثر! وأما من تعاظم فيهم برأسه بين الناس، وابتلي بالنباهة وحسن البيان وبالقدرة على المجادلة والمخاصمة وشقشقة الكلام، فإن الله يأبى – من بغضه له - إلا أن يصيره رأسا للبدعة والضلالة، حتى يأتي يوم

القيامة مأزورا بوزره وأوزار الذين اتبعوه في الدنيا ممن لا يحصيهم (بل ولا يفرح بشيء كما يفرح بازديادهم وكثرة سوادهم في الناس!)، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا، نسأل الله السلامة والعافية!

قال الدكتور في كتابه "حوار مع صديقي الملحد" تحت عنوان "موقف الدين من التطور" (ص. ١٢٢):

"قال صاحبي: موقفك اليوم سيكون صعبا، فعليك أن تثبت أن خلق الإنسان جاء على طريقة جلا جلا.. أمسك الخالق قطعة طين ثم عجنها في يده ونفخ فيها فإذا بها آدم.. وهو كلام تخالفك فيه بشدة علوم التطور التي تقول إن صاحبك آدم جاء نتيجة سلسلة من الأطوار الحيوانية السابقة وأنه ليس مقطوع الصلة بأفراد عائلته من الحيوانات وأنه والقرود أولاد عمومة يلتقون معا في سابع جد.. وأن التشابه الأكيد في تفاصيل البنية التشريحية للجميع يدل على أنهم جميعا أفراد أسرة واحدة.

قلت وأنا أستعد لمعركة علمية دسمة: دعني أصحح معلوماتك أولا فأقول لك أن الله لم يخلق آدم على طريقة جلا جلا.. ها هنا قطعة طين ننفخ فيها فتكون آدم.. فالقرآن يروي قصة مختلفة تماما عن خلق آدم، قصة يتم فيها الخلق على مراحل وأطوار وزمن إلهي مديد والقرآن يقول أن الإنسان لم يخرج من الطين مباشرة، وإنما خرج من سلالة جاءت من الطين. (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) ١٢ المؤمنون، وأن الإنسان في البدء لم يكن شيئا يذكر:

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) ٢١ – الإنسان. وأن خلقه جاء على أطوار (ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا) (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) ١١- الأعراف. (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق باشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) ٧١ – ٧٢ ص. معنى ذلك أن هناك مراحل بدأت بالخلق ثم التصوير، ثم التسوية ثم النفخ.. "ثم" بالزمن الإلهي معناها ملايين السنين. (إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ٤٧ – الحج." اهـ.

قلت: تأمل في هذا الكلام مليا لترى كيف نشأت الجهمية الداروينية المعاصرة، كما نشأت جميع الجهميات قبلها، وحتى ترى نوع الأهواء التي أفرزتها كما أفرزت غيرها. فالرجل لما سبقت إلى نفسه الفتنة العظيمة بنظرية داروين واستدلالات أصحابها، لم يجد مخرجا من ذلك السخف الذي يتهمنا به الملحدون، إلا بأن يقول إن قصة خلق آدم التي جاء بها الوحي في الإسلام، هي بعينها قصة ترقي البشر المزعومة في نظرية داروين! فما علينا إلا أن نستخرج الآيات ذات الصلة من المصحف، ثم نتأولها بذكاء حتى نبين أنها إنما تفيد بما يوافق النظرية لا بما يخالفها! لا عليك بما عند علماء التفسير وعلماء اللغة، ولا بما فهمه الصحابة والسلف من تلك الآيات، ولا عليك بما في السنة وبما أجمع عليه المسلمون، بل ولا بما هو معلوم من الدين بالضرورة، كل ذلك لا عليك به ولا تشغل به بالك! هذا فهم أناس لم يقفوا على ما وقفنا عليه اليوم من "العلم" بالتطور الدارويني! ألست تجد في الآيات لفظة

"أطوارا"؟ فهذا هو التطور الدارويني! ولعله من إعجاز القرآن!! ألست تجد فيها لفظة "سلالة"؟ فهذه هي سلالات الهومينيد قبل البشر، وهي تلك الأطوار! فإذا سألتني ما الطين الذي جاء صريحا أن آدم خلق منه؟ قلت لك الأمر سهل! هذا هو الطين الذي خلقت منه الخلية الأولى (كيميائيا)، التي أخذت تمر "بالأطوار" و"السلالات"، عبر ملايين السنين (كما يفهم من اللفظة "ثم" في الآيات)، حتى ظهر بنو آدم في نهاية المطاف!

فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل! هكذا، وبكل سهولة يهجم على معلوم من الدين بالضرورة، ألا وهو خلق الله تعالى آدم عليه السلام، أول البشر، من قبضة من الطين اللازب، فيقلب ذلك العلم رأسا على عقب، ويُتقرمط على جميع النصوص ذات الصلة، حتى يقال بتلك الزندقة التي يعدها الجهمي الغالي دفاعا عن الإسلام ودرءا لشبهة التعارض بين الدين والعلم، والله المستعان! بدلا من أن يقال في الرد إن هذا الكلام السمج السخيف الذي فاه به الملحد ليس إلا عدوانا على غيب مطلق لا يجد العقل إليه طريقا بأيما نوع من أنواع القياس، وحكما بامتناع أن يكون حادث خلق أول إنسان (ذلك الحادث المغيب تغييبا مطلقا كما تقدم، ولا نظير له في عادتنا البتة حتى يقاس عليه) على ما جاء وصفه في نصوص المسلمين، وكأن الذي خلق البشر هذا لابد وأن يكون خاضعا في جميع ما يصنع وما يبدع لقوانين البيولوجيا والفيزياء والكيمياء التي كان هو من خلقها، فلا يخلق شيئا بالاستحالة إلا جريا على تلك الطبائع التي نعلمها ولا نصنع نحن ما نصنع إلا باستعمالها وخضوعا لسننها،

ولا نرى تغيرا وراثيا في الأنواع الحية إلا جاريا عليها في العادة، بدلا من أن يسفه ويسخف هذا الكلام كما هو حقه، وتسقط الخرافة الداروينية عقلا من مبدأ النظر ومنطق الاستدلال فيها، كما هو حقها أن تسقط، يؤتى بالقرآن نفسه ثم يؤول تلك التأويلات الباطنية الفاسدة، فرارا من التهمة بالجهل ومخالفة العلم. وإذن تصبح المعركة العلمية الدسمة المزعومة هذه، معركة بالداروينية ضد علماء المسلمين كافة، بدلا من أن تكون نقضا لأصل الداروينية وإنزالها منزلها الذي تستحقه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! قد بسطنا الكلام على تلك التأويلات الجهمية الفاسدة في قضية خلق آدم عليه السلام وأطلنا النفس فيها في كتاب "معيار النظر" فلتراجع هنالك، والله الهادي.

رحلته إلى فلسفة تناسخ الأرواح الهندوسية!

وبالرجوع إلى كتابه الذي نحن بصدد نقده وتحليله (كتاب "رحلتي من الشك إلى اليقين")، نجد الدكتور يواصل كلامه في ص. ٢٥ عن الروح فيتكلف اختراع برهان فلسفي جديد لإثبات وجودها وجودا مستقلا عن الجسد وعن وجود المادة المحسوسة، فيقول (ص. ٢٦ – ٢٧):

> وتقودنا عملية الإدراك إلى إثبات أكيد بأن هناك شيئين في كل لحظة .. الشيء المدرك، والنفس المدركة خارجه. وما كنا نستطيع إدراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمني المستمر. ولو كان إدراكنا يقفز مع

عقرب الثواني كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثواني أبدا.. ولا نصرم إدراكنا كما تنصرم الثواني بدون أن يلاحظ شيئا. وإنه لقانون معروف إن الحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها. لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها في الفلك نفسه.. وإنما لابد لك من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها.. ولهذا تأتي عليك لحظة وأنت في أسانسير متحرك لا تستطيع أن تعرف هل هو واقف أم متحرك لأنك أصبحت قطعة واحدة معه في حركته.. لا تستطيع إدراك هذه الحركة إلا إذا نظرت من باب الأسانسير إلى الرصيف الثابت في الخارج. وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكن يمكنك رصدها من القمر أو الأرض.. كما أنه لا يمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها وإنما تستطيع رصدها من القمر. وهكذا دائما.. لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا خرجت خارجها ولاحظتها كموضوع. وأنت إذ تدرك مرور الزمن لابد أن تكون ذاتك المدركة خارج الزمن. وهي نتيجة مذهلة تثبت لنا الروح أو الذات المدركة كوجود مستقل متعال على الزمن ومتجاوز له وخارج عنه.

قلت: من جديد، وعلى عادة أهل الكلام وطريقة الجهمية في كل عصر، يتكلف الدكتور قياسا ميتافزيقيا متنطعا في المغيبات المحضة، مدعيا أنه سيصل بذلك إلى "إقناع" الفلاسفة الدهرية ومن لف لفهم بوجود ما يريد إثبات وجوده من الموجودات الغيبية التي لا تثبت إلا من طريق الفطرة أو من طريق

السمع أو من طريقهما جميعا دون غيرهما، كما هو الشأن في مسألة وجود "الروح"! فيبدأ بتقرير ما هو معلوم بداهة من مباينة الشيء المدرِك (بكسر الراء) للشيء المدرَك (فتح الراء) كمقدمة أولى (أي كونهما حقيقتين خارجيتين منفصلتين)، ثم يقول في المقدمة الثانية إن الزمان "شيء مدرَك" (بفتح الراء)، وإذن فلابد – كنتيجة - أن تكون النفس التي تدركه منفصلة عنه ولا يجرى عليها (وهذه مغالطة محضة كما سيأتي)، وإذن يثبت استقلال الروح عن المادة وعن الجسد (الذي هو حقيقة بدهية كما تقدم)!

ووجه كون ذلك القياس من المغالطة ومن نطاعة الفلاسفة الميتافزيقيين، أن قوله في المقدمة الثانية بفصل النفس المدركة عن الزمان المدرك، فيه قياس للذهنيات على الأعيان الخارجية (وهي مصيبة المصائب عند الفلاسفة كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في نقضه عليهم، وكما بيناه في عدة مواضع من نقدنا لمتجهمة العصر)، إذ يجعل الزمان "شيئا مدركا" (هكذا)، ومن ثم يدخله بقياس الشمول تحت القاعدة الكلية المجملة التي قررها بإجمالها في قوله: "بأن هناك شيئين في كل لحظة .. الشيء المدرك، والنفس المدركة خارجه"! ووجه الإجمال أن "الشيء" قد يطلق ويراد به معنى مجرد في الذهن، وقد يطلق ويراد به معينا من الأعيان في الخارج، واللفظة تشملهما جميعا! والزمان يطلق ويراد به معنى تتابع الأحداث (أيا ما كانت تلك الأحداث) وما يعبر به في لغات البشر عن ذلك التتابع! ولا شك أن التتابع أمر يدركه الإنسان وتدركه القوة العاقلة في روحه، بترتيب الأحداث والوقائع

المدركة بعضها على بعض. ولكن هذا لا يعني خروج النفس المدركة (صاحبة فعل الإدراك) عن أن توصف بتتابع الزمان عليها، فيكون لها حال ماضية وأخرى حاضرة وأخرى مستقبلة، كما هو الشأن في جميع الموجودات المتعينة في الخارج بالضرورة! ذلك أن الشيء الذي يخرج عن معاني الزمانية أو يفصل عن "الزمان" هذا لا يقال فيه إنه كان أو إنه كائن أو أنه سيكون، ولا أنه فعل في الماضي أو يفعل الآن أو سيفعل في المستقبل، لأن هذه كلها تعبر عن أحوال الشيء الموجود التي هي ملازمة لوجوده، فإذا رفعت عنه تلك المعاني الثلاثة، فلم تكن له حال لا ماضية ولا حاضرة ولا مستقبلة، فلا يصح له وجود في الخارج أصلا، وهذا واضح! أي أن الشيء المدرك على هذا التصور الذي قرره الدكتور، شيء معدوم أصلا!

وهذا ما نرد به على طوائف المتكلمين الذين زعموا أن اللّٰه تعالى لا يوصف بصفات الزمان، فلا يقال إنه فعل كذا في الماضي ولا أنه سيفعل كذا في المستقبل إلا تجوزا لأنه هو خالق الماضي والمستقبل، إذ حقيقة هذا القول ومقتضاه الواضح أنه عدم لا وجود له، أو أنه جماد أو موات لا يوصف بصفات الذوات من فعل وإرادة وكذا، سبحان اللّٰه وتعالى علوا كبيرا!

فقول الدكتور: "وما كنا نستطيع إدراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمني المستمر." قلت: هذا الكلام محض تلبيس، لأن المرور الزماني هذا ليس عينا خارجية ينفصل عنها

ما سماه الدكتور بالجزء المدرك فينا، وإنما هو تتابع للحوادث التي تتعرض لها الموجودات الداخلة في إدراك النفس، بما في ذلك إدراكها لنفسها وتتابع أحوالها وانتقالها هي نفسها من حال إلى حال! فلا معنى أصلا لفصل أي موجود خارجي عن ذلك "المرور الزماني المستمر"! وكذلك قوله: "ولو كان إدراكنا يقفز مع عقرب الثواني كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثواني أبدا.. ولانصرم إدراكنا كما تنصرم الثواني بدون أن يلاحظ شيئا. وإنه لقانون معروف إن الحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها." فنحن نقول: أولا: ما معنى "إدراكنا يقفز مع عقرب الثواني كل لحظة"؟ ما معنى هذا الفرض الذي يلزم من انتفائه ثبوت ما يريد (بزعمه)؟ هل يقصد أن إدراكنا في تلك الحالة التي سماها، ينمحي فيه العلم بالماضي في كل لحظة، فلا ينبني لدينا الإدراك الحاضر على ما أدركناه في الماضي ولا ما ندركه في المستقبل عليهما جميعا؟ هل هذا هو المقصود "بقفز" الإدراك "مع عقرب الثواني" كل لحظة؟ إن كان هذا هو المقصود فهذه حالة مرضية يعاني منها بعض الناس: أنهم ينسون الماضي القريب ولا يدركون تتابع الأحداث المحيطة بهم، ومع هذا فلا يوصف إدراك من عداهم من الناس إلا بمثل ما يوصف به إدراكهم هم من كونه له ماض وحاضر ومستقبل كما هو الشأن في كل موجود متعين في الخارج!

ولا يخفى ما في قول الدكتور "وإنه لقانون معروف أن الحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها" من استرضاء للفيزيائيين بالإشارة إلى مبدأ النسبية الذي وضعه

غاليليو غاليلي في القرن السابع عشر الميلادي، وأحب الدكتور – على ما يبدو - أن يحشره في "برهانه" لإضفاء الصبغة "العلمية" على الكلام! ولم يدرك الدكتور أنه بهذا يزيد المغالطة التي بيناها آنفا ثبوتا على كلامه، إذ المبدأ المذكور مداره على الأجسام الفيزيائية المتحركة، والزمان ليس جسما فيزيائيا متحركا، ولا حتى عند النسبانيين الأينشتاينيين القائلين بتعين ما يسمى بالزمكان خارج الأذهان! فالزمكان في كوزمولوجيا هؤلاء ليس جسما متحركا، وإنما هو الشيء الوجودي الذي يحوي بداخله كل أحداث الكون على امتداد تاريخه من أوله إلى آخره! فحتى الحيلة التي أراد الدكتور أن يحشر بها مبادئ الفيزياء في كلامه لا تنفعه في شيء ولا توصله إلى ما يريد! فقول الدكتور: " وهكذا دائما.. لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا خرجت خارجها ولاحظتها كموضوع. وأنت إذ تدرك مرور الزمن لابد أن تكون ذاتك المدركة خارج الزمن." باطل مبني على باطل!

ولا يخفى كذلك أن القول بعدم إمكان الإحاطة (الرصدية أو العلمية أو كذا) بأي شيء – هكذا – إلا بالخروج خارجه، فيه من إطلاقات الفلاسفة ما لا يقبلون هم لوازمه إن ألزمناهم بها! وإلا فهل يقبلون منا أن ننهاهم عن تكلف التنظير في هيئة العالم وشكل الكون حتى يتمكنوا من رصده من خارجه؟ وهل يقبلون منا دعوتنا إياهم للكف عن ادعاء أن الأرض تجري وتدور حول الشمس، حتى يتمكنوا في يوم من الأيام من الخروج عن الأرض وعن المجرة نفسها والتماس

حدود الكون ليقيسوا إليها أي الجرمين هو المتحرك بالنسبة إلى جو السماء وأيهما هو الثابت على الحقيقة؟ من الواضح أنهم لا يقبلون!

ونقول إن في هذه "النتيجة المذهلة" كما وصفها الدكتور، بقية واضحة من عقيدة الحلول الهندية التي غرق فيها الدكتور في شبابه ثم حاول الخروج منها. وذلك في كونه ينسب للروح صفة ينسبها الوثنيون الهنود لذات الرب التي يعتقدون حلولها في جميع المخلوقات، وأنها هي الوعي أو الروح الكامنة في جميع المخلوقات الواعية، وفي الكون بأسره من أوله إلى آخره، ألا وهي "اللازمانية"، أو الانفكاك عن جريان الزمان الذي "يتوهمه" البشر في إدراكهم اليومي! فالكون عندهم أزلي أبدي على هذا الاعتبار (أنه لازماني)، وهو الإله نفسه عندهم على هذا الاعتبار أيضا! فهم يسمون الرب بالوعي اللازماني أو المستقل عن الزمان: Timeless Consciousness، الذي هو مصدر كل وعي في كل إنسان واع، وهو الروح التي تحرك كل متحرك! فالوعي البشرى عند الوثنيين هو الإله أو هو المألوه على الحقيقة The Divine، الذي يمكن بممارسة بعض الرياضات النفسية والجسمانية كاليوغا ونحوها، أن يصفي الرجل ذهنه إلى حد يوصله للاتصال بذلك الوعي اللازماني (ولا يتصل بهم في الحقيقة إلا شيطان يلبس عليهم دينهم)! ومن تلك الفلسفة الوثنية نفسها دخل الاعتقاد على النصارى بأن الروح المودوعة في البشر إنما هي جزء من ذات الرب أو صفة من صفاته!

والمقصود باللازمانية هو عين ما قرره الدكتور ها هنا من صفات مزعومة للروح البشرية حتى يثبت وجودها في الخارج فلسفيا، ألا وهو الزعم باستقلال الشيء الموصوف بأنه "لازماني" عن الترتيب الزماني المعروف للحوادث وانفصاله عنه أو خروجه عليه! وكثير من طوائف المتكلمين من أهل القبلة كالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرهم ينسبون هذا المعنى الفاسد لرب العالمين، أعني معنى "اللازمانية"، وهو قولهم "لا يحيط به الزمان ولا المكان"، ولا يُسأل عنه "بمتى" ولا "بأين"، على حد عبارتهم!

ثم يقول الدكتور مؤسسا على تلك "النتيجة المذهلة":

> فها نحن أولاء أمام حقيقة إنسانية جزء منها غارق في الزمن ينصرم مع الزمن ويكبر معه ويشيخ معه ويهرم معه (وهو الجسد)، وجزء منها خارج عن الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا فهو لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم.. ويوم يسقط الجسد ترابا سوف يظل هو على حاله حيا حياته الخاصة غير الزمنية.. ولا نجد لهذا الجزء اسما غير الاسم الذي أطلقته الأديان وهو الروح.

قلت: صحيح إن الجسد يهرم ويشيخ ويبلى و"يسقط ترابا" بمر الزمان، ولكن غاية علمنا عن الروح أنها قد خلقها الله خلقا مخصوصا، فلا تفنى بموت الجسد في الدنيا وإنما تنتقل إلى عالم البرزخ فتنعم أو تعذب بحسب حال صاحبها، ثم تبعث يوم القيامة بجسد جديد. فقول الدكتور إن الروح لا تهرم ولا تشيخ هو

منه رجم بالغيب، قد تورط فيه بسبب قوله بأن الروح لها حال خاصة "غير زمانية"! ولو أنه أدرك لوازم زعمه باللازمنية هذه لعلم أنه يلزمه نفي مخلوقيتها أصلا لأن المخلوقية حدث ماض مما تمر به تلك الروح في تاريخها، وهو بدايتها في الزمان، فنفي الزمان عنها يلزم منه نفي الماضي في حقها، وإذن فهي أزلية لا بداية لها كما أنها أبدية لا نهاية لها، ولا تاريخ لها ولا يقال في شيء إنه حدث لها أو سيحدث لها! ولهذا تجد تلك المقالة عند الهندوس وأصحاب وحدة الوجود والاتحاد والحلول كما بينا آنفا، لأن الروح عندهم (أو الوعي الفائق كما يسمونه) هي الرب نفسه الحالّ في العالم الأزلي القديم، أو جزء من الرب الذي هو قديم لا بداية له!

وعلى طريقة الفلاسفة، وبعدما قدم الدكتور لنفسه بإثبات تلك العين الخرافية الممتنعة عقلا بالطريق الذي يرجو أن يرتضيه منه كبار فلاسفة العصر، يأتي ليقول: "ولا نجد لهذا الجزء اسما غير الاسم الذي أطقلته الأديان، وهو الروح"! فمن نزق الفلاسفة وكبرهم وغرورهم أنك ترى الواحد منهم يأتي إلى الغيبيات المحضة ويتنطع عليها بالنظر والقياس ليبني لنفسه نظرية فيها، ثم بعدما يؤسس اعتقاده على تلك النظرية، ينظر من برجه العاجي إلى "الأديان" ويقول: لعل هذا الذي يسمونه كذا وكذا هو ما أثبته أنا! هذا إن وجد فيها ما يوافقه، وإلا أبطل الأديان وأسقطها على رؤوس أصحابها ولم يبال!

ولا شك أن قول الدكتور "المطلق أو المجرد" كمرادفات "للروح"، يكشف وثنية الأصل الذي انطلق منه في تأسيس هذا البرهان كما تقدم!

ونحن نقول لمن أعجبه ذلك البرهان المتنطع: إن العلم بوجود الروح واستقلالها عن الجسد علم بدهي فطري لا يحتاج إلى إثبات، ومن كذب به فهو مكابر لا يناظَر ولا يجادَل، كما أننا لا نتكلف نصب البراهين "لإقناع" أحدهم بوجود الشمس فوق رأسه! هذه واحدة! وأما الثانية فنذكر القارئ بقول الله تعالى: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : ٨٥]، فصفة الروح هذه غيب محض لا طريق للعلم به إلا السمع وحده!

ويواصل الدكتور تنطعه بتقرير أن إدراك الجمال وحرية الاختيار وإدراك الحق والعدل وقياس الأشياء بمعيار منفصل عن الحادث يدل على وجود الروح. ونقول: أليست حياة الإنسان الحي بجميع وجوهها دليلا كافيا على وجود الروح يا دكتور؟ من أنكر وجود الروح فقد أنكر العقل والنفس والحياة التي تسري في جسده، ولا يناظر هذا ولا يجادل أصلا، تماما كما هو الموقف ممن أنكر وجود الباري جل وعلا!

ثم يفلسف الدكتور سبب غفلته عن الموت هو ومن كان على شاكلته عن الموت بكون الروح لا تموت، فيقول: "وحينما نعيش حياتنا لا نضع اعتبارا للموت ونتصرف في كل لحظة دون أن نحسب حسابا للموت.. وننظر للموت

وكأنه اللامعقول .. فنحن في الواقع نفكر ونتصرف بهذه الأنا العميقة التي هي الروح والتي لا تعرف الموت بطبيعتها". اهـ (ص. ٢٨) قلت: هذا رجم بالغيب وقول بلا علم! وهو من أثر الوثنية الهندية أيضا، لأنهم هم من يقولون بتناسخ الأرواح وبأن الروح لا تعرف إلا هذا العالم، وهي كامنة فيه أبد الدهر تتقلب من جسد إلى جسد! وإلا فمن أين للدكتور بأن الروح لا تعرف الموت (بطبيعتها)؟ هذا كذب على الله تعالى! أليس قد قال الله: ((كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ)) الآية [آل عمران : ١٨٥]؟ ألم يقل الرب جل وعلا: ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)) [الأعراف : ١٧٢]؟ فنحن قد أشهدنا الله تعالى على وحدانيته وأعلمنا بأنها تذوق الموت وبأن صاحبها يبعث ويحاسب! فالروح التي هي مستقر الفطرة التي أودعها الله فينا ونحن في عالم الذر، فيها المعرفة بالموت "بطبيعتها"! وإنما يدفن الجاهلون والغافلون تلك الفطرة تحت جهلهم وغفلتهم دفنا، فتزيغ قلوبهم عنها!

ثم يقول الدكتور:

> أما الموت كفناء وكعدم فهو أمر لا تعرفه (يعني الروح)، فهي أبدا ودائما كانت في حالة حضور وشخوص.. إنها كانت دائما هنا. إنها الحضرة المستمرة التي لم ولا يطرأ عليها طارئ الزوال. وكل ما سوف يحدث لها بالموت أنها سوف تخلع الثوب الجسدي الترابي.. وكما

يقول الصوفية تلبس الثوب البرزخي.. ثم تخلع الثوب البرزخي لتلبس الثوب الملكوتي.. ثم تخلع الثوب الملكوتي لتلبس الثوب الجبروتي.. كادحة من درجة إلى درجة ارتفاعا إلى خالقها.. كل روح ترتفع بقدر صفائها وشفافيتها وقدرتها على التحليق .. على حين تتهابط الأرواح الكثيفة إلى ظلمات سحيقة وتنقضي عليها الآباد وهي تحاول الخلاص.

قلت: تأمل عمق الحمأة الصوفية الوثنية التي غرق فيها الدكتور ولم يقدر على التخلص منها ولا حول ولا قوة إلا بالله! قوله: "الروح كانت دائما وأبدا حاضرة"، فأي موجود هذا الذي يوصف بأنه كان دائما وأبدا حاضرا، من الأزل وإلى الأبد، ولا يطرأ عليه الزوال، إن لم يكن وجود رب العالمين نفسه تبارك وتعالى؟ هذه بقايا عقيدة الوثنيين سواء من الهنود أو من الصوفية القبورية في وحدة الوجود! وأما كلامه عما سماه "بالثوب الملكوتي و"الثوب الجبروتي" فمأخوذ من خرافة الصوفية القبورية بشأن ما يسمونه بالعوالم الخمسة (عالم الناسوت، ثم عالم الملكوت، ثم عالم الجبروت، ثم عالم اللاهوت ثم عالم "الهو") وهي عوالم خرافية باطنية مأخوذة عند الصوفيين من فلسفة القبالة اليهودية ومن فلسفات الوثنيين الهنود. وإلا، فأين في مصادر المسلمين من الكتاب والسنة ذلك الترتيب الخرافي الذي يحكيه الدكتور وكأنه حقيقة ثابتة لا شك فيها؟! أما قوله: "كادحة من درجة إلى درجة ارتفاعا إلى خالقها.. كل روح ترتفع بقدر صفائها وشفافيتها وقدرتها على التحليق .. على حين تتهابط الأرواح

الكثيفة إلى ظلمات سحيقة وتنقضي عليها الآباد وهي تحاول الخلاص"، فهذه عقيدة الهندوس فيما يلحق بالروح البشرية بعد الموت!

والرجل كما ترى لم يورد آية واحدة من كتاب الله تعالى ولا حديثا واحدا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو لم يبلغ حتى أن يكون على طريقة أهل الكلام في هذه المسألة، إذ يتفلسف الواحد منهم فلسفته ثم يتكلف إخضاع النصوص الشرعية لها! وإنما هي هذرمة فارغة من أولها إلى آخرها بكلام ما أنزل الله به من سلطان، فيه عجين من عقائد باطنية وفلسفات وثنية كان الرجل غارقا فيها إلى حقويه، وهو مع ذلك يظن أن عقله هو الذي قاده إلى الهداية وصحة الاعتقاد في تلك القضايا الغيبية المحضة، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! وأنا أسأل كل قارئ منصف يقرأ هذا الكلام الآن: هل هذه طريقة رجل يريد الهداية حقا؟ هل هذه طريقة من يرجو النجاة من بضاعة الفلاسفة التي كان غارقا فيها آنفا، والرجوع إلى حظيرة أتباع المرسلين؟ أبدا! وإنما هي نفسها لجاجة الفلاسفة التي لا تروج بضاعة "المفكر" بين أقرانه كما يشتهي إلا بمثلها! أم تراك تريد منه الآن أن يكتفي بإيراد النصوص الشرعية في كل موضوع من تلك الموضوعات، من الكتاب وصحيح السنة، ثم يسوق معها شرحها وفقهها عند أئمة السنة، ويقتصر عند ذلك؟ محال! لا يكون له وجه عند الفلاسفة والمفكرين حتى يأتيهم بمثل هذا الذي ترى، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والملفت أنه أدرك عند هذا الحدّ أنه قد أغرق في الهذيان، وفي الخوض والتخليط في قضايا ما أنزل اللّٰه بها من سلطان، فقال في الفقرة التالية مباشرة:

> وأترك الصوفيين لمشاهداتهم حتى لا نضيع معهم في التيه، وليس هدفي من هذه الدراسة عبور حاجز الموت لمعرفة ما وراءه، فهذا طمع في غير مطمع ورغبة في مستحيل، ويكفيني أن أقف بالقارئ ليتأمل نفسه ويكتشف ذاته المعيقة الحاكمة الآمرة المتعالية على جسده الترابي.. تلك التي أسميتها الروح.. والتي استدللت عليها بأبلغ دلالة: بشعور الحضرة التي يشعر بها كل منا في داخل نفسه، تلك الحضرة المستمرة التي لا يطرأ عليها طارئ الزوال ولا تهب عليها رياح التغير وكأنها العين المفتوحة داخلنا على الدوام.

قلت: إن كان هذا الذي سقته من كلام الصوفيين هو عندك مما يضيع به المرؤ في التيه، فكيف وبأي عقل وبأي ضمير سقته للقراء يا دكتور، مساق الكلام الصحيح الذي يعتبر به في المعرفة بالروح وأحوالها وما يكون من أمرها بعد الموت؟ وبأي دين قررته على أنه حق؟ أما أن هذا نحوه عندك هو من الحقائق التي تعرف بمعزل عن الدين؟! وإن كنت حقا ترى أن "عبور حاجز الموت" لمعرفة ما وراءه طمع في غير مطمع ورغبة في مستحيل، ففي أي شيء أنت إذ تقول ما قلت وتسطر ما سطرت؟ المسألة عندك إذن لعب وعبث، ولا حول

ولا قوة إلا بالله! لا يهم ما نعتقده نحن المسلمون في أمر الروح وما يجري عليها بعد الموت، المهم أن نسلم بوجودها بأيما طريق كان، وبأنها بائنة من الجسد المادي حاكمة عليه! فكأن الله ما بعث رسلا ولا أنزل كتبا ولا شيء من ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

ثم يرجع الدكتور لمزيد من الشقشقة الوثنية فيقول (ص. ٢٩):

> ذلك الصحو الداخلي، ذلك النور غير المرئي في نفوسنا والذي نرى على ضوئه طريق الحق ونعرف القبح من الجمال والخير من الشر، تلك العتبة التي نرصد من فوقها حركة الزمن وندرك مروره.. ونرى مرور الأشياء وندرك حركتها. تلك النقطة في داخل الدائرة، المركز الذي تدور حوله أحداثنا الدنيوية الزمنية وهو شاخص في مكانه لا يتحرك ولا ينصرم له وجود. الروح.. حقيقتنا المطلقة التي هي برغم ذلك لغز، هل الروح أبدية؟ أو أن لها زمنا آخر ذا تقويم مختلف.. اليوم فيه بألف سنة؟ وما العلاقة بين الروح والجسد؟ وما العلاقة بين العقل والمخ؟ وما العلاقة بين الذاكرة والتحصيل واستظهار العلوم؟ إنه موضوع آخر له شرح يطول!

قلت: إن صح أن كانت الروح هي التي يعرف على ضوئها طريق الحق ويعرف بها الخير من الشر، فما فائدة الرسل والأنبياء إذن وبأي شيء بعثوا في الناس يا دكتور؟ يقينا لم يبعثهم الله بألغاز ولا بأحاجي ولا بطلاسم مبهمات، ومن

اعتقد ذلك فقد كفر! بل بعثهم بالحق الكامل والهداية التامة والعلم الكافي الذي لا مزيد عليه في أمر الغيب وما فيه! ولكن مشكلة الفيلسوف أيها القارئ المحترم أنه لا يقنع بما جاء به الرسول ولا يكتفي، بل وقد لا يكترث به أصلا، مهما كان حريصا على إثبات نسبته للدين وأهله! ذلك أنه لو فعل، فلن يتخذ لنفسه مادة إضافية يبرز بها على عامة أهل الدين بين أيدي أقرانه من الفلاسفة، ويظهر لهم بها أن إيمانه ليس إيمانا "عاديا" وليس كإيمان العوام الجهلاء! كيف يعد الدكتور مصطفى محمود من جملة المفكرين الكبار والفلاسفة النظار، إن لم يأت لنفسه بشيء كهذا يسود به صفحات مؤلف من المؤلفات، حتى يقال بعدئذ: "تأملوا كيف ينتصر المفكر الكبير للدين بعدما هداه عقله للحكم بأنه هو الحق"؟! لابد أن يكون لديه "شرح يطول" لكل تلك الأسئلة التي تشغل الفلاسفة من أقرانه، بصرف النظر عما إذا كان قد جاء في بعضها وحي أو نص شرعي أو لم يجئ!

قد حدثنا الرسول عليه السلام فيما جاءت به دواوين السنة عما يجرى للروح عند الموت، فهل فكر الدكتور ولو لوهلة في استخراج ما في السنة من ذلك حتى يسوقه إلى الناس على أنه العلم التام المنصرم الذي لا يرام غيره في هذه المسألة؟ أبدا! لماذا؟ لأنه يكره أن يقال إنه قد سلم لتلك النصوص كتسليم غيره من الناس، ويحب أن يتخذ لنفسه بضاعة فلسفية متقدمة على تلك النصوص، تكون هي مدخله لقبول ما يقبل منها ورد ما يرد! وقد تبين لك هذا المنهج عنده بجلاء بعدما وضع برهانه الفلسفي المتنطع لإثبات انفصال

الروح عن مادة الجسد، ثم خرج منه بقوله: " ولا نجد لهذا الجزء (يعني الذي أثبته) اسما غير الاسم الذي أطلقته الأديان وهو الروح"! فهل تعد نفسك من أهل الأديان يا دكتور، أم تراك تقف في موقف فكري وتقوم في مقام تنظيري متقدم على الدين نفسه؟ هذه هي القضية! الفيلسوف (والمتكلم معه) يريد أن يظهر بين أيدي الأقران على أنه صاحب "نظرية" و"برهان عقلي" هو الذي انتهى به إلى هذا الإيمان، وإلا فلا قدم له بينهم ولا وجه! يجب أن يكون صاحب نظرية في العلاقة بين الروح والجسد، وصاحب نظرية في العلاقة بين العقل والمخ، ونظرية في العلاقة بين الذاكرة والتحصيل واستظهار العلوم، وغير ذلك مما خاض فيه الفلاسفة مخاضهم، ويجب أن يكون لديه دلو كبير وشرح طويل في جميع ذلك، لأنه إن لم يكن لديه ذلك ونحوه، يصطنعه بعقله اصطناعا على طريقة الفلاسفة، فبأي شيء يحرز لنفسه الدرجة والمنزلة المأمولة بين كبار الفلاسفة و"المفكرين" في عصره؟ هذه هي الآفة وبيت الداء أيها القارئ الكريم فتأمل!

بعد هذا التخليط العريض في أمر الروح، يأبى الدكتور إلا أن يضع بابا مستقلا لمزيد من التفلسف في هذه الحقيقة الغيبية المحضة التي قال الله فيها لرسوله صلى الله عليه وسلم: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : ٨٥]! فهل أوتيت أنت يا دكتور من العلم بشأن الروح ما لم يؤته رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي خاطبه رب العالمين في القرآن بهذا الخطاب؟ سبحان الله العظيم! يبدأ الدكتور باب

"الروح" في كتابه بتكلف برهان قياسي جديد لإثبات أن الروح هي محل الذاكرة من الإنسان وليس الجسد أو المخ! فهل هذا البرهان مطلوب أصلا؟ أبدا! ذلك أن صبية المسلمين يعلمون علما ضروريا أن ذاكرة الإنسان وعلمه واعتقاداته وكل ذلك يرتحل معه إلى الدار الآخرة، فيُسأل أولا في قبره بعد الموت، ثم يسأل ويحاسب يوم العرض، وهو في جميع ذلك يذكر من كان وما صنع وما كان منه في الحياة الدنيا! ونصوص الشريعة مستفيضة في هذا المعنى.

قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ((فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)) [غافر : ٤٤] وقال تعالى: ((يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ)) [الأنعام : ١٣٠] وقال تعالى: ((وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) [فصلت : ٢١]، فهم يعلمون بمصداق ما شهدت بهم عليهم جلودهم كما هو واضح، وقال تعالى: ((وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)) [إبراهيم : ٢١]، وقال تعالى: ((قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)) [غافر : ١١] وقال تعالى: ((فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ)) [الملك : ١١] وقال تعالى: ((وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ

اتَّخِذُوني وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)) [المائدة : ١١٦] وغير ذلك في معناه كثير! فلو كانت "الذاكرة" محلها الجسد الذي يفنى بالموت، لكان هلاك الجسد بالموت هلاكا للنفس والعلم والذاكرة ولكيان الإنسان نفسه، وهذا واضح!

ومع ذلك يتكلف الدكتور إثبات هذا المعنى الجلي من طريق العلوم التجريبية التي يحب الانتساب إليها، فيقول: "إذا كانت الذاكرة هي مجرد طارئ مادي يطرأ على مادة الخلايا فينبغي أن تتلف الذاكرة لأي تلف مادي مناظر في مادة الخلايا المخية، وينبغي أن يكون هناك تواز بين الحادثين، كل نقص في ذاكرة معينة لابد أن يقابله تلف في الخلايا المختصة المقابلة.. وهو أمر لا يشاهد في إصابات المخ وأمراضه.. بل ما يشاهد هو العكس" اهـ.!

ثم يقول: "وهذا دليل على أن وظيفة المخ ليست الذاكرة ولا التذكر". ويضيف: "فإذا أصيب المخ بتلف.. يصاب النطق بالتلف ولا تصاب الذاكرة لأن الذاكرة حكمها حكم الروح ولا يجرى عليها ما يجرى على الجسد. التوازى مفقود بين الاثنين مما يدل على أننا أمام مستويين (جسد وروح) لا مستوى واحد اسمه المادة." اهـ. (ص. ٣٦) قلت: فهل يحتاج المسلمون إلى ذلك العبث، حتى يعرفوا أن أرواحهم إذا قبضت ثم بعثت في جسد جديد، بقيت معهم ذاكرتهم؟ أبدا! وإنما أراد الدكتور أن يتخذ من آلة النظر التجريبي طريقا لإثبات ما يريد، لأنه

يرجو لكتابه أن يوصف في النهاية بأنه كتاب "علم" وليس كتاب "دين"! والعلم عنده وعند من يعاني تلك الفتنة إنما هو العلم التجريبي بالأساس! ولا ينتبه الدكتور إلى أن مسلكه هذا يقحم آلة النظر التجريبي فيما ليس لها اقتحامه من قضايا الغيب أصلا! فليس لباحث من الباحثين التجريبيين أن يقول: لقد حاولت رصد الروح فلم أر شيئا! أو يقول: قد وجدت الإنسان لا يفقد شيئا من وزنه في لحظة الموت وإذن فلا شيء يفارق جسده أصلا! وكذلك فليس له في المقابل أن يقول كما قال الدكتور: وجدنا بالبحث التجريبي أن الذاكرة لا تتأثر بالتلف العضوي تأثرا متناسبا مع ذلك التلف بالضرورة، وإذن فلابد أن تكون الذاكرة في الروح لا في الجسد! ذلك أن الروح غيب محض، وليست من موضوعات البحث التجريبي، وإنما يعرف ما يمكن اكتساب العلم به من أمرها من طريق السمع وحده! لا نثبت في أمرها شيئا ولا ننفيه إلا بالنص!

ولو أن الباحث التجريبي المخالف أراد الاعتراض بنفس طريقة الاستدلال أمكنه ذلك ولا إشكال، لأنه ما من شيء أسهل على الطبيعيين من اختراع الافتراضات التفسيرية في أمور الغيب المحض، التي تخضعها برمتها لأيما قياس يراه أحدهم أليق بمنظومته الاعتقادية الطبيعية المادية، تماما كما ينتقي الرجل لنفسه نعلا يليق بلون سرواله وقبعة تناسب لون قميصه! فعلى سبيل المثال، لو قال أحدهم في الرد على الدكتور: إن عدم التناسب المذكور هذا ليس دليلا على وجود ذلك الكيان الغيبي الفائق للمادة الذي يزعمه أهل الأديان بالضرورة، وإنما الأقرب للطريقة التجريبية أن نعتبره دليلا على

خصيصة معينة في مادة أنسجة المخ أو كيمياء المخ أو نحو ذلك مما لم نكتشفه بعد (مع رجاء اكتشافه في يوم من الأيام)، لو أنه قال ذلك، فبأي شيء يجيب الدكتور حينئذ، وأي نوع من الجدال هذا الذي يفتحه على نفسه وبأي شيء يرجو أن يخرج منه؟ سفسطة في سفسطة وعبث في عبث، ورمي في عماية، وعدوان على الغيب عظيم، لا يريد صاحبه منه إلا أن يظهر بين أقرانه من أهل تلك الصناعة المعظمة لديه، وكأنما يقول لهم: "ها أنا ذا، أنظر كما تنظرون وأستدل كما تستدلون"!

ثم يقول الدكتور، في مزيد من التنطع والفلسفة على أمر الروح (ص. ٣٨):

> وبالمثل شخصيتنا.. نولد بها مسطورة في روحنا.. وكل ما يحدث أن الواقع الدنيوي يقدم المناسبات والملابسات والقالب المادي لتفصح هذه الشخصية عن خيرها وشرها.. فيسجل عليها فعلها. والتسجيل هو الأمر الجديد الذي يتم في الدنيا. الانتقال من حالة النية إلى حالة التلبس. وهذا ما تعبر عنه الأديان بأن يحق القول على المذنب بعد الابتلاء والاختبار في الدنيا.. فتحق عليه الضلالة وتلزمه رتبته. وهو أمر قد سبق إليه علم الله.. علم الحصر لا علم الإلزام.. فالله لا يلزم أحدا بخطيئة ولا يقهره على شر.. وإنما كل واحد يتصرف على وفاق طبيعته الداخلية فيكون فعله هو ذاته.. وليس في ذلك أي معنى من معاني الجبر.. لأن هذه الطبيعة الداخلية هي التي

نسميها أحيانا الضمير وأحيانا السريرة وأحيانا الفؤاد ويسميها الله "السر" "يعلم السر وأخفى".. ونقول في تعبيراتنا الشعبية عند الموت "طلع السر الإلهي" أي صعدت الروح إلى بارئها.. هذا السر المطلسم هو ابتداء حر ومبادرة أعتقها اللّه من كل القيود ليكون فعلها هو ذاتها وليكون هواها دالا عليها.

قلت: كلام فارغ لا قيمة له، وفيه من التخليط ما فيه! فأولا: ما هي الشخصية؟ كلمة مجملة تحتاج إلى تفصيل! وثانيا: كيف عرفت أنت يا دكتور أننا نولد بها (أيا ما كانت) مسطورة في روحنا؟ وأين جانب التربية والاكتساب والتطبع والتدرب والتهذيب .. إلخ، التي يسميها النفسانيون بالتغذية Nurture؟ وثالثا: ما معنى "التسجيل هو الأمر الجديد الذي يتم في الدنيا"؟ وهل الفعل الذي يسبق "التسجيل" أمر قديم أو يتم في غير الدنيا مثلا؟ ورابعا: ما معنى الانتقال من حالة النية إلى حالة التلبس؟ وهل "نوايا" جميع أفعالنا تكون مركبة فيما يسميه الدكتور بشخصيتنا التي هي بدورها "مسطورة في روحنا"؟ هذيان فوق هذيان ما أنزل اللّه به من سلطان! وخامسا: قوله: " وهذا ما تعبر عنه الأديان بأن يحق القول على المذنب بعد الابتلاء والاختبار في الدنيا.. فتحق عليه الضلالة وتلزمه رتبته." قلت فهذا جهل مستقل! فأنت يا دكتور ما شأنك "بالأديان" (هكذا)، إن كنت حقا قد انتقلت من الدهرية والضياع الفلسفي إلى الدخول في دين الإسلام؟ ما شأن قارئك المسلم بما تقوله الأديان في تلك المسألة، ولماذا تعرضه عليه؟ ثم إنه لم ترد عبارة "فيحق القول على

المذنب" هذه ولا ما في معناها إلا في الإسلام، فلماذا قلت الأديان ولم تقل الإسلام؟ هو إذن تكثير من أجل التكثر لا غير! ثم إن هذه العبارة لا علاقة لها بالمعنى الذي تريده أصلا يا دكتور! وإنما وردت عبارة "يحق القول" أو "حق القول" في عدة مواضع في القرآن، بيانها كالتالي:

قوله تعالى: ((وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) [السجدة : ١٣]، والمراد منها في هذا الموضع: سبق القول مني (أي الحكم على الثقلين بأن تملأ منهم جهنم) وقوله تعالى: ((لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)) [يس : ٧]، والمراد: وجب لهم العذاب بما كذبوا بالحق بعدما جاءهم، وقوله تعالى: ((لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)) [يس : ٧٠]، والمراد: لتقوم عليهم الحجة التي يعذبون بها في الآخرة، وقوله تعالى: ((وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)) [الإسراء : ١٦]، والمراد: استحقت العذاب والتدمير بما كسبت أيدي مترفيها! وقوله تعالى: ((قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)) [القصص : ٦٣]، والمراد: الذين حق عليهم العذاب! وقوله تعالى: ((فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ)) [الصافات : ٣١]، والمراد: فاستحققنا ما توعدنا به ربنا من العذاب (نسأل الله السلامة)! وقوله تعالى: ((أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ)) [الزمر : ١٩]، والمراد: من استحق العذاب لغيه وإصراره على الإعراض عن الحق، فلا سبيل دونك لإنقاذه! وقوله

تعالى: ((وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)) [فصلت : ٢٥]، وكذا قوله تعالى: ((أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)) [الأحقاف : ١٨]، والمراد: أولئك الذين ثبت في حقهم الخسران واستحقاق العذاب من أمم الإنس والجن الخالية، وأما "حقت عليهم الضلالة" فجاءت في قوله تعالى: ((فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)) [الأعراف : ٣٠]، والمراد: وفريقا عملوا من الأعمال ما استحقوا به الضلالة،

والقصد أنها تأتي في القرآن بعدة معان بحسب السياق، كلها تدور حول ثبوت استحقاق العذاب من شدة الإغراق في العصيان والإعراض، وكون ذلك مكتوبا في تقدير الله تعالى على هؤلاء من قبل أن يخلقوا، فأين في تلك المعاني ما يفهم منه ما عبر عنه الدكتور بقوله: "الانتقال من حالة النية إلى حالة التلبس"، أو يؤخذ منه أن الكافر شخصيته مطبوعة في روحه وأن فيها نية كل عمل باطل، أو نحو ذلك من كلام فلسفي ساقط؟ إنما يحق القول على الذين كفروا أنهم من أصحاب النار، من إفراطهم في الغي وإعراضهم عن الحق بعدما تبين، لا من مجرد انتقال معاصيهم "من حالة النية إلى حالة التلبس"! وكلام الدكتور في الحقيقة فيه شبه من كلام الوعيدية الذين يوجبون إنفاذ الوعيد على الله تعالى! نعم قد كتب الله على كل نفس سعادتها أو شقاءها من قبل

أن تخلق، ولا يأتي أحدنا بفعل ولا باختيار إلا وقد كتبه الله لنا من قبل، ولكن ما العلاقة بين ذلك والروح يا دكتور؟ والسؤال الأهم، وبعيدا عما تسميه "بالشخصية"، هو من أين يؤتى بتقرير أي صفة من صفات الروح إن لم يكن من صريح الكتاب والسنة؟ ليس بنا حاجة لأمثال تلك القرمطات والتأويلات الباطنية، ولا نجيزها في دين الله تعالى ولله الحمد!

خامسا: قوله " وهو أمر قد سبق إليه علم الله.. علم الحصر لا علم الإلزام.." فليس عند العلماء تقسيم العلم إلى هذين النوعين، ولا يعرف ذلك عند أحد أصلا، وإنما هو من شقشقات الدكتور! ما معنى "علم الإلزام" هذه؟ العلم يدخل فيه معنى الحصر، لكن ما علاقته بمعنى الإلزام (على وجه الجبر الذي يقصده الدكتور)؟ نحن المسلمون أهل السنة والجماعة عندنا أن القدر له أربعة مراتب: أولها أن الله علم كل شيء قبل خلقه، وأن المكلف لا يستحق العقوبة على ذلك العلم السابق قبل أن يقع الذنب منه وإنما يستحقها على وقوع الذنب، وإذن يتحول علم الله في حقه من علم سابق لا يستحق به الجزاء، إلى علم لاحق بوقوع ما يستحق به الجزاء تحقيقا، وهو ما قال فيه تعالى نحو قوله ((ليعلم الله من يخافه بالغيب)) الآية. والمرتبة الثانية أن نؤمن بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى قيام الساعة ((ما فرطنا في الكتاب من شيء)) الآية، والمرتبة الثالثة أن نؤمن بأنه لا يقع شيء في العالم إلا بمشيئة الله تعالى، بما في ذلك مشيئة كل مخلوق حر ذي مشيئة واختيار ((وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)) [التكوير : ٢٩]، وبأنه تعالى على

كل شيء قدير، والمرتبة الرابعة أن نؤمن بأنه خالق كل شيء يجري في هذا العالم، يخلقه كما كتبه وكما علمه من قبل جل وعلا، بما في ذلك أفعال العباد ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)) [الصافات : ٩٦] فلا يجري في العالم شيء إلا هو خالقه سبحانه. هذه عندنا قضية عقيدة وليست مسألة للنظر والتأمل!

والظاهر أن الدكتور خاف على نفسه من التلبس بالجبر من أثر ذلك الإفراط الواضح في أمر الروح وما يكون "مخزونا" فيها بزعمه، فقال: " علم الحصر لا علم الإلزام.. فالله لا يلزم أحدا بخطيئة ولا يقهره على شر.. وإنما كل واحد يتصرف على وفاق طبيعته الداخلية فيكون فعله هو ذاته.. وليس في ذلك أي معنى من معاني الجبر.." قلت: فما معنى "يكون فعله هو ذاته"؟ لا معنى لها! فأي شيء كان يضير الدكتور لو أنه تكلف - ولو لمرة واحدة - النظر في كتب أهل العلم بعقيدة أهل السنة لينقل كلامهم الصافي المستقيم الذي لا لبس فيه ولا خطل؟ أنت طبيب بشري ولك دراية في الطب، ولا تجرؤ على القول فيه بغير مرجع، فبأي شيء أقدمت على التأليف في عقائد المسلمين، وفي الكلام عن القدر والجبر والتخيير؟ وأين سلفك ومرجعك في تلك القضية الخطيرة التي تعلم أن الفلاسفة قد ضلوا فيها ضلالا بعيدا؟ لا شيء، لا كتاب ولا سنة ولا كلام العلماء ولا شيء، وإنما شنشنة الفلاسفة وهذرمة المتصوفة من كل صنف ولون، وإلى الله المشتكى! ولو أنه قال: كل إنسان يتصرف على وفق طبيعته وشخصيته وإرادته، فلا يأتي من الأفعال على أي

حال، إلا بما علمه اللّٰه وكتبه وشاءه ثم خلقه، لوافق أهل السنة! أما قوله "فيكون فعله هو ذاته" فسفسطة لا معنى لها!

سادسا: قوله "وليس في ذلك أي معنى من معاني الجبر.. لأن هذه الطبيعة الداخلية هي التي نسميها أحيانا الضمير وأحيانا السريرة وأحيانا الفؤاد ويسميها اللّٰه "السر" "يعلم السر وأخفى"" قلت: وهنا يبلغ الدكتور مبلغا من التخليط عظيما، إذ يروم عجن وصهر جملة كبيرة من الألفاظ الشرعية المتباينة في بوتقة واحدة حتى يوحي للقارئ بأن الروح هي كل ذلك وأكثر، فهي السر العظيم الذي تدركه عقول الماديين! سلمنا بأن هذه "الطبيعة الداخلية" التي يتكلم عنها الدكتور هي ما نسميه أحيانا بالضمير، فأين في ذلك الذي قرره ما ينفي معنى الجبر؟ ثم سلمنا بأنها هي السريرة، بل وبأنها هي الفؤاد، فكان ماذا؟ أما السريرة فما يكتمه الإنسان ولا يظهره لأحد، وأما الفؤاد فمرادف للقلب، والقلب ليس هو الروح وليس جزءا منها، وإنما هو محل للتعقل والتفكر والإيمان والتقوى وغير ذلك مما ثبت له بنصوص الكتاب والسنة، الذي هو بدوره جزء من الأعمال المرتبطة بالروح بصورة ما أو بأخرى. وأما السر في الآية فالمراد به ما يحدث به الإنسان نفسه، فقوله "يسميها اللّٰه السر" كذب على اللّٰه تعالى لأن المراد بها ليس "الطبيعة الداخلية" على المعنى الفلسفي المطاط غير المحرر الذي يدور حوله الدكتور!

سابعا: قوله: "هذا السر المطلسم هو ابتداء حر ومبادرة أعتقها اللّٰه من كل القيود ليكون فعلها هو ذاتها وليكون هواها دالا عليها." قلت: ما معنى "المطلسم" هذه؟ ليس عندنا طلاسم ولا شيء، وإنما عندنا معارف قليلة جاء بها النص الشرعي بشأن الروح وأحوالها، مع السكوت عما سواها، وقطع الطمع في معرفة المزيد كما في قوله تعالى: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)) [الإسراء : ٨٥]! أما قوله "هو ابتداء حر ومبادرة أعتقها اللّٰه من كل القيود"، فالدكتور - على ما يبدو من كلامه – أراد الفرا من الجبر من غير أن ينفي القدر بالكلية، فاختار أن يثبت التقدير الإلهي في الأفعال بعد وقوعها، وينفيه عن النوايا والإرادات التي تكون في النفوس من قبل ذلك، مكتفيا فيها بإثبات العلم الإلهي السابق الذي سماه "بعلم الإحصاء" الكاشف لما في النفوس! ويعضد هذا الذي نقول، قوله "مبادرة أعتقها اللّٰه من كل القيود"! وقوله كذلك "ابتداء حر"، فالنوايا والإرادات وما يكون في مكمن النفس ليس مكتوبا ولا مقدرا عنده، وإنما المقدر والمكتوب هو وقوع الأفعال والمصير الأخروي المترتب عليها! فكأنه يريد أن يصرح باعتقاده خلق العباد أفعالهم بأنفسهم وأن هذا هو المخرج من الجبر، لكنه في نفس الوقت يحاول أن يلتمس طريقا يسلم به من التهمة بنفي القدر!

رحلته إلى القدرية!

ويواصل الدكتور اللجج في تلك المهلكة التي أدخل رأسه فيها فيقول:

ومن هنا لا يصح القول بالحتميات في المجال الإنساني أمثال حتمية الصراع الطبقي والجبرية التاريخية لأن الإنسان مجال حر وليس مسمارا أو ترسا في ماكينة. وكما لا يمكن التنبؤ بما يأتي به الغد في حياة فرد فإنه يستحيل القول بالحتم أو الجبر في مجال المجتمعات والتاريخ.. وكل ما يمكن القول به هو الترجيح والاحتمال بناء على مقدمات إحصائية.. وهو ترجيح يخطئ ويصيب ويحدث فيه التفاوت في طرفيه.. فمعدل عمر الإنسان في إنجلترا مثلا هو ستون سنة.. وهذا المعدل معدل إحصائي مأخوذ من متوسطات أرقام.. وهو غير ملزم بالنسبة للفرد، فقد يعيش فرد مثل برناردشو في إنجلترا أكثر من تسعين سنة ويتجاوز المعدل. وقد يموت في سن العشرين في حادثة. وقد يموت وهو طفل بمرض معد.. ثم إن المعدل ذاته قابل للتذبذب من طرفيه صعودا وهبوطا من سنة لأخرى..فلا يصح القول بالحتمية والجبرية في هذا الموضوع.. ولا يجوز إخضاع المجال الإنساني سواء كان فردا أو مجتمعا أو تاريخا لقالب نظرى أو معادلة أو حسبة إحصائية أو فرض فلسفي.

قلت: قول الدكتور "من هنا لا يصح القول بالحتميات في المجال الإنساني" المفروض أنه مبني على ما قبله. والذي قبله مباشرة هو قوله "هذا السر المطلسم هو ابتداء حر ومبادرة أعتقها الله من كل القيود ليكون فعلها هو ذاتها وليكون هواها دالا عليها"! فما علاقة تلك العبارة الباطنية المبهمة

بالقول "بالحتميات" في المجال الإنساني؟ مسألة الحتمية السببية Determinism هذه من قضايا فلسفة العلوم المعاصرة، وهي مسألة دقيقة وفيها تفصيل، ولا يصح الإقدام عليها بهذا الإجمال! فهو يقول: "لا يصح القول بالحتميات في المجال الإنساني"، فكان لزاما عليه أن يبدأ أولا بوضع تعريف واضح لما يسميه بالحتميات، فضلا عن أن يبين أن المراد بالمجال الإنساني هو العلوم الإنسانية. فإن كان المقصود بالحتمية: اطراد السنن السببية الوجودة التي تحكم العلاقات الإنسانية في المجتمع البشري، بصرف النظر عن مقدار علمنا بما نعلم منها، فلا شك أن الحتمية حق من هذا الوجه، إذ العلاقات الإنسانية تتأثر بالظروف التي تحيط بها تأثرا سببيا لا يخفى، وكذلك يقال في السلوك البشري والإدراك البشري وغير ذلك من موضوعات البحث الإنساني! ولا تعارض بين هذه الحقيقة وبين إثبات حرية الإرادة للنوع البشري! فالإنسان حر في خياره، ولكنه مع ذلك لا يختار ما يختار إلا على أثر جملة من الأسباب، علمها أو لم يعلمها! وأما إن كان المقصود بالحتمية انطباق القانون السببي – أي قانون أو ما في حكمه من أنواع النماذج النظرية - المستقرأ (معرفيا) على كل حالة كما هو بالضرورة، أو إمكان وصول الباحثين في الإنسانيات (أو في الطبيعيات) إلى نماذج ونظريات حتمية، تحصل فيها الإحاطة التامة٦ بجميع السنن السببية الوجودية، بحيث لا يكذب أي تنبؤ يتنبؤون به من تلك القوانين أو النماذج أبدا، فهذا باطل قطعا ولا يجوز لمخلوق أن يطمع فيه أصلا، لأن العلم الكامل لله وحده والإحاطة الكاملة

بجميع الأسباب لا تكون إلا لرب العالمين وحده لا شريك له! وهذا المعنى الأخير للحتمية هو ما يجاب عنه بما ذكره الدكتور من كون النظريات الإنسانية مدارها كلها على الترجيح الاحتمالي والاستقراء الإحصائي، لا على القطع المنصرم، ولهذا لا يمكن "الحتم" بأن يكون كل ما نتوقع سببيته سببا في كل حالة.

ولكن الدكتور في الحقيقة متلبس برأي ثلة من الفلاسفة تدعي أن إثبات أي معنى وجودي للحتمية السببية يقتضي سلب حرية الإرادة من النوع البشري! فلم يجد للدفاع عن حرية الإرادة إلا أن يسقط الحتمية السببية رأسا كما صنعوا، سالكا في ذلك مسلك الإغماض والإبطان الصوفي والإغراق في أسرار وخفايا ذلك الموجود الغيبي العجيب المسمى "بالروح"! وفي الحقيقة فإننا معاشر أهل السنة لا نقبل أن نُنسب إلى مثبتي الحتمية السببية هذه ولا إلى نفاتها، وإنما نستفصل ممن يثبتها وممن ينفيها على السواء، لما فيها من إجمال خطير يجب معه التفصيل. وإلا فالقدر – من حيث المبدأ – فيه معنى من معاني الحتم، إذ نؤمن بأن كل ما كتبه الله تعالى في تقديره فهو واقع حتما لا محالة! وأن كل ما جعله سببا لوقوع ذلك المقدور من طبائع أو سنن سببية ماضية في أنواع المخلوقات فهو أيضا متسبب فيه حتما لا محالة، كما قدر ربنا تعالى وأراد. فإن صح أن تعرف الحتمية السببية تعريفا يقرر هذا المعنى، فهذا اعتقاد المسلمين واعتقاد أهل السنة وبه نقول ولا إشكال.

ومن زعم التعارض بين هذا المعنى الذي حررناه وبين حرية الإرادة والاختيار التي هي مناط التكليف في الإنسان (والتي إن عدمت، آل الأمر إلى الجبر بداهة)، فهو متلبس بنفس الشبهة التي حملت القدرية القدماء أمثال معبد الجهني وغيلان الدمشقي وغيرهما على نفي القدر والقول بأن الأمر أنف! فقد كان من أصول مذهب واصل ابن عطاء المعتزلي الذي ورث القدرية عمن ذكرنا، الزعم بأن حكمة الله وعدله تمنعان من أن "يحتم" على المكلف فعل المعصية ثم يجازيه عليها! فسوى بذلك الكلام الفاسد بين الجبر الذي لا يملك المرؤ فيه اختيارا على الحقيقة (وهو ما يكون الجزاء عليه ظلما بالضرورة)، وبين التقدير الإلهي السابق الذي به يُخلق الاختيار في نفس العبد، وتخلق أسبابه المتقدمة عليه من قبله (وهو معنى لا علاقة له بالجبر ولا تأثير له على حرية الاختيار)! وقد سماهم الرسول عليه السلام بمجوس الأمة لأنهم جعلوا العباد شركاء لله تعالى في صفة الخلق، فكان قولهم شبيها بمقالة المجوس بوجود إلهين أحدهما لا يخلق إلا خيرا والآخر لا يخلق إلا شرا، وشبيها كذلك بمقالة النصارى إذ جعلوا الشيطان هو خالق الشر في العالم، فأنزلوا عليه جزءا من ربوبية الله جل وعلا، وأشركوه بالله في الخلق! ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى كون النصارى والمجوس هما أصل القول بالقدرية في أمتنا، والله أعلم.

فالذي يقول إن الله لا يجوز عليه أن يخلق أسبابا أو أن يجعل في العالم سننا سببية تفضي بصورة حتمية إلى تلبس العبد بالمعصية أو بفعل الشر، ومن

ثم إلى استحقاق العقوبة، فهو قائل بمقالة القدرية مجوس الأمة، متلبس بنفس الشبهة القديمة التي تقدم بيانها! بل الله تعالى يخلق ما يشاء ويختار، ولا يقع في ملكه شيء من الأسباب إلا بمشيئته، بما في ذلك ما يكرهه الرب جل وعلا من أنواع الشرور والآثام، التي نقطع بأن الله ما يخلقها إلا لخير أعظم يترتب عليها في علمه وحكمته، علمه من علمه وجهله من جهله. فقول الدكتور: " وكما لا يمكن التنبؤ بما يأتي به الغد في حياة فرد فإنه يستحيل القول بالحتم أو الجبر في مجال المجتمعات والتاريخ.. " هذا فيه تسوية كما ترى بين معنى "الحتم" الذي لم يحرره الدكتور ولم يتكلف تحريره، وبين الجبر الذي تنفيه القدرية كما ينفيه أهل السنة!

ويتجلى إخراج الدكتور للسلوك الإنساني برمته من نظام الأسباب الكوني في قوله في نفس الكتاب، بعدما أفاض في ذكر الأمثلة على نظام الكون المحكم، ثم أورد اعتراض الدهرية بوجود الشرور والحروب والشناعات في العالم (ص. ٥٠): "وكل ما نرى حولنا في دنيانا البشرية هو نتيجة هذه الحرية التي أسأنا استعمالها. إن الفوضى هي فعلنا نحن وهي النتيجة المترتبة على حريتنا. أما العالم فهو بالغ الذروة في الانضباط والنظام. ولو شاء الله لأخضعنا نحن أيضا للنظام قهرا كما أخضع الجبال والبحار والنجوم والفضاء.. ولكنه شاء أن ينفي عنا القهر لتكتمل بذلك عدالته.. وليكون لكل منا فعله الخاص الحر الذي هو من جنس دخيلته." اهـ. قلت: فقوله "ولو شاء الله لأخضعنا نحن أيضا للنظام قهرا كما أخضع الجبال والبحار والنجوم والفضاء" حقيقته أن أفعالنا

معاشر البشر خارجة عن نظام الكون المحكم وعن سننه السببية المنضبطة، لأن الله لم يرد أن "يقهرنا" تحت ذلك النظام نفسه، وإنما أراد أن يعطينا الحرية! وهذه هي بدعة القدرية القائلين بأن الشر والفوضى ليس من نظام الخلق الإلهي وليس من مفعولات الله تعالى ومخلوقاته، وإنما هو من خلق البشر! فهم يعتقدون أن إخضاع الإنسان وأفعاله لأي أسباب خارجة عن الإنسان نفسه (كقولنا بأن إرادة الإنسان نفسها لها أسبابها المتقدمة عليها الخارجة عنها)، يلزم منه الجبر والقهر على الفعل القبيح، ومن ثم تسقط العدالة الإلهية! ومن هنا قالوا بمثل مقالة المجوس، إذ جعلوا الإنسان خالقا للشر معللا له تعليلا تاما، كما أن الله يخلق الخير!

والحق، وكما بينا، أنه لا تعارض بين اعتقاد أن من الأسباب ما يجتمع بأمر الله تعالى فيفضي بصورة حتمية إلى تلبس المجرم بجريمته كما هو مكتوب في اللوح المحفوظ، وبين كون المجرم نفسه مختارا لفعل تلك الجريمة اختيارا حرا واعيا تترتب عليه المسؤولية الأخلاقية الكاملة في حقه! فقول الدكتور "فلا يصح القول بالحتمية والجبرية في هذا الموضوع.." هو قول من يسوي بين الجبر وبين الحتم والقدر! والحتم من معاني القدر أصلا، كما في قوله تعالى: ((وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً)) [مريم : ٧١]، فقد تحتم على من كتب الله عليهم دخول النار من قبل أن يُخلقوا، أن يقترفوا ما يوجبها في حقهم من الأعمال لا محالة، كل عمل يخلقه الله تعالى في وقته المكتوب وبقدره المعلوم، تحتما مقضيا! وتحتم أن تخلق كافة الأسباب المفضية إلى

تلبسهم بتلك الأعمال كذلك قبل أن يتلبسوا بها، تحتما مقضيا! رفعت الأقلام وجفت الصحف بجميع ذلك! فمن نفى هذا الحتم بهذا المعنى فهو قدري من مجوس الأمة، وانتهت القضية!

وأما قول الدكتور: " ولا يجوز إخضاع المجال الإنساني سواء كان فردا أو مجتمعا أو تاريخا لقالب نظري أو معادلة أو حسبة إحصائية أو فرض فلسفي" فهذا قول يترتب عليه نسف العلوم الإنسانية كلها من أولها إلى آخرها، إذ لا ينتهي المنظر في أي علم من تلك العلوم إلا إلى واحدة من تلك المخرجات التي منع الدكتور من "إخضاع المجال الإنساني" لأي منها! فهل يعي الدكتور ما يقول وهل يزن ما يخرج من رأسه قبل أن يكتبه؟

يقول الدكتور مواصلا تخليطه وتنظيره الباطني في تلك القضية الخطيرة:

> إنما تأتي فكرة الحتمية الخاطئة من التصور الخاطئ للإنسان على أنه جسد بلا نفس وبلا روح وبلا عقل.. واعتبار النفس والعقل مجرد مجموعة الوظائف العليا للجهاز العصبي. ومن الواقع المشاهد من خضوع الجسم للقوانين الفسيولوجية يستنتج المفكر المادي أن الإنسان والإنسانية بأسرها مغلولة في القوانين المادية. وهكذا يجعل من الإنسان كتلة مادية أشبه بكتلة القمر محكومة في دورانها حول الأرض والشمس بالحتميات الفلكية. وينسى أن الإنسان يعيش في مستويين، مستوى الزمن الخارجي الموضوعي المادي.. زمن

الساعة، وفي هذا الزمن يرتبط بالمواعيد والضرورات الاجتماعية ويعيش في أسر القوانين والحتميات، ومستوى زمنه الخاص الداخلي.. زمن الشعور وزمن الحلم.. وفي هذا المستوى يعيش حياة حرة بالفعل.. فيفكر ويحلم ويبتكر ويخترع ويقف من كل المجتمع والتاريخ موقف الثورة.. بل يستطيع أن ينقل هذه الثورة الداخلية إلى فعل خارجي فيقلب المجتمع ويغير التاريخ من أساسه كما حدث في كل الثورات التقدمية. هذه الثنائية هي صفة ينفرد بها الإنسان. وهذه الحياة الداخلية الحرة يختص بها الإنسان دون الجماد.

قلت: يحاول الدكتور في هذا الكلام أن يجعل من نفي الفلاسفة الماديين للروح سببا في قولهم بالحتمية التي نعتها "بالخاطئة" من غير أن يتكلف حتى محاولة تعريفها للقراء! وهذا غير صحيح على التحقيق، لأن أكثر الفلاسفة المعاصرين نفاة الحتمية (بجميع معانيها) القائلين بحرية الاختيار لا يثبتون الروح ولا يقولون بالغيب أصلا! فلو كان نفي الروح هو الحامل على إثبات الحتمية للزم أن يثبتها هؤلاء كذلك! فقوله: "إنما تأتي فكرة الحتمية الخاطئة من التصور الخاطئ للإنسان على أنه جسد بلا نفس وبلا روح وبلا عقل.. واعتبار النفس والعقل مجرد مجموعة الوظائف العليا للجهاز العصبي" قلت: هذا غلط واضح! بل إن النزاع بين المدارس الفلسفية المعاصرة في تلك القضية (نفاة الحتمية ومثبتيها وثالثة تحاول التوسط بينهما وتسمى بالتوفيقية Compatibilism) هو نزاع بين ماديين وماديين أصالة، وليس فيه

من يثبت الروح والنفس ككيان غيبي منفصل عن الجسد إلا القلة من فلاسفة اللاهوت النصراني المعاصرين ونحوهم من أهل الأديان ممن خاضوا في تلك القضية، وحتى هؤلاء فلا يستندون إلى إثبات الروح في اتخاذهم ما يتخذونه من موقف فيها!

فقول الدكتور: "ومن الواقع المشاهد من خضوع الجسم للقوانين الفسيولوجية يستنتج المفكر المادي أن الإنسان والإنسانية بأسرها مغلولة في القوانين المادية." قلت: سلمنا لك بنفي خضوع الروح لما سميته بالقوانين المادية، فهل تقول أنت بجواز خضوعها لقوانين غيبية لا نعلمها؟ أم أن مجرد مبدأ خضوع الروح للقوانين أو السنن السببية هو عندك من الجبر أصلا؟ هذه هي المسألة التي ينبغي أن ينتبه إليها القارئ الكريم! ثم ما المقصود بالقوانين المادية على وجه التحديد؟ هذا إجمال لا يجوز ولا يقبل في موضع كهذا! ومع ذلك يقول الدكتور مؤسسا على هذا الإجمال إجمالا آخر: "وهكذا يجعل من الإنسان كتلة مادية أشبه بكتلة القمر محكومة في دورانها حول الأرض والشمس بالحتميات الفلكية"! قلت: من جديد نسأل الدكتور ما المقصود "بالحتميات الفلكية"؟ إن كان المقصود أن النظم السببية المحكمة التي تحرك القمر في فلكه على نحو ما نرى، ماضية حتما بلا اضطراب ولا فساد إلى أجل مسمى، لما علمنا بالبداهة وبالسمع معا من أن الله تعالى يمسك السماء أن تزول ويضبط الأجرام في أفلاكها غاية الضبط، فبأي مستند يثبت الدكتور هذا المعنى في نوع القمر وينفيه عن نوع البشر؟

إما أن الكل خاضع لإرادة الرب جل وعلا وحكمه وتقديره، محكوم بما سنه الله له من سنن ونواميس، وإما أن الكل "متحرر"، خالق أفعاله بنفسه بلا حتم سابق ولا تقدير ولا أسباب متقدمة عليه! والحق أن كل المخلوقات جارية على نظام السنن والأسباب اللائق بها المناسب لها، سواء ما كان منها فاعلا مختارا أو ما كان جمادا لا اختيار له! أما أن يكون إثبات حرية الاختيار في النوع البشري داعيا لنفي خضوعه لقوانين سببية حتمية تحكمه كما يخضع القمر لقوانين تحكمه، فهذا كلام من يرون أن التقدير السابق المحتوم لأفعال البشر يقتضي الجبر (ينافي حرية الاختيار)، وهم القدرية كما تقدم!

أما قول الدكتور: "وينسى أن الإنسان يعيش في مستويين، مستوى الزمن الخارجي الموضوعي المادي.. زمن الساعة، وفي هذا الزمن يرتبط بالمواعيد والضرورات الاجتماعية ويعيش في أسر القوانين والحتميات، ومستوى زمنه الخاص الداخلي.. زمن الشعور وزمن الحلم.. وفي هذا المستوى يعيش حياة حرة بالفعل.. فيفكر ويحلم ويبتكر ويخترع ويقف من كل المجتمع والتاريخ موقف الثورة.. " اهـ. قلت: فهذا كلام باطني لا حقيقة له تقرب إلى الذهن السوي! ما معنى يعيش في مستويين؟ وما هما هذان المستويان؟ ظاهر كلام الدكتور أن الإنسان لا يكون حرا "بالفعل" إلا في وهمه وخياله، وأما الواقع الخارجي فهو فيه خاضع للقوانين الحتمية والزمان المعروف! فإن كانت الحتمية هي نقيض الحرية عند الدكتور، فقد لزمه قول الجبرية إذن على الحقيقة! فالرجل لا يستطيع أن يضبط لنفسه مذهبا في القضية كما ترى وهو

فيها كالريشة في مهب الريح، فهلا اتقى اللّٰه في نفسه وفي المسلمين وكف عن الكتابة حتى يتعلم دينه أولا؟ أبدا! لو امتنع عن الكتابة حتى يتعلم، للزم أن ينقطع عن تلك الأضرب الجدلية الفلسفية التي كان مفتونا بها غاية الفتنة، وهو أمر ما كان يتصوره لنفسه! بل كان يحب أن يبقى على الصدارة بين المفكرين وكبار الكتاب والفلاسفة الكبار من أهل زمانه، وأن تظل كتبه وأدبياته تلمع ويسطع نجمها كما يشتهي! من هنا صارت كل المسائل قابلة لأن يقتحمها الأستاذ المفكر الكبير برأيه ونظره الآن وفورا، مهما كانت دقيقة عظيمة الأثر في اعتقاد المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه!

يقول الدكتور:

> وهذه النفس التي يملكها تتصف بصفات مختلفة مغايرة لصفات الجماد.. فهنا نحن أمام وحدة لا امتداد لها في المكان .. هي ال"أنا" تتصف بالحضور والديمومة والشخوص والكينونة والمثول الدائم في الوعي، ثم هي تفرض نفسها على الواقع الخارجي وتغيره.. وتفرض نفسها على الجسد وتحكمه وتقوده وتعلو على ضروراته.. فتفرض عليه الصوم والحرمان اختيارا.. بل قد تقوده إلى الموت فداء وتضحية.. مثل هذه النفس لا يمكن أن تكون مجرد ناتج ثانوي من نواتج الجسد وذيلا تابعا له ومادة تطورت عنه. مثل هذه النظريات المادية لا تفسر لنا شيئا.. وإنما لابد لنا أن نسلم أن هذه النفس

عالية على الجسد متعالية عليه وأنها من جوهر مفارق لجوهر الجسد وحاكم عليه.. فهي في واقع الأمر تستخدم الجسد كأداة لأغراضها ومطية لأهدافها كما يستخدم العقل المخ مجرد توصيلة أو سنترال. ولابد أن يتداعى إلى ذهننا الاحتمال البديهي من أن هذه النفس لا يمكن أن يجرى عليها ما يجرى على الجسد من موت وتآكل وتعفن بحكم جوهرها الذي تشعر به متصفا بالحضور والديمومة والشخوص في الوعي طول الوقت. فلا هي تتآكل كما يتآكل الجسد ولا هي تقع كما يقع الشعر ولا هي تبلى كما تبلى الأسنان، وإنه لأمر بديهي تماما أن نتصور بقاءها بعد الموت.

قلت: قول الدكتور "وحدة لا امتداد لها في المكان" هو رجم بالغيب وقول بلا علم! بل إنه قول متناقض في الحقيقة لأن الشيء الذي لا امتداد له في المكان لا وجود له في الأعيان! ولو أننا سألنا الدكتور الآن: "أين روحك؟" فبأي شيء يجيب؟ إن قال: هي في جسدي، فقد أثبت لها امتدادا في المكان، وإلا فقد نفى وجودها رأسا! أما قوله "هي الأنا تتصف بالحضور والديمومة والشخوص والكينونة والمثول الدائم في الوعي" فهذا كلام إنشائي لا يسمن ولا يغني من جوع! الأنا هذه مصطلح من مصطلحات النفسانين، وليس لها عند غيرهم معنى يصطلح عليه الناس، فهل هذا ما يريده الدكتور؟ إن كان كذلك فالنفس ليست مقصورة على "الأنا" بحسب تلك النظريات القائلة بها! وإلا فما المقصود؟ من جديد: المعنى في بطن الدكتور! ثم حدث عن تلك

المفردات التي سطرها بعد ذلك ولا حرج: الحضور والديمومة والشخوص والكينونة والمثول! أما الحضور فيوصف به الجماد كما توصف به الروح ولا فرق! أليس جسدي "المادي" حاضرا معي حضورا دائما كما أن روحي حاضرة فيه؟! اللهم بلى! فكان ماذا؟ وأما الديمومة فلا يجب إثباتها للروح وجوبا عقليا كما لا يخفى، ولا يقتضيه شيء مما ذكره الدكتور! وإنما يُعرف بقاؤها بعد الموت بما ركبه اللّه في فطرنا من علم بمبعثنا بعد الموت، وبما جاء به السمع من مصداق ذلك! ولهذا لم يجد الدكتور بعد ذلك التشريق والتغريب والتشقيق العجيب إلا أن يستند إلى الفطرة في إثباتها كما سيأتي، ولكن بعدما خرب عقول القراء وعقائدهم ولا حول ولا قوة إلا باللّه! وأما الشخوص فنقول فيه كما قلنا في الحضور! وأما الكينونة فليست صفة أصلا، وإنما هي مطلق معنى كون الشيء شيئا، فبأي شيء أفادت هنا إلا الحشو والقعقعة؟ وأما المثول في الوعي، فالعالم الخارجي أيضا ماثل في الوعي ما دام الإنسان واعيا، فكان ماذا؟

وصحيح إنها (أي النفس) تفرض نفسها على الجسد وتحكمه، ولكن ما معنى "تفرض نفسها على الواقع الخارجي وتغيره"؟ هنا لابد من الاستفصال، لأن التسوية بين المعنيين كما قد يفهم من كلام الدكتور، تقتضي تأليه النفس وجعلها حاكمة على العالم بأسره، كما هي عقيدة الوثنيين! وبناء على ذلك الكلام الإنشائي الرنان، المطلوب الآن من الفيلسوف المادي أن يترك نظريته المادية وينزل عنها إلى نظرية الدكتور الباطنية الصوفية! فإن لم "يقتنع" بهذا

التنظير، فلا بأس بأن يخرج صاحبنا سوط الضرورة العقلية حينئذ على طريقة المتكلمين، ليقرر أن ما يقوله هو البداهة وأن من جحده فقد جحد الضروريات، كما في قول الدكتور: "ولابد أن يتداعى إلى ذهننا الاحتمال البديهي من أن هذه النفس لا يمكن أن يجرى عليها ما يجرى على الجسد من موت وتآكل وتعفن بحكم جوهرها الذي تشعر به متصفا بالحضور والديمومة والشخوص في الوعي طول الوقت." قلت: إن كنت تقصد أنه بناء على تلك المقدمات الواهية التي قدمت بها، فإن القول بأبدية الروح يصبح نتيجة ضرورية، فهذا باطل واضح! فإنه يجوز في العقل أن تتصف النفس بكل هذه الصفات التي وصفتها أنت، ومع ذلك تتصف أيضا وفي نفس الوقت بورود الموت والتآكل والتعفن عليها وغير ذلك مما يجرى على الجسد المادي! فما الذي يلجئك إلى البداهة الآن يا دكتور، وقد سودت صفحات الكتاب بما زعمت أنه من جملة البراهين العقلية التي يُدفع بها في وجوه الماديين لإثبات الروح وإثبات بقائها بعد الموت؟ الظاهر أنه أدرك بعدما طاف ذلك المطاف ولف ذلك اللف البعيد، أنه لا يملك إلا الفطرة مستندا في إثبات الروح على الحقيقة، فقرر ذلك المعنى في نهاية الباب إبراء للذمة!

ولهذا تراه يقول في مختتم هذا الباب منتصرا للمعرفة الفطرية البدهية:

> هي معرفة أولى جاءت إلينا مع شهادة الميلاد، لو أدرك الإنسان هذا لأراح واستراح.. ولوفر على نفسه كثيرا من الجدل والشقشقة

والسفسطة والمكابرة في مسألة الوح والجسد والعقل والمخ والحرية والجبر والمسؤولية والحساب ولاكتفى بالإضفاء إلى ما تهمس به فطرته وما يفتي به قلبه وما تشير به بصيرته. وذرة من الإخلاص أفضل من قناطير من الكتب. لنصغي إلى صوت نفوسنا وهمس بصائرنا في إخلاص شديد دون محاولة تشويه ذلك الصوت البكر بحبائل المنطق وشراك الحجج. وعلى من يشك في كلامي، وعلى هواة الجدل والنقاش والمقارعة المنطقية أن يعودوا فيقرءوا مقالي من أوله.

قلت: يا دكتور خاطب نفسك بهذا الكلام قبل أن تخاطب غيرك، والتزم به في هذا الكتاب نفسه قبل أن تنصح به قراءك! ألا تقرأ ما تكتبه يداك؟ سبحان الله! ما فائدة هذا الباب الطويل إن كنت حقا ترى أن الرجوع إلى المعرفة الفطرية يغنينا عن كثير من الجدل والشقشقة والسفسطة والمكابرة في مسألة الروح والجسد؟ وما الذي يستفيده هواة الجدل والنقاش والمقارعة المنطقية من إعادة قراءة مقالك هذا إلا أن يزدادوا غرقا في نفس ما تذمهم من أجله من الشقشقة والسفسطة والمقارعة المنطقية الفارغة؟ سبحان الله! هذا والله من أعظم تناقضات أهل الكلام والفلاسفة الإسلاميين ومن سلك منهجهم الخبيث من المفكرين ونحوهم كما بيناه في غير موضع! يأتي أحدهم إلى الفلاسفة الدهرية المكابرين بما يزعم أنه برهان نظري يثبت أمرا هو يعتقد أنه من البدهيات الضروريات، فإن قبل منه برهانه أو على الأقل قبل منه مبدأ

المناظرة عليه، اعتبره بذلك من طلبة الحق الصادقين، وإن رفضه ورده عليه جملة واحدة من قبل المناظرة، أو ناظره ثم انتصر عليه وأسقط له ذلك البرهان، رماه بجحد البداهة الواضحة التي هي أصل المسألة المراد إثباتها! فلو كانت تلك المسألة عندك من البداهة الواضحة حقا، التي يذم من جحدها أو زعم الجهل بها، ففي أي شيء أنت إذ تتكلف نصب البرهان النظري لإثباتها أصلا؟ إن كانت الروح وبقاؤها بعد الموت من الأمور المعلومة بداهة وفطرة عندك، فالمفترض أن من جحدها وكذب بها فهو عندك جاحد مكابر سفساط، ومن كانت هذه منزلته فلا يلتفت إليه أصلا! أليس كذلك؟ فما الذي حملك – إذن - على تكلف ما تكلفت من الفلسفة لإثباتها بين يديه؟ أما وقد ذكرت الإخلاص يا دكتور، فلا يخفى على القراء بأي شيء حكمت أنت على نفسك بعد ذلك الخلط الفلسفي الطويل! نسأل اللّٰه أن يبصرنا بديننا وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

رحلته إلى مفهوم العدل الاعتزالي!

ينتقل الدكتور بعد ذلك إلى جزء جديد بوب له بقوله "العدل الأزلي"، فيبدأ فيه بتقرير أن كافة أنواع الدواب قد ركب اللّٰه فيها بالفطرة مفاهيم أخلاقية معينة لم تكتسبها تلك الدواب استقلالا. ثم يتخذ من هذه الحقيقة مقدمة لإثبات أن نظير ذلك قد وقع للإنسان، وكأننا نحتاج إلى درس في الأحياء حتى ندرك ذلك

ونقر به من طريق قياس أنفسنا على أنفس الدواب، فندرك أن فينا فطرة تطلب العدل وتعظمه كما في أنواع الحيوانات!

وفي موضع لاحق، وفي إطار انتصاره لمسألة العدالة الإلهية، يورد الدكتور اعتراضا دهريا على مبدأ العدالة الإلهية وهو قولهم: "لندع الآدميين ونسأل: لماذا خلق الله الخنزير خنزيرا والكلب كلبا والحشرة حشرة وما ذنب هذه الكائنات لتخلق على تلك الصورة المنحطة، وأين العدل هنا؟" (ص. ٥٢). فيجيب الدكتور بقوله (ص. ٥٢-٥٣):

> والسؤال وجيه، ولكن يلقيه عقل لا يعرف إلا نصف القضية.. أو سطرا واحدا من ملف التحقيق.. ومع ذلك يتعجل معرفة الحكم وحيثياته. والواقع أن كل الكائنات الحيوانية نفوس. والله قد اختار لكل نفس القالب المادي الذي تستحقه. والله قد خلق الخنزير خنزيرا لأنه خنزير، واختار للنفس الخنزيرية قالبا ماديا خنزيريا.. ونحن لا نعلم شيئا عن تلك النفس الخنزيرية قبل أن يودعها الله في قالبها المادي الخنزيري.. ولا نعلم لماذا وكيف كان الميلاد على تلك الصورة، وما قبل الميلاد محجوب كما أن ما بعد الموت محجوب. ولكن أهل المشاهدة يقولون كما يقول القرآن إننا كنا قبل الميلاد في عالم (يسمونه عالم الذر) ونكون بعد الموت في عالم آخر. والحياة أبدية ولا موت، وإنما انتقال وارتقاء في معراج لا ينتهي. صعودا وتطورا

وتساميا وكدحا إلى اللّٰه. وهذا الاستمرار يقول به العقل أيضا. والعدل هو الحقيقة الأزلية التي وقرها اللّٰه في الفطرة وفي الحشوة الآدمية، وحتى في الحشوية الحيوانية كما قدمت في بداية مقالي. هذا العدل حقيقة مطلقة سوف تقول لنا إن جميع القوالب المادية والحيوانية هي استحقاقات مؤكدة لا ندرى شيئا عن تفاصيلها ولا كيف كانت ولكننا نستطيع أن نقول بداهة إنها استحقاقات.. وإن اللّٰه خلق الخنزير خنزيرا لأن نفسه كانت نفسا خنزيرية فكان هذا ثوبها وقالبها الملائم.

قلت: هذا الكلام فيه آثار واضحة من قراءة الدكتور في الفلسفات الهندوسية للروح والنفس، وأعني على وجه التحديد عقيدة تناسخ الأرواح. فالرجل لما قوبل بسؤال متنطع مفاده أن مجرد خلق الحيوان على هيئة "منحطة" (هكذا) هو بالضرورة عقوبة، سلم بتلك الدعوى ابتداء، ثم انطلق ليفسرها بما يوحي بأن تلك الأنفس التي خلقت في الدنيا كخنازير وكلاب وصراصير ونحو ذلك، لابد وأنها كان منها فيما مضى ما تستحق به أن تخلق في عالمنا في تلك الصور المنحطة! وهذا في الحقيقة من اعتقاد الهندوس فيما يسمونه بالكارما Karma، حيث تستمر النفوس في اعتقادهم في حياة أزلية أبدية، في صورة دورات متتابعة، فلا تموت في هذا العالم نفس إلا تبعث في جسد آخر يلائم ما كان منها من أعمال في حياتها السابقة، وهكذا في "عدل" مستمر من الأزل إلى الأبد كما يعتقدون!

ونقول للدكتور: إن النفس الخنزيرية لم تكن شيئا قبل أن تكون نفسا خنزيرية، وكذلك النفس الكلابية والنفس الصرصورية .. إلخ، فعن أي "استحقاق" تتكلم؟ وأما "عالم الذر" فلا يراد به في دين المسلمين إلا تلك الحالة التي كانت عليها أرواح ذرية آدم يوم أخرجهم الله من ظهورهم من صلبه عليه السلام وأشهدهم على أنفسهم كما في آية الأعراف: ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)) [الأعراف : ١٧٢]، فعن أي شيء في عالم الذر هذا "استحق" البشر أن يخلقوا بشرا لا قردة ولا خنازير؟ وبناء على أي نص في دين المسلمين أثبت أنت عوالم مماثلة لأنواع الدواب الأخرى، استحقت فيها أن تخلق في هذا العالم على تلك الهيئة؟

وإنما يرد على ذلك الدهري المتنطع أصل السؤال نفسه، ويقال له: الله أعلم بما تقتضيه حكمته في خلق كل نوع من الأنواع! وليس يضير المخلوق كونه منحطا مقارنة بغيره من أنواع المخلوقات، فالله تعالى ما خلق شيئا إلا في موضعه الصحيح وبقدره الصحيح، وما ظلم من خلقه أحدا! والله خلق نفوسا خبيثة بطبيعتها كما خلق نفوسا طيبة بطبيعتها تتميما لحكمته السابغة سبحانه وتعالى، لا لفضل سابق لهذه على تلك، ولا "استحقاقا لها" ولا كسبا! فمما جاء في السنة – مثلا - أن نفوس الجرذان نفوس فاسقة، سماها الرسول عليه السلام بالفويسقة، وكذلك دلت السنة على أن الوزغ وأنواع السحالي ونحوها من الزواحف أيضا خبيثة بطبعها، يجب قتلها بمجرد رؤيتها! بل وفي

الصحيحين كذلك أنه عليه السلام قال: "خمس من الدواب كلهن فاسق، يقتلن في الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور" وعند مسلم في صحيحه "خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم"، فهل ظلم الله النفس الخبيثة إذ خلقها خبيثة، أو الفاسقة إذ خلقها فاسقة؟ أبدا، معاذ الله! وإنما هي مخلوقات مركبة فيها من الطباع الخبيثة ما يجعلها على ما وصفها به الرسول عليه السلام! وسواء النفس المطبوعة من أصل خلقتها على الطيب أو المطبوعة على الخبث، فإنما يثبت الاستحقاق بعد العمل لا قبله على أي حال! والله تعالى إذا خلق نفسا ليكلفها، وكتب عليها من قبل خلقها وتكليفها أنها من أهل النار، لم يكن بمجرد ذلك ظالما لها، لأن مبدأ التكليف يقتضي الجزاء والعقاب بداهة، وما كان الله ليعاقب نفسا من غير استحقاق للعقوبة، بل لابد أنه سبحانه خالق لتلك النفس المكتوبة عنده من أهل العقوبة ما يجعلها تستحق العقوبة في منتهى أمرها جزاء وفاقا! فالمسألة لا تدخل تحت باب العدالة الإلهية أصلا، وإنما تدخل في باب الحكمة والتعليل. ولكن الدكتور كان أجنبيا على علوم الشريعة، يغامر بعقله في قضايا ضاعت فيها عقول أناس لم يبلغ هو معشارهم في العقل ولا في العلم، من جهلهم بالسنة ومنهجها وعلومها، والله المستعان!

وأما الأنفس غير المكلفة كالدواب والطير والحيتان ونحوها، فإنما تحشر يوم القيامة حتى تقضى المظالم فيما بينها، ويقتص من الشاة القرناء للشاة الجلحاء، ثم تصير ترابا، أي تنعدم أجسامها وأرواحها جميعا، فلا تبقى فيها حياة

ولا "ديمومة" ولا "كينونة" ولا تكون شيئا أصلا! فمن أين علمنا نحن بذلك؟ من خبر الغيب في الوحي الذي لا مصدر سواه لتقرير المعارف في تلك القضايا! فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء" اهـ. وعند الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين تنتطحان، فقال:يا أبا ذر، هل تدري فيم تنتطحان؟ قال :لا. قال: لكن الله يدري ، وسيقضي بينهما." اهـ. وأخرج ابن جرير في تفسيره بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يحشر الخلق كلهم، كل دابة وطائر وإنسان، يقول للبهائم والطير: كونوا تراباً، فعند ذلك يقول الكافر :"يَا لَيتَنِي كُنتُ تُرَابًا" (النبأ: ٤٠)"، فالكافر يود لو صيره الله ترابا كما صير تلك الدواب بعد حشرها، لأنه قد كُتب عليه الخلود في العذاب الأليم خلافا لها!

وهذا كما ترى خلاف ما زعمه الدكتور من بقايا الفلسفة الوثنية لديه من كون أرواح الدواب كلها على السواء أبدية "تترقى من طور إلى طور"، بدليل أن للروح "حضورا" و"شخوصا" و"كينونة"، إلى غير ذلك من شقشقته الواهية! أي أطوار وأي ديمومة وهي تصير ترابا (أرواحها وأجسادها جميعا) بنص السنة الصريح وكما عليه أهل السنة؟ الروح المكلفة ليست كالروح غير المكلفة عند المسلمين (خلافا للوثنيين الهنود ومن شاكلهم)، وليس في العقل ما يوجب

التسوية بينهما! ولكن لأن طريق الرجل في إثبات وجود الروح نفسها من الأساس كانت من طرق الفلاسفة والمتكلمين في إثبات المغيبات المحضة ونفيها، فقد لزمه التسوية بين النوعين لتساوي البشر مع غيرهم من أنواع الدواب في الدخول في معاني تلك المقدمات الكلية الشمولية التي قدم بها لبرهانه! وهي نفس المقدمات التي عليها يتأسس القول بأزلية وأبدية الروح كما مر معك. فكما بينا أن النفس عند الوثنيين الهنود كيان كلي واحد، تشترك فيه كافة الكائنات الواعية في العالم، وأن الروح قد تكون اليوم في كلب أو خنزير، ثم تنتقل غدا إلى إنسان، ثم تنتقل بعد ذلك إلى عالم سماوي أرقى، أو العكس، في إطار دورات التناسخ الأبدية الأزلية، وعدالة الكارما الهندوسية المزعومة! فلا خروج للدكتور ولمن قال بقوله هذا من تلك البدعة ولا رجوع إلى ما جاءت به السنة إلا بإسقاط ذلك البرهان بالكلية، والبراءة من تلك الطريقة الفلسفية الخربة في إثبات العقائد الغيبية جملة واحدة، والله المستعان!

إنها تلك الطريقة الخبيثة التي يفاخر بها الدكتور في قوله:

> والعلم بكل شيء في داخل اللحظة المحدودة وفي عمرنا الدنيوي هو طمع في مستحيل. ولكن إذا كان نصيبنا من العلم وإذا كان ما غنمناه بالتأمل هو أن العدل حقيقة أزلية وأن الله وقرها وأودعها في الفطرة فقد علمنا الكثير وأدركنا كفايتنا. وبالصورة التي أدركنا بها الله

في مقالنا الأول على أنه العقل الكلي المحيط وأنه القادر المبدع الملهم المعتني بمخلوقاته، بهذه الصورة سوف نفهم كيف أودع الله هذه الفطرة الهادية المرشدة في مخلوقاته فهذا مقتضى عنايته وعدله.. أن يخلق مخلوقاته ويخلق لها النور الذي تهتدي به. وسوف نصدق أيضا أن الله أرسل الأنبياء وأوحى بالكتب.. فإن الله لا يكون ربا ولا إلها ملهما مدبرا بغير ذلك.

قلت: يبدأ الدكتور بتقرير أن العلم بكون العدل حقيقة أزلية أودعها الله في فطرنا هو علم من أدركه فقد أدرك كفايته، ولنا هنا أن نسأل: كفايته لأي غاية أو لأي نهاية؟ كما أن العدل الإلهي حقيقة فطرية فكذلك وجود البارئ نفسه من الأساس، وكذلك حقيقة البعث بعد الموت، فهذه أيضا مركوزة في الفطرة كما قرر الدكتور في سابق كلامه، فما المقصود بالكفاية! الظاهر أنه يقصد كفاية المتكلم لتأسيس مزيد من البراهين لإثبات أن الإسلام هو الدين الحق، وذلك بناء على ترتيبهم المشهور في إثبات الصانع أولا ثم إثبات إرساله الرسل ثم إثبات أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان رسولا من عنده. يبدأ أحدهم بتقرير أصل التوحيد، معتقدا أنه بذلك يثبت وجود الصانع، ثم يفرع أصل العدالة عليه مدعيا أنه بذلك يثبت وجوب إرسال الرسل، ثم ينتقل إلى إثبات نبوة النبي عليه السلام، فهذا الترتيب الكلامي البدعي أول من قال به هم المعتزلة على التحقيق. بل إنه يكاد يصرح بمقالة المعتزلة في وجوب إرسال الرسل بناء على أصل العدل الإلهي عندهم (الذي هو نظير ما يدندن الدكتور

حوله في هذا الباب من كتابه في إثباته لما يسميه "بالعدل المطلق")! فقد مضى الدكتور ليقول: "وبالصورة التي أدركنا بها اللّٰه في مقالنا الأول على أنه العقل الكلي المحيط وأنه القادر المبدع الملهم المعتني بمخلوقاته، بهذه الصورة سوف نفهم كيف أودع اللّٰه هذه الفطرة الهادية المرشدة في مخلوقاته فهذا مقتضى عنايته وعدله." فالصورة التي أدركنا بها – بزعمه – أن اللّٰه هو "العقل الكلي" (وهذه مقولة الفلاسفة القدماء كأرسطو وغيره، فلا يجوز أن يوصف اللّٰه تعالى بأنه "العقل الكلي"!) المقصود بها طريقة الفلاسفة التي سلكها الدكتور في تقرير ما قرر، والتي هي بعينها طريقة الجهمية في بناء الاعتقاد!

وما أشبه قول الدكتور "بهذه الصورة سوف نفهم كيف أودع اللّٰه هذه الفطرة الهادية المرشدة في مخلوقاته ..." إلى قوله ".. فإن اللّٰه لا يكون ربا ولا إلها ملهما مدبرا بغير ذلك" اهـ، بقول القاضي عبد الجبار المعتزلي (في شرح الأصول الخمسة ص. ٥٦٣): "ووجه اتصال بعثة الرسل بباب العدل: هو أن الكلام في أنه تعالى إذا علم أن صلاحنا يتعلق بهذه الشرعيات، فلابد أن يعرفناها، لكي لا يكون مخلا بما هو واجب عليه، ومن العدل أن لا يخل بما هو واجب عليه". اهـ. فكأنما يؤصل الدكتور لأصل العدل عند المعتزلة، واللّٰه المستعان! فالعدل عند الدكتور يقتضي – كما ترى – أن يتم الإرشاد والهداية للمخلوقات كافة، وهو ما يقتضي وجوب فعل الأصلح للمخلوق، ومن ذلك وجوب إرسال الرسل وتشريع الشرائع كما هو اعتقاد المعتزلة! وقد توصل

الدكتور إلى أصل العدل – كما مر معك – من نفس الطريق التي وصل إليه المعتزلة منها! إذ عنده أن العباد لا يخلق الله لهم أفعالهم المكروهة والخبيثة بالتقدير السابق، كأنواع المعاصي والآثام والشرور، لأنه إذن يكون قد أجبرهم على ما يوجب عقابهم! والمعتزلة يرون أن خلق الله أفعال العباد يتناقض مع مبدأ تكليفهم، لأنه يقتضي جبرهم على فعل القبيح، وهو ظلم! فلزم أن يكون فعل المخلوق للشر أو المعصية أو الفساد، خلقا له إياه، حتى لا يكون الله هو خالق ذلك الشر أو المعصية أو الفساد، ولهذا قالوا بنفي القدر مدعين الفرار من الجبر، فوقعوا في شر مما أرادوا الفرار منه، وجعلوا المخلوقين أندادا لله، شركاء له في الخلق والربوبية!

ونحن أهل السنة نقول إن الله تعالى ما أوجب على نفسه إرسال الرسل قبل يوم الحساب (كما في قوله تعالى: "وما كنا معذبين حتى نرسل رسولا" الآية الإسراء 15) إلا تفضلا، وإلا فإنه سبحانه لا مكره له ولا سلطان لأحد عليه من فوقه سبحانه وتعالى وتقدس، ولا يلزمه أن يفعل الأصلح لأي واحد من خلقه، فضلا عن أن يكون ذلك واجبا عليه لجميع خلقه! ولكن المتكلم يريد أن يلتزم بشرط الفيلسوف في طريقة إثبات أن الإسلام هو الدين الحق! فكيف يصل إلى ذلك إن لم يبدأ بنصب البرهان الفلسفي على حدوث العالم أولا ثم على وجود الباري ثانيا، ثم على إرسال الرسل ثالثا، ثم على أن محمدا هو رسوله الحق؟

ونقول: دعونا نسأل المتكلمين جميعا، المعتزلة وغيرهم: أي عاقل هذا يا عقلاء الذي يحتاج إلى هذا الترتيب البدعي أولا قبل أن يسمع ما جاء به الرسول؟ وهل يماري في صدق ما جاء به الرسول عليه السلام، إلا مريض في قلبه مغموص عليه في الهوى؟ لو كان العقلاء يفتقرون إلى ذلك الترتيب كما اشترطته الفلاسفة في سفسطتهم وكبرهم وغرورهم، للزم سلب اسم العقل رأسا عن الصحابة والحواريين وتلامذة المرسلين كافة، إذ قد علمتم أنهم ما طلبوا ذلك ولا اشترطوه على الرسل ولا احتاجوا إليه! أي عقل هذا الذي يُنسب إلى رجل يأتيه من يقول أنا رسول من عند الله، فيقول له: "أمهلني ولا تُسمعني ما عندك حتى أنظر في جواز إرسال الرسل عقلا أولا"؟؟ هذا من لجاج السفهاء وسفسطة الخبثاء، ومن كراهة الحق في نفوسهم النجسة! هم قوم ثقل عليهم أن يصطفي الله غيرهم للنبوة والرسالة وأن يطالبهم هم بأن يصيروا له تبعا! ((اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)) [الحج : ٧٥]!

آفة الفلاسفة عامة والملاحدة الدهريين منهم خاصة، أيها القارئ المحترم، تكمن في استكبار نفس أحدهم على أن يصير عبدا وأن يصير تابعا، مع أن الرب ما خلق البشر إلا ليعبدوه وليتبعوا رسله! فبدلا من أن يُقرع هؤلاء على رؤوسهم بما هم أهله، ترى الجهمي المتكلم ومن سلك سلكه يتودد إليهم ويتزلف بنصب البراهين النظرية التي اشترطوا عليه أنواعها بعدما ألزموه بمبدأ الإثبات النظري نفسه من الأساس، وما ذاك إلا لأنه يطمع في صرف

وجوههم إليه ويرجو ما عندهم! فإن قالوا نؤمن بأن العالم قديم، فأثبت أنت لنا حدوثه، التزم بنصب براهين الحدوث تأسيسا على نظرياتهم نفسها، لعلهم يرتضونه ويكرمونه ويعدونه في زمرتهم! وإن قالوا نؤمن بأن العالم حادث لكن لا نرى له صانعا، التزم بإثبات الصانع من نفس الطريق وتأسيسا على ما أثبت به الحدوث من قبل، حتى يستكمل الدرجة والمنزلة المأمولة لديهم! وإن قالوا نؤمن بأن العالم مخلوق، لكن لا نؤمن بأن خالقه يرسل الرسل ويخاطب البشر ويبعثهم بعد الموت كما تزعمون، التزم المتكلم بإثبات وجوب إرسال الرسل وجوبا فلسفيا عقليا لعلهم يقبلون! وإن قالوا نؤمن بمبدأ الرسالة وجواز بعث الرسل، ولكن لا نرى للرب رسالة على الأرض تصح نسبتها إليه، وكل الأديان عندنا أساطير من وضع البشر، جاءهم بأبحاث مقارنة الأديان، وقبل منهم زعمهم بأن الأمر يحتاج إلى بحث ونظر حتى يظهر علو الإسلام على غيره من الملل! ذلك أنه يعلم أنه إن لم يوافقهم على جميع ذلك (أعني نصبهم تلك المسائل كمطالب للنظر والبحث والإثبات)، رجعوا عليه – لا محالة - بالتهمة بالسفاهة وخفة العقل وإيمان السفهاء، وإذن خابت كل مساعيه وذهبت أدراج الرياح!

وها أنت ترى كيف يدور التاريخ دورته، وكيف ترجع نحلة الاعتزال وأصول العقائد الجهمية بعموم للظهور عند المعاصرين كما ظهرت في الماضي، ولكن بثوب جديد وببراهين جديدة ونظريات جديدة! وترى كذلك – فيما أرجو وفيما كتبت لأجله هذا الكتاب – كيف أن الفيلسوف الملحد لا ينتقل من الدهرية إلى

إعلان الدخول في الإسلام إلا بالتجهم والتفنن في الكلام، لإقامة قلبه على نفس الهوى المتشبعة به عروقه، الذي من أجله تلبس من قبل بالدهرية وإنكار وجود البارى ، ألا وهو محبة الرياسة والعلو والتقدم بين أيدي الفلاسفة والنظار الكبار من أهل زمانه! وهو ما يرجع بدوره إلى ما حررناه مرارا في هذا الكتاب وغيره من كون الفلسفة الدهرية الجدلية هي منبت العقائد الكلامية (وما يخترع لخدمتها من تأويلات النصوص بالتبعية) وهي أصل تلك الشجرة الخبيثة، وأن عقائد المتكلمين تدور مع فلسفات الدهرية الطبيعيين المعاصرين لهم حيثما دارت! وترى كذلك كيف يوهم أحدهم نفسه بأنه ينتصر للإسلام وبأنه يرد على الدهرية فلسفاتهم وإلحادهم بالحجة والبرهان، مع أنه في واقع الأمر يغرق المسلمين في حمأة الفلسفة الدهرية إغراقا، ويحيل أصول دينهم واعتقادهم إلى نظريات وآراء، توضع تبعا لكبرى النظريات الميتافزيقية السائدة أكاديميا في زمانه كيفما كانت! وقد مر معك كيف أفسد الدكتور صفة الخلق لرب العالمين (في جملة ما أفسد!)، وقاسه فيها على خلقه، لا لشيء إلا لأنه لم يكن يتصور لنفسه الزوال عن نظرية داروين زوالا تاما كما يتعين على كل مسلم يفهم دينه ويفهم تلك النظرية! بل ولا تصور لنفسه الزوال الجزئي عنها، فما زاد على أن سوغ النزاع على بعض تفاصيلها!

رحلته من القول بوحدة الوجود إلى القول بوحدة الأديان!

قال الدكتور مواصلا التأسيس لعقيدته بنفس الطريقة المذمومة (ص. ٥٤):

وليس متدينا في نظري من تعصب وتحزب وتصور أن نبيه هو النبي الوحيد وأن اللّه لم يأت بغيره.. فإن هذا التصور للّه هو تصور طفولي متخلف يظن أن اللّه أشبه بشيخ قبيلة.. ومثل هذا الإحساس هو عنصرية وليس تدينا. وإنما التصور الحق للّه أنه الكريم الذي يعطي الكل ويرسل الرسل للكل. ((وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)) (فاطر ٢٤) ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا)) (النحل ٣٦) ((وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا)) (القصص ٥٩) ((ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك)) (النساء ١٦٤) ومعنى هذه الآية أن بوذا يمكن أن يكون رسولا في عصره وإن لم يرد ذكره في القرآن. وإخناتون يمكن أن يكون رسولا في زمانه ويمكن أن يكون ما وصلنا من تعاليمهم قد خضع للتحريف. واللّه يريد بهذا أن يوحي بالإيمان المنفتح الذي يحتضن كل الرسالات وكل الأنبياء وكل الكتب بلا تعصب ولا تحيز. ولهذا يأمرنا بالإسلام دينا لأنه الدين الوحيد الذي يعترف بكل الرسل وبكل الأنبياء وبكل الكتب ويختمها حكمة وتشريعا، ويردها إلى نبعها وأصلها.. الإله الواحد الرحيم الملهم.. الذي أرسل الهداة جميعا من آدم إلى الخاتم.

قلت: واللّه لا تملك حجز نفسك عندما تسمع قول الدكتور "ليس متدينا في نظري... إلخ"، عن أن تقول: ومن أنت حتى يكون لك "نظر" في حقيقة التدين؟ أنت رجل لم يزل يزحف فرارا من بالوعة الإلحاد وحمأة الردة والدهرية

المضروبة في خلاط الوثنية الهندية، يرجو تطهير ثوبه وبدنه ونفسه من تلك النجاسة المحضة، فمن أين لك وعلى أي مستند يصبح لك أنت رأي ونظر في حقيقة التدين؟ ألا تستحي يا رجل؟ وهل التدين هذا اكتشاف جديد أنت أول من يكتشفه مثلا؟ وهل كان المسلمون في غفلة عنه قبل أن تتكلم أنت فيه؟ أين كلام علماء المسلمين وأين تراث الأمة وأين كتبهم وآثار سلفهم من الأئمة، وأين تفريقهم بين المتدين وغير المتدين؟ وهل ينتظر المسلمون رجلا تائها ضايعا يرجو التوبة والنجاة مما كان فيه، حتى يتعلموا منه حقيقة التدين؟ سبحانك ربي ما أحلمك، وما أصبرك على أهل الكبر والهوى! والله لو صدق هؤلاء في توبتهم وأخلصوا الأوبة والإنابة لله حقا لما تنطعوا ذاك التنطع، ولثنوا ركبهم عند علماء الملة يتعلمون في مجالسهم السنوات الطوال في تواضع وانكسار، لعل الله يهديهم إلى سواء الصراط! ولكنهم أهل أهواء بعضها آخذ بأذيال بعض، نسأل الله السلامة! وقد صدق فيهم وربي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلَب بصاحبه، فلا يبقي منه عرقا ولا مفصلا إلا دخله" أو كما قال عليه السلام!

و عندما تسمع قوله "وليس متدينا في نظري من تعصب وتحزب وتصور أن نبيه هو النبي الوحيد وأن الله لم يأت بغيره" فلعلك تتوهم لأول وهلة أن مراده نفي التدين عمن لم يؤمن بكافة الأنبياء والمرسلين، بإجمال أولا ثم بالتفصيل الذي جاء به الكتاب والسنة ثانيا (ولا شك أن من لم يؤمن

بالمرسلين إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم فما آمن بمحمد أصلا، وأنه كافر قولا واحدا!)، ولكن واقع الأمر أنه ينفي التدين عمن لم يؤمن بوحدة الأديان ويرى أن المعبود فيها كلها واحد مهما تعددت! فهو من شدة غرقه في الفلسفة الوثنية الهندوسية في أيام شبابه، لم يخرج من القول بوحدة الوجود إلا إلى القول بوحدة الأديان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

تأمل معي كيف تدرج (أو بالأحرى: تدرّك) الدكتور في التلبيس حتى يصل إلى جعل التدين الأمثل هو قبول كافة الأديان إجمالا مع اعتقاد أن التحريف إنما وقع في "التعاليم" والشرائع دون الاعتقاد في المعبود نفسه! فقد بدأ الدكتور بتقرير أن الكفر بنبوة غير النبي محمد عليه السلام والإيمان به وحده وبأن الله لم يرسل غيره، إنما هو صورة من صور التعصب والتحزب الشعوبي أو القبَلية الجاهلية! [١٧] ثم استند إلى ما في القرآن من إثبات سبق البعثات والرسالات الكثيرة إلى أمم البشر قبل النبي محمد عليه السلام، ليدعي أن بوذا قد يكون نبيا حرفت تعاليمه، وأن إخناتون قد يكون نبيا حرفت تعاليمه! [١٨] ثم يقفز الدكتور

---

[١٧] مع أنه يعلم أن هذا قول لا قائل به أصلا ممن يعتقدون نبوة محمد عليه السلام، بل لعله ليس في الأرض من أهل الملل الكتابية أو التي فيها شبهة كتاب من يؤمن بأن نبيه هو المرسل الوحيد من رب العالمين!

[١٨] ولا يجوز اعتقاد نبوة بوذا ولا إخناتون ولا كنفوشيوس ولا غيرهم ممن يشبه كلامهم كلام الأنبياء، لأن النبوة لا تنسب إلا لمن ثبتت له النبوة بالكتاب أو بالسنة! ولا يجوز كذلك "افتراض" نبوة متبوع من متبوعي أهل الملل لأن في ذلك تأليا على الله لا يخفى! ولا يتطرق احتمال النبوة لبوذا هذا لأنه لم يدع الناس لعبادة أي معبود أصلا، وإنما دعاهم لنبذ الشهوات والزهد في الملذات ونحو ذلك، بل قامت فلسفته – عند التحقيق - على عبادة النفس والروح من دون الله! وأما إخناتون فدعا إلى عبادة

قفزة بهلوانية لينتقل من ادعاء الإمكان إلى ادعاء التحقق في الواقع (أي نسبة جميع الملل الموروثة إلى نبي من أنبياء الله)، ليس هذا وحسب، بل وادعاء ما يقتضي تصحيح كافة تلك الملل بلا استثناء، وأن من لم "ينفتح" لهذا المعنى فهو متعصب! فيقول: "والله يريد بهذا أن يوحي بالإيمان المنفتح الذي يحتضن كل الرسالات وكل الأنبياء وكل الكتب بلا تعصب ولا تحيز"! ثم ينتقل بعد ذلك مباشرة للثناء على رأس من رؤوس وحدة الأديان من الهندوس، ألا وهو الزعيم الهندي "غاندي"، فيقول:

> وأصدق مثل للوعي الديني المتفتح هو وعي رجل مثل غاندي.. هندوسي، ومع ذلك يقرأ في صلاته فقرات من القرآن والتوراة والإنجيل وكتاب "الدامبادا" لبوذا.. في خشوع ومحبة.. مؤمنا بكل الكتب وكل الرسل.. وبالخالق الواحد الذي أرسلها. وهو رجل حياته مثل كلامه، أنفقها في الحب والسلام.

قلت: فهذا إذن هو التفتح و"التدين الحق" الذي كان يدعو إليه الدكتور مصطفى محمود: أن نقرأ في صلواتنا كما صنع "غاندي" فقرات من القرآن والتوراة

الشمس (آتون) من دون الله! وقد سئلت اللجنة الدائمة هذا السؤال (السؤال الأول من الفتوى رقم ٢١٠٠٤ من فتاوى اللجنة): "ما حكم الإسلام فيمن يقول: إن بوذا نبي؟" فأجابت: " بوذا ليس نبيًّا، بل كان كافرًا فيلسوفًا، يتنسك على غير دين سماوي، فمن اعتقد بنبوته فهو كافر. وقد غلا فيه قومه، واعتقدوا فيه الألوهية، وعبدوه من دون الله، واعتنق هذه النحلة البوذية الوثنية كثير من البشر قديمًا وحديثًا، فالواجب على المسلم بغض هذه النحلة، وبغض أهلها، والبراءة منهم، ومعاداتهم في الله." اهـ.

والإنجيل وكتاب الدامبادا وغيره، في "خشوع ومحبة"، على أساس أننا نؤمن بكل الكتب وكل الرسل وبالخالق الواحد الذي أرسلها جميعا، وعلى أساس أن الدين واحد عند "المتدينين الفضلاء" من أهل الملل، لأن الرب واحد! فيواصل الدكتور تأسيس زندقته الوثنية هذه ويقول:

والدين واحد من الناحية العقائدية وإن اختلفت الشرائع في الأديان المتعددة. كما أن الرب واحد. والفضلاء من جميع الأديان هم على دين واحد. لأن المتدين الفاضل لا يتصور اللّه خالقا له وحده وهاديا له وحده أو لفئة وحدها.. وإنما هو نور السماوات والأرض.. المتاح لكل من يجتهد باحثا عنه .. الرحمن الرحيم المرسل للهداة المنزل للوحي في جميع الأعصر والدهور .. وهذا مقتضى عدله الأزلي.. وهذا هو المعنى الجدير بالمقام الإلهي.. وبدون هذا الإيمان المنفتح، لا يكون المتدين متدينا.

قلت: فالعدل الإلهي عند الدكتور يقتضي أن يكون جميع الفضلاء المتدينين من أهل الملل عابدين له على التحقيق، سالكين طريق الهداية والصراط المستقيم! فبأي شيء بعث اللّه محمدا إذن وما فائدة رسالته؟ على هذا المذهب، لم يكن ثمة داع لمبعث محمد أصلا، لأنه إذن يكون بوسع أمثال غاندي أن يصلوا إلى مثل ما توصل إليه وأن يعرفوا الطريق إلى رضا رب العالمين بدون رسالة محمد! ولعلك لو ناقشت الدكتور بهذا المعنى لقال لك:

هذا هو التعصب الذي أكرهه للمتدينين ولا أراه لائقا بالأفاضل من أهل الملل، إذ يقصر المتدين طريق الهداية والتنوير على رسوله وحده دون غيره من أنبياء أهل الملل! ويواصل الدكتور الانتصار لوحدة الأديان وتصحيح جميع الملل الداعية إلى عبادة رب خالق، فيقول:

أما الأديان التي تنقسم شيعا يحارب بعضها بعضا باسم الدين فإنها ترفع راية الدين كذبا.. وما الراية المرفوعة إلا راية العنصر والعرق والجنس.. وهي ما زالت في جاهلية الأوس والخزرج وحماسيات عنترة.. تحارب للغرور وإن ظنت أنها تحارب لله.. وهي هالكة، الغالب فيها والمغلوب. مشركة .. كل منها عابد لتمثاله ولنفسه ولتصوره الشخصي وليس عابدا لله، وإنما تبدأ عبادة الله بمعرفة الله ومقامه الأسمى. وتبدأ معرفة الله بمعرفة النفس ومكانها الأدنى. وهذا هو الطريق والصراط والمعراج الذي يبدأ به عروج السالكين في هجرتهم الكبرى إلى الحق.

قلت: فأين أنت يا عدو نفسك من جهاد الرسول عليه السلام وقتاله ومن معه للكفار من أهل جزيرة العرب وغيرهم؟ وأين أنت من المغازي والفتوحات التي امتدت من أقصى الأرض إلى أدناها؟ وأين أنت من قول الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)) [التوبة : ١٢٣] ونحوه مما استفاض معناه في كتاب الله؟

هؤلاء كانوا عابدين لأنفسهم من دون الله؟؟ نسأل الله العافية! الله تعالى إذن يأمرنا في هذه الآية ونحوها بجاهلية الأوس والخزرج وحماسات عنترة! وعندما يقول سبحانه: ((إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [التوبة : ٤٠] فحقيقة ذلك أنه يرفع قبيلة على قبيلة، تحت راية العنصر والعرق والجنس كما وصف!! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل.

مسألة العذاب، وثيوديسيا مصطفى محمود!

بطبيعة الحال، لم يكن الدكتور ليفوت في كتاب كهذا أن يتناول مسألة العذاب والشرور في العالم، التي هي أم الذرائع عند الملاحدة كافة كما هو معلوم، حتى صارت يقال لها اليوم "مشكلة الشر"، فبوب لهذا القسم بالسؤال "لماذا العذاب؟". كيف يؤلف المفكر الكبير كتابا يخاطب به أقرانه مبينا فيه فلسفته الجديدة التي نقلته من الشك إلى "الإيمان"، ولا يقرر فيه موقف تلك الفلسفة عنده من ذروة سنام اللجاج الإلحادي عندهم؟ أتريدهم أن يتهموه بالتقليد، وبأنه تجاوز تلك القضية "الشائكة" (بزعمهم) وآثر الفرار من حلبة الجدل الفسلفي المستطير عليها، واختار لنفسه إيمان العامة والدهماء؟ معاذ اللّٰه! بل يجب عليه وجوبا أن يقدم لهم ما يثبت أنه تبين وجه القضية بعقله ونظره الحر المستقل، على نفس الطريقة التي بها تبين وجه الحق فيما سواها! ولهذا تراه يبدأ ذلك الباب بقوله "المثقفون لهم اعتراض تقليدي على مسألة البعث والعقاب، فهم يقولون... إلخ" فحتى في سياق الرد على الملاحدة منكري البعث والحساب، أبى الدكتور إلا أن يصفهم "بالمثقفين"! وهذا منه غلط واضح إذ ليس كل من يسمى "بالمثقفين"، حتى في أوساط المفكرين المعاصرين من أمثاله، ينكر البعث بالضرورة! فالصواب الواضح أن يقال "الملاحدة من المثقفين"، أو "الدهريين من المثقفين" أو نحو ذلك، إن كان ولابد ناسبا إياهم "للثقافة" على أي حال!

وعندما يسوق الدكتور قول من سماهم "بالمثقفين": "كيف يعذبنا اللّٰه واللّٰه محبة؟"، فلا تدرى هل جهل الدكتور أن هذا اعتقاد النصارى وليس الدهرية، وأنهم هم من يصفون الرب بالمحبة المطلقة لجميع خلقه لما في كتبهم من تحريف معروف في هذه المسألة، أم أنه ينسب النصارى إلى الاعتراض (الذي وصفه "بالتقليدي") على مسألة البعث والعقاب، فيشير إليهم هم دون غيرهم بقوله "المثقفون"؟! قال الدكتور: "والواقع أن عبارة اللّٰه محبة عبارة فضفاضة يسيء الكثيرون فهمها ويحملونها معنى مطلقا ويتصورون أن اللّٰه محبة على الإطلاق"، قلت: وهذا رد غلط ولا شك، إذ العبارة باطلة مردودة رأسا، لأن اللّٰه تعالى لا يوصف إلا بما وصف به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله صلى اللّٰه عليه وسلم، ولم يرد في الكتاب ولا في السنة وصف اللّٰه بأنه "محبة"! ثم يقال إن الوصف بالمحبة بهذا الإطلاق ليس من صفات الكمال، وصفات اللّٰه تعالى كلها حسنى، بالغة من الكمال منتهاه! ومن كمال اللّٰه تعالى أنه يحب من يشاء ويبغض من يشاء، ولا يحب إلا من هو أهل لأن يحب!

والحق أن الذين يبغضهم الرب جل وعلا أكثر من الذين يحبهم بأضعاف مضاعفة على التحقيق، وكما تواترت النصوص بمعناه، ومع ذلك لا يصح أن يقال "اللّٰه بغضاء" أو "اللّٰه كراهية" مثلا، تماما كما لا يصح أن يقال "اللّٰه محبة"! المحبة لها من يستحقها والبغض له من يستحقه، وهذا من مقتضيات الحكمة، فلا يحب من حقه أن يكره إلا سفيه أحمق، سبحان اللّٰه وتعالى علوا كبيرا! هذا ما يرد به على تلك العقيدة المتهافتة (قولهم: اللّٰه محبة)، لا أن يقال إنها عبارة

"فضفاضة" أساء فهمها الكثيرون! لماذا تلتمس تأويلها وكأنها من نصوص الوحيين يا دكتور؟

وعلى عادته، لا يفوته إذ ذكر الحكمة والعدل الإلهيين (وأنهما يقتضيان ألا يحب الظالمين وأن يقهر المتجبرين المتكبرين .. إلخ)، أن يقرر كيف وصل إلى إثباتهما لله تعالى، خشية أن يتهم بأنه أسسهما في نفسه على غير "العلم الحديث"، معاذ الله! فيقول: "وبمقتضى ما نرى حولنا من انضباط القوانين في المادة والفضاء والسماوات يكون استنتاجنا للعدل الإلهي استنتاجا سليما يعطي الصفة لموصوفها.. وكل البيانات التي تحت أيدينا تقوم لتؤكد صفة العدل الإلهي والنظام والحكمة والتدبير". اهـ. قلت: فعلى هذا الكلام، يلزم اعتقاد أن من لم تجتمع له تلك البيانات الفيزيائية ونحوها مما يقصده الدكتور، لم يمكنه "استنتاج" العدل الإلهي "استنتاجا سليما يعطي الصفة لموصوفها"! وإذن فالصحابة رضي الله عنهم لم "يستنتجوا" العدل الإلهي استنتاجا سليما لأنهم لم يروا انضباط قوانين المادة في الفضاء والسماوات وتلك "البيانات" التي اجتمعت للدكتور، أو على أقل تقدير: يلزم أن يكون إيمان الدكتور ومن عاصروه ووقفوا على ما وقف، أحسن من إيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهذا مقتضى طريقة الجهمية عبر القرون، وإن اختلفت مشاربهم والنظريات الفلسفية التي عظموها وكرهوا أن يتهموا بالجهل بها أو باعتناق ما يخالفها من الدين أو يخالف ما تقتضيه!

قال الدكتور (ص. ٦٠-٦١): "والإنسان مربوب بقوة أعلى منه وهو عديم الحيلة في قبضة تلك القوة. ويستوي الأمر أن يسمي المؤمن هذه القوة .. "اللّه" وأن يسميها الملحد "الطبيعة" أو "القوانين الطبيعية" أو "قانون القوانين" فما هذا التهرب إلا سفسطة لفظية.. المهم أنه لم يجد بدا من الاعتراف بأن هناك قوة تعلو على الإنسان وعلى الحوادث.. وأن هذه القوة تعذب وتنكل"

قلت: لو كان للدكتور أدنى حظ من العلم الشرعي، لعلم أن قوله "يستوي الأمر أن يسمي المؤمن هذه القوة اللّه، وأن يسميها الملحد الطبيعة" ظاهره التسوية في الاعتقاد بين أن يسمى اللّه تعالى "بالقوة"، وأن يسمى "بالطبيعة"! وإذن فلو قال الملحد أنا أعبد الطبيعة التي تسمونها أنتم باللّه، فهو ومن يعبد اللّه وحده لا شريك له سواء في حقيقة ما يعبدون، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم! ويأبي الدكتور إلا أن يزيد الطينة بلة فيقول: " فما هذا التهرب إلا سفسطة لفظية"، والخلاف اللفظي عند العلماء هو قسيم الخلاف المعنوي، وهو ما لا يترتب عليه حكم كما هو معلوم، وكما جهله الدكتور! فهل صار الخلاف بين الملحد الدهري والمسلم الموحد خلافا لفظيا؟!

لا شك أن أنصار الدكتور ومريديه والمتحمسين له سيقولون عند هذا النقد ونحوه: أنت لم تفهم كلام الدكتور، فالرجل قطعا لا يسوي بين الملحد والموحد في الدين، ولا يقول إن الخلاف بينهما لفظي، وهل ألف كتابه هذا وغيره إلا للنقض على الملاحدة؟ وأقول لهم: رويدكم يا هؤلاء، فما زعمنا أنه يقصد

هذا، ومعلوم أن لازم القول ليس بقول حتى يلتزمه صاحبه! وإنما أردنا أن نبين شؤم الجهل بدين الله تعالى وقبح أثره على كل خائض في مثل ما خاض فيه الدكتور! فلو كان للرجل قدر ولو ضئيل من الأهلية في العلوم الشرعية، لوزن الألفاظ قبل أن يكتبها بميزان علمي دقيق، ولما تكلم بكلام ساقط (كقوله هنا "يستوي الأمر")، كلام له من اللوازم والمقتضيات ما يذهب بالدين رأسا وينسفه نسفا! فمن الواضح عند عرض هذا الكلام على ميزان العلم، أنه خارج مخرج من لا يبالي بأي إله يؤمن الناس، ما داموا يعترفون "بقوة عليا" تفعل كذا وكذا! فهل هذه طريقة المسلمين في الكلام عن رب العالمين وعن الاعتقاد في ذاته وفي صفاته؟ نحن أهل السنة لا نجيز لأحد من المسلمين أن يتأول لجاهل ضال بدعوى أنه قصد خلاف ما يوهمه لفظه، وكأنما نتكلم عن كلام نبي معصوم أو إمام من أئمة السنة مجمع على إمامته! فلا يجوز حمل المجمل على المفصل من كلام أحد سوى المعصوم صلى الله عليه وسلم، وهذا بإجماع أهل السنة! وأما أئمة المسلمين المشهود لهم بالإمامة أو بعلو الكعب في العلم بالسنة، فيترك غلطهم ولا يتابعون عليه مع الاعتذار لهم بما هم أهله، ويغلطون فيما قد يقع في كلامهم من إجمال موهم، من غير اتهام على منهج أو اعتقاد قد أجمع الأقران على سلامته عندهم!

فلا يأتينا من يقول لنا: احملوا كلام الدكتور على معنى كذا أو وجه كذا، إلا أجبناه بقولنا: وهل تقول بعصمته؟ المعصوم وحده هو من يتعين حمل مجمل كلامه على مفصله ومتشابهه على محكمه لأننا نؤمن (ديانة) بأنه لا

ينطق إلا بالحق، فهل الدكتور معصوم عندك؟ إن قلت نعم هو معصوم فقد حكمت على نفسك بالردة! وإن قلت ليس بمعصوم، سألناك: وهل تقول بإمامته في الدين أو بكونه من العلماء الكبار؟ فإن قلت نعم هو إمام وعالم كبير، قلنا فمن شهد له بالعلم الشرعي أصلا فضلا عن الإمامة فيه؟ هذا طبيب بشري له تاريخ طويل في الدهرية والإلحاد، وهو جاهل بدين الله عامي فيه، متمحض في العامية، ومع ذلك يقتحم كبرى قضايا الاعتقاد الغيبي بلا أهلية، فيأتي فيها بالضلال المبين ولا يبالي إلا بأن يدعو الناس لرأيه على أي حال، حتى إنه قد ثبت عليه القول بوحدة الأديان واستحسان صلاة غاندي الهندوسي كما مر معك! فمن أي وجه وبأي شيء نلتمس لمثل هذا المعاذير والمخارج فيما شذ به من كلامه وما شط من آرائه؟! لا يكون ذلك إلا من متعصب له مفتون ببضاعته، أو ممن لا يعلم حقيقة حاله!

وأما من صدق في غيرته على دين الله تعالى، واتقى الله في نفسه وفي المسلمين، وعلم بحال الرجل وبكلامه، فلا يدافع عن مثل هذا ولا ينتصر له أبدا! نحن لسنا نرد على إمام من أئمة المسلمين المجمع على علو كعبهم في العلم وسعة باعهم في خدمة السنة وعلوم الشريعة، حتى يقال لنا إنه ليس مما تترجح به موازين المصلحة الشرعية أن ننقب في أغلاطه ونحذر من كتبه، وقد أفضى إلى ما قدم! وكذلك يقال لمن اعترض على استخراجنا ما في كتب سيد قطب من الطوام والمصائب وبيان حقيقة حاله وتحذير المسلمين منه! هؤلاء متعالمون جهال مغرورون بعقولهم وببيانهم الساحر، اقتحموا علوم

المسلمين بلا أهلية، فأتوا فيها بالطوام والمصائب، وهذا أمر لا يجترئ عليه إلا صاحب كبر، مستحق للذم والتحقير، لا للثناء والتماس المعاذير! وهم على جهلهم وقولهم على الله بغير علم، معدودون عند الكثيرين من المفكرين الكبار، أصحاب النظر الثاقب المسدد فيما خاضوا فيه! ومنهم من نشأت في الأمة فرق بدعية على أثر تصانيفهم! وكتبهم لا تزال تطبع وتنشر ويقرأها الناس، ويتواصون بقراءتها، حتى وجدنا من الدعاة من يقول: لا يجوز أن تخلو مكتبة طالب العلم من كتب فلان وفلان، من أمثال هؤلاء، وكأنما نتكلم عن رياض الصالحين أو الأربعين النووية أو فتح الباري أو نحو ذلك من الكتب الأمهات التي تتابعت قرون المسلمين على ترغيب طلبة العلم في اقتنائها وكثرة التوافر عليها والمطالعة فيها! فإذا سكت أنا وسكت أنت وغيرنا من طلبة العلم الذين وقفوا على حقيقة كلام هؤلاء المتفلسفة الجهال الذين يقال لهم في الأوساط الإعلامية "المفكرون الإسلاميون"، فمن يبين للناس، بما يتحقق به قول السلف: "فانظروا عمن تأخذون دينكم"؟؟

قال تعالى: ((قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)) [الأعراف : ٣٣] وقال جل وعلا: ((الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)) [غافر : ٣٥] وقال سبحانه: ((إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ

هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [غافر : ٥٦]، فمثل هذا لا يوصف عندنا إلا بأن في نفسه كبرا كما وصفه الله تعالى، مهما بدا منه التواضع والانكسار والورع، ولا يقال له إلا: "نعوذ بالله السميع البصير مما أنت فيه"، وإن رغمت أنوف أتباعه ومحبيه! لسنا ندعي أنه يعلم أن ما يقرره في كثير من المسائل فيه كفر، وأنه يستكبر على من يبين له ذلك، وإنما نقول إن في نفسه كبرا بالضرورة هو الذي حمله من الأصل على أن يقرر رأيا يضربه من عقله، في أمور تنحني فيها ظهور العلماء وتشيب لحاهم، مع علمه بأنه ليس من أهل العلم بدين الله تعالى!! والرجل معروف أنه جادل في مسألة الشفاعة وأصر على جهله فيها حتى مات، والله المستعان!

قال العلامة العثيمين رحمه الله تعالى في مقطع صوتي فريد وقع لي قدرا في مقترحات موقع اليوتيوب دون أن أبحث عنه، في نفس اليوم الذي أخرجت فيه هذا الكتاب لأواصل كتابته بعد انقطاع دام بضع سنوات، قال رحمه الله: "وبهذه المناسبة أحذركم من رجل يأتي في التلفزيون يسمى "مصطفى محمود"، يشاهَد وله كتب ويزعم أنه كان شاكا في الأول ثم صار موقنا. وله كتاب بهذه العبارة "رحلتي من الشك إلى اليقين". وفي الحقيقة أنه، والله أعلم، ارتحل من الشك إلى يقين الكفر! لأنه له كتاب تفسير القرآن بالمفهوم العصري، يقول معنى لا إله إلا الله أي: لا موجود إلا الله، وهذا التفسير بعينه هو تفسير أهل وحدة الوجود. ونقل لي عنه أنه في الشهر الماضي كان يتكلم بالتلفزيون ويقول: إنه ما يجوز أن نعتقد أن الله سبحانه وتعالى مباين للخلق

وأنه على العرش وأنه في العلو. هذا لا يمكن! اللّٰه سبحانه وتعالى لا يتصور أن يكون كذلك! يحاول أن يقرر مذهب الجهمية، وهم حلولية كما تعرفون! الحلولية يرون أن اللّٰه تعالى بذاته في كل مكان. وهذا من الأمور التي يؤسف لها، أن يتسرب أمثال هؤلاء إلى الإعلام هنا، أو إلى نشر كتبه في بلدنا. لأنهم وإن تظاهروا بالصلاح، فهم ضالون سواء كانوا متعمدين ومستكبرين عن الدين أم كانوا جاهلين. نحن لا نقول إنه مستكبر لأنه ما ناقشنا الرجل، لكننا نقول إنه ضال بلا شك، وأن ما زعمه من الرحلة من الشك إلى اليقين، فإنه ضلال. بل إنه إن كان شاكا في الأول، فقد انتقل إلى مرحلة أخبث من شكه! انتقل إلى مرحلة يقين الكفر، في بعض كتبه التي قرأنا. فأنا بينت لكم هذا، لتحذَروا منه وتحذِّروا منه أيضا. نعم" انتهى كلامه رحمه اللّٰه. قلت:

فالحمد للّٰه الذي وفقني للقيام بما أوصى به علماؤنا وأئمة عصرنا، رحمهم اللّٰه تعالى.

قال الدكتور مصطفى معلقا على شناعات من يعذبون الأسرى ونحوهم بأبشع الوسائل:

> مثل هؤلاء الجبارين هل المفروض أن يقدم لهم اللّٰه حفلة شاي لأن اللّٰه محبة؟ بل إن جهنم هي منتهى المحبة ما دامت لا توجد وسيلة غيرها لتعريف هؤلاء بأن هناك إلها عادلا. وهي رحمة من حيث كونها تعريفا وتعليما لمن رفض أن يتعلم من جميع الكتب والرسل، وللذين

كذبوا حتى أوليات العقل وبداهات الإنسانية. أيكون عدلا أن يقتل هتلر عشرين مليونا في حرب عالمية.. يسلخ فيها عماله الأسرى ويعدمون الألوف منهم في غرف الغاز ويحرقونهم في المحارق.. ثم عند الهزيمة ينتحر هتلر هاربا وفارا من مواجهة نتيجة أعماله؟ إن العبث وحده وأن يكون العالم عبثا في عبث هو الذي يمكن أن ينجي هذا القاتل الشامل من ذنبه. ولا شيء حولنا في هذا العالم المنضبط الجميل يدل على العبث.. وكل شيء من أكبر النجوم وأدق الذرات ينطق بالنظام والضبط والإحكام. ولا يكون اللّه محبة.. ولا يكون العادل.. إلا إذا وضع هذا الرجل في هاوية أعماله.

قلت: قول الدكتور "يقدم لهم حفلة شاي" فيه سوء أدب واضح مع اللّه تعالى، وهذا لا يجوز حتى في مقام السخرية من الملحدين أو غيرهم!

ثم تأمل كيف يجعل الدكتور من تخليد المجرمين الفجرة من الكفار في النار بعد موتهم رحمة بهم، بل ويجعله آية محبة اللّه لهم، بل "منتهى المحبة"، خلافا لما عليه المسلمون ولما يقتضيه العقل الصريح! الإحراق في جهنم منتهى المحبة؟! بأي عقل هذا؟! وكيف تصور الدكتور أن يقبل منه عاقل هذا الكلام؟

هذا كلام من لم يسمع شيئا في حياته من خطاب القرآن للكفار والمنافقين، ولا حول ولا قوة إلا بالله! [19]

---

١٩ ولعله كذلك كلام من يقول بفناء النار، أو يعتقد أن لأرواح الكفار بعد تعذيبهم في الآخرة طورا آخر يكون قد حصل لهم فيه من التعلم والتسليم ما لم يحصل في هذه الحياة الدنيا، أو أنهم يخلدون في النار ولكن على معنى اللازمانية التي كانوا عليها قبل نفخهم في هذه الأجساد الدنيوية، وذلك بسبب جرائم أخرى – إلى جانب جرائمهم في الدنيا - كانت أرواحهم قد اقترفتها في عالم الذر في حياة سابقة لها، قديمة بلا بداية ولا زمان أيضا كما في اعتقاده! ولا أستبعد أن يكون هذا هو اعتقاد الدكتور مصطفى محمود، إذ قد أشار إلى مسألة الأطوار هذه، مع مسألة الديمومة والأبدية واللازمانية للروح مرارا في غير موضع من كلامه! واعتقاد اللازمانية في معنى الأبدية أو الأزلية ليس جديدا عند الجهمية في الحقيقة، فقد كان أبو حامد الغزالي يعتقد أن قدم الله تعالى "لازماني"، بمعنى أن الرب كان قبل خلق السماوات والأرض في وجود لا تجري عليه معاني الزمان أصلا، فلا يقع فيه شيء "بعد" شيء، ولا شيء "قبل" شيء! ومن هنا ظهرت مقولة الأشاعرة المشهورة: "لا يوصف خالق الزمان بصفات الزمان ولا يوصف خالق المكان بصفات المكان"! والسبب في ظهور ذلك التحريف لصفة الأزلية والأولية لله تعالى عند الغزالي هو نظريته في امتناع وقوع التسلسل في الماضي، التي كانت مقدمة من مقدمات برهان الحدوث لديه! فتأمل كيف تتشابه قلوب المعطلة من غيرما تواطؤ فيما بينهم، وقل الحمد لله الذي عصمنا بالسنة من تلك الضلالات!

ومما يجدر ذكره في هذا السياق أني سمعت الدكتور في حلقة من حلقات برنامجه "العلم والإيمان" بعنوان "ماذا بعد الموت؟" يفرق بين الروح والنفس، ويدعي أن الذي يقبض من الإنسان إنما هو النفس فقط، لقوله تعالى ((وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ)) الآية [الأنعام : ٩٣]، فقال الدكتور: "أخرجوا أنفسكم، ما بيقولوش أخرجوا روحكم.. أنفسهم! يعني حكاية طلوع الروح وبتاع والكلام ده والروح راحت فين وإيه.. لأ! الروح دي علمها عند ربي ومالهاش دخل بالموضوع ده خالص!" وقال كذلك: "يقول لك الروح راحت فين، غلط، كلمة الروح دي ما يصحش نقولها خالص على لساننا، نلتزم باللفتة القرآنية أخرجوا أنفسكم، الكلام كله يدور حوالين النفس، لأن الأرواح عند ربنا خلاص، دي هي نفخة منه

الروح! "نفخت فيه من روحي"، دي حاجة خاصة بربنا، ما يصحش نجيب سيرتها دي خالص، ما نفهمش فيها حاجة خالص، لكن نفهم النفس، فنقول النفوس راحت فين"

قلت: ومن الذي قال إن "الكلام كله" في نصوص الإسلام في هذه المسألة محصور في هذه الآية؟ هذا من جهل الدكتور ولا شك، إذ جاء في السنة ما يصرح تصريحا بأن الروح تُقبض من الميت عند موته، ومن ذلك الحديث الطويل الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن البراء ابن عازب رضي الله عنه (برقم ١٧٨٠٣) وصححه الألباني رحمه الله، وفيه قول النبي عليه السلام حاكيا قول ملائكة الموت للمؤمن عند قبضه: "أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ" ثم قَالَ عليه السلام: "فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِلاّ قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ فَيَقُولُونَ فُلانُ بْنُ فُلانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ..." إلى آخر الحديث، ففيه كما ترى التسوية بين النفس والروح من حيث كونهما يقبضان من الإنسان عند الموت! قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢٩٢/٤): "فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الرُّوحَ تَبْقَى بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْبَدَنِ؛ خِلَافًا لِضُلَّالِ الْمُتَكَلِّمِينَ؛ وَأَنَّهَا تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ خِلَافًا لِضُلَّالِ الْفَلَاسِفَةِ؛ وَأَنَّهَا تُعَادُ إلَى الْبَدَنِ، وَأَنَّ الْمَيِّتَ يُسْأَلُ فَيُنَعَّمُ أَوْ يُعَذَّبُ" اهـ. وقد مر معك كلام الدكتور في نسبة الروح إلى الأبدية والديمومة وكذا، وأنها لازمانية ولا علاقة لها بمرور الزمان أصلا، والله المستعان!

وفي نفس الحلقة يقرر الدكتور بدعته في نفي عذاب القبر، وادعاء أن الذي ثبت إنما هو العرض على الجنة أو العرض على النار، حتى يعرف الإنسان منزلته بعد الحساب، مكتفيا في المسألة بفهمه لقوله تعالى: ((النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)) [غافر : ٤٦]، فقال إن قوله تعالى "يعرضون" دليل على أنه لا عذاب بالحرق إلا في الآخرة، وأن الذي يعانيه الكفار في قبورهم إنما هو عرض مواضعهم من النار عليهم فقط (ولا تعذيب في هذا إلا بالخوف والقلق والهواجس على حد قوله)! فتأمل كيف لم يبال الدكتور بالبحث في السنة أو في كلام السلف أو حتى في كتب التفاسير ليرى إن كان قد صح تأسيسه لتلك العقيدة لديه بشأن عذاب القبر على هذه الآية أم لم يصح! بل إنه لم يبال حتى بأن يستظهر الآية نفسها ويحفظها قبل أن يسجل الحلقة حتى يتلوها من حافظته إذا أراد الاستشهاد بها، فتوقف ليبحث عنها في ورقة كانت أمامه! فبالله أي تهاون بالعلم

الشرعي أشد من هذا، وأي جرأة على القول على الله تعالى بغير علم أعظم من هذا؟ نسأل الله السلامة!
قال تعالى: ((سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)) الآية [التوبة : ١٠١]، وقال جل وعلا: ((وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) [الطور : ٤٧]، والآيتان معدودتان عند أهل السنة من الأدلة على عذاب القبر، وفيهما كما ترى تصريح بأن في القبر عذابا دون عذاب الآخرة، ومن مفهومهما أنه عذاب حسي ومعنوي معا كما يكون في الدنيا وكما يكون في الآخرة، وليس في مجموع الآيات (شاملة آية آل فرعون) تخصيص لأحد الوجهين دون الآخر، ومن زعم ذلك فعليه الدليل! بل قد تواترت السنة على ذكر أنواع من العذاب الحسي للمشركين في قبورهم، ففي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال: "إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير، وإنه لكبير، فأما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة" ثم أخذ بجريدة رطبة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، فقالوا يا رسول الله لم صنعت هذا؟ فقال: "لعلهما أن يخفف عنهما ما لم ييبسا" اهـ، وفي صحيح مسلم أنه عليه السلام قال: "إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ." اهـ، فهل يكون الصوت المسموع الشنيع المذكور في هذا الحديث إلا من العذاب الحسي الأليم وأثره من صراخ وعويل ونحو ذلك؟ وفي حديث طويل عن البراء ابن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وإنَّ العبدَ الكافرَ إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا وإقبالٍ من الآخرةِ نزل إليه من السَّماءِ ملائكةٌ سودُ الوجوهِ معهم المُسوحُ فيجلِسون منه مدَّ البصرِ ثمَّ يجيءُ ملَكُ الموتِ حتَّى يجلِسَ عند رأسِه فيقولُ أيَّتها النَّفسُ الخبيثةُ اخرُجي إلى سخطٍ من اللهِ وغضبٍ قال فتُفرَّقُ في جسدِه فينتزِعُها كما يُنتزَعُ السَّفُّودُ من الصُّوفِ المبلولِ فيأخذُها فإذا أخذها لم يدَعوها في يدِه طرفةَ عينٍ حتَّى يجعلوها في تلك المُسوحِ ويخرُجُ منها كأنتنِ جيفةٍ وُجِدت على وجهِ الأرضِ فيصعدون بها فلا يمُرُّون بها على ملأٍ من الملائكةِ إلَّا قالوا ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ فيقولون فلانُ بنُ فلانٍ بأقبحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا حتَّى يُنتهَى به إلى السَّماءِ الدُّنيا فيُستفتَحُ له فلا يُفتَحُ له ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ اكتبوا كتابَه في سِجِّين في الأرضِ السُّفلَى فتُطرَحُ روحُه طرحًا ثمَّ قرأ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ فتُعادُ روحُه في

قال الله تعالى: ((أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)) [آل عمران : ١٦٢] وقال تعالى: ((مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً)) [الإسراء : ١٨] وقال في المنافقين: ((وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)) [التوبة : ٤٦]، وقال تعالى: ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)) [محمد : ٢٨]،

جسدِه ويأتيه ملَكان فيُجلسانه فيقولان له من ربُّك فيقولُ هاه هاه لا أدري قال فيقولان له ما دينُك فيقولُ هاه هاه لا أدري فيقولان له ما الرَّجلُ الَّذي بُعِث فيكم فيقولُ هاه هاه لا أدري فيُنادي منادي من السَّماءِ أن كذب فأفرِشوه من النَّارِ وافتحوا له بابًا إلى النار فيأتيه من حَرِّها وسَمومِها ويُضيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختلِفَ أضلاعُه ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجهِ قبيحُ الثِّيابِ مُنتِنُ الرِّيحِ فيقولُ له أبشِرْ بالَّذي يسوءُك هذا يومُك الَّذي كنتَ توعدُ فيقولُ من أنت فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالشَّرِّ فيقولُ أنا عملُك الخبيثُ فيقولُ ربِّ لا تُقِمِ السَّاعةَ" اهـ. (صححه الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب رقم ٣٥٥٨)، قلت: فقوله عليه السلام: أفرشوه من النار، وقوله "فيأتيه من حرها وسمومها" وقوله "ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه"، كل هذا عذاب حسي شديد كما لا يخفى، نسأل الله السلامة!

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله تعالى في شرح الطحاوية (٥٧٨/٢): "وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول. فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا." اهـ. قلت: أي غير ما يكون من إعادة الروح لبدن النائم إذا قام من ميتته الصغرى. فمن قال إنه يكون عذابا معنويا لا حسيا فقد حكم عقله فيما لا مدخل للعقل إلى معرفته أصلا، لأنه لا عهد لنا بمثله في هذه الدار، وقد مر بك ما يثبت كونه عذابا حسيا ومعنويا معا، والله أعلى وأعلم.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال: "إنَّ اللّٰهَ إذا أحبّ عبدًا دعا جبريلَ فقال: إنِّي أحبّ فلانًا فأحِبّه. قال فيُحبّه جبريلُ. ثمَّ يُنادي في السّماءِ فيقولُ: إنَّ اللّٰهَ يُحبّ فلانًا فأحِبّوه. فيُحبّه أهلُ السّماءِ. قال ثمَّ يُوضعُ له القَبولُ في الأرضِ. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريلَ فيقولُ: إنِّي أبغِضُ فلانًا فأبغِضْه. قال فيُبغضُه جبريلُ، ثمَّ يُنادي في أهلِ السّماءِ: إنَّ اللّٰهَ يُبغِضُ فلانًا فأبغِضوه. قال فيُبغِضونه. ثمَّ تُوضعُ له البغضاءُ في الأرضِ"، إلى غير ذلك مما في معناه، فاللّٰه تعالى يبغض ويكره ويمقت كما أنه يحب ويرضى سبحانه، فليس للكفار يوم القيامة إلا اللعنة والبغضاء! وأما الرحمة فإنما تنزل في الآخرة بالمؤمنين دون غيرهم! وهذا المعنى متواتر في الكتاب والسنة مجمع عليه، بل هو معلوم من دين الإسلام بالضرورة! ومع ذلك يجعل الدكتور من التخليد في جهنم غاية المحبة وقمة الرحمة للمجرمين والكفار، فإنا للّٰه وإنا إليه راجعون! ووجه ذلك عنده أن اللّٰه "يُعلمهم" بالنار ما رفضوا أن يتعلموه في الدنيا وما أصروا على تكذيبه من الحق الواضح، وهذه سفسطة بينة، لا يقولها حتى طوائف النصارى الذين يثبتون للرب تعذيب الكفار في النار مع قولهم في نفس الوقت بأن "اللّٰه محبة" وأنه قد "أحب العالم كله"، واللّٰه المستعان!

ولعله أراد بذلك محبة من ظلمهم هذا المجرم المنتقم منه بالتخليد في النار، وليس محبته هو نفسه، لكن كما مر ليس باب العدل والانتقام من المجرمين

متعلقا بمعنى المحبة أصلا، وإنما هو متعلق بمعنى المكر بالماكرين وبغض المجرمين المستكبرين.

وفي سياق تقريره أن تفاضل المخلوقات في الخلقة وفي الدرجة وفي العمل والجزاء (للمكلفين) هو أمر بدهي فطري لا يحتاج إلى إثبات، قال الدكتور (ص. ٦٤-٦٥):

> هذه بداهات وأوليات تقول بها الفطرة والمنطق السوي ولا تحتاج إلى تدبيج مقالات في الفلسفة ولا إلى رص حيثيات ومسببات، ولهذا كانت الأديان كلها مقولة فطرية.. لا تحتمل الجدل ولا تحتمل التكذيب.. ولهذا كانت حقيقة مطلقة تقبلها العقول السوية التي لم تفسدها (غير واضح) الفلسفة والسفسطة .. والتي احتفظت ببكارتها ونقاوتها وبرئت من داء العناد والمكابرة. ولهذا يقول الصوفي إن الله لا يحتاج إلى دليل بل إن الله هو الدليل الذي يستدل به على كل شيء. هو الثابت الذي نعرف به المتغيرات، وهو الجوهر الذي ندرك به اختلاف الظواهر، وهو البرهان الذي ندرك به حكمة العالم الزائل، أما العقل الذي يطلب برهانا على وجود الله فهو عقل فقد التعقل. فالنور يكشف لنا الأشياء ويدلنا عليها. ولا يمكن أن تكون الأشياء هي دليلنا على النور وإلا نكون قد قلبنا الأوضاع.. كمن يسير في ضوء النهار ثم يقول.. أين دليلك على أن الدنيا نهار.. أثبت لي بالبرهان.

ومن فقد سلامة الفطرة وبكارة القلب.. ولم يبق له إلا الجدل وتلافيف المنطق وعلوم الكلام.. فقد فقد كل شيء وسوف يطول به المطاف، ولن يصل أبدا.

قلت: إن كنت حقا تراها كما تقول بديهيات وأوليات لا تحتاج إلى برهان فلسفي ولا إلى "رص حيثيات ومسببات"، فبالله ما وجه تأليفك للمقالات الأولى من هذا الكتاب نفسه؟ ألست قد أحدثت برهانا من قانون الديناميكا الحرارية الثاني لإثبات حدوث العالم، وتكلفت إثبات وجود البارى بالبرهان النظرى؟ فهل مسألة العدل الإلهي ومسألة الحكمة الإلهية من الأوليات، وأما حدوث العالم ووجود صانعه ووجود الروح في الجسد فمن جملة النظريات التي تعوز للاستدلال والبرهنة والتأسيس على مقدمات سابقة مثلا؟ إن كان طلب إثبات وجود البارى هو عندك كمن يسير في ضوء النهار ثم يطلب الدليل على أننا في وقت النهار، فلماذا تكلفت ما تكلفت إذن؟

مشكلة كثير من متكلمة العصر أيها القارئ الكريم أنهم لا يعلمون أنهم متكلمون، ولا يعلمون أن طريقتهم هي بعينها طريقة أهل الكلام، بعجرها وبجرها! بل ومنهم من لا يدرى أنه فيلسوف مسفسط مغرق في السفسطة، بل يراه أشد الناس حربا على الفلاسفة وبيانا لتهافتهم! يرى أحدهم نفسه مفكرا أو عالما أو باحثا أو كذا، فإن قيل له أنت "متكلم" أو أنت "متفلسف"، كره ذلك جدا ودفعه عن نفسه! وكأن ذلك التفكير الذي به يستسيغ أحدهم لنفسه

لقب "المفكر"، لا يمكن أن يضل به صاحبه المنهج والطريقة أينما ذهب به عقله، والله المستعان! فنقول: وهل ضل الفلاسفة والمتكلمون إلا بمثل هذا الظن نفسه؟ تلافيف المنطق وعلوم الكلام التي تستقبحها هذه، هي كل ما قرأناه منك في هذا الكتاب إلى الآن يا دكتور، ففي أي شيء أنت؟ كان المتكلمون الأوائل يظهرون ذم الكلام وبغضه والتنفير منه، حتى إن حوققوا في ذلك قالوا إنهم إنما يضنون به على غير أهله، ويشفقون منه على العامة والضعفاء، وإنما يؤذن فيه لمن يرون أنفسهم، أو يرونهم هم، من النبهاء والأذكياء! وأما المتكلمون المعاصرون فكثير منهم لا يعلمون أنهم متكلمون أصلا، بل وبعضهم لم يدرس الكلام يوما من الدهر! ووجه كونهم متكلمين ليس انتسابهم إلى المذهب الأشعري أو المعتزلي أو الكرامي أو غير ذلك من مذاهب الجهمية الأوائل، وإنما هو تلبسهم بطريقة الكلام في الرد على الفلاسفة ونصب البراهين النظرية في المغيبات المحضة من أجل إثبات صحة الملة، وما ترتب عليها من إفساد لمصادر تلقي المعرفة بالعقيدة! وإلا فيقينا لو أنك سألت واحدا من "المفكرين الإسلاميين" المعاصرين أن يحقق لك الفارق بين مذهب الأشاعرة ومذهب الماتريدية مثلا لغاط في محله!

ثم بأي عقل أو دين يقال إن "الأديان كلها" (هكذا) مقولة فطرية؟ عبادة بوذا وكريشنا وغانش من دون الله تعالى مقولة فطرية؟ عبادة البقرة والطوطم مقولة فطرية؟ عبادة الصليب والمسيح من دون الله مقولة فطرية؟ عبادة إلهين ندّين متكافئين، إله للخير والآخر للشر، مقولة فطرية؟ والله لا يجوز أن

يدافع عن هذا الكلام بادعاء أن الدكتور إنما يقصد الأديان السماوية دون غيرها، فإن من لا يقدر على ضبط ما يقصد من العبارات بشأن الدين على وجه الدقة التامة، فلا ينبغي له أن يشتغل بالكتابة أصلا، إن كان يتقي الله في نفسه وفي الناس!

فصدق الذي قال:

دع عنك الكتابة لست منها ..... ولو غرقت ثوبك في المداد

أما ما نسبه الدكتور إلى الصوفية ففيه تفصيل! فأما أولا فليس الصوفية وحدهم هم من يقولون إن الله لا يحتاج البشر في معرفته إلى دليل نظري، وإنما يقولها كافة العقلاء من الموحدين، خلا المتفلسفة والمتكلمين! وأما ثانيا فقولهم إن الله هو الدليل على كل شيء، فيه إفراط واضح ومبالغة سمجة لا يمكن قبولها! فمن الواضح الذي لا يحتاج إلى توضيح – أيضا! - أننا لا نستدل في كل مسألة من مسائل العلوم "بالله" لإثبات ما نريد! وأما قول الدكتور: "هو الثابت الذي نعرف به المتغيرات، وهو الجوهر الذي ندرك به اختلاف الظواهر" اهـ. فهذا من شقشقات الصوفية وهذرماتهم التي لا تصريف لها في سوق العلم، والله المستعان!

والملفت أنه من أول المبحث إلى آخره، يضرب الأمثال بالقتلة السفاحين وبالطغاة الذين يعذبون الناس في الدنيا بغير ذنب، مع أنه لا شيء من تلك الأعمال يوجب لفاعله الخلود في النار أصلا، وإنما يخلد في النار من مات

على الشرك كما هو اعتقاد المسلمين! والذين يرد عليهم الدكتور، أكثرهم لا يعترضون على مبدأ العقوبة في الآخرة، ولكن على مسألة التخليد في النار تحديدا، إذ يستكثرون تلك العقوبة على رجل اختار ألا يؤمن بالله بعدما جاءه الرسول، وبقي على ذلك حتى مات عليه! والواقع أنه ما كان لجهمي عقلاني أن يرد على هذه المسألة مهما قال، لأنه يسوغ للملحد دعواه خفاء "الدليل" على وجود البارى ابتداء، ويقبلها منه من حيث المبدأ!

فالذي يرفض الرسالة ويردها على رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوى أنه لا يرى دليلا على وجود من أرسله أصلا، هذا عند الجهمي ناظر باحث، يجوز وصفه بأنه "طالب للحق"، "باحث عن الحقيقة" ونحو ذلك مما يكرمونهم به من الألقاب في هذا الزمان، والله المستعان! وعليه فمن غير المتصور أن يجد من سوغ لهؤلاء "نظرهم"، أي وجه لإطلاق الحكم بعقوبة الخلود في النار على من اختار الموت على الشرك والتكذيب بالرسالة أو جحدها بعدما بلغته، كما هو اعتقاد المسلمين، لأنه يلزمه تجويز العذر لمثل هذا، وإيراد الخفاء وتفاوت العقول في الترجيح النظرى، على تلك الثوابت الفطرية التي يجعلها الفلاسفة أصلا نظريا لقبول مبدأ الرسالة نفسه من الأساس! أي أننا إن قدرنا أن ادعى بعض الملحدين يوم القيامة بين يدي الله تعالى أنهم لم يجدوا بين أيدي الرسل وأتباعهم دليلا صالحا لإثبات وجود البارى (وليسوا بفاعلين قطعا وإنما سيعترفون بالاستكبار والجحود والمراء جميعهم يومئذ كما أنبأنا به ربهم في كتابه، ولكن نقول على التنزل)، فإنه يلزم الجهمي المتكلم أن يقبل ذلك من

بعضهم لأن أصل تجويز النظر في تلك القضايا يورد إمكان ذلك الخفاء في حق بعض الدهرية عقلا، لا سيما أشدهم عتوا في التفلسف والنظر والجدال في تلك القضايا، الذين أفنوا أعمارهم في السفسطة في تلك البابة حتى قالوا: لم نجد فيها دليلا واحدا يرقى للإثبات بلا معارض!

فإذا كان ذلك كذلك، فكيف تكون عقوبة الغلط في النظر والبحث والاجتهاد المزعوم، أو قصور العقل عن درك الحق، هي التخليد في أشد العذاب؟ لو كان مما يتصور في الحجة الرسالية أن يعجز "الباحث عن الحق" عن إدراكها وعن قبولها كما يجب على كل مخاطب بها، بسبب الخفاء أو الغموض أو تقارب الأدلة تحتها أو اشتباه مقدماتها أو نحو ذلك مما قد يعانيه الباحث الناظر في أي مسألة نظرية، لما جاز أن يوصف بالعدل والحكمة من يؤاخذ كل من يزعم أنه بحث ونظر ووازن بين الأدلة فلم ير فيما جاء به الرسول ما يقنعه بأن الإسلام هو الدين الحق، فمات على الكفر والتكذيب، دع عنك أن يُحكم عليه بأشد العذاب (التخليد في جهنم)! ومع ذلك فالقرآن طافح باللعن والوعيد الشديد لهؤلاء الممارين المتنطعين الذين كفروا بما على مثله آمن الناس من آيات المرسلين وكذبوهم فيما جاؤوا به، لماذا؟ لأن مقابلة الرسل بتقديم الشرك على ما جاؤوا به من التوحيد، وبتكذيب الآيات التي أرسلهم الله بها، هو أعظم الجرائم وأشنعها على الإطلاق، وهو قطعا جرم يستحق أشد العقوبات على الإطلاق! ولهذا، ومع أنه لا أحد العذر أحب إليه من ربنا تبارك وتعالى، إلا أننا لم نر في أي موضع من القرآن ولا في السنة عذرا أو استثناء

من العذاب الأخروي لمن كذبوا الرسول بعد النظر والبحث والتفكر والتأمل .. إلخ!

قال تعالى: ((وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)) [البقرة : ٣٩] وقال تعالى: ((وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)) [المائدة : ١٠] وقال جل وعلا: ((فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)) [الأنعام : ٥] وقال تعالى: ((انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)) [الأنعام : ٢٤] وقال تبارك وتعالى: ((قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ)) [الأنعام: ٣١] وقال جل شأنه: ((وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [الأنعام : ٣٩] وقال سبحانه: ((إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)) [الأعراف: ٤٠] وقال سبحانه في بيان حال المجرم من هؤلاء المتنطعين بالبحث والنظر: ((كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر)) (المدثر ١٦-٢٦)، إلى آخر الآيات في هذا المعنى!

فلماذا توعد الله ذلك الوعيد البالغ وشنع ذلك التشنيع الشديد على كل من زعم، بعدما بلغته رسالة الرسول، أنه لا يرى صدقه، أو أنه لا يرى لرسالته أساسا في العقل تقوم عليه أو أنه قرأ في الإسلام وبحث فيه وفكر وقدر، فلم يجد ما يقنعه بأنه الدين الحق، ولا ما يرجح كون آيات المرسلين من عند الله حقا على دعوى كونها من صنائع السحرة، أو نحو ذلك من لجاجهم وتذرعهم السوفسطائي؟ لأن الحق الذي جاء به الرسول والآيات التي يبعث الله بها رسله محجة بيضاء ناصعة لا يكذب بها إلا كذاب مكابر بالضرورة! والحق أن قبح جريمة الإشراك بالله تعالى وشناعتها لا يخفى على عاقل إذا نبه إليه وأزيلت عنه غفلته، كما جاء به خطاب القرآن! ولولا أن الله أوجب على نفسه ألا يعذب حتى يبعث رسولا، لاستأصل المشركين كافة ولأهلكهم لشركهم كافة ولما ظلمهم بذلك سبحانه! قال تعالى: ((وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)) الآية [الإسراء: ١٥]، وقال جل شأنه: ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)) [القصص: ٥٩]، وقال تبارك اسمه: ((وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)) [يونس : ١٩]، فمن رحمته وحلمه وحكمته جل وعلا وفضله، قطع الرب كافة المعاذير على المشركين بإرسال الرسل إليهم، وجعل بلوغ الرسالة شرطا في المؤاخذة، فمن كفر بعد قيام الحجة الرسالية عليه، وقد عُمِّر في الأرض ما يكفي لأن يفيء ويتوب ويراجع نفسه كما في قوله تعالى ((أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ

وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ)) الآية [فاطر : ٣٧] فقد حق عليه إذن أشد العذاب! ذلك العذاب الذي كذبه لما سمع الوعيد به، أو أعرض عنه ولم يبال! ولهذا فقد يعذر اللّه المشركين بالجهل إن لم تبلغهم الرسالة، وإن كانوا يكفرون بأظهر الواضحات![٢٠] أما من بلغته الحجة وسمع ورأى ما على مثله آمن الناس، ثم أبى أو أعرض ومات على ذلك، فهذا لا يمكن أن يعذره اللّه بحال من الأحوال، ولن يزعم هذا يوم القيامة أن الأمر خفي عليه أو تقاربت "أدلته" أو اشتبهت، ولن يستطيع، لأنه لن يملك المشركون يومئذ بين يدي اللّه من حيل الكذب وخداع النفس والناس ما هم غارقون فيه الآن في هذه الحياة الدنيا، بل تنقطع السبل بينهم وبين ذلك غاية الانقطاع! ((إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ)) [البقرة : ١٦٦]

---

[٢٠] وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه إذا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح فوالله لئن قدر على ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا فلما مات فعل به ذلك فأمر الله الأرض فقال اجمعي ما فيه منه ففعلت فإذا هو قائم فقال ما حملك على ما صنعت، قال يا رب خشيتك، فغفر له وقال غيره مخافتك يا رب. اهـ. فتأمل كيف أعذر الله ذلك الرجل بجهله مع أنه كفر بمسألة بدهية واضحة، ألا وهي قدرة الباري جل وعلا على أن يجمع رماده من أقطار الأرض مهما انتشر فيها، ويعيد خلقه كما بدأه أول مرة! فهو لما لم يبلغه ما به تقوم الحجة الرسالية في هذه القضية، لم يؤاخذه الله باعتقاده خلاف الفطرة فيها، لأن المؤاخذة مترتبة عند الله تعالى عند أهل السنة والجماعة على بلوغ الحجة السمعية لا على المعرفة الفطرية السابقة وحدها، وهذه سنة الله الكونية الماضية في جميع أمم البشر من لدن آدم عليه السلام ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا))!

والقصد أن المشرك إذا سمع الحجة تتلى عليه بلسانه، فقد قامت عليه قياما تاما، ولم يبق له من عذر إن كذب أو جادل أو تمارى ، ومع هذا فالجهمية لا يعاملون الممارين في حجية الرسالة من الفلاسفة وأضرابهم معاملة الكذابين المكابرين، وإنما يعاملونهم معاملة النظار المجتهدين والباحثين المحققين، ولهذا يلزمهم إعذار المكذبين إن زعموا أنهم لم يروا من الأدلة ما يكفي لقبول رسالة الرسول، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وإنما يحملهم (أعني المتكلمين) على ذلك هوى النفس وحظها والحرص على نوال الحظوة والمنزلة بين رؤوس الفلاسفة والنظار الأكاديميين المعظمين في أهل زمانهم كما بينا! قال جل شأنه ((وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فإن الجنة هي المأوى)) [النازعات : ٤٠-٤١] فلا تؤوي الجنة إلا من نهى نفسه عن هواها لله جل وعلا! ونهي النفس عن الهوى مغالبة شديدة ومعالجة مستمرة، قلّ من يرزق فيها التوفيق والفلاح! وقلّ من يرزق البصيرة بما في نفسه من دقيق الهوى وحظ النفس الخفي، ثم يرزق نهي نفسه عن ذلك كله وحجزها عما تهوى وإن عانى في ذلك من المكاره ما عانى، فلا يوفق إلى تلك الخصلة إلا من كان عند الله من الصادقين! ولو صدق أهل الكلام لنهوا أنفسهم عن هوى العلو بين الفلاسفة وإظهار التفوق والتمكن من بضاعتهم والتحلي بما به يستحق المرؤ صفة العقل والعلم عندهم، ولاكتفوا ببيان الحق الجلي الواضح كما بينه الله في كتابه وكما بينه الرسول عليه السلام فيما صح عنه من السنة وكما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم!

ولم يفت الدكتور أن يتكلف اختراع "ثيوديسيا" خاصة به في هذا الكتاب، بالرد على مسألة الشر والعذاب والألم الدنيوي، فيقيس حياة الإنسان في هذا العالم على الممثل في المسرحية، الذي ارتضى الدور وقبل به من قبل أن تبدأ المسرحية، ولكنه نسي ذلك المعنى وذلك الميثاق فجاء القرآن ليذكره! والظاهر أنه كان يقصد ميثاق الذر وقبول الإنسان أمانة التكليف والاستخلاف، ولكن بدلا من أن يذكر تلك المعاني بالنصوص الدالة عليها، تكلف ضرب مثال من أقبح ما يكون، حتى إنه قال في معرض كلامه (ص. ٦٦): "نسي هذا الإنسان أنه كان روحا في الملكوت وأنه جاء إلى الدنيا بتكليف وأنه قبل هذا التكلف وارتضاه.. وأنه كانت بينه وبين خالقه (المخرج الأعظم لدراما الوجود) عهود ومواثيق.. وأنه بعد دراما الوجود الدنيوي يكون البعث والحساب كما أنه بعد المسرحية يكون النقد من النقاد والنجاح والفشل من الجمهور والسقوط في عين النظارة أو الارتفاع في نظرهم." اهـ. قلت: ولا يجوز بحال من الأحوال وصف الله تعالى "بالمخرج الأعظم"، ولا وصف التكليف الإلهي "بدراما الوجود"، سبحان الله وتعالى على ذلك العبث علوا كبيرا! ((فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)) [النحل : ٧٤]

ثم ما معنى "كان روحا في الملكوت" هذه، وما هو "الملكوت" هذا، وما حقيقة اعتقاد الدكتور فيه، ومن أين جاءه العلم به؟ ألا يحق لقارئه أن يسأله هذا السؤال؟

قال الدكتور (ص. ٦٣): "أما كيفيات العذاب بعد البعث، فلا يمكن القطع فيها تفصيلا لأن الآخرة كلها غيب.. ويمكن أن يكون ما ورد في الكتب المقدسة بهذا الشأن رموزا وإشارات .. كما نقول للصبي الذي لم يدرك البلوغ حينما يسألنا عن اللذة الجنسية إنها مثل السكر أو العسل لأننا لا نجد في قاموس خبراته شيئا غير ذلك .. ولأن تلك اللذة بالنسبة له غيب لا يمكن وصفه بكلمات من محصوله اللغوي فهي خبرة لم يجربها إطلاقا، وبالمثل الجنة والجحيم هي خبرات بالنسبة لنا غيب ولا يمكن وصفها بكلمات من قاموسنا الدنيوي.. وكل ما يمكن هو إيراد أوصاف على سبيل التقريب مثل النار أو الحدائق الغناء التي تجرى من تحتها الأنهار .. أما ما سوف يحدث فهو شيء يفوق بكثير كل هذه الأوصاف التقريبية مما لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر. ويمكن أن يقال دون خطأ إن جهنم هي المقام الأسفل بكل ما يستتبع ذلك المقام من عذاب حسي ومعنوي .. وأن الجنة هي المقام الأعلى بكل ما يستتبع ذلك المقام من نعيم حسي ومعنوي. والصوفية يقولون إن جهنم هي مقام البعد (البعد عن الله) والحجب عن الله، والجنة هي مقام القرب بكل ما يتبع ذلك القرب من سعادة لا يمكن وصفها."

قلت: وهذا من مسالك الجهمية في القرمطة على النصوص، بل من مسالك الفلاسفة من قديم! أن ينفى الاشتراك المعنوي بين ما في الغيب وما في الشهادة مطلقا، ثم يقال ليس في النص الديني من وصف لتلك الغيبيات إلا التخييل، كما تقول للصبي الذي لم يبلغ الحلم، حينما يسألك عن اللذة

الجنسية، إنها مثل السكر أو العسل، كما عبر الدكتور!! وإذن فكل ما جاء به خبر الغيب مجاز في مجاز وتقريب وتخييل صرف، وليس هو وصفا مطابقا للواقع بوجه ما، سواء كان ذلك من غيب الزمان أو غيب المكان! وهذا هو أتم ما يحتاج إليه الفيلسوف المنتسب إلى الملة الكتابية من تحريف النصوص في كتابه، حتى تسلم له نظرياته مما يعكر عليها أو يفقدها سلطانها المعرفي الميتافيزيقي المطلق، الذي به صار هو فيلسوفا وصار الناس تبعا له! لابد أن يكون ما جاء في القرآن من خبر حوادث الخلق الأولى، ونظيره في سفر التكوين عند أهل الكتاب، تخييلا كله وتصويرا أدبيا لتقريب الصورة إلى عقول العوام البسطاء! وإلا فكيف يخاطبهم الأنبياء بالنسبية العامة والانفجار الكبير وكوزمولوجيا الكون المتمدد (مثلا)، تلك الحقائق الكبرى التي "انكشفت" للفيلسوف من طريق لا تدركها عقول الدهماء والعوام، ولا يجد الأنبياء عبارة عنها في ألفاظ الناس؟؟ ولابد أن يكون وصف السماء بأنها سقف محفوظ وبأنها مرفوعة على عمد، وبأن لها أبوابا تحرسها الملائكة، وبأنها تتشقق وتتساقط كسفا يوم القيامة، لابد أن يكون ذلك كله مجرد تشبيه أو تصوير فني أو تخييل لا غير، لأنهم ما كانوا ليتصوروا ألا يكون فوق رؤوسهم إلا الخلاء المملوء بالنجوم والمجرات، الماضي في التوسع والتمدد باطراد مطلق، في فراغ لا-إقليدي non-Euclidian لا حافة له Boundless ولا نهاية لرحلة من يسافر فيه، إلا، ربما، أن يرجع إلى نفس النقطة التي انطلق منها بعد بلايين السنين!! فالسؤال "ما شكل الكون" Shape of the Universe في ظل النسبية

العامة أصبح سؤالا عن فرض رياضي ذهني صرف، لا يتخيله إلا من كان له قدر من دراسة هندسة الطوبولوجيا الانحنائية! وأيا ما كان ما يتخيله فإنما هو صورة ذهنية صرفة لسطح متصل Manifold يختلط فيه الزمان والمكان معا وجوديا، وينحني على هيئة الـ3-Torus! فلا محل في هذا الوهم والخرف لقبة سماوية صلبة، مرفوعة بلا عمد نراها، يفصل بينها وبين التي تليها خلاء كروي الشكل، على سبع طبقات كما هو المفهوم من نصوص الوحيين عند قرون المسلمين وكما عند أهل الكتاب من قبلهم! فإذا أردت أن تنتفع من تلك النصوص في مثل هذا، فالأكاديمية الفلسفية تعلمك اليوم أن تقول كما قال الدكتور هنا: إنها رموز وإشارات وتقريبات لا غير!

الغيبيات "لا يمكن القطع فيها بشيء تفصيلا، من طريق الوحيين، لأنها كلها غيب"! الآخرة غيب، نشأة العالم غيب، نشأة الأنواع الحية كلها ومنها الإنسان غيب، ما وراء الكون المنظور Observable Universe غيب، والغيب لا يمكن القطع فيه بشيء على سبيل التفصيل من طريق النصوص الدينية، لأن النصوص لا يمكن أن يفيد بالقطع أبدا كما زعمه الرازي ! أما النظريات "العلمية" في نفس تلك الأبواب (الغيب)، فأكمل ما يرام من العلوم والمعارف البشرية، وهي زبدة الإبداع البشري والإنجاز المعرفي، وثمرة مسيرة طويلة من النظر الرياضي والبحث والتدقيق والقياس والرصد والاختبار .. إلخ، فلا يماري فيها إلا جاهل لا يلتفت إليه! الرياضيات (التي هي لغة رمزية منطقية) تفيد في وصف تلك الغيوب وصفا تفصيليا تام التفصيل، ويوثق في جميع ما يأتي

من طريقها، ويحكم بمطابقته التامة للواقع، تماما كما كانوا يقولون قديما في إفادات المنطق الأرسطي، بينما يقال لنصوص الوحيين إنها تخييلات وإشارات ورموز، لا تحمل على أنها تقرر الحقيقة، ولا ينبغي ذلك! لماذا؟ يقولون: لأنه مهما كان ما في تلك الغيوب فعقول البشر لا تحيط بها ولا تدركها، لأنهم لم يروا له نظيرا في عادتهم، كما تصف للطفل الصغير ما هي اللذة الجنسية، فتقول هي كالسكر والعسل!! فكيف إذن استجازت تلك العقول نفسها أن تضع الفروض والأقيسة والتمثيلات التي تتناولها المعادلات والنظريات، التي تطرد طردا لا حد له ولا نهاية ولا يستثنى منه شيء في الوجود البتة، مع أن الحال كما وصفت؟

قال الرازي في المحصول: "الاستدلال بالأدلة اللفظية مبني على مقدمات ظنّية، والمبني على المقدمات الظنية ظني؛ فالاستدلال بالخطاب لا يفيد إلا الظن، وإنما قلنا: إنه مبني على مقدمات ظنية؛ لأنه مبني على: نقل اللغات، ونقل النحو والتصريف، وعدم الاشتراك، والمجاز، والنقل، والإضمار، والتخصيص، والتقديم والتأخير، والناسخ، والمُعارض، وكلُّ ذلك أمورٌ ظنية، فثبَتَ أن التمسّك بالأدلة النقلية مبني على مقدمات ظنية، والمبني على الظني ظني"

وهي شبهة قد أشبعها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ردا وتفنيدا، بل ورد عليها بعض الأشاعرة أنفسهم كالقرافي وغيره، ولكنها راجعة إلى نفس تلك

الآفة اليونانية التي تأسس عليها كلام هذا الرجل هنا. يقال لك ما حاصله: الأسس التي بها يترجح فهم على فهم لنصوص الوحيين، هي بالجملة أضعف من حيث قوة الثبوت العقلي من أصول الميتافيزيقا المعتمدة أكاديميا عند الفلاسفة، ولا يوصل منها للقطع كما يوصل إليه من أصول الفلاسفة! فإذا تكلم الفيلسوف (أو باصطلاح أهل العصر: عالم الفيزياء أو الأستروفيزياء) بكلام جار على أصوله العقلية في مسألة من مسائل الغيب، كان بالضرورة أولى بالقبول من أي كلام يعارضه مما يتأسس على أصول أصحاب العلوم الشرعية في فهم النصوص! مع أن الواقع أن الفيلسوف لن يقتحم المغيبات المطلقة بأي كلام من طريقه إلا كان بالضرورة تخمينا وتوهما ورميا بأقيسة لا يجد من طريقه ما يرجح فيها فرضا على فرض أبدا! فلا مدخل للعقل إلى تلك الأبواب أصلا، من حيث تحصيل المعرفة بما في الوجود إثباتا ونفيا، ولا ينتهى منه إلى معرفة في نفس الأمر! ولكن الفيلسوف يريد أن يوهم نفسه ويوهم أتباعه بأن ما معه من النظريات المعتمدة في أروقة الفلسفة هي العلم الأعلى والقطع العقلي الفائق، الذي لا طمع للنوع البشري في تحصيل ما هو أوثق أو أثبت أو أقطع منه معرفيا بشأن ما في الغيب وما في الوجود. فإذا قوبل بدعوى القطع بخلاف ما يزعم، من طريق أتباع المرسلين، لم يجد إلا أن يهدم عليهم أساس تلك الطريق بكل سبيل! فإن لم يستطع أن يدخل عليهم الشك في وجود من صنعهم ابتداء، يطالبهم بدليل "عقلي" يأتي على هواه لإثباته (وهو ما يضطرهم به لأن يأسسوا ووجوده على نفس تلك

النظريات عنده)، أدخل عليهم الشك في جواز إرسال ذلك الصانع للرسل وإنزاله الكتب، وألجأهم لأن يثبتوا ذلك مبدئيا من طريق ما عنده أيضا! فإن أجابوه لذلك، طالبهم بإثبات نبوة صاحب الكتاب الذي يحتجون به، بطريق هو يرتضيها! فإن فعلوا، دخل عليهم بتوهين دلالة النص، أي نص، على خلاف ما هو معتمد عنده، من أصل المبدأ المعرفي، بمثل هذا الذي ترى ! فإن لم يفلح، انتهى مكره إلى التشكيك في دلالة نص معين بخصوصه على خلاف ما يقوله هو في نفس الأمر!

والواقع أن القوم على أصولهم، فلا يمكن الثقة في إفادة أي نص من النصوص لا للدلالة القطعية ولا حتى للظنية! إذا كان وجود الباري نفسه مدار ثبوته عندهم على البراهين النظرية التي يدخلها من موارد الشك والمعارضة العقلية الصرفة ما هم به أخبر ممن سواهم، فكيف بطبقات من النظر المزعوم ينبني بعضها فوق بعض، على ذلك الأساس النظري الجدلي الأول، بناء هو، على أصولهم، أوهى من خيط العنكبوت؟؟ لهذا قلت من قبل إن هؤلاء لا يخرجون من الفلسفة وأصولها وزبالتها، إلى إظهار التسليم بصحة الدين ونسبة نصوص الوحيين إلى رب العالمين، إلا تحت ضرورة اجتماعية تحملهم على ذلك حملا، فيصبح الرجل مضطرا، سيكولوجيا، لحمل نفسه على التيقن بما كان من قبل يراه موردا للشك والمعارضة النظرية، مع أنه على الأصول التي يظل متشبثا بها في إيمانه كما كان في كفره، لا يمكن التيقن في شيء من دعاوى الناس أصلا، مهما كانوا به جازمين وعليه متوافرين!!

والمتيقن في شيء ما، أيا ما كان، يقين الجازم المنتهي المشنع على مخالفه، إنما يكون على تلك الأصول، سفيها أحمق لا يدري ما هنالك مما بلغته أنظار المحققين والمدققين الكبار، الذين نظروا في نفس الأمر فشككوا في ثبوته، مسكين غايته أن يقلد الناس على ما يقولون! فلا ينتهي من كان ابتداؤه الفلسفة إلى إظهار اليقين التام الواجب على المسلمين، إلا إذا اضطر اجتماعيا لمخالفة أصوله التي انطلق منها! بل ومخالفة مقتضى تلك الأصول في كل برهان أو دليل كلامي يزعم أنه كان هو ما "أقنعه" بصحة الإسلام!! ولا يحكم من كان هذا ابتداؤه وكانت تلك أصوله، بتكفير فئة من المنتسبين إلى الإسلام، بمقالة من المقالات التي دخلها الخلاف النظري بين المتكلمين والمتفلسفة، كالقول بقدم العالم مثلا، إلا وهو يخالف بذلك مقتضى أصوله اليونانية لا محالة، كما بسط الكلام عليه في غير موضع! فالطريقة نفسها تسوغ كل خلاف وتجيز النزاع في كل قضية، مهما كانت ضرورية قطعية لا ورود للمعارض عليها عند جماعة من البشر! ولهذا قلنا لأهل الكلام إنكم تخادعون أنفسكم عندما تتوهمون أن مسالككم في مجادلة الفلاسفة ترفعكم بين أيديهم كما تطمعون! بل يظل الواحد منكم متهما في عقله مطالبا بالاعتذار عن إيمانه ما دام مظهرا التمسك والتشبث به بلا قيد ولا شرط، ويظل القوم يستهجنون معذرته البتة مهما اعتذر بدليل نظري أو برهان فلسفي، لأن أصول اللعبة التي أبيتم إلا الانخراط فيها مع هؤلاء مدارها على استحسان التشكيك في كل شيء، ومساءلة كل قضية، وإيراد المعارض الفلسفي عليها، مهما كانت

جلية راسخة عند كل عاقل، وتسفيه كل مانع من ذلك أو معترض عليه في أيما قضية، أيا ما كان موضوعها!

فعندما يقول الرازي إن النصوص لا تفيد إلا بالظن لأن موانع القطع راجعة إلى آلة الفهم اللغوي نفسها، وإلى طريقة العلماء في معرفة دلالات الألفاظ في استعمال أهل اللسان الذي نزل به القرآن، فهذه شبهة أوهى من خيط العنكبوت، ونظيرها في هذا العصر طعن طه حسين في صحة نسبة الشعر الجاهلي إلى شعراء الجاهلية، يريد أن يصل من ذلك إلى إيهام الناس بأن مستند علماء الملة في القطع بشيء مما يفهمونه من نصوص الوحيين لا ثقة فيه، بل لا أساس له! وهي شبهة كأن صاحبها يريد أن يقول للمعترضين على تخبيطه الفلسفي والكلامي من أهل الحديث والأثر: لستم أحسن حالا مني كما تتوهمون، فالنظر والاختلاف العقلي في نفس الاستدلال اللغوي، وارد على مقدمات كل دعوى تزعمونها بأن النص قاطع بخلاف ما عندي!!

وهذه يا إخوان، مقالات بدعية من جرى عليها وترسل معها تزندق بل أغرق في الزندقة لا محالة!! فإذا كان القرآن لا يستفاد منه القطع بأمر ما، والسنة لا يستدل بها في العقائد إلا ما تواتر، ولا يكون ذلك، حتى مع التواتر، إلا دليلا ظنيا على أحسن الأحوال، والإجماع لا ثبوت له ولا يمكن أن يثبت في شيء مما اختلف فيه المتكلمون والفلاسفة من الغيبيات والإلهيات، لأنه إن كان أساسه النص، فالنص لا قطع بدرايته، أيا ما كان موضوعه، فبالله ما فائدة

الوحي إذن، وما حاجة الناس إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أصلا عندكم؟؟ هذه أصول رجل لولا الضرورة والخوف من بطش من حوله من المسلمين لأعلن ردته وإلحاده ولم يبال!!

ليس كل ما صح فيه أنه استدلال لغوي، وجب أن يكون ظنيا لا طريق للقطع فيه، كما أنه ليس كل ما قيل فيه إنه دليل عقلي، وجب أن يكون قطعيا لا ظن فيه ولا غلط ولا خرف ولا سفسطة!! وهذا من أوليات العلوم، الشرعية وغيرها، عند سائر العقلاء الأسوياء! فإذا أضفنا إلى ذلك ما تقدم من أن ما يزعمه الفلاسفة والمتكلمون استدلالا قائما بالمطلوب في إثبات وجود البارى نظريا واستمداد صفاته الواجبة له والمعاني الممتنعة في حقه من طريقهم، لا يعدو أن يكون وهما وتخرصا وخرفا على التحقيق، لا يفيد الظن أصلا فضلا عن أن يفيد القطع العقلي، وأن الناس لا يتصور لها كسب المعرفة بشيء مما في الغيب إلا من طريق السمع، تبين لكل عاقل مبلغ ما عند الفلاسفة من الظلم والإفساد لمعارف الناس وأديانهم، والعدوان على عقولهم باسم العقل!

نأتي إلى أخبار الغيب فنقول، كما قال هذا المصنف، هي إشارات ومجازات ورموز وتشبيهات، وليست وصفا مطابقا للواقع، ولا يمكن أن يستفاد العلم التفصيلي بما في الغيب على سبيل القطع من النصوص، لامتناع الاشتراك المعنوي البتة، ثم نختتم هذا الهذيان وتلك القرمطة الباردة، بأن نقول إن الجنة

فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لنوهم أنفسنا والسامعين بأننا ما قررنا هذا الذي قررناه إلا تأولا للقرآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لهذا حارب شيخ الإسلام رحمه الله المتكلمين حربا ضروسا في مسألة المشترك المعنوي هذه، لأن النص الشرعي يصبح كعدمه ولا فائدة منه ولا يفيد معرفة أصلا، إذا قيل إنه لا اشتراك في المعنى بين ما في الغيب وما في الشهادة بوجه من الوجوه! أو إذا قيل إن إثبات القدر المشترك المعنوي يقتضي إثبات المماثلة أو المشابهة في الحقائق والكيفيات! نعم قد صح أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ليس في الجنة مما في الدنيا شيء إلا الأسماء، ولكن هذا لو حمل على نفي الاشتراك المعنوي البتة، كما يحمله هؤلاء، لبطل القول حتى بأنها تشترك مع ما في الدنيا في الأسماء!! وهل يشترك مسميان في اسم يطلق عليهما، أو موصوفان في معنى صفة تصح فيهما، إلا لحقيقة مشتركة تقوم بهما في الأعيان بالضرورة؟؟ لابد من إثبات تلك الحقيقة الأصلية حتى يصح الاشتراك في الاسم بضرورة اللغة والعقل معا! فإذا ثبتت تلك الحقيقة المشتركة، لم يلزم من مجرد ذلك، الاشتراك في غيرها من الحقائق والكيفيات والصفات التفصيلية ذات الصلة والتعلق في أي منهما، ولا فيما به تقوم تلك الحقيقة نفسها في كل واحد منهما! أنا اسمي إنسان، وأنت أيها القارئ اسمك إنسان، لأن العقل قد أخذ من جملة الموجودات التي تشبهنا أنا وأنت فيما نتشابه فيه مما يختص به مسمى

"الإنسان" ويمتاز به عن غيره من الموجودات المعتادة، جملة من الحقائق الجوهرية الكلية التي إن عدم ما تتحقق به في موجود ما، كلها أو بعضها، لم يجز أن يقال إنه "إنسان"! أي لم يجز أن يشترك ذلك الموجود معنا أنا وأنت في ذلك الاسم، أو أن يقال إنه من ذلك النوع الذي يقال له نوع الإنسان! فهل من ضرورة كوني أنا وأنت ممن يدخلون تحت اسم الإنسان، أن يكون شعرنا أسود اللون، مثلا، أنا وأنت، أو أن تكون بشرتنا بيضاء، أو نكون ذكورا بلا تأنيث أو نحو ذلك من الصفات التي لا يقال إنها واجبة لكل ما هو إنسان، أو من مقتضى التسمي باسم الإنسانية؟؟ أبدا! فإذا التشابه بيني وبينك في الحقيقة أو الحقائق الموجبة لمعنى الإنسانية، لا يقتضي أن نتشابه أنا وأنت في غير ذلك من الحقائق التي يتفاوت فيها أفراد النوع الذي يقال له الإنسان! فعندما نسمع قول الله تعالى مخاطبا الإنسان في الآخرة: ((لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)) [ق : ٢٢]، فلا يجوز أن نقول إن بصره إذن لا يكون على معنى البصر الذي نعرفه في الدنيا، لأننا لا نعرف نظيرا في عادتنا لذلك الإبصار الأخروي، كما أن الصبي لا يعرف نظيرا للذة الجنسية! بل يعرف أصل معنى اللذة بوجه ما، ولولا أنه يعرف أن ما تصفه له، يشترك معنويا مع ما يعرفه سلفا في أصل معنى اللذة، ما فهم شيئا مما تقول وما استفاد من تشبيهك إياها بلذة ذوق السكر أو العسل على اللسان كما مثلت به! فهذا هو الاشتراك في الاسم والمعنى، الذي توجبه الحقيقة القائمة بالمشتركين في الأعيان! هذه لذة وتلك لذة! وكذلك هنا، هذا إبصار

وذاك إبصار، وكلاهما على الحقيقة الكلية الموجبة لوصف الشيء بأنه مبصر، أو الفعل بأنه إبصار! الاشتراك في الاسم موجب للقدر المعنوي المشترك، الذي هو مقتضى قيام الحقيقة المعينة الملازمة لذلك المعنى في أذهاننا، في كل فرد من أفراد ذلك النوع المشار إليه بحسبه! وإلا فلو لم يكن إبصار الناس في الآخرة، الموصوف في الآية بأنه حديد، على نفس المعنى الكلي المشترك مع جميع ما عهدنا وصفه في الدنيا بأنه إبصار، ولم يكن على نفس الحقيقة الأصلية الموجبة لاتصافه بذلك المعنى، لم يجز في اللغة أن يسمى باسم الإبصار، أو أن تستعمل تلك اللفظة في العبارة عنه أصلا، من مبدأ الاستعمال اللغوي! ولهذا قلنا إن المعطلة يكذبون القرآن، شعروا بذلك أم لم يشعروا! يصف ربهم نفسه بلفظة ما في الكتاب، فيقولون: لا يمكن أن يكون قد أراد المعنى المشترك الذي يربط بينها وبين كل موصوف بنفس المعنى من الموجودات المعتادة، لأنه لا يمكن أن يكون بين ذاته وبين ذوات المخلوقات اشتراك في أي معنى على الإطلاق، ولا في أي حقيقة! فلماذا إذن اختار تلك اللفظة سبحانه في العبارة عن نفسه جل شأنه، ولم يعدل عنها إلى غيرها في مقام خطير كهذا؟؟ وما معنى أن يستعمل اللغة في وصف نفسه أصلا، في كتاب الفرض فيه أنه كتاب هداية تامة وبيان تام، إذا كان مجرد استعمالها يقتضي إثبات قدر مشترك معنويا لو نفيناه لفقد اللفظ إفادته بأي معنى ولفقد الخطاب قيمته المعرفية بالكلية؟؟ هل نقول استوى على عرشيه أم لا نقول استوى؟ يقولون: بل قولوا استوى، كما في القرآن،

ولكن لا تثبتوا معناها المعروف في اللغة، لأنكم لو فعلتم لمثلتموه بخلقه لا محالة! فبالله كيف يكون الله تعالى قد أخبرنا عن نفسه بشيء هنا أو أفادنا بعلم ما أو معرفة ما أو بين لنا ما لم نكن من قبل نعرفه؟؟ الآية إذن كعدمها، والخطاب كعدمه!! بل هو إذن خطاب شر من عدمه، لأنه لو قدرنا أن لم يخاطبنا بقوله "على العرش استوى" في أيما موضع من كتابه، لسلم الناس من أن يفهموها على ما تزعمونه من التشبيه بالمخلوقين، الذي هو لازم إجرائها على معناها اللغوي الجاري على ألسنة الناس، ولما صاروا في حرج من أمرهم، يسمعون كلاما يخاطبهم به ربهم ثم يسلكون معه مسلك من لم يسمع ولم يدر ولم يبلغه شيء!!

فالقدر المشترك المعنوي لو كان على ما يزعمه الفلاسفة والمتكلمون، متلازما في جمع الحقائق والكيفيات التفصيلية المعتادة تحته، لتشمل كل داخل فيه، أينما وجد ومتى وجد، في الشهادة أو في الغيب، لما جاز لرب العالمين أن يصف نفسه بشيء أصلا، ولا أن يخبر عما في الغيب بشيء! بل ولما جاز أن يوجد أصلا في الأعيان، لأنه إذن يكون نفس معنى وجوده في الأعيان، موجبا إن أثبتناه له، ما ينسب من الكيفيات والحقائق الوجودية التفصيلية لما اعتدناه من الموجودات القائمة في الأعيان، بما يوجب له مماثلة المخلوقين أيضا! نقول: موجود في الأعيان، إذن هو مركب من جسيمات كمومية بالضرورة، يكتسب صفاته التي يمتاز بها عن غيره مما في عادتنا من الموجودات العينية، من كون تلك الجسيمات على صفة معينة

وحالة معينة، مثلا! لماذا يضطر الفيلسوف المعاصر لأن يقول إن الموجود في الأعيان لا يكون إلا مركبا من جسيمات تحت ذرية؟ نفس السبب المنهجي الذي اضطر الفيلسوف القديم في القرون الأولى للأكاديمية اليونانية، لأن يقول: لا يكون الموجود في الأعيان إلا مركبا من جواهر وأعراض، أو من جسم وصورة، أو ما شاكل ذلك! لأن النظريات كانت ولم تزل توضع لتكون تكييفا وتفسيرا لقيام الصفات والمعاني بالموجود في الأعيان من حيث هو موجود قائم في الأعيان، بإطلاق! ما دام يصح فيه أنه موجود في الواقع Real فهو إذن، وبالضرورة الفلسفية، على تلك الكيفية القياسية التي أطلقناها في نظريتنا لنفسر بها كل ما يمكن أن يربط بين موجود في الأعيان وبين غيره من الموجودات من أنواع العلاقات والنسب العقلية! هو كذلك بمقتضى قيامه في الأعيان! ولهذا سميت الجسيمات تحت الذرية أو الكمومية بالجسيمات الأساسية Fundamental particles، لأن الفيزيائي يريد أن يعتقد، إذا حرر صفتها وخصائصها على طريقة القوم في ذلك، أنه لا تقوم صفة من الصفات بموصوف بها في الأعيان، أيا ما كان، ومتى كان وأينما كان، إلا لتركبه من تلك الجسيمات! هي تفسير قيامه في الأعيان، وقيام جميع الصفات به! فعلى هذه الطريقة اليونانية الفاسدة في إطلاق التكييفات والتحقيقات التفصيلية وتفسيرات الوجود والموجود وقيام الصفة بالموصوف بإطلاق، وامتياز الموجودات في الأعيان عن بعضها البعض، يصبح مجرد الاشتراك في المعنى

الكلي أو في الاسم، موجبا للاشتراك في الحقيقة والكيفية التفصيلية التي يفرضها الفيلسوف في نظريته!

فعندما يقول رب العالمين في القرآن إن في الجنة لبنا وعسلا، مثلا، فلا يمكن إلا أن يكون بينهما وبين اللبن والعسل المعروفين المعهودين لنا في الدنيا أي اشتراك معنوي في حقيقة معينة، دون أن يكون سبب قيام تلك الحقيقة بهما هو نفس سبب قيامها بالنظير الدنيوي الذي اشتركا معه في الاسم! نحن نقول لابد من قيام حقيقة معينة بلبن الآخرة تجعل أهل الجنة إذا ذاقوه، عرفوا أنه لبن! ولا يمتنع من ذلك أن يكون مخالفا للبن الدنيا في كثير من الحقائق والصفات والكيفيات، لأن اشتراكه في تلك الحقيقة الموجبة لثبوت الاسم فيه، مع سميه مما في الدنيا، لا يقتضي الاشتراك في غيرها من الحقائق والكيفيات التي اعتدناها في ذلك النوع في الدنيا، ولا في سبب قيام تلك الحقيقة نفسها بكل مسمى بنفس الاسم، مما اعتدناه في الدنيا! ليس كل ما يصح فيه أنه لبن، لابد أن يكون مركبا من تلك الجزيئات التي نسميها باللاكتوز مثلا! ولا كل ما يصح أن يكون اسمه "عسل"، يجب، بضرورة الاسم، أن يكون مركبا من الكربوهيدرات والمياه والبروتينات كما نجده في عسل الدنيا! هذه التفصيلات أو الحقائق التفصيلية ليست من أصل الوضع اللغوي لتلك الألفاظ وليست مما جرى عليه تحرى العرب في استعمال تلك الألفاظ وتنزيلها على المسميات بتلك الأسماء أصلا! ولكن الطريقة اليونانية توجب علينا أن نجعلها كذلك، لأن الفيلسوف إنما يضع نظريته لتكون تفسيرا لمبدأ

قيام الصفة بالموصوف بها بإطلاق، متى وجد وأينما وجد، وليس لقيامها بالأفراد المشتركة في تلك الأسماء في عادتنا البشرية التراكمية وحسب! وإذن فلا نستعمل تلك اللفظة في العبارة عما في الآخرة، مع علمنا من السمع بأن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومع علمنا بأنها ليس فيها مما في الدنيا إلا الأسماء، لا نستعملها أو لا يستعملها القرآن أو السنة في وصف ما في الجنة، إلا وجب أن نعتقد أنها لا تشترك في المعنى مع شيء مما في الدنيا بوجه من الوجوه! اسمه لبن واسمه عسل، نعم، ولكن ليس هو بلبن ولا هو بعسل على الحقيقة، بأي وجه من الوجوه، البتة!! لماذا؟ لأنه لو كان لبنا فعلا وعسلا على الحقيقة، مما انحصر اسم اللبن والعسل فيه عندنا، لوجب أن تكون "فيزياؤه" و"كيمياؤه" على ما هو معهود لنا في الدنيا! تماما كما قالت المعتزلة: سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، ولنفس السبب اليوناني الفاسد! حقيقة السمع على إطلاق نظريتهم، أنه عرض يقوم بالجسم، يُلتقط به الصوت إذا وقع على طبلة الأذن! فلا يكون الشيء متحققا بمعنى السمع في الأعيان على الحقيقة، كما "نعرفه"، إلا كانت تلك حقيقة ذلك فيه بالضرورة! فكيف نصنع بوصف الرب نفسه في القرآن بأنه السميع سبحانه وبأنه يسمع؟ قالوا: نقول سميع بلا سمع! اسمه السميع لكن لا يوصف بأن فيه سمعا على الحقيقة، لامتناع أن تقوم به "حقيقة السمع"! واسمه البصير ولكن لا يوصف بأن ذاته تقوم به تلك الحقيقة التي يقال لها البصر أو الإبصار! أو نقول كما قال المصنف هنا، هذه

كلها إشارات ورموز وتقريبات لا غير، والحقيقة شيء آخر بخلاف ذلك تماما، ولا يمكن أن نعقله أصلا! فمن أين جاء وجوب أن تكون الحقيقة التفصيلية لمعنى السمع في كل موجود يوصف به بإطلاق، على ما زعمتم؟؟ من قياس تمثيل؟؟! هذا هو قطع العقل وضرورته؟ وبأي عقل استحق إذن أن يسمي نفسه بالسمع والبصر أصلا، على مجاري اللغة في الخطاب يا عقلاء؟؟ وكيف يصح إذن أن يقال في نعيم الجنة إنه ليس فيه مما في الدنيا إلا الأسماء؟؟ بل والله ما يجوز أن تكون له تلك الأسماء أصلا في اللغة، إن كان الأمر كذلك!! وإذن يصبح النص وقد نزل بتغرير الناس والكذب عليهم، وإرشادهم إلى عقائد الوثنيين، التي لو ماتوا عليها ماتوا على الشرك، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!!

لهذا فما من فيلسوف ولا متفلسف إلا وستراه بالضرورة يعادي مسألة الاشتراك المعنوي هذه، ليس فقط بين الرب سبحانه وخلقه، ولكن بين كل ما في الغيب المطلق وما في الشهادة، من حيث المبدأ! لأنه لا يريد لشيء أن يعكر عليه إطلاقاته الميتافيزيقية التي اعتمدها في أكاديميته على أنها هي العلم وهي العقل الذي يحاكم إليه كل شيء!

رحلته إلى وحدة الشهود!

يغلو الدكتور في القسم التالي من كتابه، الذي ترجم له بقوله "ماذا قالت لي الخلوة"، غلوا كبيرا في مفهوم الكذب، فيجعل كل من يتزين أو يتطيب كذابا، مع أن النبي عليه السلام حبب في الطيب والتزين وأمر بإكرام الشعر ورغّب في تغيير الشيب، لكن كل ذلك عند صاحبنا كذب! حتى طقم الأسنان الذي يركبه "الأهتم" كما سماه، حتى يقدر على مضغ الطعام وعلى الكلام بصورة طبيعية، وحتى لا يبدو مشوها إذا فتح فمه، هذا عنده كذب! بل بلغ أن قال: "والبدلة السبور الخيفة التي تخفي تحتها فانلة صوف: كذبة"!!! بل من قرأ السلام على من يبيت له العدوان، فهو يكذب! مع أن النبي عليه السلام يقول: ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ قال: أفشوا السلام بينكم!! ويقول في المتخاصمين المتهاجرين، يلقتيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما من يبدأ بالسلام! فالنبي عليه السلام يوصينا بإفشاء السلام ليكون سببا ليحب بعضنا بعضا وإن كنا من قبل متنافرين أو متعادين أو متهاجرين، وهذا يقول إننا إن فعلنا ذلك كنا كاذبين!! ويقول كل ما يدور في عالم البيع والشراء يبدأ بالكذب! وإذن فلا علينا بفقه البيوع وبأحكام البيع والشراء في الإسلام! نحن كاذبون لا محالة إذا بعنا وإذا اشترينا!!

ثم يقول: "وفي عالم الدين ودنيا العبادات يطل الكذب الخفي من وراء الطقوس والمراسيم. شهر الصيام الذي هو امتناع عن الأكل والشرب بتحول إلى شهر

أكل، فتظهر المشهيات والحلويات والمخللات والمتبلات.. من كنافة إلى مشمشية إلى قطايف إلى مكسرات، ويرتفع استهلاك اللحم في رمضان فتقول لنا الإحصاءات بالأرقام إنه يصل إلى الضعف، ويصبح شهر رضمان هو شهر الصواني والطواجن. وبين كل مائة مصل أكثر من تسعين يقفون بين يدي الله وهم شاردون مشغولون بصوالحهم الدنيوية يعبدون الله وهم في الحقيقة يعبدون مصالحهم وأغراضهم ويركعون الركعة لتقضى لهم بها هذه المصالح والأغراض."

قلت: أما ما ذكر من إسراف الناس في المآكل والمشارب في رمضان، فهو ولا شك من تزيين الشيطان للناس بما يفوت عليهم بعض مقاصد الشرع من تشريع الصيام، ولكنه لا يصيرهم كذبة في زعمهم أنهم يصومون كما فرض عليهم ربهم!! والذي يصلي وهو غير حاضر النفس وغير خاشع، لا يكون بذلك مشركا عابدا لغير الله تعالى، هذا لا قائل به من علماء الملة أصلا!! ولكن ما شأنه هو بالعلم والعلماء؟ هو يحدثكم بما قالته له الخلوة، فلوموها هي ولا تلوموه!! العجيب أن الرجل يمضي لينتقد ما عند النصارى من تلبس بمخالفة لنصوصهم وكذا، فهل يريد أن يقول إن الإنسان كذاب لا محالة كيفما كان دينه، ومهما كان زعمه القرب من ربه؟؟ فكيف ينهى الله إذن عن الكذب وعن النفاق وعن الرياء إن كان الحال كما تدعي، مما لا انفكاك للإنسان منه مهما عمل؟؟ أم أنك تدعو الناس إلى تجاوز الأديان كلها لفلسفة جئتهم بها من عندك حتى يخرجوا من داء الكذب الذي لا تخرجهم منه الأديان كلها؟؟ فهل هذا كلام تائب

من الإلحاد، قد تاب من رفع فلسفته فوق الدين؟؟ اللّه المستعان! يتكلم عن حب الرجل لامرأته، يقول إنه مغرق في الكذب لا محالة، ففي كل كلمة كذبة، وفي كل لمسة كذبة!! لا عليك بأن الرسول عليه السلام قد قال في بضع أحدكم صدقة، إذا أتى أهله بالحلال!! كل الجماع وكل الحب بين الرجل وامرأته كذب في كذب!! وإذا كان ذلك كذلك، فالشعر كله كذب في كذب! كل كناية وكل استعارة وكل معنى أدبي فيه شيء من المبالغة، هو عنده كذب!

تأمل بعدما عجن كل هذا العجن، وكذب كل هذا الكذب على الدين وأهله، إلى أي شيء انتهى! يقول: "أين الصدق إذن؟ ومتى تأتي هذه اللحظة الشحيحة التي نتحرى فيها الحق والحق وحده؟ إنها تأتي على ندرة. في معمل العالم الذي يضع عينيه على ميكروسكوب بحثا عن حقيقة! هنا نجد العقل يتطلع في شوق حقيقي وصادق ويبحث عن حياد مطلق، ويفكر في موضوعية على هدى أرقام دقيقة ومقادير وقوانين. والعلم بذاته هو النظرة الموضوعية المستقلة عن الهوى والمزاج وأداته الوحيدة .. صدق الاستقراء .. وصدق الفراسة."

قلت واللّه يا إخوان لو أراد ملحد طبيعي دهري ، من أصحاب دعوة: "أنا أؤمن بالعلم"، أن يروج لشبهة أنه لا حق ولا صدق ولا علم إلا في معامل الطبيعيين ومراصدهم، وأنك لا تجد ذلك الصدق في الدين وأهله مهما فتشت عنه، لما وجد كلاما أحسن من هذا ليقرر به تلك الشبهة!! يقول، وكأنما هو فيلسوف يوناني يتأمل في نفسه على طريقة الرواقيين ومن شاكلهم: "واللحظة الأخرى

الصادقة هي لحظة الخلوة مع النفس حينما يبدأ ذلك الحديث السري .. ذلك الحوار الداخلي. تلك المكالمة الانفرادية حيث يصغر الواحد إلى نفسه دون أن يخشى أذنا أخرى تتلصص على الخط. ذلك الإفضاء والإفشاء والاعتراف والطرح الصريح من الأعماق إلى سطح الوعي في محاولة مخلصة للفهم. وهي لحظة من أثمن اللحظات. إن الحياة تتوقف في تلك اللحظة لتبوح بحكمتها. والزمن يتوقف ليعطي ذلك الشعور المديد بالحضور.. حيث نحن في حضرة الحق .. وحيث لا يجوز الكذب والخداع والتزييف، كما لا يجوز لحظة الموت ولحظة الحشرجة."

قلت: وهنا يرجع صاحبنا المتفلسف ليسحب بساط الإلحاد والعلموية الذي أوشك أن يتم بسطه فيما مر، ويلتمس طريقا لصبغ فلسفته بصبغة دينية صوفية، فيقول بعد التغني بالحق الذي لا نصل إليه في خضم هذا الكذب الطافح في مظاهر الدنيا (التي جعل منها العبادات الشرعية كما مر!!) إلا في لحظة واحدة في خلوة من الخلوات، فنرى الحق المطلق، الذي هو اللّٰه!!

يقول: "والحق في القرآن هو اللّٰه .. وهو أحد أسمائه الحسنى. وكل هذه المؤشرات الداخلية تدل عليه. وهو متجاوز للدنيا متعال عليها. نراه رؤية بصيرة لا رؤية بصر. وتبرهن عليه أرواحنا بكل شوقها وبكل نزوعها. والعجب كل العجب لمن يسألنا عن برهان على وجود اللّٰه.. على وجود الحق .. وهو نازع إليه بكليته، مشغوف به بجماع قلبه. وكيف يكون موضع شك من هو قبلة كل القلوب،

ومهوى جميع الأفئدة، وهدف جميع البصائر؟ كيف نشكك في وجوده وهو مستول على كل مشاعرنا؟ كيف نشكك في الحق ونطلب عليه دليلا من الباطل؟ كيف ننزلق مع المنطق المراوغ إلى هذه الدرجة من التناقض فنجعل من لب الوجود وحقيقة حقائقه محل سؤال؟ إني لا أجد نصيحة أثمن من أن أقول: ليعد كل منا إلى فطرته.. ليعد إلى بكارته وعذريته التي لم تدنسها لفلفات المنطق ومراوغات العقل. ليعد كل منا إلى قلبه في ساعة خلوة. وليسأل قلبه. وسوف يدله قلبه على كل شيء."

قلت: هو الوجود الحق، وكل ما سواه وجود باطل، فكيف نجعل من لب الوجود وحقيقة حقائقه محل سؤال؟ لا يصلح هذا ولا يستقيم! فالخلوة إذن توصلنا إذن إلى وحدة الشهود ومنها إلى وحدة الوجود! هذا ما تدلنا عليه الفطرة، وبهذا نخرج من الشك إلى اليقين!! الرجل يوشك أن يصرح هنا بوحدة الوجود. ولا يغرنكم أنه يرجع وينفي وحدة الوجود في الجزء اللاحق، حيث يتكلم عن دلالة التوازن الكوني العظيم في مقادير الخلق الإلهي في العالم على كمال قدرة البارى سبحانه، فيقول: "هذا التوازن العظيم والاتساق المذهل والتوافق والتلاحم والانسجام الذي يتألف من ملايين الدقائق والتفاصيل يصرخ بأن هناك مبدعا لهذه البدائع وأنه إله قادر جامع لكل الكمالات، قريب من مخلوقاته قرب دمها من أجسادها، معتنى بها عناية الأب الحنون مستجيبا لحاجاتها سميعا لآهاتها، بصيرا بحالاتها، وأنه الله الذي وصفته لنا الأديان بأسمائه الحسنى ولا سواه.. وليس القانون الأصم الذي تقول به العلوم

المادية البكماء، ولا إله أرسطو المنعزل، ولا إله أفلاطون القابع في عالم المثل.. ولا هو الوجود المادي بكليته كما تصور إسبينوزا وأتباع وحدة الوجود، وإنما هو الأحد الذي ليس كمثله شيء."

قلت: فوحدة الوجود المنفية عنده إنما هي أن يكون الرب هو الوجود المادي الحقيقي! فيكون وجود العالم هو الحق، هو الوجود الحق، وهو ذات الله! فهذا عنده ممنوع باطل! ولكن من أصحاب وحدة الوجود من يقولون إن وجود كل ما سوى الله باطل ووهم لا حقيقة له البتة! فكل ما حولنا من مادة فهو وهم تتصوره أذهاننا، والله وحده هو الموجود الحق. وهذا مذهب ابن عربي وأتباعه، وهو ما يجنح إليه كما بينا فيما مر معنا الكلام عليه من كلامه. فمن غير المستغرب أن ترى رجلا يستنكر وحدة الوجود على المعنى الأول، المعنى السبينوزي الطبيعي Naturalistic Pantheism، ولكنه يقول بالمعنى الثاني، ولا يرى أنه قائل بوحدة الوجود، وإنما يراه محققا للتوحيد الحق بزعمه: أنه لا موجود بحق إلا الله!

ثم يقول: "والعقل العلمي لا يعترف بهذه الكلمات الصوفية ويريد أن يرى الله ليعترف به .. فإذا قلنا له إن الله ليس محدودا ليقع في مدى الأبصار، وإنه اللانهاية، وإنه الغيب، يقول لنا العلم: إنه لهذا لا يعترف به، وإنه ليس من العلم الإيمان بالغيب."

قلت: الاستناد إلى دعوى أن الله "غير محدود" لإثبات أنه لا يمكن – عقلا - أن يرى، هي من كلام المعتزلة، وهي التي انتهت بهم إلى نفي رؤيته في الآخرة، فانتبه! وهذا مما يقع فيه بعض الناس دون انتباه إلى عواقبه ولوازمه. يقول قائلهم: إنه لو جاز أن يتناوله البصر في الدنيا، لحد له حدا ولأثبت له أبعادا وامتدادا في الجهات، والله منزه عن ذلك! فإذا قيل له ولكن أنت تثبت رؤيته وإبصاره في الآخرة، قال: نعم، لأن الله حينئذ يبدل الأبصار ويكسبها الحدة والقدرة على إبصار ذاته سبحانه! فنقول له: فهل يصبح الإنسان إذن قادرا على أن يحد لذاته حدا، وأن يثبت له أبعادا وامتدادا في الجهات؟ فإن قال نعم، أبطل الأصل الذي لأجله نفى إمكان وقوع الرؤية في الدنيا، وأثبت ما كان يزعم أن الله منزه عنه، وهذا تناقض! وإن قال لا، اضطر لنفي الرؤية ومنعها في الدنيا والآخرة جميعا كما هو مذهب المعتزلة. والتحقيق وما عليه أهل السنة أن يقال إن الله يجوز عقلا أن يرى بالبصر المخلوق، عند من مكنه الله من ذلك، فإذا رؤي بالبصر الممكَّن (في أصل الخلقة) من رؤيته، كما يكون للمؤمنين في الآخرة، لم يمكن لمن يبصره أن يحيط بدرك ذاته العلية، وإنما يدرك من ذاته ما يشاء العلي القدير أن يكشفه له منها. فيرى، بالضرورة، بعض تلك الذات لا أنه يراها كلها (وهو المقصود بالإحاطة الممنوعة لغة)! فإن أريد بدرك الامتداد أو درك الحد الممنوع دخوله تحت إبصار المخلوق، الإحاطة بذاته سبحانه من الحد إلى الحد، فحق وصحيح ولا إشكال، ولكن إن أريد منه أن المخلوق لا يمكن أن يرى لذات الباري امتدادا في الجهات أصلا ولا يقدر على ذلك، ولا يشعر

فيما يراه أن بعضه يمتد في جهة وبعضه في الجهة الأخرى ، كما هو الواجب عقلا لكل موجود في الأعيان، فهو باطل وهو كلام الجهمية النفاة. فإن كان المصنف هنا يقصد بقوله "ليس محدودا ليقع في مدى الإبصار" أن الآلة البصرية في الإنسان محال أن تحيط بدركه، فترى ذاته كلها، لأنه لا نهائي الامتداد، فهذا غير صحيح، وهو من مذاهب أهل الكلام.

قال الإمام الدارمي رحمه الله في نقضه على المريسي: "ادعى المعارض أيضا أنه ليس لله حد ولا غاية ولا نهاية، وهذا هو الأصل الذي بنى عليه جهم ضلالاته واشتق منها أغلوطاته، وهي كلمة لم يبلغنا أنه سبق جهما إليها أحد من العالمين ... والله تعالى له حد لا يعلمه أحد غيره، ولا يجوز لأحد أن يتوهم لحده في نفسه، ولكن يؤمن بالحد ويكل علم ذلك إلى الله، ولمكانه أيضا حد، وهو على عرشه فوق سماواته فهذان حدان اثنان، وسئل ابن المبارك: بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على العرش، بائن من خلقه، قيل: بحد؟ قال: بحد... فمن ادعى أنه ليس لله حد فقد رد القرآن، وادعى أنه لا شيء، لأن الله حد مكانه في مواضع كثيرة من كتابه فقال: الرحمن على العرش استوى _ أأمنتم من في السماء _ يخافون ربهم من فوقهم _ إني متوفيك ورافعك إلي _ إليه يصعد الكلم الطيب _ فهذا كله وما أشبهه شواهد ودلائل على الحد"

قلت: فالذين قالوا لا حد لذاته إلا من جهة العرش، وهو غير متناه فيما سوى ذلك من الجهات، هؤلاء من المتفلسفة والمتكلمين القائلين على الله بغير

علم! والذين قالوا لا حد له من جهة العرش، هؤلاء مكذبون للقرآن كما ذكر الدارمي رحمه اللّٰه. والذين قالوا: "لا نقول هو متناه أو غير متناه لأنه لا مقدار له أصلا فلا يقبلهما"، هؤلاء نفوا الامتداد في الجهات، لأن المقدار إنما يثبت معناه عندهم لما يكون له امتداد، والامتداد عندهم من جملة الأعراض! واللّٰه تعالى ذاته ممتدة بالضرورة فوق عرشه، فهؤلاء كالذين نفوا الجهة والحد وقالوا لا خارج العالم ولا داخله! والسلف قالوا له حد نعلمه، وهو ما به يبين عن عرشه من تحته، وحد آخر لا يعلمه سواه، هذا ما يقوله السلف ولا يزيدون عليه.

فالسبب في أننا لا نبصره في الدنيا هو أنه سبحانه حجب نفسه العلية عن أن يراها البشر في الدنيا، ولو شاء أن يمكنهم من رؤيتها في الدنيا كما يمكنهم منها في الآخرة لفعل ولما أعجزه ذلك سبحانه. ولكنه اختار لحكمته أن يحتجب ويستتر في الدنيا، كما في قوله تعالى: ((لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)) [الأنعام : ١٠٣]

ثم يعلق المصنف على مسألة أنه ليس من العلم الإيمان بالغيب فيقول: "يقول لنا العلم إنه لهذا لا يعترف به، وإنه ليس من العلم الإيمان بالغيب وإن مجال العلم هو المحسوس، يبدأ من المحسوس وينتهي إلى المحسوس، فنقول للعلم: كذبت. إن نصف العلم الآن أصبح غيبا. العلم يلاحظ ويدون الملاحظات، يلاحظ أن صعود الجبل أشق من النزول منه، وأن رفع حجر على

الظهر أصعب من رفع عصا، وأن الطير إذا مات وقع على الأرض، وأن التفاحة تقع هي الأخرى من شجرتها إلى الأرض، وأن القمر يدور معلقا في السماء. وهي ملاحظات لا تبدو بينها علاقة! ولكن حينما يكتشف نيوتن الجاذبية، ترتبط كل هذه الملاحظات لتصبح شواهد دالة على هذه الجاذبية، وقوع التفاحة من شجرتها وصعوبة تسلق الجبل وصعوبة رفع الحجر، وتعلق القمر في السماء. إنها نظرية فسرت لنا الواقع. ومع ذلك فهذه الجاذبية غيب لا أحد يعرف كنهها. لم ير أحد الأعمدة التي ترفع السماوات بما فيها من نجوم وكواكب. ونيوتن نفسه وهو صاحب النظرية يقول في خطاب إلى صديقه بنتلي: "إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس، تؤثر في مادة أخرى وتجذبها مع أنه لا توجد بينهما أي علاقة" فها هي ذي نظرية علمية نتداولها ونؤمن بها، ونعتبرها علما، وهي غيب في غيب! والإلكترون والموجة اللاسلكية والذرة والنيوترون، لم نر منها شيئا ومع ذلك نؤمن بوجودها اكتفاء بآثارها. ونقيم عليها علوما متخصصة ونبني لها المعامل والمختبرات، وهي غيب في غيب، بالنسبة لحواسنا. والعلم لم يعرف ماهية أي شيء على الإطلاق! ونحن لا نعرف إلا الأسماء! لا نعرف مسميات! نحن نتبادل مصطلحات دون أن نعرف لها كنها. والله حينما علم آدم، علمه الأسماء فقط ولم يعلمه المسميات."

قلت: هذا الكلام طيب كله، إلا أن قوله "الله حينما علم آدم علمه الأسماء فقط ولم يعلمه المسلميات"، هذا غير صحيح. فإن الاسم وجده دون مسمى يشار به إليه، لا قيمة له ولا معنى ولا يكسب صاحبه علما إن عرفه!

لكن على أي حال فتقرير الرجل هنا لحقيقة العلم التجريبي من أضبط من ما قرأت عند كاتب معاصر من بني جلدتنا. يقول: "غاية مطمع العلم أن يتعرف على العلاقات والمقادير. ولكنه لا يستطيع أن يرى جوهر أي شيء أو ماهيته أو كنهه. هو دائما يتعرف على الأشياء من ظواهرها ويتحسسها من خارجها. ومع ذلك فهو يحتضن بنظرياته كل الماهيات ويفترض الفروض ويتصور مسائل هي بالنسبة لأدواته محض غيب وتخمين. نحن في عصر العلم الغيبي، والضرب في متاهات الفروض، وليس للعلم الآن أن يحتج على الغيبيات بعد أن غرق إلى أذنيه في الغيبيات. وأولى بنا أن نؤمن بعالم الغيب، خالقنا البر الكريم، الذي نرى آثاره في كل لمحة عين وكل نبضة قلب وكل سبحة تأمل. هذا أمر أولى بنا من الغرق في الفروض." قلت: صدقت وأصبت، ولكن إذا كانت مباحث الطبيعيين قد أغرقت في الغيبيات المحضة كما عبرت، مع كونها تصر على ادعاء ان دائرة اختصاصها ومجالها محصورة في المحسوس والمعتاد وحسب، وأن الفروض فيها لابد وأن تتولد مما في الحس والعادة لا مما يجاوز ذلك، ألا يدلك ذلك على ضرورة استبعاد كثير من المباحث التي يبحثها الطبائعيون في إطار البحث العلمي التجريبي، من دائرة البحث العلمي المعتبر، وأن ترد عليهم جهودهم فيها من مبدأ الطرح، كمسألة أصل الأنواع، التي تقرهم في كثير من كلامك على أن ما عندهم فيها علم إجمالا، وتقبل فروضهم فيها على أنها فروض مقبولة مبدئيا؟؟ مسألة أصل الأنواع هذه، الافتراض فيها ليس كالافتراض في طبيعة الجاذبية أو طبيعة الكهرباء أو

المغناطيس أو ما شاكل ذلك! الافتراض التفسيري في تلك الظواهر المعتادة في حياتنا اليومية، إذا أطلق على سبيل التشبيه والتمثيل الذي يفيد في بناء نماذج رياضية تعيننا على التنبؤ بتلك الظواهر، فإنه يكون فرضا نافعا مفيدا، ما لم يلتزم الناظر والدارس باعتقاد مطابقة تلك الفروض للواقع، من حيث هي تحقيقات لكُنه وماهية ما في الغيب مما يتسبب في كون تلك الآثار المشهودة على ما هي عليه في عادتنا. أما نشأة الأنواع الحية على غير مثال سابق (كأول طائر بجناحين مثلا، أو أول حوت يسبح في الماء، أو أول نبتة تنبت من الأرض، أو أول زاحف يزحف على بطنه .. إلخ)، فأين وقع ذلك في عادتنا أصلا أو رأينا له نظيرا في يوم من الأيام؟؟ هذا ما وقع أبدا ولا كان! فعلى أي أساس قبلت الفروض التفسيرية الداروينية في ذلك على أنها تفيد العلم ولو على سبيل الظن الضعيف؟؟ هذا من الرجم بالغيب والتألي على الباري سبحانه، ولا يجوز أن يقال إننا نصلح تلك النظرية الدهرية بمجرد أن نقول إن الرب هو الذي يريد ويقضي أن تتطفر الطفرات على نحو مخصوص لينشأ من الأنواع الجديدة ما تنتخبه الطبيعة بإذنه سبحانه! قد أطلنا النفس في نقد نحلة التطور الموجه هذه في كتاب المعيار وغيره، فليراجعها من أراد البسط في هذا الأمر.

رحلته إلى القرمطة والتفلسف على نبوءة المسيح الدجال في السنة

يقول الدكتور تحت عنوان "المسيخ الدجال" [21] : "تروي لنا الأديان حكاية رجل يظهر في آخر الزمان ويأتي من الخوارق والمعجزات بما يفتن الناس من كافة أرجاء الأرض فيسيرون خلفه وقد اعتقدوا أنه إله" قلت: من الأمور التي إذا رأيتها تقع في كلام أحدهم، وجب عليك أن تكون منه على حذر بالغ، أن تسمعه إذا حدث عن أمر ما، أو عن قيمة ما أو خبر غيبي معين، قال: "تروي لنا الأديان"،

---

٢١ وهذا من الأخطاء الشائعة في العوام وأشباههم، يسمونه بالمسيخ الدجال، بالخاء المعجمة الفوقية، والصواب أنه المسيح بالحاء. قال الإمام ابن عبد البر في كتابه "التمهيد :"أما المسيح ابن مريم عليه السلام ففي اشتقاق اسمه فيما ذكر ابن الأنباري لأهل اللغة خمسة أقوال أحدها: أنه قيل له مسيح لسياحته في الأرض، وهو فعيل من مسح الأرض أي من قطعها بالسياحة. والأصل فيه مسيح على وزن مفعل فأسكنت الياء ونقلت حركتها إلى السين لاستثقالهم الكسرة على الياء، وقيل إنما قيل له مسيح لأنه كان ممسوح الرجل ليس لرجله أخمص، والأخمص ما لا يمس الأرض من باطن الرجل، وقيل سمي مسيحا لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن، وقيل سمي مسيحا لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، وقيل المسيح الصديق. وأما المسيح الدجال فإنما قيل له مسيح لمسحه الأرض وقطعه لها، وقيل لأنه ممسوح العين الواحدة، وقد يحتمل أن يكون ممسوح الأخمص أيضاً، والمسيح ابن مريم عليه السلام والمسيح الدجال لفظهما واحد عند أهل العلم وأهل اللغة، وقد كان بعض رواة الحديث يقول في الدجال المسيح بكسر الميم والسين، ومنهم من قال ذلك بالخاء، وذلك كله عند أهل العلم خطأ."

هكذا، أو "هذا مما أقرته جميع الأديان" أو نحو ذلك. فالمسلم صحيح المعتقد لا يحتج لقيمة شرعية معينة أو لواقعة تاريخية معينة أو لحقيقة غيبية ما، إلا بما في نصوص دينه، إذ هو لا يرى صحة ما سواه من الملل والنصوص! نعم قد تحتاج أحيانا إلى أن تشنع على الملحد الذي يستنكر قيمة معينة من القيم المقررة في دينك، بأنها مما أجمع عليه أهل الملل المثبتة للصانع، بل أهل الأرض كافة عدا الملاحدة، (كالمنع من زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، أو من وطء المحارم أو نحو ذلك)، هذا متصور. ولكن أن تبدأ في تقرير مسألة غيبية، بأن تقول: "تروي لنا الأديان حكاية رجل يظهر في آخر الزمان"، ثم تؤسس على ذلك ما تريد أن تقوله بشأن ذلك الرجل، فهذا ليس صنيع من يرفع نصوص دينه فوق نصوص الملل الأخرى ، يرى الحجة قائمة فيها دون غيرها! هذا مسلك من يزعم أنه ينتقد الأديان كلها من خارجها، على طريقة الملاحدة واللادينيين ومن شاكلهم!

يقول: "وتصفه الروايات بأنه أعور، وأنه يملك من القوة الخارقة ما يجعله يرى بهذه العين الواحدة ما يجرى في أقصى الأرض كما يسمى بأذنه ما يتهامس به الناس عبر البحار" قلت: لا عجب أن يكون من بداية كلامه: تروي لنا الأديان، جامعا كل خرافة وكل ما لا ثبوت له بشأن تلك الشخصية التي أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة! أي روايات هذه التي تصفه بأنه يرى ما يجرى في أقصى الأرض بعينه الواحدة، أو يسمع ما يتهامس به الناس عبر البحار كما ذكرت، وفي أي كتاب وجدتها؟؟ ثم إن هذا من خصائص الربوبية،

أن يكون سميعا بكل ما في الأرض في نفس الوقت، بصيرا بكل ما فيها في كل مكان، والله تعالى إنما يجري على يدي ذلك الرجل بعض الخوارق حتى يفتن به الناس، تحقيقا للحكمة والغاية من ابتلائهم به، لا أنه يصيره شريكا له في الربوبية!! سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!!

يقول: "كما يسقط الأمطار بمشيئته فينبت الزرع ويكشف عن الكنوز المخبوءة ويشفي المرضى ويحيي الموتى ويميت الأحياء ويطير بسرعة الريح. ويفتتن به كل من يراه ويسجد له، على أنه الله. على حين يراه المؤمنون على حقيقته ولا تخدعهم معجزاته ويشهدون رسم الكفر على وجهه. ذلك هو المسيخ الدجال، إحدى علامات الساعة التي نقرأ عنها في كتب الدين". قلت: هلا حاولت، ولو من باب الفضول يا رجل، أن تستخرج الروايات التي فيها كل صفة من تلك الصفات، وتبحث هل صحت عند أهل الشأن أم لم تصح؟؟ أبدا!! لم يرد في مصادر المسلمين أنه يشفي المرضى ولا أنه يطير بسرعة الريح!! فأي دين هذا الذي قرأت في كتبه هاتين الصفتين؟؟ تقول تروي لنا "الأديان" حكايته، فمن أي كتب أهل الملل جئت أنت بها؟ المتفلسفة والمفكرون هؤلاء كأن بينهم وبين علم الحديث وأهله جدار من الفولاذ والله، سبحان الله! يا رجل تواضع قليلا، قم من على أريكتك، وانزل من على شاهق الجبل الذي اعتليته هذا، واستشر المختصين في الروايات وأحوال الرواة، لعلك تتعلم ما عليه المسلمون في هذا الباب!! "إحدى علامات الساعة التي نقرأ عنها في كتب

الدين"!! نقرأ عنها في كتب الدين؟؟ من المشار إليهم بهذا الكلام؟ من أنتم ومن هم الفئة الذين تخاطبهم بهذا الكتاب أصلا؟؟

ثم يقول: "والمسيخ الدجال قد ظهر بالفعل كما يقول الكاتب البولندي ليوبولدفايس. وقد أسلم هذا الكاتب وعاش بمكة، وتسمى باسم محمد أسد. وهذا المسيخ الشائه ذو العين الواحدة كما يقول ليوبولدفايس هو التقدم المادي والقوة المادية والترف المادي! معبودات هذا الزمان!!" ثم يمضي على هذا يتأول العين الواحدة على أنها المادة، والعين الثانية المفقودة على أنها الروح، التي تبصر البعد الروحي للحياة، ويتأول ما زعمه من أن المسيح يسمع ما يدور في أقصى الأرض بأنه تكنولوجيا الاتصال اللاسلكي والقمر الصناعي وما شاكل ذلك، وإسقاطه المطر على أنه الوسائل الصناعية العصرية التي تستمطر بها السماء، وطيرانه في السماء بأنه ركوب الناس في الصواريخ، وشفاء المرضى بالطب، وإحياء الموتى بجراحة زرع القلب، وإخراج الكنوز بكشف عروق الذهب في باطن الجبال!! وهذا غاية القرمطة والتحريف والكذب على نصوص المسلمين. فالأمة مجمعة على أن الدجال هذا رجل من بني آدم، يخرج من المشرق، ويفعل ما يفعل، كما جاءت الأحاديث بوصفه! قال الإمام الألباني رحمه الله تعالى معلقا على حديث "الدجال الأعور هجاف أزهر كأن رأسه أصلة"، كما عند ابن حبان، قال: "والحديث صريح في أن الدجال الأكبر من البشر له صفات البشر لاسيما وقد شبه به عبد العز بن قطن وكان من الصحابة، فالحديث من الأدلة الكثيرة على بطلان تأويل بعضهم الدجال بأنه

ليس بشخص وإنما هو رمز للحضارة الأوربية وزخارفها وفتنتها، فالدجال من البشر." قلت: سبحان الله، لكأنه يرد بهذا الكلام على هذا الرجل بعينه، والله المستعان. والحق أن جميع ما جاء من الروايات في ذكره ووصفه يدل دلالة صريحة واضحة على أنه رجل من البشر، قد أجرى الله على يديه الخوارق فتة وابتلاء للناس! لكن الفلاسفة والمفكرون هؤلاء لا يحبون السنة ولا يصبرون عليها ولا يطلبونها أصلا، والله المستعان! الرجل لما أحب أن يحرر لنفسه اعتقادا بشأن المسيح الدجال، لم يطلبه من علماء الملة أصلا، وإنما التمسه عند كاتب بولندي كان نصرانيا وأسلم!! فهل هذا مسلك من يقيم لعلماء الملة وزنا أو يراه مفتقرا لما ورثوه من تراث الأمة وعلومها؟؟ أبدا! هذا مسلك رجل مريض القلب، لم يعجبه كلام العلماء في هذا الشأن، فراح يلتمس غيره عند غيرهم!! نسأل الله السلامة!

ثم إنه بهذا الكلام الفاسد، يقضي بتكفير أهل الأرض كافة من حيث لا يشعر! فهو يتأول ما في الروايات من أن الناس تسجد لذلك الدجال، بأنهم يعبدون المادة في هذا العصر، وأسباب الرفاه والقوة المادية، من دون الله تعالى! يقول: "العالم أصبح مسرحا مجنونا يهرول فيه المجانين في اتجاه واحد نحو القوة المادية. المسيخ الدجال الأعور ذو العين الواحدة، معبود هذا الزمان! لا إله إلا المادة! هذه هي الصلاة اليومية! اختفى الإيمان بالله، واختفى معه الإحساس بالأمن والسكينة والطمأنينة، وأصبحت الصورة الفلسفية للعالم هي غابة يتصارع فيها المخلب والناب. صراع طبقي وصراع عنصري، وصراع

عقائدي، عالم فظيع من الخوف والقتل، ولا أحد في السماء يرعى هذا العالم ويحفظه! إلى هذه الحالة انتهت بنا عبادة الدجال الذي اسمه القوة المادية."
اهـ! قلت: لفظ العبادة هذا يا إخوان، لفظ شرعي دقيق وخطير، لا يجوز استعماله في مقام العبارة الأدبية والتصوير البياني، إن كان هذا ما أراده الرجل!

ثم قال، مقررا فرقانه بين العلم والدين: "ولو أنه (أي الإنسان) فكر قليلا لأدرك أن الكيمياء والطبيعة والكهرباء هي في الواقع علوم جزئية تبحث في الجزئيات والعلاقات والمقادير والكميات، وأن الدين علم كلي يبحث في الكليات، بل هو منتهى العلم لأنه يبحث في البدايات الأولى للأشياء والنهايات المطلقة للأشياء، والغايات النهائية للوجود، والمعنى العام للحياة، والمغزى الكلي للألم! الكيمياء والطبيعة والكهرباء هي العلوم الصغيرة. والدين هو العلم الكبير الذي يشتمل على كل العلوم في باطنه. ولا تعارض بين الدين والعلم، لأن الدين في ذاته منتهى العلم المشتمل بالضرورة على جميع العلوم. والدين ضروري ومطلوب لأنه هو الذي يرسم للعلوم الصغيرة غاياتها وأهدافها ويضع لها وظائفها السليمة في إطار الحياة المثلى. الدين هو الذي يقيم الضمير، والضمير بدوره يختار للطاقة الذرية وظيفة بناءة، ولا يلقي بها دمارا وموتا على الأبرياء, وهو الذي يهيب بنا أن نجعل من الكهرباء وسيلة للإضاءة لا وسيلة للهلاك. والدين هو الذي يدلنا على أن كل العلوم وسائل وليست غايات، كما أن التقدم المادي وسيلة وليس غاية، والأدوات المادية وسائل

هي الأخرى. والمادة ذاتها مخلوقة مثلنا وليست إلها يعبد.. وأنها لا تستطيع أن تمنح الإنسان الأمن والسكينة والسعادة، وأنها من طبيعتها التحلل والفساد والتبدل والتغير شأنها شأن ذلك الكون الناقص. وأنها لا تصلح سندا ولا تشكل قوة حقيقية!" (ص.١٠٠)

قلت: هذا الفرقان بين الدين والعلم يشبه إلى حد بعيد ما سماه ستيفن جاي غولد بدائرتي النفوذ غير المتداخلتين Non-Overlapping magisterial. فإن غولد لما تأمل في بعض المسائل أو القضايا المعرفية، فوجده من غير المتصور أن يتوصل إلى الحكم فيها بشيء من طريق الآلة التجريبية، أي أن توضع فيها فروض ونظريات ثم تصمم التجارب والمراصد لاختبار صحة تلك النظريات، قال إن للعلم (أي التجريبي) دائرة تخصه لا يتجاوزها، وللدين دائرة أيضا لا يتجاوزها، ولا يتداخلان! فما هي دائرة العلم التجريبي؟ قال هي البحث في الواقع على ما هو عليه! واقع الوجود، أي كل ما في الأعيان على الحقيقة. وأما دائرة الدين فهي في القيم والمبادئ والغايات العليا لذلك الوجود، وما ينبغي أن يكون عليه الناس من السلوك والأخلاق. وهذا معناه أنك لا تأخذ المعرفة الصحيحة بشأن الواقع وما فيه، في أي زمان أو مكان، إلا من العلم التجريبي ونظرياته، ولا تأخذ المعرفة بالأخلاق والقيم إلا من الدين. وهذا الكلام في غاية الفساد، لأنه صحيح أن باب القيم والأخلاق والغايات العليا لوجود المخلوقات، كل هذا لا يؤخذ من العلم التجريبي، ولا طريق لطلبه مجملا ومفصلا إلا من الوحي الإلهي، ولكن الوحي الإلهي لا يخلو

من وصف للواقع الخارجي على ما هو عليه، وعلى ما كان عليه في الماضي، وما يكون عليه في المستقبل! وقضايا الغيب المطلق، المعرفة فيها بالموجودات المتعينة خارج الذهن لا تطلب أصلا إلا من طريق السمع! ولكن لأن الفلاسفة تربوا على أن كل ما في الأعيان هو موضوع لنظرهم وقياسهم الميتافيزيقي، ولا يعزب موجود في الخارج عن أن تطاله نظرياتهم وفروضهم وأقيستهم بوجه ما، تفسيرا وتكييفا وتحقيقا، صار هؤلاء لا يرون طلبا للمعرفة المعتبرة بما في الوجود إلا من بضاعتهم! فكيف التصرف مع نصوص الدين إذن؟ قال بعضهم نسقطها بالكلية ولا نرفع بها رأسا، فإنما هي أساطير الأولين، وخرافات الأقدمين، ولا ثبوت من طريقنا لوجود ذلك الرب الذي يفترض أنه أوحى بها لبعض الناس كما يزعمون! وقال بعضهم الآخر، ممن هو أجبن من أن يصرح بالدهرية التامة كما صرح هؤلاء، قال: بل نثبته ولكن لا نجيز له من طريقنا أن يكون صاحب علم وإرادة وكلام ووحي وتكليف للخلق وكذا! وقال آخرون: بل هو صاحب وحي وإرادة، ولكنه لا يخبرنا عن الواقع الخارجي وعما هو خفي علينا من العالم إلا على سبيل المجاز والرمز والإشارة Parable / Metaphor لا غير! فما في نصوص الدين من خبر مجمل أو مفصل بشأن الكون وكيف نشأ وكيف انتهى إلى صورته التي نعرفها، وما يكون من شأنه في المستقبل، وما يوجد فيما وراء النطاق المحسوس المعتاد منه، كل هذا لا يؤخذ من تلك النصوص على سبيل الخبر المطابق للواقع! لا، وإنما ينزل منزلة "حكايات جدتي"، فتؤخذ منه العبرة والعظة فقط، ولكن لا يقال بمطابقته

للواقع! الجنة رمز لحالة السعادة والهناء الذي يشعر به الإنسان إن حسن خلقه وسيرته في الدنيا، والنار والعذاب رمز لما يعانيه الناس من عكس ذلك، والخلق في ستة أيام كناية عن بلايين السنين من التطور البطيء الرتيب في نشأة الكون وما فيه، والاستواء على العرش رمز عن علو منزلة الدين من حيث هو معرفة كلية بالغايات والمقاصد والقيم البشرية، والوحي للرسل إنما هو رمز عن سمو نفوس هؤلاء ومجاوزتها القنطرة في الوعي العقلي ودرك ما هنالك، كما يبصر الفلاسفة بعقولهم الفائقة، المتجاوزة لقدرات العامة والجماهير، حقائق الموجودات في الأعيان على ما هي عليه، والمسيح الدجال ليس إلا رمزا للتكنولوجيا العصرية والثقافة المادية الطاغية، وهكذا! هذا المسلك الدهري القبيح هو مسلك غولد وطريقته، فيما يتعلق بخبر الغيب في نصوص الدين الذي كان في أول أمره ينتسب إليه، ثم انسلخ منه، كما وقع لأستاذه داروين! ولهذا قال ما حاصله: أنا أسلّم لكم يا رجال الكنيسة بأن آلة العلم لا تتناول جانب القيم والأخلاق والمثل العليا وهذه الأشياء، هذا حق لا أماري فيه، لكن المعرفة بما في الوجود، زمانا ومكانا، مما لا يتناوله نقل الخبر التاريخي فيما تتابعت عليه أجيال البشر، هذه لا تؤخذ إلا من عندنا، ولا يعتبر فيها إلا بآلتنا، وأنتم جميعا عيال علينا فيها.

وهذا هو حاصل كلام الدكتور هنا للأسف! مع أنه قد مر في كلامه تشخيص جيد جدا لطبيعة النظريات العلمية، كما نقلناه وعلقنا عليه، وبيان أن منها ما يقتحم الغيب بفرضياته، ولا يعترض الطبيعيون على ذلك بمجرد أن الفرض

غيبي صرف! بل إنهم قد بلغوا اليوم، بعد نظريات الجاذبية الكمومية وما شاكلها، أن يجيزوا من الفروض الأنطولوجية ما لا يرجى، على عقيدتهم هم في حدود القدرة البشرية على الكشف والاستكشاف والرصد والمشاهدة، التوصل إلى إثباته أو نفيه من طريق الحس أصلا يوما ما! ولكنه لم يقرر ذلك حيث قرره طلبا في تحديد نطاق العلم التجريبي الصحيح والمقبول عقلا وشرعا ومطالبة الأكاديمية الغربية بالتزامه في جميع مباحثها، لا، وإنما قرره طلبا في استرضاء القوم عن عقائدنا الغيبية معاشر المسلمين، وألا يسفهونا لأجلها!

قوله: "الكيمياء والطبيعة والكهرباء هي في الواقع علوم جزئية تبحث في الجزئيات والعلاقات والمقادير والكميات، وأن الدين علم كلي يبحث في الكليات" قلت: هذا التفريق بين الكلي والجزئي باطل فاسد بلا أدنى شك، لأنه كما أن في نصوص الوحيين تقريرا (وليس "بحثا"!!) للكليات المتعلقة بالقيم والغايات، كما في قوله: "البدايات الأولى للأشياء والنهايات المطلقة للأشياء، والغايات النهائية للوجود، والمعنى العام للحياة، والمغزى الكلي للألم"، ففيه كذلك تفصيل دقيق موسع للجزئيات والفرعيات في نفس هذه الأمور. ثم إن فيه كذلك ذكرا لأمور تدخل فيما عبر عنه بقوله: "العلاقات والمقادير والكميات"، فيما جاء من الخبر الغيبي المفصل! والعلم التجريبي، على ما هو عليه اليوم في الجامعات المتخصصة، وعند أصحاب النشر والتصنيف المحكّم من أصحابه، فيه ما هو جزئي تفصيلي وما هو كلي مجمل، وعندهم تنظير وتأليف وكلام في "البدايات الأولى للأشياء ونهاياتها المطلقة" أيضا! فعندما

يقال خذوا الكلي المجمل من الدين، وخذوا الجزئي المفصل من "العلم"، من الكيمياء والفيزياء وما شاكلهما، فهذا، على هذا الإجمال، يفضي إلى طريقة هي أفسد حتى من طريقة غولد التي سبق أن وصفناها بإيجاز فيما مر، والله المستعان. نحن نقول من أراد أن يضبط العلاقة بين "العلم التجريبي" وبين الدين، فعليه أن يقرر ذلك على اعتبارين: على اعتبار الخبر الغيبي، وعلى اعتبار التكليف القيمي والأخلاقي. فأما فيما يتعلق بما في الغيب المطلق، وجوديا، زمانا ومكانا [٢٢]، فهو مما لا مجال فيه للتجريبيات أصلا، من مبدأ الأمر، وليس لأصحابها أن يخوضوا فيه بوجه ما، وإن رغمت أنوف الفلاسفة! فمن جانب التكليف القيمي والأخلاقي، فالدين يمنعهم من هذا قطعا، لأن الله تعالى لا يجيز لإنسان أن يتألى عليه أو يكذب عليه، يتكلم فيما لم يؤت فيه سلطانا من طريقه، رجما بالغيب ورميا في عماية، يتجاوز حدود الحس والعادة والعقل البشري معا! هذا وغيره من الضوابط القيمية والأخلاقية والسلوكية في ممارسة تلك الصنعة، صنعة النظر التجريبي (بداية من حكم طرح المسألة المعينة للبحث والنظر ابتداء)، هم مضطرون فيه جميعا للخضوع لما عند علماء الدين من استنباط للأحكام الإلهية في ذلك، لأنه لا مصدر للمعرفة

---

[٢٢] كمسألة نشأة الكون ونشأة الأنواع الحية ونشأة الجبال والقارات والبيئة الأرضية كما نعرفها، ومسألة ما وراء السماء المشاهدة وما وراء النجوم وما تحت طبقات الأرض التي بلغناها بآلاتنا، وما كان في القرون الأولى مما لا يتناوله الخبر التاريخي المدون، على ما أطلنا النفس في تفصيله في كتاب "معيار النظر" وفي سلسلة محاضرات "بيان منهج أهل السنة في التجريبيات" على قناة إقناع.

يعلو علوم الدين الحق في ذلك عند بني آدم! هذا هو ضابط أهل السنة بإيجاز شديد، للعلاقة بين العلم التجريبي والدين! الدين يعرف له حدوده ونطاقه ومجاله الذي ليس له أن يتجاوزه، ويوجهه إلى المقاصد المقبولة نوعا، ويحجزه عن المطالب والمباحث المذمومة، ويمنعه من التطاول على ما جاءت به الرسل. أما أن يقال: الدين جاء بالكليات والغايات العليا والبدايات المطلقة والنهايات المطلقة التي لا يقدر العلم الطبيعي على الإفادة فيها بشيء، ويكون هذا هو غاية ما عندنا من تقرير حدود صنعة العلم التجريبي، وسلطان العلوم الدينية عليها، فهذا من أفسد ما يكون!

والواقع أن كل مفتون بالأكاديمية الفلسفية المعظمة في عصره، لن تراه إلا مضطرا لتضييق نطاق السلطان المعرفي للدين ولعلمائه على تلك الأكاديمية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، أي ما دام يرى أن المسلمين من حوله لن يتعرضوا له بالأذى على أثر ذلك التضييق. وإذا عورض أو خولف في ذلك، قيل له كما قال الغزالي في بعض كتبه: أتريدون أن تجعلوا للملحدين على المؤمنين سبيلا؟ لا تكذبوا العلوم الصحيحة، لصالح الدين، فيرتد الناس عند دينهم بسبب ما تقولون!! وهذا حق، وبه نقول، فيما هو من العلوم الصحيحة حقا! ولكن هؤلاء لا يريدون صداما ولا مفاصلة مع الأكاديمية المعاصرة لهم، على مستوى المنهج والطريقة، لأنهم يريدون إحراز الدرجة والمنزلة فيها لأنفسهم، مما لا يحصل لهم إلا بإقرار ذلك المنهج وتلك الطريقة! هذا هو محرك عامة من تكلموا في مسألة الفرقان بين الدين والعلم والعلاقة بينهما

في هذا الزمان، ما بين مستقل منه ومستكثر، إلا في القليل النادر جدا. لماذا؟ لأنه غالبا يكون طامعا في تعظيمهم إياه وفي اعترافهم به على أنه من المقدمين عندهم، المستحقين لاسم العقل والعلم كما هو عندهم! هذه سنة مطردة لا نعجب منها ولا نستغربها البتة! وقد تعاظمت في القرون الأخيرة فوق ما كانت عليه في القرون السابقة، لانحسار سلطان المسلمين وبأسهم العسكري في الأرض، وتمكن العلوج الأوروبيين من غزوهم وإظهار العلو والتفوق عليهم في آلة الحرب والقتال أولا، ثم فيما سواها من الآلات والصناعات. فانضاف في القرون الأخيرة إلى الهزيمة النفسية الموروثة عبر قرون الخلف، فيما يتعلق بالفكر والإبداع العلمي النظري، هزائم أخرى متعلقة بالسلطان والعلو الصناعي والقهر العسكري والتفوق الحضاري المادي، فأصبحت الهزيمة اليوم هزيمتان، بل هزائم شتى، في نفوس المفتونين والمرضى، نسأل الله السلامة.

يقول: "وأنت تجد في الشرق أحد اثنين: من يرفض العلم اكتفاء بالدين والقرآن، وتجد من يرفض الدين اكتفاء وعبادة للعلم المادي والوسائل المادية، وكلا الاثنين سبب من أسباب النكبة الحضارية في المنطقة، وكلاهما لم يفهم المعنى الحقيقي للدين ولا المعنى الحقيقي للعلم." قلت: نعم يوجد قطعا من يكتفي بالعلم الطبيعي ولا يرفع بالدين رأسا البتة! وأنت نفسك كنت كذلك في أول أمرك! لكن أين هؤلاء الذين يقولون نكتفي بالقرآن والدين فقط، ونرفض العلم (التجريبي) بالكلية؟؟ من هؤلاء وأين ومتى وجدوا في تاريخ

المسلمين؟؟ لا والله لا وجود لهم إلا في وهم الدكتور، وفي أوهام بعض المفتونين! نعم قد يتكلم بعض الجهال بما يقتضي رد العلم الطبيعي كله من أوله إلى آخره، وألا ينتفع الناس منه بشيء البتة، ولكن أن يصرح طائفة من المنتسبين إلى أهل القبلة، بأنهم يرفضون "العلم التجريبي"، هكذا، رفضا تاما، فهذا لا يوجد ولم يوجد أبدا فيما أزعم! بل ولم يوجد حتى عند أهل الكتاب! لكن الرجل يريد أن يظهر أنه يتوسط بكلامه بين طرفين، فسمى الطرف الأول، وهو موجود فعلا، واخترع الثاني من رأسه!

يقول: "والدين، والإسلام خاصة، يعتبر العلم فريضة، ويقول نبينا إن من مات مهاجرا في سبيل العلم فقد مات شهيدا، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن علينا أن نطلب العلم ولو في الصين، وأول كلمة نزلت في القرآن هي "اقرأ"." قلت كل هذا الكلام ما زلنا نسمعه آناء الليل وأطراف من العقلانيين والمتفلسفة أمثال هذا الرجل، يقصدون به العلم المادي الدنيوي، مع أنه إنما يراد به في الإسلام، العلم الشرعي! وإلا فهل تعلم الكيمياء والفيزياء والفلك فرض عين على كل مسلم عندك يا دكتور مصطفى، تنسب ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم؟؟ من مات في سبيل علم الرياضيات أو الهندسة، مات في سبيل الله عندك؟؟ علماء الإحصاء هم ورثة الأنبياء عندك؟؟ كل مسلم مكلف عندك، بطلب علم الميكانيكا ولو في الصين؟؟ سبحان الله! هكذا هم في كل عصر! يخترعون دينا على هوى الأكاديمية طمعا في استرضاء الفلاسفة الكبار في زمانهم، والله المستعان!! هذا كله في العلم الديني يا رجل! فيما لو مات

الإنسان وهو جاهل به، مات ميتة جاهلية، ولربما لقي ربه على غير سبيل النجاة الذي جاءت به الرسل في الناس، نسأل الله السلامة!! جميع النصوص الصريحة الواردة في الكتاب وفي السنة في الترغيب في العلم والحث عليه إنما هي في العلم الشرعي، وهذا بإجماع من يؤخذ عنهم العلم في دين الله تعالى! أما العلوم الدنيوية النافعة، فحكم كل علم منها إنما يؤخذ من كليات الشريعة وقواعدها، كل علم بحسبه، بل كل موضوع من موضوعات تلك العلوم بحسبه، لا من تلك النصوص! أول كلمة نزلت في القرآن هي إقرأ لأن أول ما يجب على المسلم أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وأن يعلم عنه ما جاء به الوحي، سبحانه، وليس لأن أول ما يجب عليه أن يتعلم الفلسفة والكلام كما زعمه المتكلمون!

ومن جديد يرجع ليعبر عن وحدة الوجود التي طغت على فكره وشعوره، فيقول (ص. ١٠٢): "واستهداف الحركات والأفكار لهدف واحد هو الخالق الذي خلق حيث لا موجود بحق إلا هو، وحيث كل شيء منه وإليه" قلت: قوله "خلق حيث لا موجود بحق إلا هو"، إن كان يقصد بها أنه خلق العالم بعد أن لم يكن في الوجود شيء غيره، فليست تقريرا لوحدة الوجود على هذا الوجه، ولكن قد مر أن الرجل للأسف قد انحدر إلى ذلك المنزلق فعلا، والله المستعان.

يقول (ص. ١٠٣): "كل ما يريده الإسلام هو أن يحقق الاقتران الناجح والتزاوج الناجح بين المادة والروح لتقوم مدنية جديدة هي مدنية القوة والرحمة، حيث

لا تكون القوة المادية مسخا معبودا وإنما تكون أداة ووسيلة في يد القلب الرحيم، وبذلك يتم تحطيم المسيخ الدجال، وتقوم دولة الإنسان الكامل"! قلت: كل ما يريده الإسلام، هو أن تقوم مدنية جديدة لا تكون فيها القوة المادية هي المسيخ الدجال؟؟ أين تعلمت دينك يا رجل، ومن أين جئت بهذا الكلام؟؟ القوم كأن كل واحد منهم يوحى إليه إسلامه الخاص، فلا يحتاج إلى الرسول ولا إلى أصحابه ولا إلى تلامذتهم ومن تتلمذ عليهم عبر القرون إلى يومنا هذا! لا يحتاج لأحد! أفتح المصحف وأنا مضطجع على أريكتي، ثم أقول: اللّٰه يريد كذا والإسلام يريد كذا، وحقيقة الدين هي كذا وكذا، ومن يعترض علي أتهمه بالجهل والغباء والتخلف، إذ ليس في الدنيا علم بالدين ليطلب فوق هذا الذي عندي!! كل واحد من هؤلاء المتفلسفة من أجل أن يعظم نفسه ويعظم عقله ويرفع من قدر نفسه بين أتباعه، ويحمل الناس حملا على متابعته، يجد نفسه مضطرا لأن يعظم من قدر بدعته التي بدعها في دين اللّٰه تعالى، حتى تصبح هي عمود الدين ولبه وجوهره، الذي لا يعرف الإسلام حقا من لم يعرفه ولم يقل به كما يقول! كل ما يريده الإسلام هو هذا الذي ادعيته أنا بفلسفتي! الإسلام مداره على كذا وكذا مما بدعت أنا في رأسي! الغاية العليا من الدين هي أن يكون الناس جميعا على الأيديولوجيا التي ألصقتها أنا به في فلسفتي، كما تجده عند عامة المتمركسة من أهل القبلة! إنما بعث الرسول لإقامة دولة الإنسان الكامل في الأرض! أو كما يقول متمركسة أهل القبلة: إقامة دولة "العدالة الاجتماعية" في العالم، هذا هو لب الإسلام وكل ما يريده الإسلام!

وكأن الإسلام هذا "وكالة من غير بواب" كما يقال، أو كلأ لا صاحب له ولا قائم عليه، وليس له علماء في الأرض أفنوا أعمارهم في تعلمه وتعليمه كما ورثته الأمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! نعوذ بالله من الكبر الخفي في تلك القلوب!!

في لقاء تلفزيوني أجراه معه أحد المذيعين في قناة "إقرأ" الإخوانية، زعم الدكتور مصطفى محمود أن حديث فقأ موسى عين ملك الموت عليهما السلام الذي خرجه الشيخان وغيرهما، مناقض للقرآن! ثم لما قرأ الحديث من ذاكرته قال: "لما جاء ملك الموت إلى سيدنا موسى، رفض موسى أن يموت، ده كلام البخارى، وضرب الملك على عينه، وفقأ عينه.." قلت: فأين قال البخارى هذا الكلام الذي زعمت أنه كلامه؟ أين قال البخارى أو غيره في أي رواية من روايات الحديث في كتب السنة إن موسى "رفض أن يموت"؟! لا يكتفي الدكتور بتكلف ما يتكلفه أمثاله من قرمطة على الكتاب والسنة وتأويل باطني وتخريف في فهم النصوص، بل ويكذب على الأئمة ويقوّلهم ما لم يقولوه لينصر موقفه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وأغلب الظن عندي أنه لم يقف يوما على متن الحديث كما هو في صحيح البخارى، ولو كان فعل، ولو لم يكن في قلبه من الكبر ما يعاني منه أمثاله، لاعتنى - على الأقل - بأن يأتي بالنص كما هو في صحيح البخارى قبل أن ينقده، ولو كان فيه من التقوى ما يجب أن يكون في كل مسلم ينظر في أمهات مصادر تلقي الشريعة والدين عند المسلمين، لاعتنى بأن يبحث عن كلام الأئمة الشراح وأئمة السنة في تفسير الحديث وبيان وجه فعلة موسى عليه السلام التي اعترض عليها

الدكتور بكل حزم وزعم أنها تناقض القرآن، ولقرأ جوابهم المأثور عن نفس تلك الشبهة الجهمية المتهافتة التي سبقه إليها أمثاله ونظراؤه في القرون السالفة! لكن واقع الأمر أيها القارئ الكريم أن شأن الحديث والسنة عند هؤلاء أهون من أن يتكلف أحدهم هذا الجهد في فهمها، ولا حول ولا قوة إلا بالله! نريد أن نفاصل ونبارز علماء الدين المعظمين في البلاد، من غير حتى أن نبالي بفتح كتب الدين لننظر ما فيها!! وهل يحتاج الفيلسوف الكبير لأن يفتح كتابا موروثا أو ينظر في علم موروث؟؟ هو في عين نفسه يزن برأسه وعقله قرون المسلمين كلها، بل ويربو في الميزان، والله المستعان!

إذا كان الرجل لا يبالي أن ينظر في كتب أهل التفسير عند تأويل كلام الله جل وعلا، أفيعظم عليه أن ينتقي من السنة بهواه؟ والظاهر أن الدكتور سمع في مكان ما (ولعله في خطبة من خطب الجمعة!) أن الإمام البخاري رحمه الله انتقى في صحيحه أربعة آلاف حديثا من ستمائة ألف حديث، فظن المسكين أن له ولأمثاله أن يردوا من نصوص السنة ما لا يعجبهم كما ترك الإمام البخاري ما ترك! فهل سمع الدكتور بشيء يقال له "علم الحديث"؟ هل سمع عن علوم الآلة وعلوم المصطلح وعلوم الرجال وغير ذلك مما تنقضي فيه أعمار الجهابذة وتشيب فيه لحاهم، حتى يبلغ الواحد منهم أن يجتهد في القبول والرد والتصحيح والتضعيف؟ أبدا والله! لا نحسبه سمع بهذه العلوم أصلا، فضلا عن أن يكون له اطلاع عليها، فضلا عن أن يلم بشيء منها إلمام الطالب المبتدئ!

فأي جرأة هذه على دين الله وعلى أئمة المسلمين؟ صدق الله رب العالمين إذ قال: ((إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [غافر : ٥٦]، نعوذ بالله من كبر هؤلاء، ونسأل الله العافية!

والحمد لله في البدء والمنتهى، والله المستعان لا رب سواه.

موضوعات الكتاب